

كل التاريخ

ISSN: 2090 - 0449

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الاداء

أول هوية عربية الكرونية معكمة ربع سنوية

مفصلة في البحوث والدراسات التاريخية

تأسست مرة واحدة لأول 1429 هـ

صدر العدد الأول سبتمبر 2008 م

www.kanhistorique.org



موضوع العدد

التاريخ القديم والآثار

بهاء الدين ماجه

مدير إدارة الخرائط "السابق"
دار الكتب والوثائق القومية المصرية

دورية كان التاريخية

تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء صفحات الدورية بالموضوعات التاريخية.

ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والباحثين ، والكتاب المتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب ، وأصحاب الدراسات العليا ، والباحثين في الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة ، والمهتمين بالقراءات التاريخية.

الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبها ، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية ، أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمل دورية كان التاريخية أية مسؤولية عن الموضوعات التي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين ، أو تنتهك حقوق الملكية ، أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

الإبنتاع القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي ، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

أعداد الدورية متوفرة عبر:

دار ناشري للنشر الإلكتروني — الكويت
أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية
تأسست يوليو ٢٠٠٣

www.nashiri.net

أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية (سان فرانسيسكو)

www.archive.org



أ.م. عبده العزيز غورمو

أستاذ باحث وإطار في الإدارة التربوية
أكاديمية الجهة الشرقية — المملكة المغربية

أ.م. عائشة عبده العال

أستاذ الحضارة والآثار القديمة
رئيس قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس — جمهورية مصر العربية

أ.م. فليط مصطفى فرايعة

أستاذ الجغرافيا التاريخية السياسية
نائب عميد كلية عجلون الجامعية
جامعة البلقاء التطبيقية — المملكة الأردنية الهاشمية

أ.م. نهلة انيس مصطفى

أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية الدراسات الإنسانية
جامعة الأزهر — جمهورية مصر العربية

أ.م. خالو بلعربي

أستاذ التاريخ الوسيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الجبالي ليبيا — الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

أ.م. فتحي عبده العزيز محمو

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الباحة — المملكة العربية السعودية (سابقاً)

أ.م. بشار محمو فليط

كاتب وباحث في تاريخ العالم العربي
خبير دراسات حضارة المشرق العربي القديم
الجمهورية العربية السورية

أ.م. عبده الرحمن محمو الحسن

أستاذ الجغرافيا وعميد الشؤون العلمية
جامعة بخت الرضا — جمهورية السودان

أ.د. محمد عبد الرحمن يونس

كاتب وباحث وقاص وروائي وأستاذ جامعي
عضو هيئة التدريس في عدة جامعات عربية ودولية
الجمهورية العربية السورية

أ.د. ناظم رشم معتوق الإمارة

أستاذ مساعد التاريخ المعاصر
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة البصرة - جمهورية العراق

أ.د. محمود أحمد فرويش

أستاذ الآثار الإسلامية
رئيس مجلس إدارة مركز البحوث والدراسات الأثرية
جامعة المنيا - جمهورية مصر العربية

أ.د. علي حسين الشطشاط

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة بنغازي - دولة ليبيا

أ.د. عبد الناصر محمد حسن يس

أستاذ الآثار الإسلامية
كلية الآداب
جامعة سوهاج - جمهورية مصر العربية

أ.د. طارق محمد عبد الله الرهوي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
نائب عميد كلية الآداب
جامعة إب - الجمهورية اليمنية

د. أنور محمود زناتي

أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية التربية
جامعة عين شمس - جمهورية مصر العربية

د. أشرف صالح محمد

أستاذ باحث في تاريخ وتراث العصور الوسطى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة ابن رشد - هولندا

إسراء عبد ربه

إيمان محي الدين

محمد عبد ربه

الترقيم الدولي المعياري للدورية

كان التاريخية مسجلة وفق النظام العالمي لمعلومات الدوريات ،
وحاصلة على الترقيم الدولي المعياري الموحد للدوريات:

ISSN: 2090 – 0449 Online

الراعي الرسمي

سلسلة المؤرخ الصغير ، هي سلسلة
كتب علمية تاريخية ، تهدف إلى توفير
المعلومة العلمية حول الموضوعات
التاريخية التي تهتم بالباحثين ، بأسلوب
أكاديمي موثق يتوافق مع متطلبات
البحث العلمي . وتستهدف السلسلة
الطلاب والباحثين لإرشادهم في طريق
البحث العلمي ، والإعلامي والمعلم
والمثقف العربي لمساعدتهم على نشر
الوعي التاريخي.



علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية
ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص
المشترك ، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها
الدورية ، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن
العربي.

النشر الورقي

- ① يحق للكاتب إعادة نشر المقال (البحث) بصورة ورقية
أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير .
- ② يحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات
غير ربحية دون الرجوع للكاتب.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر
باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

موقع الدورية على شبكة الإنترنت

لمزيد من التواصل بإمكانك مطالعة الدورية والأرشيف بالكامل على
الموقع الإلكتروني بالإضافة إلى مزيد من التفاعل .. **نحن بانتظاركم**



www.kanhistorique.org

www.historicalkan.co.nr

جميع الحقوق محفوظة © دورية كان التاريخية ٢٠٠٨ - ٢٠١٥

دَوْرِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ

علمية عالمية مُحَكَّمَةٌ ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَوْرِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة التَّارِيخِ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجَدَّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَوْرِيَّةُ كَانِ التَّارِيخِيَّةِ إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

■ تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.

■ تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.

■ يكفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.

■ يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتتفق وفق المعيار (IEEE) لتنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.

■ تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

■ يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريعًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوءها يتم تقويم العمل العلمي.

■ يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه،

ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.

■ البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.

■ تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.

■ في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.

■ تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

البحوث والدراسات العلمية

■ تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

■ تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

■ يجب أن يتسم البحث العلمي بالجودة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

■ المقدمة:

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة.

■ موضوع البحث:

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سليمة واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيداً عن الحشو (تكرار السرد).

■ الجداول والأشكال:

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

■ الصور التوضيحية:

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution).

■ خاتمة (خلاصة):

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

■ الهوامش:

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط "APA Style" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية (American Psychological Association)، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

■ التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

■ اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

■ إرشادات المؤلفين (الاشتراطات الشكلية والمنهجية)

ينبغي ألا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالمياً بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

■ عنوان البحث:

يجب أن لا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيسي.

■ نبذة عن المؤلف (المؤلفين):

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسية لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

■ صورة شخصية:

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

■ ملخص البحث:

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (١٠٠ - ١٥٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

■ الكلمات المفتاحية:

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواءم مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

■ مجال البحث:

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Microsoft Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.
- المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).
- ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسؤولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأي كاتبها وعلى مسؤوليته هو وحده ولا تعبر عن رأي أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسؤولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أجاز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عما تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهاماً معنوياً من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دورية كان التاريخية أربع مرات في السنة: (مارس - يونيو - سبتمبر - ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسل الأعداد الجديدة إلى كُتّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، والشبكات الاجتماعية.

المراسلات

- تُرسل الاستفسارات والاقتراحات إلى البريد الإلكتروني: info@kanhistorique.org
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير: mr.ashraf.salih@gmail.com

المراجع:

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقاً للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ... الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصاً وافياً لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف / المحقق / المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروعه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر / ورشة عمل / سيمينار) مركزاً على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

9	الكهف بين الحياة والموت في عصور ما قبل التاريخ د. زينب عبد التواب رياض • جامعة أسوان — مصر
19	الأجور والمزبقات في مصر القديمة حتى نهاية الدولة الحديثة محمود أحمد محمد حجر • جامعة دمهور — مصر
27	المدافن الملكية في العراق القديم: المدافن المكتشفة في مدينة أور أنموذج (٢٨٠٠ - ٢٠٠٤ ق.م) د. محمود فارس عثمان الوردى • جامعة تكريت — العراق
35	الشرق الأدنى القديم تحت حكم الإسكندر المقدوني (٣٣٤ - ٣٢٣ ق.م) د. أسامة عدنان يحيى • الجامعة المستنصرية — العراق
52	الملك مكوسن من خلال النقوش الأثرية (١٤٨ - ١١٨ ق.م) تيفرمين المجيد • الجمعية الثقافية ثاموغي — الجزائر
60	عبادة الإله آمون والإلهة تانيت في بلاد المغرب القديم: بين الأصل المحلي والاحتواء الأجنبي الصالح بن سالم • جامعة الأمير عبد القادر — الجزائر
65	المستعمرة الرومانية كولونيا يوليا زليس هشام الغرابوي • باحث دكتوراه في الأركيولوجية الكلاسيكية — المغرب
71	المحتوى التاريخي للنقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية د. بعميش عبد الحميد • جامعة الحاج لخضر — الجزائر
79	التعاقبات الحضارية والخصائص المعمارية في مدينة تيديس الأثرية بوعوبيرة نبيل • جامعة عبد الحميد مهري — الجزائر
87	إشكالية صناعة الأمفورات في شبه الجزيرة الطنجية خلال الفترة الرومانية بوعزة بن مسعود بوعزة • جامعة عبد الملك السعدي — المغرب
92	نماذج من التماثيل المحفوظة في متحف شرشال - الجزائر: دراسة وصفية بلقاسم عماح • جامعة معسكر — الجزائر
98	نقوش عربية شمالية من البادية الأردنية: موقع تلة المعن نموذجاً عبد القادر محمود عبد القادر الحصان ، زياد عبد الله العلي طلاحفة • مديرية آثار محافظة المفرق — الأردن
113	الشعارات المذهبية على النقود الإسلامية: سكة الدولة الفاطمية نموذجاً عز الدين حضري • المتحف الوطني للآثار القديمة — الجزائر
126	الناغورة والسّانية في المغرب: تساؤلات وملاحظات سمير آيت أومغار • جمعية مراكش للذاكرة والتاريخ — المغرب
142	الاتجاهات الحديثة في علم الآثار: التجربة الفرنسية في علم الآثار الوقائي أنموذجاً وتبعاتها على الجزائر عبد الكريم خزاوي • جامعة أبي بكر بلقايد — الجزائر
150	المخطوط العربي: آليات الحفظ الحديثة بين الواقع والأفاق عمر بن عراج • جامعة جيلالي اليابس — الجزائر
156	تقارير: سبل حماية الموروث الثقافي والحضاري في الوطن العربي عمر جسام العزاوي • جامعة الموصل — العراق
159	تقارير: المعرض المؤقت "التحف المسترجعة" المتحف العمومي الوطني للآثار القديمة عز الدين حضري • المتحف الوطني للآثار القديمة — الجزائر
167	ملف العدد: المخطوطات الأدبية الإسلامية في شبه القارة الهندية خلال العصر المغولي (١٥٢٦ - ١٨٥٧ م) د. تامر محي الدين محمد مندور • وزارة الآثار — مصر

182

Individualism And Cultural Identity In The Ancient Egyptian Literature

Abdelbaset Riad Mohamed Riad • Oviedo University — Spain

بين التاريخ والآثار

رضوى زكي

الآثار والتاريخ علمان متضامنان، بل يمكن القول بأنه ما من ترابط بين علم وعلم يعدل تلك العلاقة القوية القائمة بين الآثار والتاريخ، إنهما الوجهان لقطعة عملة واحدة فكلاهما يكمل الآخر ومن ثمَّ لا غني لأحدهما عن الآخر، فالتاريخ إنسان ومادة وحدث، فإن لم نعرف صانع المادة ومنجز الحدث لن يكن لدينا تاريخ.



إن علم الآثار بطبيعته هو علم تحليلي اعتبر في السابق علمًا مساعدًا للعلوم الأخرى كالتاريخ والجغرافيا والعلوم التوراتية والفلسفة، إلا أنه وفي أواخر القرن التاسع عشر وامتدادًا إلى القرن العشرين أصبح علمًا ذا استقلالية له أدوات ومناهجه الخاصة، والتي تجمع في بعض الأحيان بعض الأدوات المنتقاة من العلوم الإنسانية الطبيعية والهندسة والتخطيط، لترسم بواسطة ذلك كله صورة الحياة الاجتماعية التي تعكسها تلك البصمات الصامتة؛ وكذلك يجمع في جنباته العلوم الأدبية، كالتاريخ، خصوصًا دراسة الفترات المتأخرة التي استعمل فيها التأريخ والتدوين، والعلوم الاجتماعية أيضًا كالفلسفة وعلم الاجتماع، معتمدًا على هذه العلوم كأدوات مساعدة.

ومن المعلوم أن أهم خصال التاريخ الموضوعي، هو أنه عرضة لأن تعاد كتابته عند كل اكتشاف حاسم، فالمكتشفات الأثرية التي تمت خلال المائة سنة الماضية تتطلب منا إعادة كتابة التاريخ بحيث تُستوعب الوقائع المستجدة وتُدرج في سياقها المعقول. فالآثار التي تركها الإنسان هي المصدر الحقيقي لاستقراء تاريخه، فإغفال الأثر المادي يقود إلى طمس أجزاء كبيرة من التاريخ.

وانطلاقًا من أن الوثائق هي مفتاح الماضي، فقد اعتبرت من أهم المصادر التي يعتمد عليها في تدوين التاريخ، وفي مجال الدراسات الأثرية كان بناء الدراسات الوصفية المستندة على الوثيقة مرحلة مفصلية ضرورية للتعرف على الأنماط المعمارية وأنواع المنشآت بصورة دقيقة وحقيقية.

والحق أن الدراسات الوثائقية من أصدق مصادر دراسة التاريخ والعمارة، وهي لم تنل لليوم العناية الكافية من الأبحاث والدراسات التاريخية والأثرية، على الرغم من كثرتها وتنوع فروعها، فلم يطرُق هذا الباب من الدراسات سوى قلة من الباحثين المدققين، لذا نجد الدعوة لقراءة التاريخ ودراسة العمارة بطرزاها عبر قراءة الوثائق، فمستقبل الدراسات التاريخية والأثرية سيظل مقترنًا بالدراسات الوثائقية.



الكهف بين الحياة والموت في عصور ما قبل التاريخ

د. زينب عبد التواب رياض

مدرس الآثار المصرية القديمة
كلية الآثار – جامعة أسوان
أسوان – جمهورية مصر العربية



ملخص

الكهوف هي الملاجئ والملاذات الأولى للإنسان الأول، وقد عثر على كثير من الأدلة الأثرية التي تدل على استيطان الإنسان للكهوف كالرسوم الصخرية، وبقايا الأدوات الحجرية. كانت الكهوف بالنسبة للإنسان الأول بمثابة الكتاب مفتوح الصفحات، والذي قام بتسجيل حياته على جدرانه بطريقة مرسومة غير مكتوبة، ولا شك في أن فن التصوير كان في البداية سحرياً وشعائرياً ثم تطور بعد ذلك وأصبح وسيلة من وسائل نقل الأفكار والمعلومات، فلقد اعتبرت الفنون البدائية جزءاً من الميراث الإنساني إذ كانت تتسم بنظام قوى يخضع لمعايير اتسمت بالصبغة المقدسة وكان لكل مجتمع من المجتمعات البدائية فنونة الممييزة له وبالتالي هويته الخاصة به. فلقد كانت الكهوف تشكل الجو النفسي للملائم للعبادة والممارسات السحرية، والتي وضحت من خلال الرسوم والنقوش الصخرية التي خلفها الإنسان الأول سواء في الكهوف أو بالنقوش الصخرية. وكان الدارسون لهذا الفن القديم قد اعتبروا لأول وهلة فن الكهوف عبارة عن رسم زخرفي غير معبر عن معان تركيبيية إيحائية أو تعبيرية. لكن بعدما توالت الاكتشافات لهذه الأعمال الفنية بالكهوف والصخور اختلفت النظرة الفنية لهذا الفن القديم. ولقد أصبحت دراسة فن الكهوف علماً موجوداً ومثاراً، حيث توالت الاكتشافات لهذا الفن في مواقع عديدة، ولست بصدد الحديث عن فن الكهوف تفصيلاً، وإنما أحاول إلقاء الضوء على أهمية الكهف ودوره الديني والديوي في حياة أناس ما قبل التاريخ. وقد قصدت هنا الحديث عن الكهوف وأهميتها باعتبارها مرحلة أولى في حياة الإنسان الذي جعل من الكهف حياة بكل ما تعنيه الكلمة، فقد عاش فيه حياته ومارس فيه طقوسه وعباداته ثم دفن فيه، وثبت ذلك من خلال عرض نماذج عدد من الكهوف في مصر وشمال أفريقيا والشام والعراق.

كلمات مفتاحية:

فن الكهوف، العصر الحجري، الحضارات الأولى، العالم القديم، الإنسان البدائي

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٥ فبراير ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٢٢ يونيو ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

زينب عبد التواب رياض، "الكهف بين الحياة والموت في عصور ما قبل التاريخ"، دورية كان التاريخية، العدد الثلاثون، ديسمبر ٢٠١٥، ص ٩ - ١٨.

مقدمة

قدرة فريدة على إثارة خيال الإنسان وهي قدرة تتجلى بصورة متكررة في ضروب شتى من أساطير الإنسان وفنونه وآدابه، فمنذ عصور ما قبل التاريخ والكهف هو المكان الملائم للوحي وللرؤيا ولا أدل على ذلك من الرسوم الجدارية التي حوت مناظر أقرب للروحانية، تنوعت ما بين هياكل آدمية ضخمة صورت بشكل يثير الرهبة في النفوس ومناظر لبشر يرتدون ملابس غريبة ومناظر أخرى لبشر في وضع السباحة وهياكل أخرى يصعب أن تفسر بأنها

شكلت الكهوف خطوة هامة في حياة الانسان البدائي إذ مثلت بالنسبة له السكن والسكنى، فقد عاش فيها ومارس فيها حياته بكل صورها، واتخذ من جدرانها صفحات عبر فيها عن نفسه برسوم متنوعة وإشارات مختلفة، ومارس فيها شعائره وطقوسه ثم دفن فيها لتصبح مثواه الأخير. وقد كان الكهف موضوعاً يتردد في الأساطير والعقائد البشرية، فللكهف من حيث هو تكوين مادي

انعكاس للواقع فهي أقرب لأسطورة والخيال ومن ثمَّ يمكن اعتبار الكهف عالم مظلم في طياته عاش الإنسان حياته الأولى، ثم عبر على جدرانها عن حياته الأخرى التي تنتظره والتي صورها كيفما شاء خياله، فالكهف هو المكان الذي يلجأ إليه الإنسان طالباً للأمان، ومدخلاً مفضلاً ينتقل به خيال الإنسان من العالم الطبيعي إلى عالم ما فوق الطبيعة. ويمكن القول إجمالاً إن الكهف بالنسبة للإنسان الأول كان هو المسكن والمعبود والبيت الآخر.

١- تمهيد

١/١- تعريف الكهف:

الكهف هي الملاجئ والملاذات الأولى للإنسان الأول، وقد عُثر على كثير من الأدلة الأثرية التي تدل على استيطان الإنسان للكهف كالرسوم الصخرية، وبقايا الأدوات الحجرية. والتعريف الشائع للكهف: هو أي فجوة صخرية ذات فتحة تسمح بدخول الإنسان إليها. أما التعريف العلمي للكهف: فهو أي فتحة في الصخر يتراوح قطرها ما بين (٥ - ١٥ م)، أو بأنها فتحة طبيعية تحت الأرض وفي صخرة بحيث تكون واسعة للحد الذي يسمح بدخول الإنسان إليها.^(١)

٢/١- إنسان الكهف:

يعتقد العلماء أن الإنسان الذي عاش في الكهف واستخدم الأدوات الحجرية، لم يكن إنساناً بدائياً، وبالتأكيد لم يكن نصف قرد، والدلائل الحفرية واضحة جداً فأناس الكهف كانوا بشراً - أناس يعيشون في الكهف. وقد استخدم مصطلح إنسان الكهف للإشارة إلى إنسان نياندرتال.^(٢) وهو نابع من افتراضات حول علاقة الإنسان الأول بالكهف، والتي تجلت واضحة في رسوم الكهف. ولقد صُوِّر رجال الكهف على أنهم يرتدون جلود حيوانات فكان الثوب عبارة عن قطعة من الجلد معقودة حول كتف واحد، وكانوا مسلّحين بالحجارة أو عظام الحيوانات أو هراوة هرمية الشكل، ويتّصفون بقلّة الذكاء والعدوانية. هذا وقد كانوا يعيشون في الكهف ومن ثمَّ كانت الكهف أكثر الأماكن التي اكتشفت فيها الرسوم التي تمثل طقوس حياة الإنسان الأول ووجدت فيها آثار تمثل حضاراتهم، ويرجع ذلك إلى أن درجة محافظة الكهف على الآثار أعلى من غيرها من الأماكن، كونها أماكن مغلقة ولا تتأثر كثيراً بعوامل الطبيعة، لذا فهي تعتبر ملجأ نموذجياً.

٣/١- البدايات الأولى لظهور الفكر الديني عند الإنسان الأول:

اعتمد الإنسان الأول على الطبيعة بشكل، وهناك أمور عدة لعبت دوراً هاماً في حياة وفكر ومعتقدات هذا الإنسان،^(٣) وتمثلت تلك الأمور فيما يلي:

- النار.^(٤)

- الحيوانات.

- المرأة.

- الأسلاف أو الأجداد.^(٥)

كانت البدايات الأولى لظهور الفكر الديني عند الإنسان الأول قد ظهرت منذ العصر الحجري الأوسط ١٠٠٠٠٠ قبل الميلاد، على يد أنسان النياندرتال الذي اكتشف النار، ويعتقد أن الإنسان قد عبدها باعتبارها أحد عناصر الطبيعة التي أثرت فيه واستفاد منها في الحماية والدفع والطبي. ويعتقد العلماء أيضاً أن الإنسان قد عبد الحيوانات، وذلك لأن الحيوان هو الكائن الحي الذي يناقسه في الحياة ويحيا معه على خيرات الطبيعة، فكان لابد من السيطرة عليها والتحكم بها ثم عبادتها، فعبد الإنسان الحيوانات خوفاً منها ومن قوتها التي تفوق القوة البشرية، أو حتى طمعا في لحمها وجلدها واستخدمها في الزراعة، ومن الحيوانات التي عبدها الغزال والثور والماعز والأفعى التي تحمل رموز جنائزية والطيور الجارحة.

أما عبادة الربة الأم،^(٦) فقد كان لها شكلاً خاصاً باعتبارها أحد أهم الرموز للخصب والأُمومة والتكاثر البشري واستمرارية الحياة، وكانت البدايات الأولى بالاهتمام بالمرأة منذ العصر الحجري القديم عن طريق مجموعة من الدمى والتي مثلت (فينوس)، كما ظهرت على جدران الكهف في أوروبا كرسوم تصويرية، وجاءت التماثيل الأولى للمرأة بشكل منفصل لأعضاء الأنثوية، أما الذكر فلم يحظى بالاهتمام التي حظيت به المرأة. أما فيما يسعى بعبادة الأسلاف أو الأجداد (عبادة الجماجم)، على اعتبار أن هذ العبادة تعني بعبادة الأسلاف القائمة على الخوف من الإنسان الحي على اعتباره أنه مصدر السيطرة السياسية، أما الخوف من الميت فهو مصدر للسيطرة الدينية، فقد تم طلي الجماجم بالجص وأحياناً بالأسفلت التي ظهرت في أريحا وكان الهدف الذي رمت إليه عبادة الأسلاف هو التجمع والتماسك حول مركز روحي معين وذلك باعتبار أرواح الموتى من الأمور المقدسة.^(٧)

٤/١- فن الكهف

كانت الكهف بالنسبة للإنسان الأول بمثابة الكتاب مفتوح الصفحات، والذي قام بتسجيل حياته على جدرانها بطريقة مرسومة غير مكتوبة، ولا شك في أن فن التصوير كان في البداية سحرياً وشعائرياً ثم تطور بعد ذلك وأصبح وسيلة من وسائل نقل الأفكار والمعلومات، فلقد اعتبرت الفنون البدائية جزءاً من الميراث الإنساني إذ كانت تتسم بنظام قوى يخضع لمعايير اتسمت بالصيغة المقدسة وكان لكل مجتمع من المجتمعات البدائية فنونه المميزة له وبالتالي هويته الخاصة به.^(٨) فلقد كانت الكهف تشكل الجو النفسي الملازم للعبادة والممارسات السحرية، والتي وضحت من خلال الرسوم والنقوش الصخرية التي خلفها الإنسان الأول سواء في الكهف أو بالنقوش الصخرية. وكان الدارسون لهذا الفن القديم قد اعتبروا لأول وهلة فن الكهف عبارة عن رسم زخرفي غير معبر عن معانٍ تركيبية إيحائية أو تعبيرية. لكن بعدما توالى الاكتشافات لهذه الأعمال الفنية في الكهف والصخور اختلفت النظرة الفنية لهذا الفن القديم. ولقد أصبحت دراسة فن الكهف علماً موجوداً ومثاراً، حيث توالى الاكتشافات لهذا الفن في مواقع عديدة ولست

بصد الحديث عن فن الكهوف تفصيلاً، وإنما أحاول إلقاء الضوء على أهمية الكهف ودوره الديني والدنيوي في حياة أناس ما قبل التاريخ.

٢- الكهوف في مصر وشمال أفريقيا

لم تبدأ الحياة الإنسانية في مصر على ضفاف النيل، وإنما قامت على الجبال والهضاب المنتشرة، حيث كانت الظروف الطبيعية القاسية تتحكم في الإنسان، وكانت وسائل حياته محدودة وبدائية. عاش الإنسان المصري حياة غير مستقرة، وتنقل من مكان إلى آخر بحثاً عن الغذاء، وسكن الكهوف واحترف صيد الحيوانات والطيور، وأعتمد على جمع البذور والثمار من النباتات والأشجار. كانت الكهوف هي المكان الأمثل الذي حوى دلائل وجود الحضارات الأولى للإنسان ما قبل التاريخ، من رسوم صخرية وأدوات حجرية وبقايا مخلفاته التي تركها ودلت على حياته بالمكان هذا بخلاف بعض الدفقات التي عُثِر عليها في بعض الكهوف، وبحكم كونها أماكن مغلقة قلما تتعرض لعوامل التعرية والظروف الجوية استطاع فريق العمل الأثري التابع للمجلس الأعلى للآثار اكتشاف العديد من الكهوف في مواقع عدة في مصر حوت الكثير من اللقى الأثرية والدلائل الهامة التي توضح طبيعة حياة إنسان ما قبل التاريخ في مصر، وكان من بين هذه الكهوف:

١/٢- كهف سودمين

يقع في الصحراء الشرقية في منطقة وادي الجمال في البحر الأحمر وهي منطقة تحوى العديد من النقوش الصخرية، ويقع كهف سودامين على بعد (٣٥) كم غرب مدينة القصير^(٩). كان فن الصخور متبعاً لدى سكان الصحراء لاسيما بشمال أفريقيا^(١٠). فمنذ نهاية الألفية السادسة ومنتصف الألفية الرابعة قبل الميلاد كانت الصحراء الممتدة من غربي مصر وحتى شرقها يسكنها صيادو الأسماك والحيوانات ورعاة قطعان الماشية والأغنام. لأنها كانت مناطق مطيرة ينمو بها السفانا والغابات. وكانت موئلاً للحيوانات المفترسة والرعي حيث كانت من أوائل المناطق التي استوطنتها الإنسان الأول. وقد خلف الفنانون الأوائل الكثير من النقوش الصخرية التي ظهرت بها حيوانات انقرضت حالياً من المنطقة منها البقر الكبير والأفيال والخرتيت وأفراس النهر. وهذا سببه انحسار المياه والأمطار وظهور التصحر هناك. ومناظر الحيوانات التي خلفها الفنانون الأوائل بهذه المناطق نراها طبيعية ومتناسبة ومتناسقة. وبدأت فيها صور السكان وهم متسلحون بالهراوات والعصي والبلط والأقواس ولم ير رماح بها^(١١). ولقد ظلت للصحراء أهميتها لدى المصري القديم، إذ اعتقد المصري القديم أن الصحراء التي لا نهاية لها إلى الغرب من وادي النيل كانت مدخلاً للعالم السفلى الذي تتم فيه إعادة ولادة الشمس والموتى من جديد^(١٢).

٢/٢- كهف وادي سنور

يعتبر كهف وادي سنور في محافظة بني سويف في مصر، أحد الكهوف الفريدة من نوعها، حيث إنه كهف طبيعي عمره (٦٥)

مليون سنة، نتج من تأثير عوامل الإذابة على الحجر الجيري الأيوسيني الموجود في جبل سنور. وهو على بعد (١٢٥) كيلو جنوب العاصمة المصرية القاهرة، يمتد الكهف لمسافة (٧٠) متر تقريباً، ويبلغ عمقه حوالي (١٥) متراً. ويحتوي الكهف على تراكمات جيولوجية معروفة باسم الصواعد والهوابط في صورة مثالية جميلة، تكونت عبر ملايين السنين، نتيجة تسرب المحاليل المائية المشبعة بأملاح كربونات الكالسيوم خلال سقف الكهف، يتميز كهف "وادي سنور" كما أكد لإيلاف الدكتور مصطفى عبد العزيز الخبير في هيئة المساحة الجيولوجية المصرية، أنه لا يوجد مثيل له في العالم سوى كهف في ولاية فيرجينيا في الولايات المتحدة الأمريكية.

٣/٢- جزيرة القرن الذهبي - الفيوم

أعلن المجلس الأعلى للآثار المصرية أن بعثة مصرية تابعة للمجلس عثرت أمام جزيرة القرن الذهبي شمال بحيرة قارون في الفيوم على مجموعة هائلة من أدوات الصيد والحياسة والحلي المصنوع من عظام الحيوانات التي ترجع لعصور ما قبل التاريخ، وكشفت البعثة أيضاً عن مجموعة من الكهوف التي استخدمها إنسان ما قبل التاريخ. وكان من أهم القطع التي عثرت عليها البعثة هي إبرة مصنوعة من عظم الحيوانات ومخزنها المصنوع من حجر الصوان مما يدل على أن الإنسان القديم ابتكر طرقاً عديدة لحياسة الجلود، موضحاً إنه كشف أثناء أعمال الحفائر عن فقرات كثيرة لحياتان شبه كاملة على غرار ما جاء في منطقة وادي الحيتان في الفيوم.

وعُثِر كذلك على حفرة لكلب البحر وسمك المنشار وأجزاء من تماسيح وترساً بحرية، وأسماك وأسنان سمك القرش، وثلاثة هياكل مخففة لسلحفاة، إلى جانب أدوات طبية مصنوعة من العظم وعقود من الجشمت الأخضر والأحمر الغامق ورؤوس سهام ومطاحن حجرية وسكاكين. وخلال عمليات التنقيب تم العثور في الربوة المرتفعة الموجودة في المنطقة على (٢٥) مقبرة صخرية جانبية وكميات كبيرة من العظام. وعُثِر البعثة كذلك على بئر صخرية عمقها سبعة أمتار في مدخلها بقايا هيكل عظمي كامل لإنسان^(١٣).

٤/٢- الصحراء الغربية

تعتبر الصحراء الغربية جزءاً من أضخم نطاق صحراوي في العالم يضم الصحراء الكبرى الأفريقية ويمتد من المحيط الأطلنطي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ولا يقطعه سوى وادي النيل كشريط طولي ضيق يفصل بين كل من الصحراء الغربية والصحراء الشرقية في مصر^(١٤). وتشتمل الصحراء الغربية على مساحة قدرها ٦٨١.٠٠٠ كيلومتر مربع أو أكثر من ثلثي مساحة مصر بأكملها^(١٥). وتمتد الصحراء الغربية المصرية - يطلق عليها بعض العلماء الصحراء الليبية - غرباً من وادي النيل إلى حدود ليبيا وجنوباً إلى حدود السودان الشمالية^(١٦). هذا وهناك كهوف هضبة الجلف الكبير وجبل العوينات الذي يقع في أقصى الطرف الجنوبي الغربي

وحوانات برية، ومراسم دينية، وبعض الآلهة القديمة. ولكن لو اقتصر الأمر على ذلك، لما كان هذا الكشف بالأهمية نفسها التي يحظى بها الآن، وذلك لأن هناك رسومات أخرى أهم وأخطر تظهر مجموعة من البشر يرتدون ملابس غريبة تشبه ملابس رواد الفضاء، وملابس أخرى شفافة غير مألوفة، إضافة إلى لوحات أشبه بسفن الفضاء، وأخرى أشبه بطائرات غريبة الشكل، وأناس يسبحون وسط هذه الطائرات داخل فضاء ربما يمثل مدينة ضخمة شديدة التطور.

وهناك كهوف تادارات الأكاكوس^(٢٣) وهي تشكيل سلسلة من الجبال في الصحراء الكبرى في غرب ليبيا ومن المعروف تواجد لوحات صخرية تعود إلى ١٢.٠٠٠ قبل الميلاد واللوحات تعكس البيئة المتغيرة في الصحراء وتعكس المناخ والرطوبة قبل تسعة آلاف سنة في المنطقة المحيطة كانت خضراء مع البحيرات والغابات ومع قطعان كبيرة من الحيوانات البرية كما يظهر من اللوحات الصخرية ومن أمثلة هذه الحيوانات الزرافات والأفيال والنعام. وكالعادة تُمثل الحيوانات الموضوع الأكثر شيوعاً في لوحات ما قبل التاريخ، بالرغم من أن الفنانين القدماء رسموا البشر أيضاً. وفي بعض لوحات الكهوف ظهرت الحيوانات وهي مطعونة بالسهم أو الحراب، والبعض الآخر فيه أشكال آدمية تقف بالقرب من الحيوانات التي تم قتلها. وعلى الأشكال الآدمية ملابس تدنو ذات علاقة بطقوس السحر. ولقد وجدت معظم هذه اللوحات على الجدران وسقوف الكهوف.

٣- الكهوف في بلاد الشام

حالت طبيعة جغرافية بلاد الشام دون سهولة دراسة بيئتها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، كان لتشعب واختلاف طبيعة العقائد الدينية في العصور التاريخية ما أدى إلى تنوع وتعدد العقائد الفكرية وعدم التركيز على أمر بعينه دون سواه من مظاهر الطبيعة، ومن ثَمَّ فإن دراسة ما عُثر عليه من كهوف في بلاد الشام، من الصعوبة بمكان بحيث يصعب فيها الاعتماد على الاستقراء كما كان عليه الحال في مصر^(٢٤). ومن أهم الكهوف التي عُثر عليها:

١/٣- كهف جبل قفزة - فلسطين

في مغارة قفزة وهي واحدة من أهم مغارات وكهوف بلاد الشام، عُثر على العديد من الدفنات الهامة، والتي كان من بينها دفنه لامرأة شابة وطفلها. كان الطفل نائماً برأسه على صدر أمه، وبين ذراعيه، عُثر على هيكل عظمي لغزال صغير^(٢٥). ولعل في هذه الدفنه إشارة إلى وجود رمزية روحية، وقيمة وأهمية لهذا الحيوان لدى سكان بلاد الشام في العصر الحجري القديم الأوسط^(٢٦). ولا شك أن العثور على مثل هذه الدفنه يؤكد أيضاً على وجود نوع من العبادة الحيوانية - لو صح التعبير - خلال هذا العصر. وعُثر في مغارة قفزة أيضاً على مقبرة بشرية تحوي (١٢) جثة نياندرتالية أُرختَ بحدود ٥٠.٠٠٠ سنة؛ وكانت الجثث لسته بالغين وسبعة أطفال، مما يعني دلالة لها معناها الاجتماعي والروحي.

من الأراضي المصرية على الحدود المصرية الليبية، وتُعدّ منطقة العوينات أحد أهم وأغنى مواقع رسوم ما قبل التاريخ في العالم حيث تنتشر في محيط المنطقة ما يقارب (٤٠٠٠) لوحة جدارية تتميز بتنوع مواضيعها وجمال ألوانها ورسوماتها التي تعود أغلبها إلى العصر الحجري الحديث، وهي تشتمل على العديد من الرسوم الآدمية والحيوانية أيضاً^(١٧).

٥/٢- كهف الوحوش

أطلق عليه هذا الاسم لما جاء به من رسوم تمثل حيوانات متوحشة مختلفة ومتعددة الأشكال^(١٨). يقع الكهف على بعد عشرة كيلومترات من "كهف السباحين"^(١٩) وهو كهف ناء حوى العديد من الرسوم لأشكال بشرية راقصة وحيوانات غريبة بلا رأس ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ، اكتشف الكهف سنة ٢٠٠٢ بالصدفة، وقد بلغ إجمالي عدد الصور به إلى نحو (٥٠٠٠) صورة مرسومة بالألوان أو محفورة على الصخر في الصحراء الشاسعة غير المأهولة القريبة من الحدود الجنوبية الغربية لمصر مع كل من ليبيا والسودان^(٢٠). وكانت مطبوعات اليد هي أهم ما ميز الرسوم الصخرية البدائية في هذا الكهف، ولربما كانت تعني اسم صاحبها أو هي مجرد إشارة إلى مرور الإنسان القديم بهذا المكان وترك علامة تدل على وجوده^(٢١).

٦/٢- كهف السباحين

يقع كهف السباحين جنوب غرب مصر بالقرب من الحدود المصرية الليبية في منطقة الجلف الكبير. ظهرت الهيئة البشرية في رسوم كهف السباحين بملامح لها دلالات متعددة، رافعة يديها وقدميها بطريقة مقوسة للأمام والخلف مما دعا الباحثين إلى تمثيل ذلك بهيئة السباحين، واتخذت تلك الرسوم البشرية النمط الخطي في تنفيذها فكانت أشبه بخيوط رفيعة غير واضحة الملامح^(٢٢). ولربما كانت البيئة في ذلك العهد البعيد تحوى مجرى مائي استطاع الإنسان القديم أن يصوره ويتخيل عبوره له ساجداً فيه، إذ يصعب تصور عكس ذلك - من وجهة نظر الباحث لاسيما في تلك الحقبة البعيدة. وتُعدّ منطقة جبل العوينات بكهوفها هذه ملقاً للإنسان الأول، سجل فيه بصمته للعالم برسوماته التي حوت العديد من الألغاز والطلاسم ذات الصبغ المقدسة.

٧/٢- كهوف تاسيلي

في سلسلة جبال تاسيلي التي تقع بين الحدود الليبية والجزائرية وبالضبط في قلب منطقة "جبارين" حيث الصحراء قاحلة والمناخ شديد الحرارة، وتتكون كهوف تاسيلي من مجموعة من تشكيلات الصخور البركانية والرملية الغريبة الشكل والتي تشبه الخرائب والأطلال، وتعرف باسم الغابات الحجرية، وتوجد الكهوف فوق هضبة مرتفعة تبلغ (٥٠٠م) فوق سطح البحر، يجاورها جرف عميق في منطقة تتواجد بها نسبة كبيرة من الكثبان الرملية المتحركة. تتنوع الصور الموجودة بين صور لعمليات رعي الأبقار وسط مروج ضخمة، وصور لخيول، ونقوش لأنهار وحدائق غناء،

على انتماء هذه الهياكل إلى نوع الإنسان العاقل الباكر (Early Modern Human) المؤرخ من نحو ١٠٠ ألف سنة خلت، وهذا أقدم ظهور لهذا الإنسان خارج القارة الأفريقية.

عُثر في هذه المغارة على دفنة آدمية ومعها جمجمة ثور، موضوعه بين ذراعي المتوفي وتؤرخ تلك الدفنة بالعصر الحجري القديم الأوسط،^(٣١) هذا بخلاف العثور على هياكل عظمية في مقبرة جماعية، تراوحت أعمار موتاهما بين (٣-٥٠) سنة. ولوحظ أنه لم توجد مرفقات جنائزية مع الموتى، إلا مع أكبرهم سنًا، حيث كان يقبض بيده على عظم فليّ علوي لخنزير بري وربما يدل هذا على وجود أو تبلور بداية مفهوم للسلطة أو القيادة عند النياندرتاليين.^(٣٢) ولوحظ أن مدافن الرجال والأطفال عندهم تفوق عددًا مدافن النساء.^(٣٣) وربما عبر وضع أحد الأجزاء الحيوانية مع الموتى، عن كونه قربان نذري قُدم طمعًا في حماية الموتى للأحياء، ولتحقيق النجاح في الصيد، فكان ذلك دليلًا على رسوخ فكرة الحياة الأخرى التي آمن بها إنسان النياندرتال فبدًا بتزويد الموتى بالأسلحة والعظام الحيوانية، وطلاءها بالمغرة الحمراء رمز الدم الذي يُعدّ بالتالي رمز للبعث والحياة.^(٣٤)

ولقد أدى هذا الخلط بين البقايا العظمية الأدمية والحيوانية بالعديد من الكهوف، إلى محاولة تفسير دور الكهف في حياة إنسان هذا العصر، وتفسير سبب وجود مثل تلك البقايا العظمية الحيوانية به^(٣٥)، ويرى (Cooper) أن الكهف - بوجه عام - كان بمثابة قلب العالم ومركزه - رحم الأرض - مكان التقاء واتحاد الروح بالجسد، وهو المكان الذي يتقابل فيه المقدس، بالآدمي، وهو مكان ميلاد الآلهة وهو المكان الخفي المقدس بينما يرى (Heyden, H.) أن الكهف هو موضع السكني والدفن، وقد يكون أيضًا بمثابة مزار يتم فيه أداء بعض الطقوس الدينية لوصح التعبير، وهو كذلك موضع أرواح الحيوانات وربما أقيمت فيه طقوس جنائزية اشتملت على نوع من التقدّمات الحيوانية، ومن ثم فقد رأى بعض الباحثين أن الكهف يُعدّ نموذجًا لحياة إنسان الباليوليتي وكان له بمثابة عالم صغير، رمز إلى الحياة والموت معًا، وبالتالي كان له أهميته التي لم تتوقف عند حدود العصر الحجري القديم بمراحله، بل تعدته زمنيًا.^(٣٦)

ومما سبق يتبين؛ أن أنسان النياندرتال هو أول من دفن موتاه، وهذا أنما دليل على تكريم الإنسان للإنسان، وزودة بالمرفقات الجنائزية كالسكاكين والأدوات الصوانية والحجرية وأدوات الزينة والعظم المصنوع باعتقاد أنه سينتفع بها في ما بعد الموت (البعث)، وتُعدّ مغارة السخول من الأمثلة الحية على طرق الدفن التي مارسها الإنسان القديم.^(٣٧) وكان الهدف من تقديم هذه القرايين هو ما يلي:

١. وسيلة اتصال مع أرواح الأجداد والأنسان.
٢. أن تكون روح الميت مرتبطة مع روح ما يتم ذبحه.
٣. تعتبر القرايين وسيلة تقرب من الآلهة والقوى الخارقة ذات العلاقة بالمعتقد السحري.^(٣٨)

وكان لكهف قفزة ثقله وأهميته، إذ عُثر على عظام حيوانية كثيرة في جميع مستويات الكهف، مختلطة في أكثرها ببقايا عظام آدمية، ولا ندري أكان الخلط ناتجًا عن العبث، أم تكرار السكن في الكهف، أم أنه كان مصادفة، أم هو دفنات مقصودة.^(٣٧) ولقد أدى هذا الخلط بين البقايا العظمية الأدمية والحيوانية بالعديد من الكهوف، إلى محاولة تفسير دور الكهف في حياة إنسان هذا العصر، وتفسير سبب وجود مثل تلك البقايا العظمية الحيوانية به، فرأى البعض أنه ربما كان الإنسان يعيش في الكهف، ثم يدفن موتاه فيه - أي أن الكهف كان يجمع ما بين عالم الدنيا وعالم الآخرة - وأن الكهف كان أيضًا الملاذ والملاجئ للعديد من الحيوانات ولا شك أن فلسطين وسوريا كانتا مليئتين بالكهوف والمخابئ التي كانت تنتشر في أجزاء مختلفة، فهي استعملت كمزارات وأيضًا كمحلات لسكنى الإنسان.^(٣٨)

٢/٣- كهف الديدرية - سوريا

يقع هذا الكهف في واد يحمل الاسم نفسه في منتصف الانحدار ما بين نهر عفرين وجبل ليلون، وهو يرتفع عن سطح البحر بنحو (٤٥٠ م). تم العثور على سبعين قطعة عظمية من أجزاء هيكل عظمي لإنسان النياندرتال (من العصر الحجري القديم الأوسط)، يشبه ذلك الذي وجدت عظامه في كهف (شانيدار في شمال العراق). ولقد عُثر أيضًا في الكهف على اثنين من المفاجآت: المفاجأة الأولى كانت في موسم تنقيب ١٩٩٣ حينما عُثر على هيكل عظمي كامل لطفل يبلغ من العمر عامين، وهو في وضعية توجي بعملية دفن بدائية، وكان ذلك الهيكل هو الأكمل لإنسان نياندرتال في العالم. وقد قدر العلماء عمر العظام بحوالي ١٠٠ ألف سنة. أما المفاجأة الثانية فقد كانت في موسم تنقيب ١٩٩٩ حيث عثرت البعثة على هيكل عظمي لطفل نياندرتالي آخر، لم تظهر - بعد - المعلومات التفصيلية عن عمره وتاريخ وفاته، وبعد أن بانّت هذه الأهمية الكبيرة للكهف، وضعت البعثة أبوابا حديدية على بابي الكهف، واعتبر من المواقع الأثرية النادرة وبالأغة الأهمية في العالم.^(٣٩)

٣/٣- مغارة السخول - فلسطين

وهو كهف يقع إلى الجنوب من الطابون، على بعد حوالي (٢٠) كم جنوب مدينة حيفا، وحوالي (٣) كيلومتر من البحر المتوسط. تعتبر مغارة السخول من أصغر مواقع ما قبل التاريخ، في فلسطين، وهي تقع على السفح الغربي لجبل الكرمل، وهي قائمة على الجانب الشرقي للوادي، على بعد ١٠٠ م من مغارة الوادي، يأخذ المدخل شكل بيضاوي، ويبلغ اتساعها حوالي (١١) متر، أعلى الوادي.^(٤٠) وقد نُبّت فيه في الثلاثينات دوروثي غارود. ووجدت فيها طبقات تعود إلى العصر اللفلوازي - المستيري، لكن الكشف الأهم هو المقبرة، الأولى من نوعها من هذا العصر، التي ضمت أربعة عشر شخصًا، يافعين وأطفال، دُفِنوا بعناية في حفر منتظمة وبوضعية مثنية؛ أحد الموتى يحمل آثار قطع في الفخذ. وقد دلت الدراسات

بين النسروطور الموت والعالم الآخر، كأحد أطوار الآلهة الأم.^(٤٧) وفي شمال شرق العراق بكهف بالجاورا الذي يؤرخ بالعصر الحجري القديم، عُثر على بقايا عظمية لكلاّب مستأنسة، اشتملت تلك البقايا العظمية على جمجمة واحدة وحوالي سبعة عشر فك لكلاّب مستأنسة تبين أنها ترجع لحوالي (١٢.٠٠٠).^(٤٨) هذا وتوضح تلك الدفنات مدي العناية والاهتمام اللذين قد حظيا بهما الكلب، باعتباره حيواناً مقدّساً، ورفيقاً لصاحبه، ومن ثمّ عمل على دفنه آنذاك.^(٤٩)

٥- نماذج من كهوف أخرى في العالم القديم

عُثر على العديد من الكهوف في شتى أرجاء العالم، وفي بعض الكهوف وُجدت عظام بشرية جنباً إلى جنب مع عظام الحيوانات المتحجرة. وفي القرن العشرين اتفق معظم الخبراء على أن ذلك يمثل دليلاً على أن الإنسان عاش في الكهوف في عصور ما قبل التاريخ. ومنذ ذلك التاريخ اكتشف العلماء الكثير من المخلفات التي ساعدتهم على جمع تفاصيل حياة الإنسان القديم.

هذا بخلاف أن ما سجله الإنسان على جدران الكهوف الكثيرة سواء الموجودة منها في فرنسا أم إسبانيا تبعث الدهشة وتثير الخيال لاحتوائها على رسوم منفذة بضغط الأصابع فوق الطين اللدن بالإضافة إلى النحت البارز والمجسم والتصوير بالألوان والزخارف الجميلة المنفذة على قطع العظام والعاج والأحجار كما اكتشف العلماء أيضاً مجموعة من الأدوات التي كان يستخدمها الإنسان. وقد عُثر فيه على العديد من التصوير الجدارية في كهوف عدة أيضاً من العالم كان أهمها كهف لاسكو، وكهف ألتاميرا. ويمتاز فن ما قبل التاريخ الأوروبي بأنه متصل بحياة الإنسان داخل الكهوف، وأن التصوير كان يظهر على جدران الكهوف وكانت له مناطق معينة أهمها بعض الكهوف في جنوب إيطاليا ومعظم جبال فرنسا وإسبانيا. ومن أشهر حفائر ما قبل التاريخ في فرنسا الحفائر التي تمت في المنطقة البارلسية وفي إسبانيا والمغرب، ومن أهم الحيوانات التي صورها الإنسان في هذا العصر الفيل القديم (الماموث)، وكذلك أنواع من البقر البري والخيول المتوحشة وحيوان الرنة وبعض الحيوانات المفترسة كالأسد وبعض الطيور والزواحف والأسماك.^(٥٠)

١/٥- كهف ألتاميرا

يقع كهف "التاميرا" جنوب منطقة سانتاندار، شمال غرب إسبانيا، وهو من بين الكهوف النادرة في العالم، وقد عُثر فيه على العديد من التصوير الجدارية في كهوف عدة من العالم كان أهمها كهف "التاميرا" الذي يعتبر من بين الكهوف النادرة في العالم التي تعود إلى آلاف السنين. ويحوي الكهف رسوماً صخرية يعود عمرها إلى ما يقرب الـ ١٤.٥٠٠ عام.^(٥١) وشكل الكهوف هو الشكل المعتاد، مغارة طويلة ودائرية الشكل تبدأ من ببوابة تم إنشاؤها لحماية الأثر وأماكن للحراسة، وعند الدخول تبدأ الرحلة مع آثار الرسوم والنقوش على الجدران المحيطة بالزائر. وتمّ اكتشاف هذا الكهف،

هذا بخلاف الاهتمام بدفن جماجم الموتى فيما يسعى بعبادة الأسلاف أو الأجداد (عبادة الجماجم)، على اعتبار أن هذه العبادة تعني بعبادة الأسلاف القائمة على الخوف من الإنسان الحي على اعتباره أنه مصدر السيطرة السياسية، أما الخوف من الميت فهو مصدر للسيطرة الدينية وكان الهدف الذي رمت إليه عبادة الأسلاف هو التجمع والتماسك حول مركز روحي معين وذلك باعتبار أرواح الموتى من الأمور المقدسة.^(٣٩) ولسنا بصدد الحديث عن عبادة الأسلاف أو عادات الدفن، وإنما فقط أود الإشارة إلى أن هذا وذاك كان قد عرف وتم ممارسته بالكهوف، وأن الكهوف كانت تشكل حلقة الوصل بين عالم الدنيا وعالم الآخرة.

٤- الكهوف في العراق

حضارة بلاد النهرين القديمة هي أقرب ما يقرب حضارة النيل، من حيث القدم والثراء والطابع المتميز واستمرار التطور في مجالات الفكر والمادة. وقد حوت ارض الرافدين كهوف عدة كان منها:

١/٤- كهف شانيدار - العراق

هو كهف قديم من عصور ما قبل التاريخ يقع في شمال العراق في منطقة إقليم كردستان. يقع كهف زاوي شيمي شانيدار علي نهر الزاب العظيم شمال العراق: يبعد حوالي ٤ كم أسفل كهف شانيدار على المدرجات النهرية، ويؤرخ هذا الكهف بحوالي (٨٩٢٠ ± ٣٠٠ ق.م).^(٤٠) وقد تمّ التنقيب عن الكهف بين عامي (١٩٥٧-١٩٦١) من قبل رالف سوليكي (Ralph Solecki) وفريقه من جامعة كولومبيا وأثمر عملهم عن الهياكل العظمية النياندرتالية البالغة الأولى في العراق العائدة إلى ٨٠.٠٠٠ سنة قبل الميلاد.^(٤١) ولقد نتج عن التنقيب في هذه المنطقة تسع هياكل عظمية نياندرتالية لأعمار مختلفة وفي حالات مختلفة من الحفظ والكمال وحُفظت وصنفت حسب الأرقام من (شانيدار ١)^(٤٢) - (شانيدار ٩). أما الفرد العاشر أُكتشِفَ مؤخراً وقد كان هذا النياندرتال العاشر مدفوناً وفق مراسم جنازية.^(٤٣)

وقد كان الاهتمام بدفن الحيوانات لاسيما الماعز قد وضع في بلاد الرافدين منذ العصر الحجري الحديث، ففي كهف زاوي شيمي شانيدار^(٤٤) عُثر على دفنه هامة وملفته بالنظر، اشتملت على عظام حيوانية وجماجم لحوالي خمسة عشر واحدة من الماعز، بخلاف عظام وريش لنسور وصقور بلغت حوالي سبعة عشر طائر، فصلت تلك العظام بعناية شديدة وترتبت بوضعية مقصودة،^(٤٥) ولاشك أن في الاهتمام بدفن النسور والصقور مع جماجم الماعز، ما يدعوا إلى التساؤل، فكيف استطاع سكان هذا الموقع أن يتمكنوا من الاحتفاظ بمثل هذا العدد من الطيور الضخمة الجارحة، وبمثل هذا العدد من الحيوانات معاً في الوقت نفسه؟ وما هو الغرض من وراء تكلف مثل هذا العناء لإتمام تلك الدفن؟ فلا شك أن لذلك الأمر مغزاة الطقسي الجنائزي^(٤٦) الذي حاول بعض الباحثين تفسيره، فربطوا بين تلك الدفن، وبين الارتباط بطور الموت والعالم الآخر ويتفق في ذلك كلا من كوفان، وميلارت وشتریکا إذ ربطوا ما

النتائج

- شكلت الكهوف خطوة هامة في حياة الإنسان البدائي، إذ مثلت بالنسبة له السكن والسكنية، فقد عاش فيها ومارس فيها حياته بكل صورها، واتخذ من جدرانها صفحات عبر فيها عن نفسه برسوم متنوعه وإشارات مختلفة، ثم دفن فيها لتصبح مثواه الأخير.
- كانت أكثر الأفكار المتداولة في رسومات الكهوف هي الحيوانات الوحشية كالثيران والخيول والأرخص (ثور بري أوروبي) والغزلان ونسخ أيدي البشر.
- يمكن تفسير رسومات الكهوف بكونها حيلة صيد، والغرض منها زيادة عدد الحيوانات وذلك اعتماداً على طبيعة فكر وحياة المجتمعات البدائية.
- كانت رسومات البشر نادرة وعادة ما أشبه برسومات تجريدية غير دقيقة عكس الصور الطبيعية للحيوانات، وربما كان الرسم الواقعي للإنسان محرم طبقاً لمحظور ديني قوي آنذاك.
- كانت الأشكال البشرية أكثر شيوعاً في الفنون الصخرية الموجودة في أفريقيا مقارنة بأوروبا.
- من رسومات الكهوف المعروفة جداً كهف (لاسكو- فرنسا، كهف بيتش ميريل بالقرب من بلدية فرنسا، كهف (شوفيه) بالقرب من بلدية فرنسا، كهف مع مدخل من تحت البحر بالقرب من مرسيليا-فرنسا، كهف (ألتاميرا) بالقرب من بلدة التاريخية- كانتابريا- إسبانيا).
- في كهوف (لاسكو) بفرنسا والتي اكتشفت بالصدفة سنة ١٩٤٠. وجدت رسومات تعتبر أميز ما عرف من فن ما قبل التاريخ. وهذه الكهوف كانت تستخدم كقنوات مائية جوفية تمتد ما بين مئات إلى ٤٠٠٠ قدم. وفوق جدران هذه الكهوف رسم ونقش الفنانون الصيادون صوراً للحيوانات كالماموث المنقرض حالياً والثيران التي لم تُعدّ حالياً موجودة في أوروبا وغزال الرنة والحصان. وكانوا يستعملون مشاعل من الحجارة لها فتائل من الطحالب تشتعل بالنخاع العظمي والدهون لتنير ظلمات الكهوف.
- في معظم المجتمعات القديمة الكبرى كان الإنسان تعرف هويته من خلال الأشكال الفنية التعبيرية التي تدل عليه كما في نماذج ملابسه وطرزها وزخرفة الجسم وتزيينه وعادات الرقص. أو من العادات الاحتفالية أو الرمزية العقائدية التي كانت تتمثل في الطوطم (الرمز) الذي يدل على قبيلته أو عشيرته. وكان الطوطم يزخرف بالنقش ليروي قصة أسلافه أو تاريخهم. وفي المجتمعات الصغيرة كانت الفنون تعبر عن حياتها أو ثقافتها. وكثير من الشعوب كانت تتخذ من الفن وسيلة لنيل العون من العالم الروحاني في حياتهم.
- وضع دور الكهوف أيضاً في بلاد الشام والعراق، بل كان لها الدور الأهم إذ عُثِر في أغلبها على دفنات ليس فقط آدمية بل

من قبيل صياد عن طريق الصدفة، نظراً لوجوده على البحر الشمالي لمنطقة "سانتينا دال مار" في سنة ١٨٦٨، وهو يضم أكثر من (٢٦٠) رسماً ونقشاً صخرياً تعود مجملها إلى العصر الحجري. ويضمّ في الأساس رسومات ممثلة للحيوانات، ورموزاً تجريدية لا تزال معانيها غير معروفة إلى الآن، ويتكون كهف "التاميرا" من مجموعة كهوف متداخلة ومعقدة، وذات عمق داخل الأرض. ودون اعتبار الكهف الرئيس الذي يؤدي إلى مسالك أخرى، فإن عدد سلسلة كهوف "التاميرا" تعدّ حوالي (١٧) كهف، تحتوي كلها على رسومات وأشكال، رسمها الإنسان ليعبر من خلالها عن يومياته وما كان يعيشه من أحداث.

٢/٥- كهف لاسكو

يقع في جنوب غرب فرنسا وبه عُثِر على كثير من لوحات الكهوف الأكثر إثارة للأعجاب وشهرة في فرنسا،^(٥٢) وتقدر اللوحات منذ ١٧٠٠٠ عام واللوحات مرسوم عليها بعض الحيوانات مثل الثيران والخيول والغزلان. وتُعد لوحات الكهوف من الأعمال الفنية المبكرة، وقد بدأت العناية بالفن منذ العصر الحجري القديم، وتم اكتشاف الكثير من لوحات الأيائل. تُمثل الحيوانات الموضوع الأكثر شيوعاً في لوحات ما قبل التاريخ، بالرغم من أن الفنانين القدماء رسموا البشر أيضاً. وفي بعض لوحات الكهوف ظهرت الحيوانات وهي مطعونة بالسهم أو الحراب، والبعض الآخر فيه أشكال آدمية تقف بالقرب من الحيوانات التي تم قتلها. وعلى الأشكال الأدمية ملبوسات تبدو ذات علاقة بطقوس السحر. ولقد وجدت معظم هذه اللوحات على الجدران وسقوف الكهوف، وفي أقصى الأجزاء الداخلية منها حيث لا يمكن رؤيتها إلا إذا استخدم الناس النار للإضاءة. ويعتقد العلماء أن الصيادين استخدموا هذه اللوحات لأغراض الاحتفالات الدينية. وربما مُرست هذه الطقوس والشعائر لتساعدهم في صيد الحيوانات المرسومة في اللوحات.

خاتمة

لم يكن العرض السابق إلا بعض من كثير، فالكهوف يصعب حصرها لاسيما وأن كل يوم هناك الجديد في هذا المجال، وقد قصدت هنا لقاء الضوء على الكهوف وأهميتها باعتبارها مرحلة أولى في حياة الإنسان الذي جعل من الكهف حياه بكل ما تعنيه الكلمة. فقد عاش فيه حياته ومارس فيه طقوسه وعباداته ثم دفن فيه وذلك كما ثبت من خلال العديد من الكهوف. وقد جعل الإنسان الأول من جدران الكهف صفحات نقرأها بغير كتابه من خلال ما خلفه من صور ورسوم عبرت عن حياته بكل جوانبها. وهكذا؛ يعتبر ما قبل التاريخ مرحلة في حياة كل أمة يستمد منها المؤرخ معلوماته سواء من الآثار التي خلفها الإنسان أو التي تركتها هذه الأمة فيما عدا الكتابة، إذ بمجرد ظهور المعلومات المكتوبة ينتهي عصر ما قبل التاريخ وتبدأ العصور التاريخية.

وحيوانية، وفي ذلك إشارة إلى الدور الديني أو العقائدي الذي لعبته.

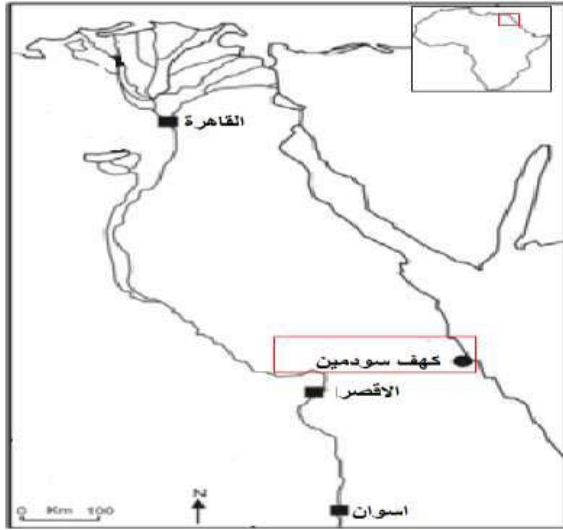
- كان التحول من حياة الكهوف إلى الحياة المدنية أو الحضارية هو الخطوة الثانية التي مر بها الإنسان الأول في عصور ما قبل التاريخ، وكان أقدم بيت مبني بالطين المجفف والخشب ومغطى بالأغصان والفروع كان قد اكتشف في المربيط (سورية) إذ يعود إلى عشرة آلاف عام.

الهوامش:

- (11) Smith, P.E.L., "Problems and Possibilities of the Prehistoric Rock Art Africa" northern of African Historical Studies, Vol.1, (1968), pp. 14-15.
- (12) Lurker, M., The Gods and Symbols of Ancient Egypt, London, 1980, 46.
- (13) <http://www.toutankharten.com/article1263,1263> (١٤) أحمد على اسماعيل، البيئة المصرية، القاهرة، ١٩٩٥، ٧٢ - ٧٣.
- (15) Said, R., The Geology of Egypt, New York, 1962, 11; Fakhry, A., The Oases of Egypt, I, Siwa Oasis, Cairo, 1973, 10.
- (16) Butzer, K. W., op. cit., 1235.
- (١٧) عن الرسوم والنقوش الصخرية في مصر راجع: خالد سعد مصطفى درويش، الرسوم والنقوش الصخرية في الجلف الكبير والعوينات بصحراء مصر الغربية في عصور ما قبل التاريخ، رسالة دكتوراه غير منشورة، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٣٧.
- (١٨) للمزيد راجع: سعد عبد المنعم بركة، الرسوم الصخرية بالصحراء الكبرى في العصر الحجري الحديث، دراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٩٣.
- (١٩) خالد سعد مصطفى درويش، مرجع سابق، ص ١٥٥.
- (٢٠) كان لاختلاف طبيعة البيئة المصرية ما أدى إلى اختلاف كيفية التأقلم مع الحياة في مصر فيما قبل التاريخ، إذ كانت الكهوف بالنسبة للمصري القديم خطوة لم تستمر طويلاً.
- (٢١) خالد سعد مصطفى درويش، مرجع سابق، ص ١٥٤.
- (٢٢) المرجع نفسه، ص ١٥٥-١٥٦.
- (٢٣) عن تادارات اكاكوس انظر: فابريتشيو موري، تادارات أكاكوس - الفن الصخري وثقافات الصحراء قبل التاريخ، مترجم، الجماهيرية العربية الليبية، ١٩٨٨.
- (24) Tutundzic, s.p., "remarks on the origin and date of subterranean constructions at Maadi" in: D. E, vol. 38, 1997, p. 104; Perez -largocha, a., "the early relationships between Egypt and Palestine" in :A.S.A.E, vol.73, 1998, P.102 .
- (25) Campboll, J., primitive my theology, London, 1878, P. 342; Dastugue, T., "pieces pathologiques de la " Necropole " Mousterienne de Qafzeh" in: palérient, Vol, 7/1, 1981, p.135.
- (٢٦) أحمد سعيد، "نشأة الديانة ما بين الترحال والاستقرار خلال العصور الحجرية في بعض بلاد الشرق الأدنى"، مجلد مؤتمر التراث والحضارة الخامس عشر لليونسكو، المنعقد في سوريا - مارس ٢٠٠٠، ص ١٢٠ - ١٢١.
- (27) Stekelis, M., "El - Qafza cave" in: Encyclopedia of Archaeology excavations in the holy- land, land, Vol. 4, Oxford, 1978, P. 961.
- (٢٨) سعدي الرويشدي، الكهوف في الشرق الأدنى، سومر، ج (١)، ٢٠٠١، ١٩٦٩، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.
- (29) www.tirejafrin.com.
- (٣٠) من نديم الحايك، مرجع سابق، ص ٣٢.
- (٣١) سالم سليمان العيسى، السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين، وسورية الشمالية، دمشق ١٩٩٩، ص ١٢١، من نديم الحايك، ص ٣٢-٣٣.
- (32) Clark, G., prehistoric societies, New York, 1968, P. 68; Anati, E., 1963, p.101; Clark, G., world prehistory in now perspective, London, 1977, p. 38.

- (1) Lewis-Williams, David. The Mind in the Cave. 2002, p.1.
- (٢) عاش إنسان نيندرتال في أوروبا وآسيا الغربية (المساحة الممتدة من إسبانيا وحتى أوزبكستان في فترة تزامنت مع العصر الجليدي الذي شاب معظم أرجاء أوروبا وآسيا قبل مائتي ألف سنة وأحدث الدراسات كشفت عن وجود هذا الإنسان في فلسطين وليبيا بالقرب من بلدة بلغاري تؤكد معاصرة هذا الإنسان للإنسان المعاصر؛ ببترقارب، بنو الإنسان، بترجمة زهير الكرمي، "عالم المعرفة" ٦٧، الكويت، ١٩٨٣. وعن ظهور الجنس البشري، راجع: وليام هاولز، ما وراء التاريخ، مترجم، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٩-٣٨.
- (٣) انظر: "عقائد الدفن وعبادة الأسلاف فيما قبل التاريخ في الشرق الأدنى القديم" في كتاب الملتقى الثالث لجمعية الآثارين العرب/ الندوة العلمية الثانية، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١-٥٦.
- (٤) عن النار راجع: باسم محمد سيد، النار في الحضارة المصرية القديمة حتى نهاية الدولة الحديثة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٩٩.
- (٥) عن عبادة الأسلاف راجع: مي نديم الحايك، عقائد الدفن وعبادة الأسلاف في بعض مواقع شرق البحر المتوسط في عصور ما قبل التاريخ - دراسة أثرية أنثروبولوجية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠٦.
- (٦) عن عبادة البرية الأم راجع: أشرف زكريا سيد شحاته، تماثيل ورموز الأمومة في مصر وبلاد الشرق الأدنى القديم في عصور ما قبل التاريخ، ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٩٦.
- (٧) جاك كوفان، ديانا العصر الحجري الحديث، دمشق، ١٩٨٨، ص ٧٥.
- (٨) Davis, W., "The study of rock art", in: Robertshaw, P., A history of African Archaeology, London, 1990, pp. 271- 272.
- (9) Linseele, V., Van Neer, W., "Faunal remains from the Tree Shelter site. In :Vermeersch, P.M. (Ed.), A Holocene Prehistoric Sequence in the Egyptian Red Sea Area: The Tree Shelter". Egyptian Prehistory Monographs 4, (2008): pp. 79-84.
- (10) Camps, G., "Les Civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara, Beginnings of pastoralism and cultivation in North-West Africa and the Sahara", Origins of the Berbers, CLARK, J. D. (Ed.), The Cambridge History of Africa 1, Paris, (1982), pp.548-623.

الملاحق



خريطة رقم (١)

موقع كهف سودمين في الصحراء الشرقية



صورة رقم (١)

جزيرة القرن الذهبي شمال بحيرة قارون في الفيوم



صورة رقم (٢)

نموذج من صور كهف السباحين

(٣٣) عن الدفنات الحيوانية في بلاد الشام راجع: زينب عبد التواب رياض، الدفنات الحيوانية في مصر والعراق وبلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ والعصور المبكرة، دار الحكمة، القاهرة، ٢٠١٤.

(٣٤) زينب عبد التواب رياض، مرجع سابق، ص ١٤٠.

(35) Cooper, T.C., an illustrated Encyclopedia of traditional symbols, London, 1978, p. 31.

(36) Cooper, T.C., op. cit., p. 31; Heyden, H., "Caves" in: *Enc. of Reli*, Vol. 3, p. 128 – 130.

(٣٧) ميسون الحوراني، الطقوس والمعتقدات في العصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى القديم (حوالي ٨٥٠٠ - ٤٥٠٠ ق.م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٨، ص ١٩.

(٣٨) المرجع السابق، ص ٢٥.

(٣٩) جاك كوفان، ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، (ترجمة) سلطان المحيسن، دار دمشق: سوريا ١٩٨٨: ص ٧٥.

(40) Mellaart, J., "the earliest settlements in western Asia" in *C.A.H*, vol. , 1-2, p.4; Redman, C.L., Op. Cit., P. 133.

(41) Solecki, R.S., Shanidar IV, a Neanderthal Flower Burial in Northern Iraq, *Science*, vol. 190, 1975, pp. 880-881.

(42) Stewart, T.D., The Restored Shanidar I Skull, *Smithsonian Institution Annual Report for 1958*, pp. 473-480, 1959.

(43) Sommer, J., The Shanidar IV 'Flower Burial': a Re-evaluation of Neanderthal Burial Ritual, *Cambridge Archaeological Journal*, vol. 9(1), 1999, pp. 127-129.

(44) Solecki, Ralph S. (1954). "Shanidar cave: a paleolithic site in northern Iraq". *Annual Report of the Smithsonian Institution* (Smithsonian Institution). pp. 389-425.

(45) Solecki, R.L., "Predatory Bird rituals at Zawi chemi shanidar" in: *Summer*, vol.33, 1977, p.42,44; Charvát, p., *mesopotami before history*, London 2002, p.4-6.

(46) Solecki, R.L., op.cit., p.44.

(٤٧) جاك كوفان، ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام، ص ٧٦.

(48) Clutton – Brock, J., *domesticated: from early times*, London, 1981, p.42; Bokonyi, S., Op.cit., p.317; Clark, T., "The dogs of the Ancient near east": in: Brewer, D., and Clark, T., *Dogs in Antiquity*, P. 49.

(49) ليوا ونهايم، بلاد ما بين النهرين، مترجم، بغداد، ١٩٨١، ص ٥٨ – ٥٩.

(50) Berglund, B. E., «Agrarian Landscape Development in Northwestern Europe Since the Neolithic: Cultural and Climatic Factors behind a Regional/ Continental Pattern», in A. Hornborg & C. L. Crumley (eds), *the World System and the Earth System, Global Socio-environmental Change and Sustainability since Neolithic*, USA, 2007, p. 111-120.

(٥١) كلين دانيال، موسوعة علم الآثار، مترجم، بغداد، ١٩٩٠، ص ١٥١.

(52) Klein, R. 2000. "Archaeology and the evolution of human behavior." *Evolutionary Anthropology*, 9:17-36.



صورة رقم (٥)

إعادة تركيب لتخيل شكل إنسان شانيدار بناء على تركيب مجتمه
Source: <http://www.smithsonianmag.com/arts-culture/The-Skeletons-of-Shanidar-Cave.html>



شكل رقم (١)

رسم تخيلي للإنسان الأول ومحاولته إشعال النار



صورة رقم (٣)

مدخل مغارة السخول في فلسطين



صورة رقم (٤)

مججمة لأحد اناس كهف شانيدار

Source: Agelarakis A., "Proto Neolithic Human Skeletal Remains in the Zawi-Chemi- Layer in Shanidar Cave". Sumer XL:1-2 (1987-88): 7-16.

الأجور والمرتبات في مصر القديمة حتى نهاية الدولة الحديثة

محمود أحمد محمد حجر

مدرس مادة بقسم التاريخ والآثار
كلية الآداب – جامعة دمنهور
البحيرة – جمهورية مصر العربية



ملخص

كانت بداية الأجور والرواتب مع بدء الاهتمام بالإنسان كمورد بشري عند تطور الحرف والصناعات الصغيرة، وبدأ بالأساس لتهيئة مساعدين لتنظيم شؤون الحرفة ومساعدة أفرادها. وتعتبر الموارد البشرية مورد أساسي لأي منظمة ولا يمكن الاستغناء عنها وتمثل كلاً من الأجور والمرتبات تعويضاً مباشراً يحصل عليه الفرد لقاء مساهمته التي يقدمها للمكان الذي يعمل به، فهما متشابهان من حيث المضمون ويختلفان من حيث الاستخدام فالشائع في الرواتب تطلق على شاغلي الأعمال المكتبية والإدارية، بحيث يتم الدفع لهم على أساس الزمن ويسمون بالموظفين، أما الأجر فهو يطلق على التعويض النقدي الذي يدفع لشاغلي الأعمال الصناعية والإنتاجية، حيث تدفع تعويضاً لهم على أساس كمية الإنتاج أو على أساس الزمن أو على أساسهما معاً. المرتب هو ما يحصل عليه الموظف ويصرف له شهرياً، أو هو المقابل المادي الذي يدفع على فترات زمنية معينة. والأجر هو ما يحصل عليه العامل ويصرف له يومياً أو أسبوعياً، أو هو المقابل المادي الذي يتم حسابه وفقاً لعدد ساعات العمل الفعلية، أي أنه قد يختلف من أسبوع لآخر وفقاً لعدد الساعات الفعلية. ومن ثمّ يمكن تعريف الأجور والمرتبات بأنها المقابل المادي الذي يستحقه العامل أو الموظف مقابل العمل أو الجهد الذي يبذله. وقد استخدمت المواد العينية في مصر القديمة وخاصة الخبز في دفع الأجور والمرتبات للعمال والموظفين وكجرايات للجنود والبحارة، واستخدمت الأطعمة في القرابين، والعقود الجنائزية. وقد تمتع العاملين من عمال وموظفين في قرية دير المدينة بمزايا عديدة لم يتمتع بها غيرهم من العاملين خارجها، فقد كانوا فئة استثنائية، فلا يقاس عليهم أحوال غيرهم من الأفراد خارج هذه القرية.

كلمات مفتاحية:

الحضارة المصرية، دير المدينة، المناجم والمحاجر، المواد العينية، أوقات العمل

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢ مارس ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٨ مايو ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمود أحمد محمد حجر، "الأجور والمرتبات في مصر القديمة حتى نهاية الدولة الحديثة". - دورية كان التاريخية. - العدد الثلاثون: ديسمبر ٢٠١٥. ص ١٩ - ٢٦.

مقدمة

تطلق على شاغلي الأعمال المكتبية والإدارية، بحيث يتم الدفع لهم على أساس الزمن ويسمون بالموظفين، أما الأجر فهو يطلق على التعويض النقدي الذي يدفع لشاغلي الأعمال الصناعية والإنتاجية، حيث تدفع تعويضاً لهم على أساس كمية الإنتاج أو على أساس الزمن أو على أساسهما معاً. المرتب: هو ما يحصل عليه الموظف ويصرف له شهرياً، أو هو المقابل المادي الذي يدفع على فترات زمنية معينة. والأجر: هو ما يحصل عليه العامل ويصرف له يومياً أو أسبوعياً، أو هو المقابل

كانت بداية الأجور والرواتب مع بدء الاهتمام بالإنسان كمورد بشري عند تطور الحرف والصناعات الصغيرة، وبدأ بالأساس لتهيئة مساعدين لتنظيم شؤون الحرفة ومساعدة أفرادها. تعتبر الموارد البشرية مورد أساسي لأي منظمة ولا يمكن الاستغناء عنها وتمثل كلاً من الأجور والمرتبات تعويضاً مباشراً يحصل عليه الفرد لقاء مساهمته التي يقدمها للمكان الذي يعمل به، فهما متشابهان من حيث المضمون ويختلفان من حيث الاستخدام فالشائع في الرواتب

المادي الذي يتم حسابه وفقًا لعدد ساعات العمل الفعلية، أي أنه قد يختلف من أسبوع لآخر وفقًا لعدد الساعات الفعلية. ويمكن تعريف الأجور والمرتبات بأنها: المقابل المادي الذي يستحقه العامل أو الموظف مقابل العمل أو الجهد الذي يبذله.

أولاً: الأجور في عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى

كان العمال في مصر القديمة يحصلون على أجر مقابل عملهم على هيئة مواد عينية، فيقول مدير الضيعة "متى" من عصر الأسرة الرابعة: "إن كل رجل عمل في تشييد قبري هذا، سواء كان صانعاً أو حجاراً فقد أَرْضِيته عن عمله". وذكر أيضاً: "جميع مَنْ عملوا في هذه المقبرة قد نالوا أجرهم كاملاً من خبز وجعة وثياب وزيت وقمح، وبكميات وافرة. كما أتى لم أكره أحدًا على العمل".^(١) وكان الخبز والجة من أهم ما يوزع من الطعام على موظفي القصور، وقد ورد في قصة خوفو والسحرة أن الساحر (ددى) البالغ من العمر وقتئذ ١١٠ سنة أن الملك خوفو أمر أن يعطوه الخبز والجة قائلاً: "رع ... يخبر بأن يقيم ددى في بيت الأمير (حرف دف) ليسكن معه، واجعل جرابته ألف رغيف من الخبز، ومائة إناء من الجة، وثورًا واحدًا، ومائة حزمة من الكرات".^(٢)

والعمال هم تلك الفئة التي تهتم بإنتاج وتصنيع السلع المختلفة والتي يستفيد منها الشعب بشكل يومي، ويمكن أن يدخل تحت راية تلك الفئة العمالية جماعة الفنانين ممن يصنعوا الأعمال الفنية الرائعة والتي يستخدمها الشعب كذلك سواء في حياتهم الدنيا أو في عالمهم الآخر^(٣) مع الوضع في الاعتبار أن الفرص المتاحة لهؤلاء الفنانين قد لعبت دورًا كبيرًا في تمييزهم عن غيرهم من العمال والحرفيين البسطاء، ويمكن تحديد هذه الفرص إن عملوا مثلاً في بلاط الملك أو في إحدى الورش الفنية أو شاركوا في تشييد بعض المنشآت الخاصة بالملكية، كل تلك الظروف قد تنقل العامل إلى مكانة اجتماعية أعلى يشعر فيها بالتميز عن غيره من الحرفيين،^(٤) فقد كان الفنان عندما يصور على جدران المقابر وهو يقوم بأداء عمله الفني، يصاحب هذا المنظر أحياناً اسم الفنان مكتوباً أعلاه، كما أنه يصور وسط أعضاء أسرة صاحب المقبرة، ولكن كانت مثل تلك الأمور تحدث على نطاق محدود، أما الأصل في ذلك أن يكون الفنان مجهولاً مثل الحرفي.

ويأتي تأكيداً على وجود مثل هذه الحالات النادرة عدد كبير من أسماء النحاتين والرسامين المسجلة أسمائهم على مصاطب الدولة القديمة، فنجد على سبيل المثال من الأسرة السادسة أحد الفنانين يدعى "سنى" يكتب بعض فقرات من سيرته الذاتية - ضارباً بهذا الإجراء كل التقاليد والأعراف بعرض الحائط - داخل مقبرة "كاحب" وابنه "خنى" في أخميم قائلاً: "أنا الذى زينت مقبرة (خنى)، وأنا الذى زينت هذه المقبرة، وكنت وحيداً".^(٥) هذا النص يدل على مدى ما وصل إليه صاحبه من مكانة، ونجده يفتخر بأنه زين المقبرة لوحده دون مساعدة من أحد.

وذكر حسن كمال أنه قد ورد أن البناء في قصر الملك كان يعطى يومياً أربعة أرغفة، وإناءان من الجة، وأن كمية الخبز التي كان يتناولها الفرد في اليوم كانت قليلة، وغالباً ما تراوحت بين ثلاثة أو أربعة أرغفة في اليوم للشخص العادي، ففي الشكوى الثانية للقروى الفصيح ما يؤكد ذلك عندما يخاطب مدير البيت (رنسى) في عصر الملك (نب- كا- رع) - أحد ملوك أهناسيا في عصر الأسرة العاشرة - مذكراً إياه بأن ما يحتاجه الإنسان في الحياة لا يزيد عن قدح من الجة وثلاثة أرغفة، فيقول له: "أن ما يحفظ أودك بيتك قدح من الجة وثلاثة أرغفة ...".^(٦) وقد أعطى لهذ القروى حصص يومية مقابل الخطب التي كان يعرضها في شكواه، أمرها الملك (نب - كا - رع) الموظف (رنسى بن مرو) إرسالها لأسرة هذا القروى بدون أن يعرف أن هذا الطعام من كبير الحجاب حتى يستمر في الشكوى،^(٧) وهو عبارة عن: "ثم واحد) أعطى له عشرة أرغفة من الخبز واثنتين من أباريق من الجة يومياً".^(٨)

وبلاحظ: أن الخبز من أهم المؤن التي تجهز بها الحملات العسكرية والبعثات الاستكشافية، ففي نص وادى الحمامات يذكر (حنو) - الأسرة الحادية عشرة - أنه أعد حملة مكونة من (٣٠٠٠) رجل، جيز لكل واحد منهم (٢٠) رغيفاً من الخبز يومياً، وفي هذه الحالة كان ينبغي عليه أن يجهز لهم (٦٠٠٠٠) رغيف من الخبز، ويبدو أن الرقم مبالغ فيه، ولكن يحتمل أنها كانت فطائر صغيرة.^(٩) وكان يرافق البعثات مهندسون يقومون بعمل التقديرات الأولية لمتطلبات مباني العمل - ما نسميه اليوم دراسة الجدوى - فقد كان من الضروري الاهتمام باعتبارات معينة قبل أن يحدد موقع البناء، حيث لا بد من تقدير كمية مواد البناء المطلوبة، وتقدير حجم قوة العمل، والتي بناءً عليها سيتم تقدير عدد العمال والبنائين، ومن ثم تقدير كمية الغذاء والسكن، وامدادات المياه وغيرها.^(١٠)

وقد ذكر (ونى) أن الملك سنوسرت الأول في العام العشرين من حكمه أرسله إلى وادى اليهودى لإحضار (الجمشت)، ويتفاخر وني بأنه سوف يأتي بأكبر قدر من الجمشت سوف يهديه إليه الملك.^(١١) وورد في النص رقم ٦١ بجويون من وادى الحمامات، المؤرخ بالعام الثامن والثلاثين من عصر (سنوسرت الأول) للمنادى "إمينى"، أن من ضمن من رافقهم في البعثة أفراداً يحملون اللقب (nww)،^(١٢) وهم من الهيئات المعاونة في تلك البعثة، وقد جاء ذكرهم في السطر السابع، وكان عددهم ثلاثون، وجاء في السطر التاسع عشر أن حصة الواحد منهم كانت خمسة عشرة رغيفاً وثلثي إناء جعة.^(١٣)

وتوجد عقود جنائزية جاء فيها إعطاء أجور للكهنة الذين يقومون بتقديم القرابين والقيام بالطقوس لمقابر بعض كبار الموظفين، ومن أمثلة ذلك مقبرة (حعبى زفاى) بأسسوط الذى عقد (عقد جنزى) أشبه ما يكون باتفاق تجارى بينه وبين الكهنة، وهو عبارة عن عشرة شروط خاصة بوقفه على مقبرته، نقشها على الحائط الشرقي في الصالة الكبيرة للمقبرة، وترجع إلى الأسرة الثانية

عشرة،^(١٤) وتهدف إلى إقامة الاحتفالات الدينية في المعبد على مر الأيام، وبديهي أن الكهنة الذين عقد معهم (حجبي زفای) عقودهم لم يكونوا يعملون بدون أجر، فقد أخذوا أجرهم على هيئة مكافأة؛ وهي تنازله لهم عن أجزاء من أرضه، أو بالتخلي لهم عن أمور أخرى، ذلك أن الرجل إنما كان بحكم مولده ينتهي إلى هيئة كهنوت الإله (وب واوات)، وبالتالي كان له نصيبه من مقررات معبد هذا الإله وربما قد تنازل لهم عن جزء من نصيبه ونصيب ورثته من هذه المقررات، هذا فضلاً على أنه قد ترك وقفاً من الأراضي والخدم والماشية والحدائق وغيرها للقيام بالطقوس الجنائزية الخاصة به قد نقشها على جدران مقبرته في ستين سطراً ربما كان بوحى من الكاهن الذى نقشته من أجله أكثر تلك العقود.^(١٥)

وصيغة هذه العقود تلتفت النظر لما بها من صياغة منظمة من حيث تحديد الواجبات، والحقوق الخاصة بكل طرف من أطراف العقد، ويمكن إجمال أسلوب صياغة هذه العقود في أنها في مجملها تتبع صياغة ترتكز على أربعة محاور، وهي :

- ١- تحديد التقدمة المطلوب تقديمها.
- ٢- تحديد الشخصية الموكلة لها تقديم التقدمة.
- ٣- تحديد المناسبة التي تقدم فيها التقدمة.
- ٤- تحديد المقابل المدفوع من أجل هذه التقديمات، أو الخدمات المقدمة.

وذلك مع اختلاف ترتيب كل محور من هذه المحاور أحياناً من عقد إلى آخر، وفيما يلي جزء من العقد الثاني من هذه العقود يوضح المحاور الأربع السابقة الذكر: "الشرط الذى تعاقده عليه الأمير رئيس الكهنة (حابي جفاي) صادق الصوت، مع كهنة الساعة لمعبد الإله (وب - واوات) سيد أسيوط، أن يقدم رغيف من الخبز الأبيض من كل منهم لتمثاله الذى في عنايته كاهن روحه، في اليوم الأول من الشهر الأول من الفصل الأول وهو يوم السنة الجديدة ... وما يقدمه في مقابل ذلك هو مكيال - حقات - من شعير الشمال من كل حقل من حقول الوقف ..."^(١٦) نلاحظ أن المقابل المدفوع من أجل هذه التقدمة هو مكيال من شعير الشمال من كل حقل من حقول الوقف.

لقد كان في إمكان أشخاص محددين معينين مقابل قيامهم بأداء الطقوس الدينية في أيام الأعياد المختلفة أن يحصلوا على أجور في شكل هبات من الأرض، ومن الضيعة ملك أبائهم، وأشكال عديدة من دخل المعبد، وجزء من ضريبة الحصاد المحجوزة على جانب.^(١٧)

ثانياً: الأجور في عصر الدولة الحديثة

في الدولة الحديثة كان يلجأ بعض المصريين إلى تأجير بعض عبيده لفترة محددة، فقد ورد في بردية (Berlin 9784) وهي من الوثائق الهامة التي تتحدث عن إجراءات تأجير العبيد واستغلال خدماتهم مقابل عائد مادي، وترجع هذه الوثيقة إلى العام الثالث أو الرابع من عصر الملك "أمنحتب الرابع"،^(١٨) وفيها يظهر أن الخدم

كان لهم صوت مسموع في إبرام عقود التأجير، فهناك خادمة تدعى "حنوت" ترفض العمل في الأيام التي اختيرت كي تعمل فيها متعللة بشدة الحر في هذه الأيام وقد سمع إليها سيدها وأبدلها بخادمان آخرين، جاء في النص: "عندئذ فإن اليومان كانا شديدي الحرارة على العبيدة حنوت فأعطى لي (أجر) يومين (خدمة) لمري-رمث-اف ويومان للعبد نخ-سني".^(١٩) وأشارت الوثيقة السابقة أيضاً إلى راعى يعانى من الفقر الشديد إلى درجة التعري، وكانت وسيلته الفضلى للحصول على الملابس أن يقوم بتأجير خادمته لمدة يومين، فنجدته يقول: "أنا عريان، دعني أعطى أجر يومين (خدمة) للخادمة خريت".^(٢٠) وبديهي أنه طالما سوف يحصل على ثمن خدمتها فهو بالتالي المالك الخاص بها. وكان لزاماً على السيد حين يؤجر عبده أن يضمن له سلامته وعدم استنزاف قوته، وكان وسيلته لتحقيق ذلك أن يحدد طبيعة العمل ومدته التي سوف يقوم به مسبقاً، فضلاً عن وضع العبد في العمل الذى يتناسب مع قدراته الجسمانية.^(٢١)

وفي الحالات التي كان يحدث فيها إخلال بمثل هذه الاتفاقات غالباً ما نجد اعتراض صارم سواء من قبل الخادم أو العبد أو حتى من قبل المسؤولين عنهم أو ملاكهم، ولدينا مثال لذلك يرجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشر جاء في بردية (Pap Louvre 3230) والتي نفهم منها أن والده إحدى الخادومات قد احتجت احتجاجاً شديداً نظراً لعدم الالتزام بالعقد المبرم لاستخدام ابنتها في عمل ما، حيث اشترطت هذه الأم أن تبقى ابنتها في معية الخادم "أحمس بن بنياتي" إلا أن سيدهما "تاي" قد كلفها بعمل آخر أبعدها فيه عن ذلك الخادم، وهنا كتبت الأم تشكو أنها لا تهم "تاي" بشكل مباشر وإنما تلوم "أحمس بن بنياتي" الذى كان من المفترض أن يكون راعياً لابنتها لأنه لم يتقدم بالاحتجاج على هذا الإجراء،^(٢٢) فيبعث هذا الخادم بدوره إلى السيد برسالة يستجديه أن يصلح من هذا الأمر حتى تكف هذه الأم عن إزعاجه، ويتضح من أسلوب ولهجة هذه الرسالة أنها مكتوبة من شخص إلى آخر يعطوه قدرًا ومكانة، وهو أمر جديد أن يرسل العبد أو الخادم سيده،^(٢٣) يقول النص:

"يقول أحمس بن بنياتي إلى سيده المشرف على الخزانة تاي: لما أخذ الخادمة التي كانت معي وأعطائها إلى رجل آخر، ألسنت خادمك الذى يسمع كل أوامرك في الليل كما في النهار، اجعل أجرها يعطى إلى فهي لا تزال صغيرة، فهي لا تقدر على الأعمال، فليأمر سيدي أن يُعطى أجر أعمالها مثل أي خادمة لدى سيدي". "أرسلت لي أمها قائلة: أنت الذى سببت أن تؤخذ ابنتي عندما كانت هناك عندك، فلم أشكو إلى سيدي، حيث أنها كانت معك وهي صغيرة. هكذا قالت لي مُهمّة".^(٢٤)

وقد كانت أسر النبلاء والحكام تعطى الأجور على شكل هدايا ومنح لمن يلتحقون بالعمل عندهم،^(٢٥) ومثال ذلك طبيب غير معروف الاسم مُنح هدايا من نحاس وبرونز، ومقتنيات أخرى من شخص يدعى "أوسر حات"، وقد ورد ذلك في بردية تورين - من عصر رمسيس الثالث - يقول النص: "العام التاسع والعشرين،

وعن أوقات العمل، فلم يعمل العمال كل يوم، حيث أن أسبوع العمل فيما يبدو شمل ثمانية أيام، ويستريح العمال في يومي التاسع والعاشر، فإذا كان الشهر المصري يتكون من ثلاثين، فإن هناك ستة أيام راحة في الشهر، ورغم أن هناك عمال قد يأخذون ثلاثة أيام راحة في نهاية كل أسبوع، إلا أنه كانت هناك فترات اختيارية متاحة أثناء أسبوع العمل أيضاً، بالإضافة إلى الإجازات في الاحتفالات الدينية والسياسية، وقد انقسم يوم العمل إلى فترتين بينهما استراحة وقت الظهيرة تقريباً لتناول الغذاء، ولدينا من عصر الرعامسة سجل حضور من الحجر الرملي مكتوب فيه اسم العامل، ويمكن ملاحظة الأيام التي غاب فيها، كما يشار إلى أسباب غيابه باللون الأحمر في أماكن غيابه.^(٣٨)

ويُعدّ عمال دير المدينة أسعد حظاً عن غيرهم من العمال باكتسابهم بعض الحقوق التي قد تضمن لهم عيشة آمنة، فكان يمكن لبعض الأشخاص الذين يعملون كحرفيين بالجبانة أن يتسلم بيتاً في القرية عبارة عن منزل صغير، أو كوخ، وأحياناً مقبرة وإن احتوت على أساس جنازي بسيط في أغلب الأحيان،^(٣٩) وأحياناً مخزن، بالإضافة إلى بعض الأملاك المنقولة مثل الماشية، والحمير، والأغنام، وكذلك الخدم،^(٤٠) وقد سمح لهم استئجار الخدم، فنجد مثلاً الرسام (قن) من عصر الملك رمسيس الثاني - صاحب المقبرة رقم (٤) - يمتلك أكثر من دسنة من الخدم الذين كان يتم شراؤهم من الجنود المصريين الذين كانوا يحصلون عليهم كأسرى من الحروب،^(٤١) كذلك كانت الدولة تخصص خادمة مدفوعة الأجر لزوجات العمال للقيام بأعمال المنزل حتى يتفرغن من لأعمال المنزل، وأعمال الزراعة بدلاً من أزواجهن الذين كانوا مسؤولين بدورهم عن حفر المقابر الملكية، ومقابر الأشراف بالبر الغربي،^(٤٢) بل ونجد من المشرفين على بناء المقابر من وصل إلى مركز هام في الدولة.^(٤٣)

على الرغم من المكانة الخاصة التي تمتع بها عمال المقابر في المجتمع المصري، يرى (Strouhal.E) أنهم كانوا لا يتمتعون بحرية كاملة، فقد ربط كل عامل حياته بمقر عمله، ولم يسمح لأحد أن يغادره إلا إذا كلف بمهمة أخرى، وأنه في حالة وجود كثافة عمالية في إحدى الحرف فيمكن أن يُنقل العامل إلى حرفة أخرى قد تتبع طبقة أدنى من السابقة،^(٤٤) وقد يحدث ذلك كثيراً إذا ما عرفنا أن الأعداد داخل القرية كانت في تزايد مستمر، فكان البيت الواحد يجمع بين أفراد الأسرة مع الخدم مما كان له الأثر على موارد الغذاء، والتي أصبحت معها ذات قيمة مرتفعة في الأسواق.^(٤٥)

ومما يدل على تفاعل عمال دير المدينة بخارجها هو امتلاك العمال أرضاً، وماشية، ساعدهم أشخاص من خارج دير المدينة على القيام بشئونهم.^(٤٦) وكان عمال دير المدينة يحصلون في مقابل أعمالهم على جريات توزع عليهم جميعاً بشكل يضمن لهم الاكتفاء، وسد حاجاتهم، وحاجة أسرهم، وهذا ما افتقر إليه وتمناه أغلب العمال والحرفيين خارج القرية، فقد كانت تلك

الشهر الرابع من فصل الفيضان، اليوم الأخير، أعطيت للطبيب بواسطة أوسر حات.^(٣٦) ثم يذكر النص ما حصل عليه هذا الطبيب من أجر على شكل الهدايا كالاتي: "إناء من البرونز يقدر بأربعة دين، سلة من أغصان البوص تقدر بخمسة دين، زوج من الصنادل يقدر بأربعة دين، من الخشب يقدر بعشر وبيات، سلة بمصفاة بواحد وبيبة (٢) هن من زيت المرحت يقدر بـ (٢) وبيبة، صندوق من الخشب يقدر بـ (٢) وبيبة. مجموع ما حصل عليه هذا الطبيب يقدر بـ (٢٢) دين^(٣٧) من النحاس".^(٣٨)

ويرى (Pestman) أن القائمة المذكورة هي قائمة مقابل أتعاب هذا الطبيب،^(٣٩) وذلك مقابل رعايته الطبية لزوجة أوسر حات.^(٣٠) وفي نهاية الأسرة العشرين كانت الرواتب تضم أواني من الأحجار الكريمة، وسلال الطعام، وأواني الشراب، وأنواع من الزيوت والدهون.^(٣١)

ثالثاً: العمل في دير المدينة

نعرف عن عمال دير المدينة أكثر ما ندرى عن غيرهم من العمال، وذلك لأن الضفة الغربية من طيبة أصبحت خلال الدولة الحديثة مثل خلية نحل تعج بالصناعات، والعمال لتجهيز المقابر الملكية في وادي الملوك، ووادي الملكات، الأمر الذي استدعى قيام مستعمرة دائمة للعمال الذين تكرس حياتهم لها وحدها.^(٣٢) ويرجع أصل تنظيم عمال المقابر الملكية بدير المدينة إلى عصر أمنحتب الأول فهو الذي فكر في تكوين طائفة خاصة من العمال والفنانين والنحاتين، والتي جعلها تخصص في إعداد المقابر لهذا أصبح محل تقديس بعد وفاته،^(٣٣) وقد خصص لهم قرية خاصة بهم، وهي قرية دير المدينة.^(٣٤)

وعندما نتحدث عن عمال دير المدينة فيقصد بهم كل سكان تلك القرية، وليس عمال البناء فقط، وإنما يدخل معهم الكتبة، ورؤساء الفرق، وحراس البواب، وعمال النظافة، وغيرهم من أفراد القرية.^(٣٥) وبشكل أوضح فقد كان داخل قرية العمال تقسيم طبقي مستقل بذاته، يميز بين الفرد، والآخر كل على مقدار عمله، فيأتي على رأس القائمة رؤساء العمل، فالكتبة والمشرفين، ثم المخططين، فالنحاتين والرسامين، ثم عمال قطع الأحجار، وفي القائمة يوجد العمال غير المهرة القائمين على الأعمال المساعدة لعمال الحفر مثل خلط الملاط، أو حفر الخنادق، ومن بعدهم يأتي المسؤولون عن خدمة احتياجات المنازل كتجميع الوقود، وإحضار الطعام والمياه إلى العمال، ويدخل ضمنهم الحراس.^(٣٦)

وقد عُثر في دير المدينة على آلاف الأوستراكا التي كتبت بالخط الهيراطيقي، والتي تعكس لنا جانباً من الحياة اليومية لهؤلاء العمال، وعن مرتباتهم ومعداتهم وطريقة عملهم، وأسباب غيابهم عن العمل، ونعرف منها أن هؤلاء العمال كانوا يعملون تحت مراقبة سلطة الوزير، وكان مكتب الوزير مكلفاً بمدّهم بالمعدات والأدوات اللازمة للعمل، كما كانت الدولة مكلفة بمدّهم بالمواد الغذائية.^(٣٧)

الجرايات منها ما يصرف كل عشرة أيام، أو كل شهر، أو كل عام مما يولد الشعور لدى العمال بالطمأنينة التي تسمح لهم بالإنجاز في عملهم.^(٤٧)

وكانت أجور هؤلاء العمال عبارة عن حبوب من قمح، وشعير، فضلاً عن الخضروات، والأسماك، وأخشاب لازمة للوقود، وكان يوزع عليهم في بعض الأحيان الشحوم، والزيت، والملابس، وكانوا يمنحون في مناسبات خاصة مكافآت من الملك عبارة عن جعة، ولحوم، وملح النطرون، وكانت توجد صوامع لتخزين الحبوب، ومطابخ لإعداد الطعام.^(٤٨) وكانت الدهانات تصرف كل عشرة أيام، أما الملابس الكتانية فكانت توزع مرة كل عام، وقد أوضح هذا رعمسيس الثاني في إشارته لعماله في دير المدينة، حيث يقول لهم: "كل شخص منكم سوف يتراضى شهرياً، لقد ملئت المخازن لكم بكل شيء بالخبز، واللحم، والمخبوزات، والنعال، والنسيج، وكثير من الزيوت لتدهنوا رؤوسكم كل عشرة أيام، وملابس كل عام".^(٤٩)

ومن النصوص أيضاً ما يسجل حديثاً طويلاً خاطب فيه رعمسيس الثاني الفنانين والحجارين بما يدل على أنه أنشأ لهم إدارة كبيرة تقوم على توفير ما يحتاجون إليه من طعام وشراب وكساء وعطّر.^(٥٠) يقول رعمسيس الثاني في إحدى الوثائق التي تركها لنا في وصف معاملته لعماله، وتشجيعه لهم: "أنتم أيها الرجال الطيبون، يا مَنْ لا يعرفون التعب، ويا أيها الحراس الساهرون على العمل طوال الوقت، ويا من ينفذون واجباتهم على الوجه الأكمل، وأنتم يا من يقولون إننا نعمل بعد التروى فنقوم بهذه الخدمات في الجبال المقدسة، لقد سمعت ما يقوله بعضكم لبعض، وإن فيكم لبركة، لأن الأخلاق تظهر في تضاعيف الكلام، وأناي رعمسيس الذي ينشئ الشباب بإطعامهم، والأغذية أمامكم وفيرة حتى أصبح لا يتلهف عليها أحد من بينكم، والطعام غزير حولكم، ولقد كفيت حوائجكم من كل وجه صحيح حتى تعملوا بقلوب محبة، وأناي دائماً المحافظ على حوائجكم، وإن المؤن قد أصبحت لديكم أثقل من العمل نفسه، وذلك لأجل أن تنفذوا وتصبحوا عمالاً صالحين، لأني أعلم علم اليقين عملكم الذي ينشرح له (صدر) كل من يعمل فيه عندما يكون البطن مملوءً، فالمخازن مكدسة بالغلل (أمامكم)، ولا يمر يوم تحتاجون فيه للطعام، وكل واحد منكم عليه عمل شهر (بالتناوب)، ولقد ملأت لكم المخازن بكل شيء من خبز ولحم وفطائر ونعال وملابس، وكذلك العطور لتعطير رؤوسكم كل أسبوع، ولكسانكم كل سنة، ولأجل أن تكون أقدامكم صلبة دائماً، وحتى لا يكون من يمضى الليل يئن من الفقر، ولقد عينت خلقاً كثيراً ليمونوكم من الجوع، وكذلك خصصت سماكين ليعضروا لكم سمكاً، وزراعاً لينبتوا لكم الكروم، وصنعت لكم أواني واسعة على عجلة صانع الفخار مسوياً بذلك أوعية لتبريد الماء لكم في فصل الصيف، والوجه القبلي يحمل لكم حباً للوجه البحري، والوجه البحري يحمل للوجه القبلي حباً وقمحاً وملحاً وفولاً

بكميات وافرة، ولقد قمت بعمل هذا لأجل أن تسعدوا، وأنتم تعملون بقلب واحد".^(٥١)

يلاحظ أن: القمح كذلك من الجرايات التي تصرف شهرياً، وقد سجلت هذه الجرايات في وثائق رسمية أعانتنا على معرفة عدد العمال داخل المقبرة الملكية، وكذلك تخصصاتهم المختلفة، فقد كان يسجل إلى جانب كل اسم طبيعة عمله مثل (حامل الأرميل)،^(٥٢) ونرى بعض الأفراد قد استلم ما يقرب من خمسمائة لتر، والبعض الآخر أخذ أقل من ذلك، وذلك حسب منصب كل فرد، فلم يُعامل رئيس العمال مثل عماله.^(٥٣) ويلاحظ أيضاً أنهم كانوا يحصلون أربع مرات في الشهر على كمية كبيرة من الأسماك التي كانت تؤلف الغذاء الرئيس لهم.^(٥٤) وإلى جانب الأسماك والحبوب والخضروات كانت تصرف لهم في الظروف الحسنة الفطائر، والأواني الفخارية، وكذلك الوقود بالإضافة لخدمات غسيل الملابس، ومن كل هذه الجرايات كان عمال القرية غالباً ما يحصلون على كمية تزيد عن احتياجاتهم، كانت هذه البقية الباقية تستخدم للمقايضة بسلع أخرى.^(٥٥)

ويتضح من بعض سجلات دير المدينة أن العامل كان يخصص له (١٠٠٠) رغيف من خبز (كرشت)،^(٥٦) وأنه أعطى كمربيات لبحارة المراكب وموظفيها في حدود رغيفين أو ثلاثة يوميًا لكل شخص، ويزيد عدد أرغفة بارتفاع مكانة الشخص الوظيفية فنجد خمسة بحارة يأخذون (١٥) رغيفاً بواقع (٣) أرغفة للفرد، في حين أن هناك خادماً يأخذ رغيفين فقط، بينما يأخذ طبيب يدعى (نفر رحو) عشرة أرغفة، ويأخذ كاتب يدعى (بكارو) ثلاثة أرغفة، وتدل الكمية التي يأخذها الفرد الواحد من هذا النوع من الخبز على درجته الوظيفية، وبما أن العدد الذي يتراوح بين ٣:٢ أرغفة يُعد عدد صغير فإن هذا يدل على أن رغيف كركشت كان كبيراً نسبياً، وكان رغيف كركشت يتراوح فيما بين ٥:٣ دين، فإن كان كيس الحبوب الواحد يحتوي على ٢٤٥ ديناً من الدقيق فإنه ينتج حوالي سبعين رغيفاً من خبز (كرشت)، وذلك طبقاً لما جاء في حسابات المخازن في عصر سيتي الأول، وتذكر بردية بالمتحف البريطاني أن ٧ - ٨ كيس من الحبوب يعطى خمسين رغيفاً من خبز (كرشت)، وتذكر بردية أنستاسي أن هذا الخبز صنع من دقيق (kmh).^(٥٧)

ومن سجلات دير المدينة نجد أن الخبز الأبيض كان يوزع منه (٣٥) رغيفاً على (٣٥) بحاراً بواقع رغيف أبيض لكل بحار، بينما يأخذ الكاهن (سم) رغيفين من الخبز الأبيض. وإلى جانب خبز (kršt) وجد خبز (عكك) الذي استخدم ضمن القرابين، وفي الحياة اليومية، ويذكر جاكبيه أنه كان يصنع من الدقيق نفسه ويسوى بنفس الطريقة التي كان يسوى بها خبز (كرشت) لكنه أثقل منه أربع مرات، ويأخذ غالباً الشكل نصف الدائري، وكان جزءاً من الطعام اليومي للعمال، وقد أشارت واحدة من أوستراكا دير المدينة إلى توزيع (١٣٢) رغيفاً من خبز (عكك) الكبير على العمال.^(٥٨)

ويرى يونكبير أن ذكر اللقب هكذا (الطبيب با) وليس طبيباً ليدل على أن المقصود لم يكن وجود طارئاً لهذا الشخص، إنما وظيفة دائمة.^(٦٩) ويذكر يونكبير أيضاً أن هناك فقرة في بردية تورين رقم (٨٠١٨) تشير إلى أعضاء الجانب الأيسر من عمال المقبرة الملكية، ومن المحتمل أنها مقبرة رمسيس الحادي عشر، ومن بين أعضاء ذلك الجانب الطبيب (خوى مين)،^(٧٠) وكان هذا الطبيب يمتلك منزلاً في غرب طيبة، وقد ذكره (Peet) في قائمة لتسجيل الأراضي التي تضم (١٨٢) منزلاً غرب طيبة،^(٧١) ويستدل من وجود ذلك المنزل لهذا الطبيب على وجود وظيفة طبيب عمال الجبانة.^(٧٢) لم توزع الجرايات التي كانت تصرف على عمال المقابر فقط، وإنما كانت توزع على كل من يسكن القرية حتى حراس المقابر الذين كانوا يحرسون المخازن، والأدوات المعدنية، وكان عملهم تحت إشراف الكتبة، فقد كانوا يحصلون كذلك على الزيوت والشحوم والملابس والجلود، والنعال.^(٧٣)

كان لندرة المصادر الأثرية أثر كبير في صعوبة التعرف على الكثير من جوانب طبيعة حياة العمال والحرفيين، وذلك في مقابل الاهتمام المبالغ بالطبقة العليا، بداية من الفرعون نفسه وحتى الوزراء، وكبار الموظفين، والكتبة، وقادة الجيش ... إلخ ممن قدرت لهم الظروف أن يتحروا من نير الفقر، ورغم أن تلك الطبقة تمثل قلة عديدة من المجتمع المصري القديم إلا أن آثارهم أمدتنا بالكثير من المعلومات عنهم،^(٧٤) والتي بدورها قد ألقت بصيصاً من الضوء على المهن والحرف التي زاولها أصحاب الطبقة الدنيا لخدمة أغراض أسيادهم، وهو الأمر الذي لا يمكن أن يغفله إزاء تلك البقايا الأثرية الخاصة بالنبلاء، فنجد أحد الفنانين قد نال تقديرًا زائدًا عن المؤلف، حيث ظهر في إحدى جبانات طيبة منظرًا يمثل المتوفي وهو جالس في مأدبة ومعه في صحبته رسامه ونحاته، وقد يمثل ذلك التألف نوعًا من التقدير والتكريم قد يكون بديلاً عنه في حالات أخرى أن يكافئ النبيل فنانيه وصناعه بتقديم بعض من الهدايا أو الأوقاف الجنائزية.^(٧٥)

ويمكننا القول: أن كل النحاتين والرسامين والنجارين والصائغين وكل العمال المهرة التي تملأ أعمالهم الفنية الرائعة كل متاحف العالم، إنما هم في مخيلة ونظر القدماء المصريين أنفسهم ليسوا إلا حرفيين يعملون مقابل صرف جرايات يومية مثل باقي العمال.^(٧٦)

خاتمة

استخدمت المواد العينية وخاصة الخزف في دفع الأجور والمرتبات للعمال والموظفين وكجرايات للجنود والبحارة. واستخدمت الأطعمة في القرابين، والعقود الجنائزية مثل عقود (حابي جفائي) مع كهنة معبد الإله (وب - واوات)، وكان في إمكان أشخاص محددين معينين مقابل قيامهم بأداء الطقوس الدينية في أيام الأعياد المختلفة أن يحصلوا على أجور في شكل هبات من الأرض، ومن الضبعة ملك أبائه، وأشكال عديدة من دخل المعبد، وجزء من

وخلاصة السجلات اليومية لسفينة الجنود والتي دونها أحد الموظفين في العام الخمسين من حكم رمسيس الثاني وفيها مؤونة البحارة وموظفي المركب من الخبز والأطعمة الأخرى.^(٥٩) لقد كان العاملون في دير المدينة يحصلون على أجورهم على هيئة حصص من الطعام، يضاف إليهم الأطباء الموجودين في مجموعات العمل الذين كانوا يحصلون على حصص من الحبوب مثلهم في ذلك مثل باقي الأعضاء الآخرين في مجموعات العمل،^(٦٠) وقد يجد المرء صعوبة في تحديد أجور الأطباء ومكافآتهم وذلك نظرًا لقلة الإشارات النصية الواردة في ذلك الصدد، وبشكل عام فإن أجور الأطباء كانت على شكل مكافآت عينية يحصلون عليها نظير خدماتهم،^(٦١) ومثال ذلك الهبات العينية الإضافية التي تعطى كبديل للأطباء العاملين في مقابر قرية دير المدينة في الأسرة التاسعة عشر، بالإضافة إلى احتياجاته الأساسية التي يحصل عليها نظير عمله الأساسي الآخر في هذه القرية.^(٦٢)

وقد ورد ببردية ليدن - والتي كتبت في عصر الأسرة التاسعة عشر - ما يشبه عملية توزيع المؤن على العاملين بمنطقة الرامسيوم، ومن بينهم طبيب كان له نصيب في التقسيم العام للتموين الدوري ضمن أفراد الرامسيوم.^(٦٣) وكان الوزير هو المشرف على رواتب العمال، والتي كانت تصرف من خزانة الملك، فقد ذكر في خطاب موجه للوزير (با - سر) وزير رمسيس الثاني هذه العبارة: "سلم راتب المقبرة (الملكية)".^(٦٤) وفي خطاب من الوزير (خحي) إلى رئيس العمال (نب - نفر) ردًا على سؤال رئيس العمال عن الجهة التي تصدر الرواتب: "راتب العمال الذي على خزانة الملك له الحياة والرخاء والرفاهية والصحة".^(٦٥) ويشير النص إلى أن الرواتب كانت أحد مجالات الصرف التي تختص بها خزانة الملك، وتتكون الرواتب التي تعطى للجبانة من نحاس، وملابس، وزيت.

لقد كان العدد الكبير الذي تتكون منه البعثات بحاجة إلى أطباء للقيام بالرعاية الطبية لأفراد البعثة، ولعلاج ما قد يحدث من إصابات أثناء العمل، بل ولتجنب أخطار الطريق، ولدغات الثعابين والعقارب، وهناك نموذج لطبيب المجموعة، أي الطبيب الذي يصاحب مجموعة العمل، وهو طبيب الجبانة، حيث الصانع والحرفيون الذين يقومون بالعمل في الجبانة، وبالتالي يمكن وقوع حوادث بينهم أثناء العمل،^(٦٦) ففي الأوستراكا رقم (٥١٥١٨) - بدير المدينة - التي ترجع إلى النصف الثاني من عصر الأسرة العشرين^(٦٧)

نجد كشف حساب شهري للحبوب التي توزع على العاملين، ومنهم فريق العمل الذي يمثل الجانب الأيمن من العمال في مقابر طيبة، وفي ذلك الكشف نجد رئيسًا للعمال، وكاتبًا، وحارسًا، وسبعة عشر رجلاً، وخدم، وفي نهاية القائمة نجد (الطبيب با) (p3 swnw)، وقد منح ربع كحر من الحبوب، وكحر من نوع آخر،^(٦٨) ويلاحظ من هذا بأن نصيب هذا الطبيب لم يكن يختلف كثيرًا عن غيره من العاملين.

ضريبة الحصاد، وقد كان الخبز من أهم المؤن التي تجهز بها الحملات العسكرية والبعثات الاستكشافية، وتكونت الرواتب التي تعطى للجبانة من ملابس، وزيت، وسمك، واخشاب، ونبيد، وخضروات.

كان الأطباء يأخذون أجورهم في شكل مكافآت عينية يحصلون عليها نظير خدماتهم، ومثال ذلك الهبات العينية الإضافية التي تعطى كبديل للأطباء العاملين في مقابر قرية دير المدينة في الأسرة التاسعة عشرة، بالإضافة إلى احتياجاته الأساسية التي يحصل عليها نظير عمله الأساسي الآخر في هذه القرية. قد تمتع عمال دير المدينة بمزايا عديدة لم يتمتع بها غيرهم من العمال خارج دير المدينة، فقد كانوا فئة استثنائية، فلا يقاس عليهم أحوال العمال في مصر القديمة.

الهوامش:

- (١) محمد بيومي مهران: الحضارة المصرية القديمة، الجزء الثاني، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٨، ١٠٦، ١٠٧.
- (٢) لا يجب أن يؤخذ هذا الأمر على أنه شراهة، وإنما هي مجرد مبالغة شديدة؛ لإبراز الصفات الغربية التي يتمتع بها هذا الساحر، انظر: إيمان محمد المهدي: الخبز في مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩، ٢١٨.
- (3) Strouhal. E., Life of Ancient Egyptians, Cairo, 1996, 137; عماد أحمد إبراهيم الصياد: تصوير فئات الطبقة الدنيا في المجتمع المصري القديم من خلال النصوص الأدبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٧، ١٢٩.
- (4) جونيفيف هوسون، دومينيك فالبييل: الدولة والمؤسسات في مصر (من الفراغة الأوائل إلى الأباطرة الرومان)، ترجمة فؤاد الدهان، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط الأولى، القاهرة، ١٩٩٥، ٦١.
- (5) Kanawati, N., The Tomb and its Significance, Guizeh, 1999, 95.
- (٦) حسن كمال: الطب المصري القديم، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ٣٣١.
- (٧) مصطفى النشار: الخطاب السياسي في مصر القديمة، الطبعة الأولى، دار قباء للطباعة، القاهرة، ١٩٩٨، ٩٩.
- (8) Leprohon. R. J., The Wages of the Eloquent Peasant, JARCE (12), 1975, 97.
- (٩) إيمان محمد المهدي: المرجع السابق، ٢٢٠، ٢٢١.
- (10) Smith, B., How The Great Pyramid was Built, U.S.A, 2004, 72.

(١١) أمينة عبد الفتاح محمد السوداني: المناجم والمحاجر في مصر القديمة (منذ بداية الدولة القديمة وحتى نهاية الدولة الحديثة)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، ٢٠٠٠، ١١٩.

(١٢) قد ترجمه Faulkner بمعنى الصياد، وأوردها بهذا الشكل (nw)، انظر:

Faulkner., CD, 127.

(13) Goyon. G., Nouvelles Inscriptions Rupesres du Wadi Hammamat, Paris, 1947, nr.61;

السيد أحمد محمد محفوظ: النشاط المصري القديم في مناطق البحر الأحمر (الصحراء الشرقية وسيناء) خلال النصف الأول من الأسرة الثانية عشرة من عصر "امنمحات الأول" حتى عصر "سنوسرت الثاني"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، ١٩٩٤، ٣٠٤.

(14) Griffith. F. L., The Inscriptions of Siût and Dêr Riefh, London, 1889, 9.

(١٥) سمير أديب: موسوعة الحضارة المصرية القديمة، الطبعة الأولى، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠، ٦٥٥، ٧٢٠.

(١٦) عبد المنعم محمد عبد المنعم مجاهد: نصوص ومناظر القرايين في مقابر النبلاء في عصر الدولتين القديمة والوسطى: "دراسة مقارنة"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٢٠٠٠، ٣٠٢، ٣٠٣.

(١٧) ب. ج. تريجر وآخرون: مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)، ترجمة لويس بقطر، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠، ١٢٦.

(18) Möller, G., Zur Datierung Literarischer Handschriften aus der ersten Hälfte des Neuen Reichs, ZÄS, 56, Leipzig & Berlin, 1920, 37.

(١٩) عماد أحمد إبراهيم الصياد: المرجع السابق، ٢٩٢.

(20) Gardiner, A.H., ZÄS, 43, 28;

عماد أحمد إبراهيم الصياد: المرجع السابق، ٢٨٦.

(21) Allam, S., Slaves, in: OEAE, III, Oxford University, 2001, 295.

(22) Peet, T. E., Two Eighteenth Dynasty Letters. Papyrus Louvre 3230, JEA (12), 1926, 73-74.

(23) Bakir, A.EL-M., Slavery in Pharaonic Egypt, SASAE, 18, Cairo, 1978, 18.

(24) Peet, T. E., op. cit., PL. XVII.

(25) Sigerist, H. A History of Medicine, I, New York, 1951, 32.

(26) Gardiner, A., Ramesside Administrative documents, Oxford, 1948, 49, 15 ff.

(٢٧) الوبية والدين من أنواع الموازين والمكايل في مصر القديمة، وعن ذلك انظر: محمد صلاح محمد أحمد: المكايل والموازين في مصر القديمة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٠.

(28) Allam, S., Hieratische Ostraka und Papyri Aus der Rammessiden Zeit, Tubingen, 1973, 310.

(29) Pestman., The Law of Succession in Ancient Egypt, Studia et Doc, 9, 1969, 64; Allam, S., op. cit., 312.

(30) Jonckheere, F., CdE (52), 155.

(٣١) فايزة محمود صقر: الوزير في مصر القديمة، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٤، ٤٨ - ٤٩.

Helck, W., Wirtschaftsgeschichte des Alten Ägypten im 3. Und 2. Jart ausend vor chr., Leiden, 1975, 201, 249.

- Adjustment in Ancient Egypt , JESHO (43,2) , Leiden , 2000 , 74 .
- (54) Douglas . J . B & Friedman . R . F., Fish and Fishing in Ancient Egypt , Cairo , 1990 , 16 .
- (55) McDowell, A.G., Village Life in Ancient Egypt , Laundry Lists and Love Songs , Oxford , 1999 , 5 .
- (٥٦) خبز كرشت: من أسماء الخبز التي لم تظهر إلا في الدولة الحديثة، ولكنه من أهم أنواع الخبز التي استمرت حتى العصر المتأخر، وترجع أهميته لاعتباره غذاء رئيسيًا لكافة طبقات الشعب وطبقة العمال على وجه الخصوص، وقد استخدم هذا النوع بكثرة كما يبدو في الحياة اليومية بين العامة، فكان منه جارية الجنود وأجور العمال ومؤن البحارة والعاملين على السفن، ومن أنواع الخبز التي استخدمت كأجر خبز (عقو) الذي ظهر ابتداء من بداية الأسرات فجاء على لوحة (منخ مجفأ) (الأسرة الثانية) من حلوان، ولكنه لم يرد له ذكر بعد ذلك في أي من نصوص الدولة القديمة حسبما نعلم، وإن كان قد عاود الظهور مرة أخرى في الدولة الوسطى، غير أنه لم ينتشر إلا في الدولة الحديثة ومما يشير إلى شيوع استخدامه حينذاك في أغراض القرابين، وكجارية للجنود، انظر: إيمان محمد المهدي: المرجع السابق، ٣٨؛
- O.DeM., 79-93-250-324 recto.
- (٥٧) إيمان محمد المهدي: المرجع السابق، ٣٩.
- (58) Janseen, J.J., Commodity Prices from the Ramesside Period , An Economic Study of Village of Necropolis Workmen at Thebes , Leiden , 1975, pp.344 – 345 .
- (٥٩) إيمان محمد المهدي: المرجع السابق، ٢٦.
- (60) Sigerist, H., op.cit , 323.
- (61) Ibid , 322 .
- (٦٢) جون . إف . ن: الطب المصري القديم، ترجمة عمرو شريف، عادل وديع فلسطين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢، ٢٥٧.
- (63) Jonckheere, F., CdE (52) , 262.
- (٦٤) فايزة محمود صقر: المرجع السابق، ٤٧، ٤٨؛
- Černy,A.,& Gardiner, A.H., Hieratic Ostraca , I, Oxford, 1957, pl.30.
- (65) KRI , III , 45 : 14.
- (66) Jonckheere , F , , op – cit , 260 .
- (67) Černy , J , , Qulques Ostraca Hieratiques inedites de Thebes au Musee du Cairo , ASAE (27) , 1927 , 207.
- (68) Ibid, 207, 208 .
- (69) Jonckheere , F , , op – cit , 261 .
- (70) Ibid , 262 .
- (71) Peet . T . E . , The great Tomb-robberies of Twentieth Egyptian dynasty , I , II , Oxford , 1930 , 85 , Pl.15 .
- (72) Jonckheere . F , , op – cit , 262 .
- (73) Strouhal, E., op . cit , 189.
- (74) Cottrel, L . , Life under the Pharaoh , London , 1975, 126.
- (75) Casson . L . , , op.cit , 80;
- عماد أحمد إبراهيم الصياد: المرجع السابق، ١٢٩، ١٣٠.
- (76) Casson, L . , , op.cit , 54 .
- (٣٢) آلن شورتر: الحياة اليومية في مصر القديمة، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم، مراجعة محرم كمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ٢٣؛
- (٣٣) يرى تشرنى أن (أمنحتب الأول) أله في جبانة طيبة، وأن تمثاله كان يقوم بالفصل في الخصومات بين العمال بواسطة الوحي الذي ينطق به التمثال في المحراب، أو الموكب، انظر:
- Černy, J . , Le Culte d'Amenophis I Chez Ouvriers de la Nécropole Thébaine , BIFAO 27 , 1927 , 161 .
- (٣٤) تقع دير المدينة في الطرف الجنوبي من تلال غرب طيبة، وقد عرفت في النصوص المصرية باسم ست ماعت، أي: "مكان الحق"، وتضم المنطقة قرية العمال الذين أعدوا مقابر الملوك، وكبار رجال الدولة، وكذلك المعابد وغيرها، وقد أرخت مدينة دير المدينة ببداية الأسرة الثامنة عشرة، وذلك لوجود اسم "تحتمس الأول" على أحجارها، انظر:
- Černy, J . , A Community of Workmen at Thebes in the Ramesside Period, Cairo, 2001 , 99 ; Zaky, M . , La Tendence Religieuse des habitants de Deir EL – Medineh, ph .D. Thesis Faculty of Tourism (Helwan University) , 2001 .
- (35) McDowell, A.G., Jurisdiction in the Workmen's Community of Deir EL – Medina, DE 23, 1992, 99.
- (36) Casson, L., Everyday life in Ancient Egypt, Baltimore and London, 2001, 79.
- (37) Allam, S . , Every Life in Ancient Egypt,Cairo,1985,59-64 ;
- رمضان عبده: حضارة مصر القديمة منذ أقدم العصور حتى نهاية الأسرات، الجزء الأول، دار الجامعة، القاهرة، ٢٠٠١، ٤٠٩، ٤٤٤.
- (38) Bierbrier, M . , The Tomb – Builders of Pharaohs , Cairo , 2000 , 52 ff, fig. 34 .
- (39) Janseen, J.J & Pestman .P.W., Burial and Inheritance in the Community of the Necropolis Workmen at Thebes (Pap.Bulaq X and O.Petrie 16) , JESHO 11 , 1968 , 137 .
- (40) Strouhal,E., op.cit,187 .
- (41) Ibid, 191.
- (٤٢) حسن محمد مكي الدين السعدى: موضوعات في الحضارة المصرية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣، ١١٢، ١١٣.
- (43) Edgerton ,W.F., The Strikes in Ramses III's Twenty – Ninth Year , JNES 10, No. 3 , 1951 , 137 .
- (44) Strouhal, E., op . cit , 187 .
- (45) Romer, J., Ancient Lives, Daily Life in Egypt of the Pharaohs, New York, 1984, 117.
- (46) Ibid;
- فايز أنور عبد المطلب مسعود: الوعي السياسي للشعب المصري القديم حتى نهاية الدولة الحديثة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإسكندرية (فرع دمهور)، ٢٠١٠، ١٤٣.
- (٤٧) عماد أحمد إبراهيم الصياد: المرجع السابق، ٢٠٣.
- (48) Janseen . J.J . , op.cit , 456.
- (49) Casson . L., op . cit , 79.
- (50) Hamada . A . , A stela from Manshiyet Es-Sadr , ASAE XXXVIII , 1938 , 219 .
- (٥١) سليم حسن: موسوعة مصر القديمة (عصر رعمسيس الثاني وقيام الامبراطورية الثانية)، الجزء السادس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، المقدمة، ع.
- (52) Černy . J . , op . cit , 105 .
- (53) Warburton . D., Before the IMF : The Economic Implications of Unintentional Structural

المدافن الملكية في العراق القديم المدافن المكتشفة في مدينة أور أنموذج (٢٨٠٠ – ٢٠٠٤ ق.م)

د. محمود فارس عثمان الوردي

مدرس آثار قديمة – قسم التاريخ
كلية الآداب – جامعة تكريت
جمهورية العراق



ملخص

إن وفاة الملك تُعدّ واحدة من أهم الأحداث التي تلقي بظلال قائمة على البلاد بأسرها، لما يترتب عليها من أمور جسام ربما تصل إلى مستوى يهدد مستقبل البلاد بأسرها، سواء أكان موت الملك بشكل طبيعي أم بموته مقتولاً. كما أن حدث وفاة الملك -حسب اعتقادهم- كان مؤثراً على كل انسان دون استثناء، فهو نذير شؤم بالنسبة لمستقبل البلاد، إذ أن الطوالع السيئة تربط وفاة الملك مع هبوط مناسيب الأنهار وذبول الخضراوات ونفوق الحيوانات، حيث يُعلن الحداد في المملكة. وإن النواح والبكاء على الملك كان يرافق تشييع الجنازة وربما كانت القرابين تقدم للآلهة حال وفاة الملك من أجل أن تشمل الآلهة ملكهم برعايتها في حياته الأخرى. وكان يقوم الشعراء بتأليف المراثي التي تمجد أعمال الملوك وتسرد صفاتهم النبيلة إلى جانب اشتغالها على الدعوات إلى الآلهة للحفاظ على الملك في العالم الآخر، كما عبر الشعراء من خلال مراثيهم عن حالة الحزن التي تُخيم على الناس نتيجة وفاة الملك، وقد حرص العراقيون على دفن ملوكهم في مدافن تليق بمكانتهم.

كلمات مفتاحية:

العالم القديم، حضارة العراق، بلاد الرافدين، سلالة أور، الشعائر الجنائزية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٦ مايو ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ١٨ يوليو ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمود فارس عثمان الوردي، "المدافن الملكية في العراق القديم: المدافن المكتشفة في مدينة أور أنموذج (٢٨٠٠ – ٢٠٠٤ ق.م)". - دورية كان التاريخية - العدد الثلاثون: ديسمبر ٢٠١٥، ص ٢٧ – ٣٤.

مقدمة

التاسع عشر الميلادي وإلى اليوم. وتأتي أهمية الموضوع في كونه يسلط الضوء على المدافن الملكية التي تم العثور عليها في مدينة أور ولحقتين متتاليتين، وما عكسته تلك المدافن واثاها الجنائزي من تطورات واكبت نمو الحضارة في العراق في تلك الحقبة والتي سيلاحظها القارئ في ثنايا البحث.

أولاً: المدافن الملكية في أور:

مدافن السلالة الأولى (٢٧٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م)

تُشير أولى أعمال التنقيب إلى أن مقبرة أور الملكية تعود إلى سلالة أور الأولى (٢٧٠٠-٢٥٠٠ ق.م)، وقد امكن العثور على مجموعة كبيرة من القبور ناهز عددها الألفي قبر، وقد بدت العديد من تلك القبور كأنها تمثل قبوراً للملوك أو حكام أو أناس أثرياء، إلا أن فيها ستة عشر مدفناً تميزت ببنائها وموجوداتها الدفينة الثمينة

يُعدّ النظام الملكي الذي كان سائداً في العراق القديم من أقدم الأنظمة الملكية في تاريخ العالم القديم، والذي مثل نتيجة حتمية لتطور الحياة المدنية في تلك الفترة الموعلة في القدم من تاريخه والتي تعود إلى عصر فجر السلالات السومرية في حدود القرن الثامن والعشرون قبل الميلاد، وقد اوضحت الشخصية الملكية محور اهتمام الفرد العراقي باعتباره ممثل الآلهة على الأرض ونائبها عنها في إدارة شؤون الافراد والجماعات، ولم تكن تلك المكانة التي حظي بها ملوك العراق القديم وهم احياء، بل تعداها إلى محاولة العراقيين تمييز ملوكهم والحرص على أن يحفظوا بالاهتمام حتى بعد وفاتهم، وهو ما عكسته المدافن الملكية ومحتوياتها التي تم العثور عليها من خلال التنقيبات الاثرية التي ابتدأت في العراق منذ القرن

الأرض مما يرجع عودتها إلى فترات زمنية متقاربة.^(٤) وسيتم تناول تلك المدفن على وفق الصيغ الرقمية التي أوردتها المنقب وولي أثناء عمليات التنقيب.^(٥)

المدفن المرقم (PG/775): سجلت عائلية هذا المدفن إلى الملك الشهير الذي عرف باسم مسكلامدگ (Mes-kalam-dug)، والذي يعني، بطل الأرض الخصبة حيث تم التعرف على اسمه ولقبه من خلال ختم إسطواني وقدرين ومسرحة من الذهب يحملان اسمه عُثر عليهما في موجودات المدفن العائد له.^(٦) وقد لُحِدَ للملك أرضية مستوية ووضع في جوفها تابوت من الخشب يحوي جثة الملك الذي مدد على جانبه الأيمن بكامل طوله وهو يرتدي خوذة من الذهب الخالص، شكلت من الخلف بهيئة خصلة شعر خلف الرقبة أسفل الرأس، كما مثل شعر الرأس بهيئة حوزوز متوازية، وتم تصوير العصابة التي يلف بها الشعر بهيئة شريط بارز على الخوذة ورماعاً مصنوعة من النحاس وفؤوس ومجموعة لا بأس بها من الحراب ذات الرؤوس المثلثة.^(٧) فضلاً عن تعويذتين من الذهب واللازورد وضعت لغرض طرد الأرواح الشريرة وجلب الراحة لروح الملك الميت.^(٨) ومن أنفس ما تم العثور عليه الألة الموسيقية المسماة "القيثارة الذهبية" والتي صُنعت من الخشب المطعم بالذهب، يزينها رأس ثور ثبت على صندوق الصوت، وقد استطاع المنقبون الحفاظ على جميع أجزائها بمهارة، وجدير بالذكر أنه قد عُثر على أكثر من قيثارة في تلك المدافن.^(٩) ويبدو أن القيثارات لم تكن مجرد آلات لعزف الموسيقى بل إن وجودها ربما يمثل جزءاً مهماً في طقوس الاحتفالات الدينية.^(١٠) ومما تجدر الإشارة إليه؛ أنه لم يدفن في هذا القبر سوى صاحبه، كما يبدو أن مسكلامدگ كان ملكاً غنياً تمتعت مملكته بثراء كبير، فضلاً عن كونه محارباً يدل على ذلك لقبه وما تركه في مدفنه من أثاث جنائزي.

المدفن المرقم (P.G779): يُعَدُّ هذا المدفن من أقدم المدافن التي تم تشييدها في منطقة المدافن الملكية في مدينة أور من حيث التسلسل التاريخي، وقد امتدت أيادي اللصوص والعابثين إلى هذا المدفن لتعيث فيه خراباً، بلغت مساحة هذا المدفن (٨.٥×١٢م)،^(١١) وعلى الرغم من نهب هذا المدفن، إلا أنه عُثر فيه على ما تعارف لدى الباحثين بـ (راية أور)،^(١٢) والتي كانت من أروع القطع الفنية التي أعطت الدليل الشاخص على عظم الحضارة السومرية ومدى ما وصل إليه الفن السومري من تقدم آنذاك.^(١٣)

المدفن المرقم (PG/800): نُسِبَ هذا المدفن إلى واحدة من النساء المشهورات في تاريخ العراق القديم والتي تعرف بالملكة پو-آبي (Pu-abī) أو شبعاد، وقد تم التعرف على مدفنها واسمها من خلال ختم يحمل اسمها وجد عند كتفها.^(١٤) شكل مدفن پو-آبي على هيئة عقادتين أو قبوين فوق حفرة عميقة، ويتكون هذا المدفن الخاص من فسحة أو مدخل أقام فيه العازفون على القيثارات والمترلون والخدم، حيث وضعت الأمتعة والمركبات فيها. ومن ثَمَّ تأتي

التي ضمت من المجوهرات والأسلحة والأثاث وادوات القتال والآلات الموسيقية ودمى الحيوانات وغير ذلك من الأثاث.

وكانت تلك القبور عبارة عن غرف دفن تحت الأرض لها مداخل معقودة بالأجر، وقد بنيت بالحجارة غير المهندمة والأجر وقد استخدمت العقادات في بناء الابواب وتسقيف غرف الدفن وتم استخدام الطين كمادة رابطة بين مداميك البناء، بينما استخدم الجص الناعم كملاط لطلاء الواجهات الداخلية للجدران كما استخدم في تسوية أرضية بعض المدافن ومن المدهش أن يكون السومريين قد وصلوا إلى مرحلة متقدمة في فن العمارة من خلال استخدامهم لتلك العناصر المعمارية البارزة التي أصبحت الأساس الذي اعتمدت عليه العمارة العراقية حتى فترات متأخرة، والتي تمثلت بالعمود والقوس والقبعة والعقد في تلك الفترة المبكرة من التاريخ. وقد حوى المدفن الواحد على عدة غرف خصصت غرفة منها لدفن أفراد العائلة الملكية، بينما ضمت الغرف الأخرى أفراد الحاشية والأنبياء الذين خدموا سيدهم وضحوا بأنفسهم متطلعين إلى خدمته في الحياة الثانية فضلاً عن الحاجات التي مثلت أثاثاً جنائزياً.

وقد أمكن التعرف على أسماء بعض الأشخاص المدفونين في هذه المقبرة والذين يفترض أنهم كانوا ملوكاً أو حكاماً على الرغم من أن أسمائهم لم ترد في جداول الملوك السومرية، ولكن استناداً إلى أشكال القبور والكنوز التي تم العثور عليها فضلاً عن أسلوب التضحية البشرية التي رافقتهم كل هذه الدلائل تشير إلى كون هذه المدافن تعود إلى ملوك أو حكام.^(١٥) وقد أمكن التعرف على بعض أسماء شاغلي تلك القبور عن طريق الأختام الشخصية التي نقشت عليها اسم الشخص وصفته ملكاً كان أم حاكماً، ومن الأسماء التي تم التعرف عليها مسكلامدگ (Mes-Kalam-dug) وآ-انزو (A-anzu)، وآ-بار-گي (A-bar-gi)، وآ - كلام - دوك (A-kalam-dug)، والملكة پو - آبي (Pu-abī)، والتي عرفت لفترات طويلة باسم (شبعاد)^(١٦) وقد حدد موقع هذا المدفن إلى الشرق من منطقة المعابد قرب الزقورة.

أما المدافن الأخرى (أي المدافن الملكية)، فوجد أغلبها في المنطقة الجنوبية وقليل منها في المنطقة الشمالية الشرقية^(١٧)، وقد شيدت تلك المدافن على هيئة غرف أرضية يُنزل إليها بواسطة سلالم منحدرية تحت الأرض من خلال خندق مستطيل الشكل بعمق يزيد على خمسة أمتار مكونة حفرة تصل مساحتها إلى سبعة أمتار، بحيث تصبح جوانب الخندق عمودية الشكل، ولوحظ أثناء الحفر وجود خندق آخر من أحد الجوانب بشكل منحدر استخدم كممر دخول إلى المدفن الذي يتراوح عدد غرفه من غرفة واحدة إلى أربع عُرف، وهي ذات مداخل واقبية معقودة مبنية من الأجر والحجارة الصلدة واللبن، كما استخدم القار كمادة رابطة فيها، وقد تميزت تلك المدافن بكونها شيدت بمستوى واحد تقريباً، تحت

الحيوانات، التي يبدو إنها وجهت نحو المنحدر الذي يقود إلى غرفة الدفن وكأنها كانت في مسيرة خلف الملك.^(٢٣)

المدفن (PG/1050): يعود هذا المدفن إلى الملك آ-كلام-دغ (A-kalam-dug) وهو ابن الملك مسكلامدغ بحسب الكتابات التي عُثر عليها في المدفن، وقد عُثر معه على أربعين هيكلًا عظميًا يعودان إلى الخدم والحرس والأتباع الخاصين به^(٢٤) فضلًا عن عدد لا بأس به من نفائس الآثار تمثلت بعدد من الحلي كالأساور والأقراط،^(٢٥) فضلًا عن ختم إسطواني مصنوع من اللازورد يحمل كتابة باسمه ولقبه على أنه ملك مدينة أور.^(٢٦)

المدفن (PG/1054): وجد في هذا المدفن جثة امرأة ربما تكون أميرة أو ملكة في قبر معقود من الحجر وقد دفن معها أربعة رجال مثلوا حراسا لها، وإن من أبرز ما تم العثور عليه في المدفن (1054) أربعة خناجر جميلة من الذهب فضلًا عن ختم إسطواني يحمل اسم (مسكلامدغ).^(٢٧) ولا يعرف هل إن هذا الختم الذي يحمل اسم مسكلامدغ جاء بطريق الصدفة أم أن هناك صلة قرابة تربطه بهذه الملكة أو الأميرة أو ربما أُعطي لها هذا الختم كهدية، ولوحظ وجود فتحة في أعلى مدفن هذه الملكة وربما استخدمت لطقوس سكب السوائل أثناء إقامة الشعائر الجنائزية.^(٢٨) ومما تجدر الإشارة إليه؛ أنه أُميّط اللثام عن قبر آخر كان يقع فوق مدفن تلك المرأة ويبدو أن صاحبه دفن بعدها، حيث عُثر فيه على هيكل عظمي لرجل مصحوبًا بخنجرين من الذهب.^(٢٩)

المدفن (PG/1237): يمثل هذا المدفن حالة فريدة في تاريخ علم الآثار فيما يخص عمليات الدفن، حيث عُثر في هذا المدفن الذي لا يزال صاحبه غير معروف على أربعة وسبعين هيكلًا عظميًا ضُحّي بهم من أجل سيدهم أو ربما تكون سيدتهم، ذلك أن عدد النساء المدفونات بلغت ثمانية وستين هيكلًا عظميًا، وقد أطلق على هذا المدفن وخصوصًا الباحة التي وجدت فيها الهياكل بغرفة الموت الكبيرة التي بلغت مساحتها نحو (٨.٥×٧.٥ م) نظرًا لعدد الموتى الكبير الذين دفنوا فيه.^(٣٠) وقد ميزت النساء اللواتي تم دفنهن بكونهن ينتمين إلى طبقتين اجتماعيتين على أكثر تقدير استنادًا إلى ما كانت ترتدي كل واحدة منهن من حلي، فقد كان هناك ثمان وعشرون امرأة يرتدين أربطة من الذهب في حين لوحظ أن ستًا وثلاثين امرأة منهن يرتدين أحزمة من الفضة.^(٣١) فضلًا عن العثور على عدد لا بأس به من القيثرات الخشبية المطعمة بالذهب والتي زينت أعلاها برؤوس الثيران الذهبية - كالتى وجدت في المدافن السالفة الذكر - فضلًا عن لوحة لعب وزورق فضي وهما في المتحف العراقي، كذلك وجدت ستة هياكل لجنود متكتئين على الجدار ومعهم سكاكين وفؤوس وقد وضع أمامهم قدر كبير من النحاس.^(٣٢) أما المدافن الباقية، فلم نتمكن من تكوين صورة متكاملة عنها لدرجة أن المعلومات المتوفرة عنها لم تكن صالحة للنشر كالمدافن السابقة، إلا أنها بدت كقبور الأمراء أو الكهنة وربما الملوك أيضًا.

بعد ذلك ما تعارف عليه بـ (غرفة الموت) التي تضم جثثًا من التي تم التضحية لأجلها من خدم وغيرهم وتنخفض غرفة الموت عن قبر الملكة بحوالي المتر ونصف، حيث مددت الجثث بكامل حليها وملابسها.^(٣٣) أما هيكل الملكة فقد عُثر عليه في غرفة الضريح على عمق خمسة أقدام وهي ممددة على لوح خشبي ممسكة بيدها قدحًا مصنوعًا من الذهب الخالص، وقد غطي الجزء العلوي من هيكل الملكة بأكوام من الخزف المصنوع من الذهب واللازورد والفضة والعقيق والأحجار الكريمة.^(٣٤) فضلًا عن الأقراط وتاج ذهبي مزين بثلاثة أزهار وقلاند مصنوعة من أنواع الأحجار الكريمة وطوق ذهبي يزين العنق، فضلًا عن القيثرات الذهبية التي استخدمت في عزف الموسيقى الختامية لحفلة التضحية والتي بقي الموسيقيون ممسكين بها حتى آخر لحظة.^(٣٥) كما عُثر على بقايا العربات التي تجرها الثيران أو الحمير وزلاجة تزينها رؤوس الأسود في ذلك المدفن فضلًا عن ذلك، عُثر ضمن الموجودات الجنائزية على الاعنة (جمع عنان) والتي تتكون من حلقتين يعلوهما تمثال حمار صنع من الالكتروم.^(٣٦)

كذلك تم دفن خمسة جنود في مدفن الملكة بكامل أسلحتهم ربما مثلوا جزءًا من الحرس الملكي الخاص أو مرافقين لها في أثناء حياتها وجاءوا ليرافقوها بعد موتها في الحياة الأخرى. كما عُثر في هذا المدفن على ثلاث وعشرين جثة لنساء بكامل زينتهن كن رفيقات ووصيفات للملكة.^(٣٧) واستنادًا إلى دراسة الهيكل العظمي للملكة وخصوصًا المتعلقة فيها بالأسنان، والتي ظهرت بوضع جيد، ما يشير إلى أن الملكة كانت تتناول طعامًا جيدًا يناسب وضعها كملكة خالياً من السكر أو يحوي قليلاً منه في بعض الأحيان، وربما يتركز غذاؤها على أنواع الحبوب لتشكل الطعام الرئيس لها، وبدا أن الملكة تملك أنفًا بارزًا وعلى الأغلب أنها مثلت إحدى شخصيات التماثيل التي تم العثور عليها في مدفنها.^(٣٨)

المدفن (PG/789): أعاد الباحثون هذا المدفن إلى الملك آ-بار-جي (A-bar-gi) الذي ربما يكون زوج الملكة بو-آبي، إذ يقع مدفن هذا الملك ملاصقًا لمدفن الملكة المذكورة.^(٣٩) حيث يتكون هذا المدفن من قسمين، يمثل القسم الأول غرفة الدفن (الضريح)، وهي عبارة عن غرفة مسقفة بعقادة أو قبة خاصة لدفن الملك، وقد عُثر فيها على ثلاثة هياكل عظمية، والقسم الثاني من المدفن فيشمل المساحة الموجودة خارج غرفة الدفن الرئيسة، وهي حفرة كبيرة عُثر فيها على ما يقرب من اثنتين وستين جثة لرجال ونساء، كان نصيب الرجال منها ثلاثًا وخمسين جثة بينما كان نصيب النساء منها تسع جثث، وكان من ضمن الرجال ستة جنود بكامل أسلحتهم.^(٤٠) وقد أخذ كل واحد منهم موقعه في المدفن وهو يرتدي الثياب المزرکشة والحلي بشكل كامل، حيث كان الحرس يحملون أسلحتهم وأمامهم عربتان ربطت كل واحدة منها إلى ثلاثة ثيران، ووجدت جثة داخل العربة ربما تكون للسائق الذي يقود العربة ممسكًا بأعنة

ثانياً: تفسير المدافن الملكية في أور

للبش أو التخريب وهو ما يدعو إلى التساؤل هل تم إخفاء مداخل المدافن أوحى معالمها ؟ هذه المسألة ستبقى أيضاً في طي الكتمان. وقد وردت بعض الإشارات في النصوص يمكن أن يفهم من خلالها أنه ربما كانت التضحية بالبشر موجودة آنذاك، إلا أنها لم تدعم بالدليل القاطع ومن هذه الإشارات نص يرقى تأريخه إلى زمن الملك گلگامش سادس ملوك سلالة الوركاء الأولى حوالي القرن ٢٦ قبل الميلاد.^(٣٩) حيث تذكر إحدى القصائد السومرية اصطحاب هذا الملك لحاشيته معه إلى العالم الأسفل.^(٤٠) ومهما يكن من أمر فربما تكشف لنا المعلومات مستقبلاً تفسيراً لتلك الظاهرة الفريدة التي طالما شغلت الباحثين وأثارت المهتمين بالأثار.

ثالثاً: مدافن ملوك سلالة أور الثالثة

(٢٠١٣ - ٢٠٠٦ ق.م)

قد كان للجهود العلمية المتواصلة أعظم الأثر في الكشف عن آثار العراق وصيانتها وقد كان لمدينة أور التاريخية قدم السبق في عملية البحث والتقصي عن آثار الماضي، وقد برزت خلال أعمال التنقيب مدافن ملوك سلالة أور الثالثة التي تُعدّ واحدة من ثمار هذه الجهود.^(٤١) تقع المدافن الملكية داخل أسوار مدينة أور في القسم الشمالي الشرقي من منطقة المعابد إلى الشرق من القصر الكبير.^(٤٢) والتي يمكن عدّها واحدة من أجمل المدافن التي تم بناؤها في العراق القديم ولا تقل أهمية عن سواها من المدافن الملكية.^(٤٣)

تتكون تلك المدافن من غرف ذات عقادات وسلالم طويلة تعود إلى عتبات أسفل المدفن وقد سقفت تلك الغرف ومداخلها بسقوف مخروطية الشكل مبنية باللبن والأجر. وقد خلت تلك المدافن من نفائس الآثار الذهبية وغير الذهبية عكس سابقتها، ذلك أنها ربما تعرضت للعبث والسرقة في فترات لاحقة.^(٤٤) كما أن تلك المدافن خلت من أي شكل من أشكال التضحية البشرية التي تم العثور عليها في مدافن أور الملكية العائدة لعصر فجر السلالات الثالث التي سبق التفصيل عنها.^(٤٥) وقد أُقيمت فوق سراديب الدفن معابد ومزارات لتقديم الصلوات والنذور والقرايين لأرواح الموتى، إذ أنّ تلك المزارات حوت العديد من الغرف، ولوحظ أن تخطيط هذه المباني الدينية قائم على أساس الألفية المربعة التي تتوسط مجموعة من الغرف التي تحيط بها. ويبدو للوهلة الأولى أن تلك المدافن قد بدأ بتشيدّها الملك شولكي (٢٠٦٤ - ٢٠٤٧ ق.م)^(٤٦) لوالده أورنمو (٢١١٢ - ٢٠٩٥ ق.م)، ثم اكمل إمارسين (٢٠٤٦ - ٢٠٣٨ ق.م) البنائين لوالده شولكي ولنفسه.

إن الدراسة المتفحصّة لتلك المدافن قد أوضحت أن هذه المدافن لم تبني في وقت واحد، وإنما استمر بناؤها على عدة مراحل، تمثلت المرحلة الأولى بإقامة الضريح الذي يحوي جثة الميت تحت الأرض وبشكل مقبب، ومن ثمّ تمت إقامة السلالم التي تقود إليها،

بقدر ما أثارت عملية إزاحة الستار عن الموجودات المدفنية التي عثر عليها وولي في أور من ضجة كبيرة واهتمام بالغ في الوسط الأثاري العالمي في حينه، إلا أن الظاهرة الأكثر لفتاً للانتباه هي مواكب التضحية البشرية من الرجال والنساء التي كانت تحلم بمرافقة الملك إلى العالم الآخر، حيث شكلت هذه الحالة ظاهرة فريدة ليس في العراق فحسب ولكن في عموم الشرق الأدنى، بدليل أنه لم يتم تكرارها فيما بعد، لتبقى هذه الممارسة واحدة من أسرار حضارة العراق القديم التي لم تكشف بعد.^(٣٣) وقد تباينت آراء الباحثين وتفسيراتهم في تحليل أمر هذه المدافن فكان بعضهم أقرب إلى الصواب من غيره، والبعض الآخر ذهب بعيداً في تفسير هذه المسألة، فمن الباحثين من ذهب إلى القول بأن هذه العملية ناتجة عن أمل أصحاب تلك الهياكل في مصاحبة وخدمة ملكهم في العالم الآخر والفوز بحياة مترفة كالتي عاشوها مع سيدهم بادئ الأمر، كما يبدو أنه كان لهؤلاء الاتباع رغبة عارمة في تكريم عظمائهم عند موتهم وتحريرهم خدمة أناس آخرين غيرهم، متحمّلين ما تفرضه عليهم تقاليد الوفاء بالولاء الأبدي لأولياء نعمتهم وإرضاءهم بالتضحية بأنفسهم من أجل خدمتهم وإرضاءهم.^(٣٤)

في حين فسّر البعض من الباحثين هذه الظاهرة بالقول أنها مرتبطة أساساً بطقوس الزواج المقدس الشهيرة والتي كانت تمارس في رأس كل سنة عندما كان الملك يتقمص دور الإله (دموزي) أو تموز في حين تمثل الكاهنة العليا الإلهة أنانا أو عشتار وتكون من نتائج هذا الزواج أن يعم الخير والخصب والنماء في جميع أنحاء البلاد،^(٣٥) ولكن يبدو أن هذا التفسير لم يلاق قبولاً البتة من لدن كثير من الباحثين المتخصصين.^(٣٦) في حين يرى آخرون أن ممارسة هذه الظاهرة كانت تتم وفقاً لطقوس الملك البديل التي مورست لفترات طويلة وكان على الكهنة القيام بممارسته على شخص من العامة يتقمص شخصية الملك عند تعرض حياته للخطر استناداً إلى تفسيرهم للتنبؤات السيئة مما كان لازماً على الملك أن يختفي عن الانظار للمحافظة عليه ويتحمل الشخص أو الملك البديل العواقب وهو الموت لفترة من الوقت أو ربما يزول الخطر.^(٣٧)

ويبدو من حالة الهدوء التي بدت على الهياكل وترتيبها أنهم قد تناولوا شراً يحوي على السم وربما كان هذا الشراب في الأصل مهدئاً مسموماً أو غير ذلك، مما يعطيهم الفرصة بأن يحظوا بموت هادئ وغير مؤلم فقد أمكن العثور على الجثث بوضعية سالمة ومرتبّة تشير إلى حالة النوم أكثر من كونها عملية تضحية بالبشر، وبعد وفاة هؤلاء الأشخاص وموت حيواناتهم كان يتم غلق المدافن ووضع التراب عليها.^(٣٨) ويبدو أن الملك أو الحاكم قد أشرف بنفسه على تلك العملية الكبيرة، وربما تم حماية تلك المدافن من اللصوص والعابثين نظراً لسلامة أغلب هذه المدافن وعدم تعرضها

لوحظ استخدام الاقنية في تسقيف هذا المدفن، حيث تم تسقيفها بقبوتين خارجيتين متدرجتين بلغ إرتفاع الواحدة منها حوالي ثلاثة أمتار وعرضها (٢٠.١٠م)،^(٥٥) كما عُثر أثناء التنقيبات فيها على بعض القطع التي استخدمت كأثاث جنازي في المدفن وعملت من الذهب والأحجار الكريمة، ممّا يدل على أن هذا المدفن قد تعرض للنهب، خصوصاً وأنه قد تم العثور على فتحة كبيرة في سقف السرداب في الجزء الشمالي الغربي من المدفن.^(٥٦)

أما المدفن الثاني، فقد ثبتت عائدته للملك إمارسين (٢٠٤٧-٢٠٣٩ ق.م) ويقع إلى الجنوب الشرقي من مدفن الملك شولكي، وقد عمل مدفن الملك إمارسين على وفق مخططات مشابهة لمدفن الملك شولكي، إلا أن مدفن إمارسين أصغر منه، ومما يميز هذا المدفن أنه شهد أولى محاولات المعمار العراقي من أجل استخدام الشكل النصف دائري في تسقيف العمائر العراقية بشكل عام والمدافن بشكل خاص.^(٥٧) يبلغ قياس المدفن (١٦.٩٠×١٩.٢٠م) ويتم النفاذ إليه من مدخل عرضه (١.١٥م) ويظهر في وسط المدفن باحة بقياس (٨×٦م) تحيط بها الغرف من جميع الجوانب، ويتكون هذا المدفن من سردابين أيضاً يتم النزول إليهما عبر درج صغير يتفرع إلى درجين صغيرين يؤدي كل واحد منهما الذي واحد من تلك السرايب، وقد أمكن العثور على عدد من قطع الأجر الذي استخدم في بناء المدفن وهو مختوم باسم الملك إمارسين في جدران البناء مما يؤكد عائدة هذا المدفن إليه.^(٥٨) أما المدفن الأخير، الذي يقع ضمن مدافن ملوك سلالة أور الثالثة هو مدفن الملك أورنمو مؤسس السلالة، يقع المدفن في الزاوية الشمالية الغربية لقصر الملك شولكي قريباً منه، ويبدو أن هذا الضريح قد شيد للملك أورنمو من قبل ابنه الملك شولكي بعد وفاته، ذلك أنه تم العثور على أجريحمل ختم الملك شولكي في ثنايا البناء.^(٥٩)

يتكون المدفن من ساحة وسطية تبلغ قياساتها (٦.٢٠×٧م) تحيط بها ستُ غرف من الجوانب وتتصل بالساحة الوسطية بمداخل مشتركة معها، وقد احتوى المدفن على ثلاثة سرايب على العكس من المدفنين السابقين (ذوي السرايبين)، ويقع أحد هذه السرايب تحت الساحة الوسطية بشكل مباشر، أما السرداب الثاني فقد وجد تحت الغرفتين المطلتين على المقبرة الملكية وظهرتا جنوب غرب المدفن، أما السرداب الأخير فتم الكشف عنه تحت الغرفة الواقعة إلى الشمال الغربي من الساحة الوسطية.^(٦٠) وقد تم تسقيف المدفن بهيئة مقببة من النوع المتدرج بلغت قياساته (٢.٥م) ارتفاعاً بينما بلغ عرضه ثلاثة أمتار وقد استخدم الأجر والبن والحجر الكلسي في تشييد ذلك القبو.^(٦١) ويبدو واضحاً من دراسة مدافن ملوك سلالة أور الثالثة مدى الثراء الواسع الذي تمتعت به المملكة في عهدهم إذ وصلت إلى أوج اتساعها في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد.^(٦٢)

في حين تم غلق أبواب كل مدفن بعد الانتهاء من عملية الدفن، ومن ثَمَّ يُقام معبد مؤقت فوق المدفن أو أمام أبوابها في الباحة الداخلية لتوضع فيه الهدايا من نذور وقرايين وسواها.^(٤٧) وفي المرحلة اللاحقة كان يتم تشييد المعبد الدائم (الجنازي) والذي يكون فوق المدفن على شاكلة غرف وتزخرف بشكل ملحوظ ويوضع بداخلها أحواض الماء الخاصة بالغسل والتطهير المقدس، فضلاً عن المذابح الخاصة بتقديم القرابين، وأماكن حرق البخور وقواعد التماثيل والتي تكون عائدة ربما لهؤلاء الملوك أو آلهتهم لتقديسها.

وإن هذه الغرف المتعددة كانت تنفتح على باحة داخلية^(٤٨)، ومن ثَمَّ عمد البناؤون إلى عمل ثقب (فتحات) تؤدي إلى داخل المدفن عن طريق إحداث شقوق في الجدران القائمة فوق أبوابها ربما للإفادة منها في عملية إدخال الطعام أو الشراب فيها أو ممارسة طقوس سكب الزيت... إلخ، وفي المرحلة الأخيرة يتم ملء المدفن بأكوام من التراب الأبيض النقي^(٤٩)، فضلاً عن إخفاء المدخل المؤدي إلى درجات المدفن والذي يكون بطبيعة الحال داخل البناء الفوقاني (المزار).^(٥٠) إن جميع الإجراءات لم تكن لتمنع السراق أو العابثين أو المنتقمين من الوصول إلى تلك المدافن وسرقتها والعبث بها، ويرى بعض الباحثين أن هجوم العيلاميين من خلال تعاون الأموريين أدى إلى تفويض أركان هذه الدولة ومن ثَمَّ إسقاطها وقاموا بتخريب مدافنها ونهبها من بعد بقصد الانتقام منهم.^(٥١) وقد سبقت الإشارة إلى أن مدافن ملوك سلالة أور الثالثة كانت تتكون من ثلاث وحدات بنائية، أكبرها البناء الوسطي العائد للملك شولكي والذي يقع لصق الضلع الشمالي من مدفن أبنه الملك إمارسين ومن ثَمَّ مدفن الملك أورنمو الذي يقع في الزاوية الشمالية الغربية لمدفن شولكي.^(٥٢)

إن المدفن العائد للملك شولكي والذي يقع في الجهة الشرقية من القصر العائد له، تبلغ مساحته (٣×٢.٥م)، يتم النزول إلى سرداب المدفن بواسطة درج تم غلقه عند الانتهاء من بناء المدفن، وقد قامت هيئة الآثار العراقية باستظهار درج آخر يؤدي إلى منتصف الطريق حيث لوحظ وجود صحن في وسطه بئر^(٥٣). ويبدو أنه قد تم حفره ليتم استخدامه من قبل شولكي عند الحاجة إليه، ومن ذلك الصحن يتم النزول إلى سردابين بواسطة درجين، فالسرداب الأيمن بلغت مقاساته (٤×١٠.٧٠م) وارتفاعه (٥.٥٠م)، أما السرداب الثاني الأيسر فيبلغ قياسه (٤.١٥×٧.٧٠م) وارتفاعه يساوي إرتفاع السرداب الأول، أما المعبد الجنازي الذي أقيم فوق سرايب المدفن فيتكون من ساحة مربعة الشكل قياسها (١٠×١٠.٥م) لها عدة مداخل تؤدي إلى الغرف المحيطة بها وعددها إحدى عشرة غرفة وبمساحات متباينة^(٥٤). وقد استخدم الأجر في بناء المدفن حيث عُثر على العديد من قطع الأجر التي تحمل اسم الملك شولكي، فيما استخدم الطين والقار كمادة رابطة، كذلك

الاستنتاجات:

- (١) يُعَدُّ موضوع المدافن الملكية من الموضوعات المهمة والحيوية لأنه يلقي أضواءً على جوانب مهمة من أفكار وممارسات العراقيين القدماء الدفنية.
- (٢) كان اعتقاد العراقيين الأقدمين بوجود حياة ثانية ما بعد الموت دافعاً لتجهيز المدافن الملكية بأثاث جنائزي يشمل الأواني الفخارية والقلائد والأدوات المتنوعة التي يحتاجها في العالم الآخر.
- (٣) ارتبطت عملية دفن الموتى وما إتبعها من ممارسات ارتباطاً وثيقاً بالمعتقدات الدينية العراقية القديمة، وتطورت تلك الممارسات الدفنية بتطور فكر المجتمع ومفاهيمه عبر العصور.
- (٤) اهتمام العراقيين الأقدمين البالغ بمدافن ملوكهم وهياكلها التي اختلفت عن مدافن العامة، إذ كانت تشيد تحت الأرض على هيئة غرف ومجازات يتم النزول إليها بواسطة درجات (سلالم) كما ضمت أنفس الأدوات والقطع الذهبية من الأثاث الجنائزي.
- (٥) يتم بناء المدافن الملكية بعد وفاة الملوك إكراماً لهم، أو كان يتم إعداد تلك المدافن في مراحل متأخرة من حياة الملوك على العكس من الأمم الأخرى التي كان الملوك فيها يعدون مدافنهم لأنفسهم خلال مراحل حياتهم كما هو الحال في مصر القديمة.
- (٦) أثار الباحثون ظاهرة فريدة في مقابر أور الملكية التي لوحظ فيها وجود هياكل عظمية تعود لحاشية الملك وأعوانه وزوجته استناداً إلى دراسة الاختتام الشخصية المكتشفة قرب هياكلهم، مما يفسر أنهم نذروا أنفسهم لملوكهم وماتوا معه (ربما ماتوا تسمماً) تقريباً منه، وربما كانت ممارسة الدفن الجماعي لحاشية الملك ورجاله سائدة في المدافن الملكية في العصر السومري مما لم يتم الشف عنه حتى اليوم.
- (٧) إن الشعائر الجنائزية التي كانت تقام لأرواح الملوك من قبل أهلهم ومواطنيهم الأحياء وبإشراف الكهنة كانت ضرورية لأرواح ملوكهم لتنعم بالراحة في العالم الأسفل، كما كانت ضرورية للأحياء إذ كان لابد من أقامه هذه الشعائر وتقديم القرابين على أرواح الملوك الموتى وإلا فإنها تخرج هائمة إلى عالم الأحياء وتصبح أشباحاً وأرواحاً شريرة تتسلط على البشر وتؤذيهم.
- (٨) أُلِّقت دراسة المدافن الملكية الضوء على الكثير من جوانب الحياة اليومية عند العراقيين الأقدمين، كما كشفت تلك المدافن عن جوانب مهمة من حضارتهم بجوانبها، الاجتماعية، والاقتصادية والفنية، من خلال عملية تحليل الأثاث الجنائزي وموجودات المدافن.

أما البناء الذي يعلو مدفن الملك أور نمو الذي يمثل المعبد الجنائزي الخاص بهذا المدفن فيبدو أنه كان بناءً عاليًا على الرغم من عدم احتوائه على أكثر من طابق واحد، وقد استخدم الأجر والطين في تشييد جدرانه والتي ظهر عليها استخدام عنصر الطلعات والدخلات التي تُعَدُّ واحدة من أبرز العناصر المميزة لبناء المعابد في العمارة العراقية القديمة^(٦٣). ويتم الولوج إلى داخل المعبد الجنائزي من مدخل يقع في الجدار الشمالي الشرقي، وقد زينت دعائم المدخل بعناصر تزيينية على شكل حوزز بهيئة حرف (T) وهو يفضي إلى غرفة صغيرة ومن ثم إلى ساحة مركزية غير مسقفة توجد في جدرانها الأربعة مداخل تؤدي إلى صف واحد من الغرف في كل جانب^(٦٤). وربما عملت تلك المداخل الأربعة لامتصاص ازدحام الناس خلال الاعياد أو خلال الزيارات التي يكون تواجد الزوار فيها كثيفاً، وأمكن العثور في الغرفة الموجودة في الزاوية الجنوبية من البناء على بقايا مذبح شيد من الأجر تجري أمامه ست قنوات مبطنة بالقيز تنتهي إلى ستة أحواض صغيرة منتظمة في صف واحد، كما تم العثور فيها على رماد يبدو أنه يمثل بقايا المواد المحترقة والتي كانت تقدم كقرابين أمام تمثال الملك الذي وضع على دكة عالية^(٦٥).

وعلى الرغم من العثور على بعض بقايا لعظام البشرية في تلك المدافن، إلا أن الملوك الذين تم دفنهم فيها يبدو أنهم لم يمارسوا طقوس التضحية البشرية التي مارسها أسلافهم في مدافن مدينة أور الملكية خلال عصر فجر السلالات، مع أن ملوك سلالة أور الثالثة قد تمتعوا بمركز مرموق ربما قاد إلى عبادتهم بعد وفاتهم بوصفهم ملوكاً مؤلهين^(٦٦). وقد اضطلعت الهيئة العامة للآثار والتراث بترميم المدافن وصيانتها، وكان من جملة الأعمال التي قامت بها الهيئة هي رفع أعمدة الخشب التي كانت تسندها، وإعادة بناء العقادتين الخارجيتين لهذا المدفن مع بناء جدران الغرفة الكائنة فوق العقادة الشمالية إلى مستوى ثلاثة مداميك من الأجر. فضلاً عن تبليط أرضيتها بالقار، يضاف إلى ذلك بناء عقادتي المدفنين الكائنتين في الطابق الأسفل من المدفن^(٦٧).

الهوامش:

(14) Zettler. Richard, TRTU, P.33.

(١٥) ملرش. قصة الحضارة في سومر وبابل، ترجمة عطا بكري، بغداد (١٩٧١) ص ٢٧.

(16) Woolley.L, Eye to Discovery, Oxford (1996), P.135.

(١٧) عكاشة. ثروت، تاريخ الفن، القاهرة (د.ت) ص ٢٣٧.

(18) Postgate.N.Early Mesopotamia, London (1992), P.165.

(١٩) ر.و. جورج، "لغز مقبرة أور الكبير"، ترجمة مازن أكرم فاضل، آفاق عربية، ع ١١-١٢، (١٩٩٨) ص ٤٥-٤٩.

(٢٠) يرجح أن الملكة كانت تمارس نوعاً من أنواع الحمية وهذا من الأمور الشائعة لدى الكثير من نساء العوائل الغنية، كما يُعدّ ذلك مؤشراً على تقدم الطب وخصوصاً فيما يتعلق بالغذاء وتشخيص السكر كواحد من العناصر الضارة بالجسم في حال تركز نسب عالية فيه. يُنظر:

Crawford.Harrit,Sumer and the Sumerians, Cambridge, (2002), P.122.

(21) Zettler.Richard, The Burials of king and Queen, TRTU, P.33-38.

(22) Woolley. Leonard, Eye Witness to Discovery, Oxford University Press, 1996. P.137.

(23) Roaf-Michael, Cultural Atlas of Mesopotamia and the Ancient Near east, (2003), P.14.

(٢٤) باقر. طه، مقدمة في تاريخ ... المصدر السابق ص ٢٧٨.

(25) Pittman.Holly, "Jewelry", TRTU,P.87-89.

(26) -----, "Cylinder Seals", TRTU, P.75-76.

(٢٧) وولي. ليونارد، بلاد الرافدين مهد الحضارة: دراسة اجتماعية سكان العراق في فجر التاريخ، تعريب أحمد عبد الباقي، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٤٨، ص ٢٤.

(28) Zettler.Richard, TRTU, P.35.

(٢٩) ر.و. جورج، "لغز مقبرة أور الكبير"، المصدر السابق ص ٤٧.

(30) Pearson.Mike Parker, The Archaeology of Death and Burial, Texas (2002), P.165.

(31) Badwy.Alexander, Architectur in Ancient Egypt and the Near East, London (1966), P.108.

(32) Woolly.L,Ur Excavation, op.cit, P.83.

(٣٣) ر.و. جورج، "لغز مقبرة أور الكبير"، المصدر السابق ص ٤٥.

(٣٤) صالح. عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم، ج ١، المصدر السابق، ص ٤٦٩. وكذلك الزبيري. محمد صالح طيب، النظام الملكي في العراق القديم: دراسة مقارنة مع النظام الملكي المصري، المصدر السابق، ص ٨٩-٩٤.

(٣٥) علي. فاضل عبد الواحد، "عشتار مأساة تموز"، المصدر السابق.

(٣٦) حنون. نائل، عقائد ما بعد الموت، المصدر السابق ص ٢٦٢.

(37) Frankfort. Henri, The kingship and Gods, Chicago (1978), P.243.

(٣٨) ر.و. جورج، "لغز مقبرة أور الكبير"، المصدر السابق ص ٤٧.

(٣٩) باقر. طه، ملحمة گلگامش، دار الوراق ٢٠٠٦، ص ٣٣.

(٤٠) ن.ك. ساندروز، ملحمة گلگامش، ترجمة محمد نبيل نوفل، فاروق حافظ القاضي، دار المعارف ١٩٧٠، ص ٤٤.

(41) Hall.H.R, et all, A seasons work at UR, London (1919)

(٤٢) المتولي. نواله أحمد محمود، "مدخل في دراسة الحياة الاقتصادية لدولة أور الثالثة في ضوء الوثائق المسماية (المنشورة وغير المنشورة)"، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٩٤، ص ٣٢.

(43) Gaad,K.M, from UR to Rome, London (1936), P.26.

(١) إن إغفال ذكر أسمائهم في جداول الملوك السومرية ربما يعود إلى كون هؤلاء الملوك لم يكونوا على وفاق مع مدوني الجداول السومرية في ذلك الوقت، ذلك أن جداول الملوك السومرية قد حوت أسماء ملوك وحكام تعود فترات حكمهم إلى زمن سابق لزمن حكام أور الملكية. أن هذه الأسباب المذكورة لا تضعف من احتمال عائدة تلك المدافن لحكام أو ملوك سابقين. يُنظر:

Leik.Gwendolyn, The Babylonians Introductation, London (2003), P.132. Liody.seton, The Archaeology of Mesopotamia, Hampshire, (1978), P.99.

(٢) ساكن. هاري. عظمة بابل، ترجمة عامر سليمان، موصل (١٩٧٩) ص ٤٣٠.

(٣) الصبيواني. شاه محمد علي، أور بين الماضي والحاضر، المديرية العامة للآثار، بغداد ١٩٧٦، ص ٤٥.

(٤) علي. فاضل عبد الواحد، عشتار ومأساة تموز، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩، ص ١٤٣.

(٥) وولي. أثاري مشهور أرسله متحف جامعة بنسلفانيا والمتحف البريطاني إلى مدينة أور الأثرية لفترة (١٩٢٢-١٩٣٤) وأفصح عن أكمل صورة للمدن الأولى في بلاد الرافدين مسجلاً واحداً من أعظم الاكتشافات الأثرية في تاريخ الآثار العراقية باكتشافه مقبرة أور الملكية بكنوزها التي أبهرت العالم في ذلك الوقت، وقد اكتشفت المدافن في تنقيبات سنة ١٩٢٢. يُنظر: بوسنفيت. نيكولاس، حضارة العراق وآثاره، ترجمة: سمير عبد الرحيم، بغداد ١٩٩٩، ص ٤٦.

(٦) يذهب بعض الباحثين إلى القول أن بعض ملوك سلالة أور الأولى ومنهم ميس كلام-دوگ ربما مثلوا في بعض الأحيان بهيئة آلهة، فضلاً عن كونهم ملوك أو ما يسمى بالملك المؤله، وإن القرابين ربما قدمت لهم حتى بعد وفاتهم بصفتهم آلهة أو بمستواها. يُنظر: باقر. طه، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة، دار الوراق، ٢٠٠٩، ص ٢٧٨. وكذلك:

Wooley. Leonard, "The Royal Cemetery", Ur Excavation, Vol 2, London, (1934), P.81.

(7) Woolley.L., The Sumerians, Neoyork, (1965); P.38.

(٨) مالوان. ماكس، مذكرات مالوان، عالم الآثار وزوج أجاثا كريستي، منشورات الجمل، ٢٠١٤، ص ٥٣.

(٩) يبلغ ارتفاع الفيتارة (١.٢٢م) أما حجم صندوق الصوت فيبلغ (٢٠×٤٥سم)، وكان الصندوق الخشبي (صندوق الصوت) يمثل الجزء الأسفل من الآلهة، أما القسم العلوي فقد كان على شكل عارضة تربط عمودين وتربط الأوتار إلى العارضة وصندوق الصوت بواسطة مسامير خشبية، بينما يزين رأس الثور الملتهبي والمصنوع من الذهب الجهة المقابلة. يُنظر كذلك:

Gates.Charles, AN, P.47.

Schanensee. Denaude, Two Lyres from UR, Philadelphia, (2002).

(١٠) ساكن. هاري. عظمة بابل: موجز حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، لندن ١٩٧٩، ص ٣٨٥.

(١١) باقر. طه، مقدمة في تاريخ ... المصدر السابق ص ٢٧٨.

(١٢) رابسة أور: وهي قطعة ثمينة من الصدف وحجر اللازورد ومطعمة بالفسيفساء، وتصور هذه القطعة الفنية الرائعة مشهداً من مشاهد الحرب، فضلاً عن تصويرها لمشهد الاحتفال بالنصر.

(13) Hansen. Donald P. "Art of the Royal Tombs of UR: A Brief Interpretation", in R. Zettler and L. Horne (eds.), Treasures from the Royal Tombs of Ur – TRTU-(Philadelphia: University of Pennsylvania Museum, 1998), P.43-44.

- (٤٤) باقر. طه، مقدمة في تاريخ، ج ١... المصدر السابق ص ٢٧٨.
- (45) Zettler. Richard, et all, TRTU, P.56.
- (٤٦) شولكي: خلف شولكي أباه على عرش أوروكان من الملوك المشهور لهم في العمران وخصوصاً المعابد واكمال زقورة أور، يُنظر: باقر. طه، المصدر السابق ص ٣٥٨.
- (47) Woolly, L., Excavation at UR, op cit, P.153.
- (٤٨) مورتكارت. انطوان، الفن في العراق القديم، الدار العربية للموسوعات ١٩٧٥، ص ٢٠٢.
- (٤٩) لازال بعض الناس وخصوصاً في الأرياف يضعون الأحجار البيضاء فوق قبور الموتى.
- (50) Woolley. L, Excavation at UR, op cit, P.155.
- (٥١) مورتكارت. انطوان، المصدر السابق، ص ٢٠٣.
- (٥٢) حنون. نائل، عقائد ما بعد الموت، المصدر السابق، ص ٢٥٢.
- (٥٣) الصيواني، شاه محمد علي، أور، المصدر السابق، ص ٤٨.
- (٥٤) حنون. نائل، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، أطروحة ماجستير، كلية الآداب، بغداد ١٩٧٥، ص ٢٥٢.
- (٥٥) كامل. ناري خليل، أهم العناصر المعمارية في أبنية العراق القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، موصل (٢٠٠٥) ص ٦٧.
- (٥٦) كييرا. ادوارد، كتبوا على الطين، تحقيق: محمود الأمين، مكتبة دار المثنى ١٩٦٤، ص ٤٤.
- (٥٧) لويد. ستي، آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري الحديث حتى الاحتلال الفارسي، ترجمة سامي سعيد الاحمد، بغداد (١٩٨٠) ص ١١٥.
- (58) Woolley.J, The Sumerians, op cit, P.162.
- (٥٩) حنون. نائل، عقائد ما بعد الموت، المصدر السابق، ص ٢٥٢.
- (٦٠) الصيواني. شاه محمد علي، أور، المصدر السابق، ص ٥٠.
- (61) Fleming. John, et all, The Penguin Dictionary of architecture, Penguinbook (1966) P.228.
- (٦٢) المزيد من التفاصيل يُنظر:
- Gates.Charles, AN, op cit, P.56
- وكذلك المتولي. نواله أحمد محمود، مدخل في دراسة الحياة ...، المصدر السابق، ص ٢٥ وما تلاها.
- (٦٣) سعيد. مؤيد، العمارة من عصر فجر السلالات إلى نهاية العصر البابلي الحديث، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد ١٩٨٥.
- (٦٤) حنون. نائل، عقائد ما بعد الموت...، المصدر السابق ص ٢٥٢.
- (٦٥) يستثنى من ذلك الجانب الشمالي الغربي الذي بنى فيه صفان من الغرف، يُنظر:
- Woolley. L, Excavation at UR, op cit,
- (66) Frankfort.Henri, Kingship and the Gods: A Study of Ancient Near Eastern Religion of Society and Nature, Chicago: University of Chicago Press, 1948, P.295.
- (٦٧) الصيواني. شاه محمد علي، أور، المصدر السابق، ص ٥١.

الشرق الأدنى القديم تحت حكم الإسكندر المقدوني (٣٣٤ – ٣٢٣ ق.م)

د. أسامة عدنان يحيى

مدرس تاريخ العراق القديم والشرق الأدنى
كلية الآداب – الجامعة المستنصرية
جمهورية العراق



ملخص

الإسكندر الأكبر أحد القواد الذين أداروا دفة التاريخ دورة كاملة، فأضفوا إليها وأخذوا منها لينتجوا للعالم ثمرة جديدة من العلوم والفنون والآداب. في سنة ٣٣٤ قبل الميلاد تحرك الإسكندر المقدوني من بلاد اليونان نحو الشرق وفي غضون ثلاثة أعوام تمكن من تحطيم الإمبراطورية الأخمينية واحتلال مناطق الشرق الأدنى التي كانت خاضعة للفرس، وظهور إمبراطورية إغريقية لأول مرة في تاريخ اليونان. في هذا البحث ستم معالجة القضايا الخاصة بالشرق القديم وأهمها كيف اتسمت سياسة الإسكندر تجاه مناطق الشرق الأدنى؟ وما هو موقف هذه المناطق من حكم الإسكندر المقدوني؟ وما هي النتائج الفعلية لاحتلال الإسكندر للشرق القديم؟

كلمات مفتاحية:

المقدونيون، الحضارة الهلنستية، الحضارات القديمة، تاريخ بابل، تاريخ اليونان

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٦ يناير ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٢٨ مارس ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أسامة عدنان يحيى، "الشرق الأدنى القديم تحت حكم الإسكندر المقدوني (٣٣٤ – ٣٢٣ ق.م)". - دورية كان التاريخية. - العدد الثلاثون، ديسمبر ٢٠١٥، ص ٣٥ – ٥١.

مقدمة

سمح هذا الاحتلال وعلى نطاق واسع باحتكاك شديد بين الحضارتين اليونانية (الهلينية) والشرقية، وكان ذلك الاحتكاك قد استمر في عهد الإسكندر وخلفائه السلوقيين والبطالمة.

أولاً: سياسة الإسكندر المقدوني في الشرق الأدنى

لا نعرف الكثير عن إجراءات الإسكندر الإدارية، ويعتقد الأستاذ "أندرو روبرت برن" إن الإسكندر لم يأت بجديد في معظم الترتيبات الإدارية التي قام بها. وقد أخذ بكل بساطة، النظام الفارسي في تقسيم الإمبراطورية إلى ولايات (سترايات)، ووضع في المناصب الحكومية الرئيسة من يعتمد عليهم من المقدونيين واليونانيين.^(١) ولا نمتلك معلومات حول إذا ما كان الإسكندر قد عمل على إجراء بعض الإصلاحات على النظام الفارسي القديم، وربما كان ينوي تحقيق مركزية أكبر في إمبراطوريته عن طريق تقطيع أوصال السترايات القديمة إلى وحدات أصغر يسهل إدارتها، وبذلك يكون قد استبق تطوراً طبقه السلوقيون فيما بعد بتقسيم السترايات

إن دراسة سياسة الإسكندر وإدارته في الشرق الأدنى القديم ذات أهمية كبير لأنها تمثل البدايات الفعلية للسياسة التي سيطورها فيما بعد اليونانيون في الشرق سواء السلوقيون في إيران والعراق وسوريا أو البطالمة في مصر. لقد اتسمت سياسة الإسكندر المقدوني تجاه الشرق بسمات محددة، فقد اتخذ من النظام الفارسي في تقسيم الإمبراطوريات إلى ولايات مثلاً له. كما سعى الإسكندر إلى ترسيخ المفاهيم الإغريقية في البلدان المحتلة ليُرسى فيها فتوحاته. ولكن محاولة فهم موقف مناطق الشرق الأدنى من الإسكندر المقدوني واحتلاله لأراضيها مسألة مهمة، وقد اختلفت هذه المواقف في كل منطقة عن الأخرى فبعض مناطق الشرق القديم قد رحبت بالإسكندر على أنه محررها، والأخرى رفضت خضوعها له وقاومته بشدة. لقد كان لاحتلال الإسكندر المقدوني للشرق بداية فعلية لمتغيرات سياسية وحضارية بعيدة المدى إذ

وفيما يخص المسألة الثانية فقد عمل الإسكندر على تشييد سلسلة من المدن الجديدة، ولكن كانت معظم المدن التي أنشأها والتي سميت باسم الإسكندرية إنما أنشأها لهدف عسكري صرف. لقد كانت تلك المدن مستوطنات لجنوده المرتزقة اليونانيين، وكانت تلك المدن تقوم بدور الحاميات العسكرية، وهذا ما يفسر وجود أربع مدن من هذه الإسكندريات في الأقاليم الحدودية الشمالية الشرقية.^(٥) فضلاً عن ذلك فقد كانت هذه المدن تمثل مراكز إشعاع حضارية إغريقية للمناطق المجاورة لها تساعد في الانتشار التدريجي لمفردات الحضارة الإغريقية في الشرق.^(٦) وقد يكون إنشاء بعض هذه المستعمرات لأغراض تجارية لما تتمتع به المنطقة من خصوصية بهذا الشأن كوقوعها مثلاً على طرق تجارية برية أو بحرية رئيسية.^(٧) وتشير المصادر إلى أن المدن التي شيدها الإسكندر بلغت (٧٠) مدينة، ولكن المدن المؤكدة والتي حفظت لنا التسجيلات التاريخية اسمها هي (١٣-١٨) مدينة.^(٨) ومن أبرز المدن التي شيدها الإسكندر في الشرق الأدنى كانت الإسكندرية الشهيرة في مصر والإسكندرية على دجلة.

إن دراسة سياسة الإسكندر وإدارته في الشرق الأدنى القديم ذات أهمية كبير لأنها تمثل البدايات الفعلية للسياسة التي سيطورها فيما بعد اليونانيون في الشرق سواء السلوقيون في إيران والعراق وسوريا أو البطالمة في مصر، لذا لابد من تتبع تطور وضع مناطق الشرق الأدنى كل واحدة منها على حدة في عهد الإسكندر الكبير. نمتلك عدد من الإشارات حول سياسة الإسكندر وإدارته لآسيا الصغرى، ويرى دياكوف وكوفاليف إن الإسكندر عالج وضع المدن المحتلة في آسيا الصغرى وفق ثلاث طرائق، وهي:

- (١) في بعض المدن يقنع بقضيته شرائح الشعب الديمقراطية.
- (٢) في مدن أخرى يستند إلى الكهنوت.
- (٣) في حالات يعقد صلات قربى مع بعض الشيوخ والأعيان.^(٩)

ويمكن إن نورد أمثلة حول الطريقة التي تعامل بها الإسكندر مع المدن آسيا الصغرى، فأول إجراء اتخذه الإسكندر بعد عبوره الدردنيل ووصوله طروادة حتى قبل الالتحام مع القوات الفارسية في غرانيكوس بأن اتخذ عدة خطوات دينية منها أنه قدم السكائب إلى أبطال اليونان الذين خلدوا أنفسهم بتلك الحرب. ثم طاف عارياً حول القبر التقليدي الذي يقال أنه لآخيل (أحد أبطال الـأخيين). كما قدم الإسكندر الأضاحي إلى أثينا ربة الموقع وكرس إلى معبدها هناك درعه الذي قيل أنه استبدله بدرع يعود إلى أحد أبطال اليونان الأقدمين. وضى إلى بريام مع دعاء لجلب رضاه عما يعمل به سلسل نيوبتوليموس ابن آخيل ويقصد به الإسكندر نفسه.^(١٠)

يبدو إن هدف الإسكندر من خلال ما قام به هو ربط نفسه مع أسلاف الشعب اليوناني إلى درجة إن ديودورس وبلوتارك وجوستين يذكرون إن حرب الإسكندر كانت لإعادة حرب طروادة ثانية.^(١١)

إلى إبيارخيات (إقليم أو مقاطعة). ونعرف إن الإسكندر قلل من سلطات الستارية فسلهم حق جباية الضرائب وكذلك سك العملة إلا مع استثناءات قليلة في بابل. بينما كان حكام القلاع الرئيسية في أيدي حكام مسئولين مباشرة أمام الإسكندر نفسه. وكان من حق أي فرد من أفراد الرعية يكون قد أصابه ظلم أن يرفع الأمر إلى الإسكندر مباشرة كما هو الحال في مقدونيا. وتشير المصادر إلى وجود طبقة من الموظفين عرفت باسم المشرفون الماليون التابعون للإسكندر وكانوا يؤلفون عنصراً جديداً له وزنه وأهميته. وكانت هذه الوظيفة تشكل حلقة الوصل بين الملك والمزارع. ولكننا لا نعرف شيئاً عن العلاقة التي تربط بين هؤلاء المشرفين الماليين وبين الستراب في الولاية، ولا نعرف أيضاً كيف كان حكام الولايات يحصلون على ما يلزمهم من الموارد والأموال الضرورية للصرف على الأعمال الإدارية في ولاياتهم.^(١٢) كانت من أبرز أعمال الإسكندر الإدارية يمكن أن نلاحظها في مسألتين هما: سك النقود، وتأسيس المدن الجديدة.

بالنسبة للمسألة الأولى نعرف إن الإسكندر المقدوني عمد إلى سك النقود في المناطق المحتلة، وكانت المشكلة التي واجهت الإسكندر تنطوي حول كيفية التوفيق بين العملة العشرية السائدة في فارس على أساس إن الدارك الذهبي يساوي عشرون شاقلاً من الفضة، وبين العملة ذات الفئة الاثني عشرية من عهد فيليب الثاني على أساس إن الاستاتر الذهبي الواحد طبقاً للمعيار الاتيكي يساوي أربعة وعشرين دراهمة فضية بحسب المعيار الفينيقي. لذا قام الإسكندر بتوحيد العملة وجعلها من الفضة واتخذ المعيار الاتيكي أساساً له، وجعل الاستاتر مساوياً لعشرين دراهمة فضية. وقد بقي الإسكندر محافظاً على استخدام دور السك الفارسية القائمة باستثناء صور وغزة (ولا نعرف سبب ذلك ولكن ربما يكمن السبب في إن المدينتين قد تعرضتا للتدمير من جراء مقاومتهما للإسكندر)، وكانت دار السك في امفيبوليس (في مقدونيا) الأكثر أهمية في الإمبراطورية تلتها مدينة بابل، ثم تجئ بعد ذلك المجموعة الفينيقية (صيدا، بيبلس، عكا، دمشق)، ثم المجموعة الكليكية (طرسوس، الإسكندرية القريبة من أيسوس، قبرص)، وهناك دار سك النقود في الإسكندرية في مصر. ولابد وان الإشراف على دور السك التابعة كان للموظفين الملكيين. وقد قرر الإسكندر عدم فرض العملة الجديدة على المراكز التجارية الكبرى مثل فينيقيا وكيليكية وبابل، حيث كان مسموحاً لها بسك العملة القديمة.^(١٣)

كانت النقود على الطراز الإغريقي وقد ضرب الإسكندر نقوداً ذهبية ولكن الغالبية منها كانت فضية حيث أصبحت الدراخمة الوحدة القياسية وأصدر أيضاً تترادراخم أي الأربع دراخمات وعملات صغيرة تمثل أجزاء الدراخمة وسكت أيضاً نقوداً من البرونز أو النحاس. وقد أورد الإسكندر تصميمات خاصة للنقود حيث فضل نقش رأس إله جانبي متجهاً إلى اليمين على وجه المسكوكة ووضع صورة لإله كاملة مع كتابة على الظهر.^(١٤)

بإرجاع قوانينهم القديمة وسلموا له الكنوز التي حفظوها في القلعة. وأقام الإسكندر أساندر حاكماً على ليديا ولم يسمح له بجمع الضرائب والرسوم التي أسندت إلى نيكياس اليوناني، كما عين بوسنياس المقدوني قائداً لحامية سارديس، ولكن سمح لأهل ليديا بحق التقاضي أمام المحاكم الوطنية وطبقاً للقوانين الخاصة بهم.^(١٥) كانت الخطوة الثانية دخول الإسكندر كاريّا حيث رحبت به ادا أرملّة ادريوس وشقيقة الحاكم السابق ماوسولوس وكانت قد سلّبت السلطة على يد أخيها بيكسوداروس. وقد تبنت الإسكندر وسلمت إليه قلعة الندا وبعد اقتحام الإسكندر لمدينة هاليكارناسوس رد الإسكندر ادا إلى حكم ولايتها.^(١٦)

أما الإسكندر فقد سار بحملة في جبال ليكيا وببيسيديا، مهاجماً القبائل المعتصمة بسفوح التلال في الشتاء عندما تكون الثلوج قد ضيقت الخناق على رجالها في الوديان، وجعلت التحكم فيهم أمراً سهلاً، فدخل أول الأمر الميليد واستسلمت مدن ليكيا ورحبت به فاسيليس في بامفيليا، ومن ثم عين نيارخوس حاكماً على ليكيا وبامفيليا، ثم أقام الإسكندر الحصون والاستحكامات في فاسيليس لحمايتها من الأسطول الفارسي، ثم سار إلى بريجي، وهناك تقبل الولاء والخضوع من بريجي وأسبندوس وسيدي، ثم توغل في جبال بيسيديا متوجّهاً إلى ترميسوس، وهي القلعة المتحصنة في الممرات بين فاسيليس والميليد. وقد شق طريقه صوب الشمال متوغلاً وسط القبائل، وخرب ساغالاسوس واستولى على بعض الحصون، على أنه لم يخضع بيسيديا وإن كان قد أضاف النصف الغربي منها اسمياً إلى الولاية التابعة لنيارخوس.

ثم زحف عن طريق بحيرة بلدور إلى كيلانيّا وكانت حاميتها مؤلفة من الكاريين قد قبلت أن تسلم، إذ لم تصلها الإمدادات، وقد ترك الإسكندر انتيغونس بوصفه والياً على فريجيا وأبقى معه ١٥٠٠ من المرتزقة لمراقبة كيلانيّا التي استسلمت.^(١٧) بعد ذلك تقدم الإسكندر إلى أنقرة (أنكيرا) من غورديوم، وهناك استقبل رسلاً وفدوا من بافلاغونيا، وكانت آنذاك مستقلة، وطلبوا منه عدم غزو بلادهم وقدموا إليه بصفة رسمية الولاء والخضوع، ولما كانت بغية الإسكندر وهدفه لقاء الملك الفارسي داريوس الذي تحرك لقتال الإسكندر، فإن غزو بافلاغونيا لم يكن يخطر له على بال. فضم تلك البلاد بصفة اسمية إلى كلاس حاكم ولاية فريجيا، بعد ذلك اجتاحت الإسكندر كبودوكيا الجنوبية وعين شخصاً يدعى سابيككتاس (Sabiktas) ليكون والياً عليها، ولعله أحد الأعيان المحليين في المنطقة.^(١٨) وبعد معركة أيسوس وهزيمة داريوس دخلت كيليكيا ضمن دولة الإسكندر ونصب عليها الأخير بلاكروس.^(١٩)

لقد عمل الإسكندر المقدوني على تنظيم الإدارة في المدن التي سيطر عليها في آسيا الصغرى فمن المعروف إن مدناً في آسيا الصغرى لم يحاول الإسكندر إخضاعها وبقيت تابعة للفرس، تلك المدن التي لم تكن مهمة وعديمة الجدوى بالنسبة للأسطول

ولكن هل كان ما قام به الإسكندر هو ولعه بأساطير الإغريق لاسيما الإلياذة وإبطالها كما أشير^(٢٠) أم هو لغايات سياسية بحثة؟ فلنحاول فهم صورة مقدونيا في التراث اليوناني أولاً، فمنطقة مقدونيا كانت عبارة عن سهل يسكنه شعب خليط من سلالات مختلفة كالتراقية والايلىرية (الألبانية) ويتكلم لغة تنتمي إلى أسرة اللغات الهندية الأوروبية، وإذا أردنا الدقة كانوا يتكلمون بلهجة فضة من لهجات اللغة اليونانية، ولم يكن اليونانيون يفهمونها ولهذا عدوها من لغات البرابرة، ونتيجة لذلك لم تعد مقدونيا بلداً يونانياً في نظر الإغريق، ولو إن التصاق حدودها الجنوبية ببلاد اليونان جعلها بمرور الزمن نصف يونانية. هذا وإن الخطيب الأثيني ديموستينيس يصف ملكها فيليب الثاني والد الإسكندر بالمتبربر.^(٢١)

فإذا كان اليونانيون لا يعدون مقدونيا ذات حضارة يونانية، ويعدهم برابرة فلماذا حاول الإسكندر ربط نفسه بأسلاف اليونانيين. وهو من غير شك كان يدرك نظرة اليونانيين إلى مقدونيا، فلا شك إن إجراءات الإسكندر لم تكن إلا محاولة سياسية لكسب اليونانيين في آسيا إلى جانبه في حربه ضد الفرس لا أكثر. يبدو إن سياسة الإسكندر في آسيا الصغرى هدفت إلى مراعاة الأنظمة السياسية التي افتتها المدن اليونانية، فعندما كان الإسكندر في طروادة (إليوم) (Ilium) أعلن إن هذه المدينة صارت حرة وعادت إليها الديمقراطية، وألغيت عنها الضريبة التي كانت تدفعها للفرس، وأعاد تدميرها بما يتناسب مع ماضيها العتيق، وكرس نفسه فيها إلى معبد الربّة أثينا بولياس. وقد أعيد بناء المدينة وهي أول مدينة تبنى على خطط يونانية بمؤسسات يونانية ونشر المدنية اليونانية بين السكان المحليين. وقد تبني الإسكندر نظام الإدارة الفارسي وعين كلاس ستراب وأمره أن يجمع الضرائب نفسها التي كان يتسلمها الفرس. وقد كان الفرس يضطلعون بالحكم في المدن اليونانية بواسطة الطغاة أو الموالين لهم من الحكومات الأوليغارشية، مع إقامة الحاميات بين حين وآخر، على إن الإسكندر اتبع طريقة مغايرة هناك وذلك بتأييد الحكومات الديمقراطية الحرة والاعتماد عليها، وقد أعلن الإسكندر آنذاك أنه قد أتى للقضاء على الحكومات الأوليغارشية وأعاد الديمقراطية والسماح لكل مدينة بأن تسترد حقها في التمتع بقوانينها الخاصة بها ثم إلغاء الضريبة التي كانت تدفع إلى الفرس، فكان الديمقراطيون في مدينة تلو الأخرى يعملون على قلب الحكومات الموالية للفرس.

ففي زيليا مثلاً استولى المواطنون على القلعة وطردوا الطاغية المعين من قبل الفرس.^(٢٢) وقد احتل الإسكندر بنفسه أفيسوس وارجع المنفيين إليها وصارت الحكومة فيها ديمقراطية وأعيد بناء معبد ارتيميس (دايانا) فيها، ونعرف إن الإسكندر عمر مدينة سميرنا التي هجرها سكانها منذ مدة ليست بالقصيرة. وسمحت بريجي لانتيجونس بدخولها وكلف الكيماخوس بالذهاب لتحرير المدن الأولوية وعندما وصل الإسكندر إلى سارديس خرج ميثرينيس قائد قلعة سارديس لاستقباله مع أهل المدينة بناءً على وعد الإسكندر

اتهم أحد على أساس ما كان يبدو عليه في الماضي من ميول فارسية، وذلك فيما عدا حالتين اثنتين استثناهما وهما حالة الطغاة والخونة. وعلى ذلك أمر بأن أولئك الذين خانوا بالفعل خيوس وسلموها إلى ممنون وفروا، لا بد من اعتبارهم خارجين عن القانون في أي مدينة يحلون فيها، وفي حالة القبض عليهم لا بد من محاكمتهم، بينما جرى تسليم جميع الطغاة الذين كانوا قد وقعوا في يد الإسكندر في المدن التابعين لها لكي يقدموا للمحاكمة.^(٢٢)

لا نعرف الكثير من إجراءات الإسكندر في سوريا وفلسطين، ونعرف إن الإسكندر أقر الأوضاع في سوريا بتعيين ستراب مقدوني عليها يعاونه مشرف مالي. هذا وقد أرسل مينيس أحد رجال حرسه الخاص إلى فينيقيا ليتولى القيادة ويقوم بالإشراف على المواصلات البحرية بين فينيقيا وأوروبا، وفي فلسطين أسس الإسكندر في يافا دائرة لضرب النقود وأمر بتبديل اسم المدينة من يافو (Yapho) إلى جوبا (Joppa) من غير أن نعرف السبب.^(٢٣) في مصر نعرف إن الإسكندر قد أبقى الإدارة بيد أهلها بالدرجة الأولى، ما عدا قيادة الحامية التي أودعها إلى قاداته.^(٢٤) ويبدو إن الإسكندر حاول إرضاء المصريين وكسب ودهم وإبراز حكمه بطريقة شرعية على الطريقة المصرية لذا نجده يقدم القرابين للآلهة المصرية وعندما وصل إلى منفيس قدم القرابين للعجل المقدس أبيس، ومن ثم سافر عبر الصحراء إلى واحة سيوه وكان خط سيره عن طريق الساحل الشمالي إلى بريتونيوم (Paraetionum) (مرسى مطروح الحالية) حيث استقبل كما يقال وفدا من إغريق برقة، ثم توجه جنوباً إلى سيوه. لكي يصلي في محراب زيوس أمون وهنا أعلنه الكاهن ابناً للإله أمون وإنبأه بأنه سيحكم العالم، وتلقى إجابات عن تساؤلاته من أمون، ونحن لا نعرف ما حدث بين الإسكندر ووحى الإله أمون ولكن لا بد من إن الإسكندر قد سأل عما يشغل باله وهي حملته ومصير جهوده، ولا بد إن الرد كان منبئاً بتحقيق آمال الإسكندر وسيادته على العالم، أما الإسكندر نفسه فلم يفصح عما حدث داخل قدس الأقداس.

إن لقب ابن أمون يعني في الواقع أنه الفرعون الشرعي لمصر.^(٢٥) وقد إهتم المؤرخون قديماً وحديثاً بتفاصيل رحلة الإسكندر إلى سيوه لغرابة الفكرة ودلالاتها، إذ ما حدا بقائد عسكري لم يفرغ بعد من حرب عدوه أن يقوم برحلة لا تخلو من مخاطرة إلى قلب الصحراء الغربية بعيداً عن العمران من أجل زيارة معبد. ويعتقد البعض إن مثل هذه الرحلة مما يتفق وما نعرفه عن شخصية الإسكندر التي غلب عليها التأثير الديني إلى حد التطهر إلى جانب ميل شديد للمخاطرة واكتنازه المجبول، فليس مستغرباً إذن أن يستهوي سيوه ومعبد أمون الذي ذاع صيته في العالم اليوناني منذ القدم، خيال الإسكندر ليستلهم وحي أمون عن مستقبل أماله لاسيما وأن اثنين من أبطال الإغريق هما برسيوس وهرقل قد سلكا هذا السبيل من قبل فيما تروي الأساطير، فالإسكندر بهذا العمل يضيف حلقة إلى تقليد ديني عريق يليق بشخصيته البطولية.^(٢٦)

الفارسي الذي قد يشكل خطراً على تحركات الإسكندر.^(٢٧) لقد كان ولاية الفرس، كما وجدهم الإسكندر، يجمعون في أيديهم كل السلطة العسكرية والمدنية، وفي وسعهم سك العملة. لذا عمل الإسكندر على الفصل بين السلطات الثلاثة: المدنية والحربية والمالية، ولكنه لم يبق في آسيا الصغرى على سلطات مدنية منفصلة. وكان أغلب حكام الأقاليم أصلهم من القادة المقدونيين تسندهم جيوشهم، ولكنه استحدث تجديداً عظيماً بحرمانهم من الإشراف على المالية وإقامة مشرفين ماليين مستقلين، وربما احتفظ بالتقسيم الفارسي العسكري للولايات المسمى بالقيادات، وانتفع به على اعتبار أنه وحدات مالية إقليمية صغرى، تحت إشراف موظفين تابعين له ومسئولين أمام المشرفين الماليين عن الولاية (السترابية).

وبذلك شهدت آسيا الصغرى سلطة مزدوجة في كل سترابية، ولو احتفظ الإسكندر لنفسه بحق سك العملة. وقد حتم الإسكندر على المراقبين الماليين جمع الضرائب مباشرة من الفلاحين وإيداع المتحصل منها في الخزانة. ولا نعرف الكثير عن أراضي الملك، وربما كانت أراضي الملك الوحيدة التي كانت لا تزال يديرها مباشرة موظفو الإسكندر، تقع في نطاق الولايات المطلة على الشاطئ صوب الغرب والجنوب؛ أما كبار ملاكي الأرض في الهضبة الوسطى من آسيا الصغرى فقد أبقوا بصفة مؤقتة على حالهم، محتفظين بوضعهم القائم كما هو في العصر السابق، فيما عدا إن الإسكندر كان يعد نفسه المالك الأعلى للضياع وصاحب الحق فيما هو مقرر عليها من ضرائب، باعتباره السيد الأعلى للبلاد. وقد تم تعيين فيلوكسينوس مشرفاً على الضرائب في جميع أرجاء آسيا الصغرى شمال طوروس. ولعله كان صاحب الهيمنة على جميع المشرفين في الولايات، ومن اختصاصه عمل التنسيق بين جهودهم.^(٢٨)

لقد واجه الإسكندر مشكلة كبيرة في آسيا الصغرى من جراء إعادة النظم الديمقراطية للمدن هناك، فبعد إعادة الأنظمة الديمقراطية في كل مدينة كان يتبعه استدعاء العناصر الديمقراطية من المنفى (كما حدث في أفيثوس)، فإن أولئك الديمقراطيين سرعان ما يقوموا بتصفية خصومهم السياسيين، كما حدث في مدينة ميتيلي، فما إن استرد الديمقراطيين سلطتهم في المدينة حتى بدأوا يعملون الذبح والتقتيل في خصومهم السياسيين، لذا انبرى الإسكندر بالتدخل على الفور من أجل إنهاء المسألة، وفي أفيثوس بعد أن قام الديمقراطيون بقتل الطاغية وأبنه هناك عاقبهم الإسكندر برفضه إلغاء الضريبة عنهم. وفي خيوس التي أنظمت إلى ممنون، ثم تمكن الشعب من التخلص من العناصر الفارسية، صدر قرار الإسكندر بإعادة المنفيين وإقامة الحكومة الديمقراطية، ثم أمر بتأليف لجنة مراجعة القوانين، على أن تعرض النتيجة على الإسكندر، وأقام حامية في المدينة إلى أن: "يسوي أهل خيوس ما بينهم من خلافات ويسود السلام بينهم". ثم أصدر في الحال بإطلاق سراح المسجونين، ممن كانوا موالين للفرس في نظير دفع ما عليهم من غرامة، وقرر أنه لا يجوز في المستقبل

إلى هذا النظام الإداري يكشف لنا نقصاً ظاهراً فيه وهو عدم وجود منصب حاكم عام للبلاد، وإنما وزعت السلطة بعناية شديدة بين المشرفين على الإدارة والشؤون العسكرية والشؤون المالية. وقد كان أريان أول من لاحظ هذه الحقيقة وفسرها بأن الإسكندر فعل ذلك عامداً ليمنع أي حاكم بمفرده من أن يقوي سلطته ويتمكن من الاستقلال بمصر. ورغم إن أحد لم يستقل بمصر أثناء حياة الإسكندر، ولكن ما إن غادر مصر حتى وجدنا المشرف على الشؤون المالية كليومينيس النقراطي يظفر فوق كل القادة الآخرين، وبدا كأنه والي مصر الفعلي. ورغم إن أعماله التي أغضبت سائر الإغريق، ولكن يبدو أنه ظل حائزاً لثقة الإسكندر التامة حتى أنه بقي في منصبه طيلة حياة الإسكندر، مما يشير في أقل تقدير إلى أن الإسكندر هو الذي أعطاه هذه المكانة.

ومعلوماتنا عن كليومينيس هذا محدودة جداً، فنحن نسمع عنه للمرة الأولى حين عهد إليه الإسكندر بعدة مهام في نظامه لحكم مصر وأهمها الإشراف على الخزانة، ولا نعرف عن تاريخه قبل ذلك. ولكن نستنتج من اسمه أنه من إغريق مدينة نقراطيس (وكانت مركزاً مهماً لإقامة التجار الإغريق في مصر منذ عصر الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية)، ولابد أنه كان من أعيانها وكبار تجارها، مما يجعله ذا خبرة ودراية بشؤون السوق والحياة الاقتصادية المصرية، الأمر الذي يجب أن يتوفر فيمن يعهد إليه بالإشراف على الخزانة. على إن كليومينيس لم يكن مجرد موظف كفاء يتلقى تعليمات الملك لينفذها بإتقان وإنما تاجرًا وماليًا ممتازًا. فقد حاول هذا الرجل السيطرة على السوق المصرية والأسواق العالمية في البحر المتوسط، وعامل المالية المصرية كما يعامل التاجر الطموح ماليته الخاصة، وتاجر باسم الدولة^(٢٨). وبلا شك إن وجود موظف طموح بهذا الشكل هو الذي جعل الإسكندر يحجم عن وضع الصلاحيات بيد رجل واحد لذا نجده يقسم الإدارة بين كبار الموظفين، ولكن كليومينيس لم يكن إداريًا طموحًا فحسب بل انتهازيًا اشتهر بالخديعة والحيلة في تحقيق أهدافه، استغل الكثير من الفرص للقضاء على منافسي الدولة من التجار وغيرهم.

لقد حاول كليومينيس السعي لإضعاف طبقة الكهنة طريق إضعاف قدرتها المالية وابتزازها لإخضاعها. ونمتلك أمثلة جيدة عن مثل هذه السياسة: فقد كانت محاولته الأولى على فئة منهم في منطقة الفيوم التي كانت تقدر التمساح، فادعى أنه أثناء زيارته لها إن ابتلع تمساح أحد أتباعه وأنه انتقاماً من هذه الحادثة سوف يصيد التماسيح هناك ويقضي عليها، وهنا خشي الكهنة على إلههم من الإهانة التي ستلحق به فجمعوا ما استطاعوا من المال وقدموه إلى كليومينيس تعويضاً عن خسارته أحد أتباعه. بعد ذلك قام بمحاولة ثانية استهدف بها طبقة الكهنة بأسرها، إذ جمع ممثلين من جميع المعابد وأعلن إن المعابد تتكلف الكثير من المال ولذلك يجب إغلاق بعضها، فخاف الكهنة على معابدهم واتفقوا على جمع

لا يخلو هذا الرأي من مبالغة بعض الشيء واقتصره على جانب واحد في التعليل وهو مسألة شخصية الإسكندر المقدوني وحبه للبطولة واقتدائه بأبطال الإغريق، ولكن هناك جانب آخر يمكن أن يكون سبباً وجهاً لهذا التحرك، فالإسكندر الذي انتزع مصر من القبضة الفارسية كان عليه أن يثبت الحكم المقدوني فيها، ومن أجل تنفيذ هذه السياسة كان لابد من إقناع الشعب المصري بإيمانه الحقيقي بالمعتقدات المصرية، ولا يبدو هذه السياسة غريبة عن الإسكندر ففي كل منطقة من مناطق الشرق القديمة يدخلها الإسكندر منتصراً يقوم باتخاذ خطوات دينية من شأنها إقناع شعب هذه المنطقة أو تلك بإيمانه بمعتقداتها ونشاهد هذه السياسة قد طبقها الإسكندر في آسيا الصغرى عندما ربط نفسه بأبطال الإلياذة، وسنشاهدها أيضاً في العراق عندما أعلن عن احترامه للمعتقدات البابلية، إن النظر إلى كل هذه الأمثلة سوية تساعدنا على رسم صورة مغايرة لشخصية الإسكندر، التي غلب على الدراسات وصفها بحبها للبطولة فمهما أحب الإنسان الأبطال والأساطير فإنه لا يمكن محاكاتها في الواقع ولابد وأن الإسكندر كان مدركاً لهذه الحقيقة، فالأحرى أن نصف سلوك الإسكندر هو سلوك سياسي بحث أفضل من سلوك شخصي، فقائد هذه الإمكانيات العسكرية لا يمكن له أن ينتصر إذا ما تحرك وفق أهواء الشخصية وحسب.

بعد أن أتم الإسكندر الزيارة إلى واحة سيوه عاد بالطريق المباشر عبر الصحراء إلى ممفيس حيث أقام بعض الوقت، وتفرغ فيه لإعادة نظام الإدارة والحكم في مصر على أسس جديدة تلخص فيما يلي: قسمت مصر إلى قسمين رئيسيين شمالي وجنوبي (أي الوجه البحري والوجه القبلي)، وعهد بإدارة كل قسم إلى موظف مصري، ولكن حين تنعى إحداهما وهو بوتيسيس (Potisis) تولى زميله دولاسبيس (Doloaspis) إدارة الوجهين معاً. أما الحدود الشرقية والغربية فقد أنشأ بهما مقاطعتين جديدتين هما العربية وليبيا وعين على الأولى كليومينيس النقراطي (Cleomenes Of Naucratis) وعلى الثانية ابولونيوس ابن خارينوس (Apollonius son of charinus). وفيما يتعلق بالسلطة العسكرية فقد عين قائدين على الحامية العسكرية التي تركها في مصر هما بيوكستس ابن مكارتاتوس (Peucestes Son of Macartatus) وبلاكروس ابن امينتاس (Balacrus son of Amyntes)، كما عين بوليمون ابن ثيرامينس (Polemon son of Theramenes) قائداً للأسطول. هذا إلى جانب قادة آخرين لبعض الوحدات المرابطة في ممفيس وبولوزيوم.

أما الإشراف على الخزانة والشؤون المالية فقد عهد به إلى كليومينيس النقراطي، وأمره بأن يترك حكام المديرية المختلفة يديرون مقاطعاتهم كما كان الأمر من قبل، وأن يجمع منهم الضرائب المفروضة. وأخيراً عهد إلى كليومينيس أيضاً مهمة الإشراف على بناء مدينة الإسكندرية الجديدة.^(٢٩) إن نظرة سريعة

مبلغ كبير من المال سواء من أملاكهم الخاصة أو من أموال المعابد وقدموها إليه.^(٢٩)

لقد انتهج كليومينيس سياسة مقصودة لإقامة احتكار لتجارة القمح عن طريق السيطرة على السوق المصرية، بأن يصبح هو المصدر الوحيد للقمح المصري. وعن هذا السبيل استطاع التحكم في تجارة القمح العالمية وتحديد أسعاره في الخارج على نحو يحقق الربح الوفير. وقد ابتدأ بفرض سيطرته على سوق القمح المصرية بأن قضى على سائر المنافسين الذين كانوا ينحسرون في الكهنة وكبار المزارعين والتجار.^(٣٠) فقد اتجه كليومينيس نحو طبقة المزارعين اتفق معهم على أن يبيعوا إليه جميع محصولهم من القمح بالسعر الذي يصدر به. وبذلك احتكر تجارة القمح وأصبح المصدر الوحيد لهذه السلعة في مصر. كذلك عمل كليومينيس على التحكم بالأسواق العالمية، عن طريق شبكة من السماسرة والوكلاء بهم في موانئ البحر المتوسط الهامة. هؤلاء الوكلاء كانوا يطلعونه عن أسعار القمح في الأسواق المختلفة، وحيثما شح القمح وارتفع سعره استطاع كليومينيس أن ينتهز الفرصة في الحال ويرسل إلى ذلك المكان شحنات من القمح ويبيعها بالسعر الذي يريده هو، حتى قيل أنه باع الكيل من القمح في بعض الأزمات بمبلغ (٣٢) دراخمة بينما السعر العادي كان يتراوح بين (٥-١٠) دراخمة فقط.

والواقع إن ممارسة الاحتكار لم تكن جديدة في مصر، فقد مارسها الفراعنة من قبل في احتكار السلع للتجارة الداخلية. ولكن محاولة كليومينيس في إنشاء تجارة احتكارية دولية هي الأولى من نوعها. والجديد في محاولته هذه أنه مارسها بأساليب تجارية بحتة، وليس مثل أثينا التي استخدمت سيادتها البحرية لاحتكار تجارة البحر الأسود في القرن الخامس قبل الميلاد.^(٣١) وهناك تساؤل آخر يجب أن يسأل بشأن نشاط كليومينيس التجاري. وهو هل قام بهذه التجارة لحسابه الشخصي أم باسم الدولة ولصالحها؟ ليس لدينا رد قاطع على هذا السؤال ولكننا نستطيع أن نستشف من مصادرها إن كليومينيس قام بالتجارة على أنه رجل من رجال الدولة. وهناك دليل يؤكد هذا الاستنتاج هو إن بطليموس الأول سوتير تسلم من كليومينيس في خزانة الدولة مبلغ ثمانية آلاف طالنت، مما يدل على إن أرباح كليومينيس من التجارة كانت تذهب إلى خزانة الدولة.^(٣٢)

لقد سعى الإسكندر إلى ترسيخ المفاهيم الإغريقية في البلدان المحتلة ليرسي فيها فتوحاته، ففي ممفيس مثلاً نظم مباريات رياضية وموسيقية بمشاركة اليونانيين المدعويين لهذه الغاية.^(٣٣) ومن ثمَّ خطى أهم خطوة في سياسته في مصر وهي تشييده مدينة الإسكندرية للمهدف نفسه، ويذكر أريان وبلوتارك إن الإسكندر أثناء ذهابه إلى معبد أمون في سيوه مر على قرية كانوب (أبوقير الحالية)، وهناك وجد منطقة محصورة بين البحر وبحيرة مريوط تدعى راقودة توقع أن تكون مكاناً رائعاً لإنشاء مدينة تحمل اسمه. وتوقع للمدينة بسبب مميزات الموقع أن تعيش في تطور وازدهار. وقد

أحاطت بنشأة الإسكندرية أساطير أشهرها تلك التي ذكرها أريان حول استخدام الإسكندر للدقيق لرسم حدود أسوارها وتخطيط أحيائها وكيف فسر له العراف اريستاندير (Aristander) ذلك بأنه مؤشر لازدهار المدينة ورخائها.^(٣٤) لقد عين الإسكندر قبل مغادرته مصر المسئول عن الخزانة كليومينيس مشرفاً على بناء المدينة الجديدة وأمر بأن تكون الإسكندرية عاصمة مصر. ويبدو إن هدف الإسكندر كان هو إنشاء مركز تجاري يكون سوقاً عظيمة ويحل محل صور في البحر المتوسط التي كانت قد دمرت بفعل غزوات الإسكندر. ويبدو إن كليومينيس جعلها فعلاً مركزاً لنشاطه التجاري. ورغم إن مباني الإسكندرية العظيمة لم توجد إلا بعد إنشاء البطلمة دولتهم، إلا أنه ما من شك إن إسكندرية كليومينيس كان لها طابع الميناء التجاري، وإنها في عصره احتلت مكانة نقرطيس كمركز للتبادل التجاري مع اليونان وليس أدل على سرعة نماء الإسكندرية في أعوامها الأولى من أنه في ٣٢٦ قبل الميلاد كان بها دار نشط لسك العملة تصدر عنها عملة الإسكندر في كميات كبيرة.^(٣٥)

أما في بلاد الرافدين، فقد احتلها الإسكندر في أعقاب معركة غاغاميل الحاسمة مع الفرس، ولم يلاق الإسكندر في بابل حرباً بل إن الحاكم الفارسي مازيوس سلم المدينة إلى الفاتح، وأول عمل قام به أنه أعلن لسكان بابل أنه خلصهم من اضطهاد البرابرة.^(٣٦) وقد اتبع الإسكندر سياسة التسامح التي اتبعها في مصر، فأعاد مازيوس إلى منصبه، وأبقى البابليين، مثلما فعل مع المصريين في مراكزهم الوظيفية والإدارية والدينية، ولكن شؤون الجيش والمالية انبثقت بالمقدونيين فقد عين أولودور الامبيولي قائداً للجند، واسكيليبودور بن فيلو جابياً للضرائب.^(٣٧) لقد كان تعيين مازيوس سابقة مهمة لأن الإسكندر لأول مرة يعين فيها فارسياً في الإدارة، ولكنه لم يخوله سلطات عسكرية ومالية التي بقيت بيد المقدونيين، ومنذ ذلك الحين، كان كلما عين والياً فارسياً، قسم السلطات الثلاث وهي المدنية والعسكرية والمالية، فكان يقصي الفرس دائماً عن تولي السلطة العسكرية على أنه في أمر واحد فقط كان مازيوس مركز فريد وهو أنه كان الوالي الوحيد الذي سمح له بسك عملة.^(٣٨)

ويبدو إن الإسكندر أراد كسب ود البابليين كما فعل في طروادة ومصر لذا نجده يقدم القرابين للآلهة في معابدها، ويأخذ بيد الإله مردوك^(٣٩) ونعرف أنه منح لقب ملك الجهات الأربع وملك الجميع^(٤٠)، وإن مسك يد مردوك واتخاذ الألقاب الملكية يعني إن الإسكندر أصبح الملك الشرعي في بابل. ويشير أريان إلى إن الكهنة البابليون أشاروا على الإسكندر بجميع ما عليه القيام به في المدينة من واجبات دينية وما يخص الطقوس البابلية القديمة، وعلى وجه الخصوص تقديم القرابين إلى بيل (مردوك).^(٤١) ويتحدث المؤرخين أريان وابيانوس أنه حينما دخل الإسكندر مدينة بابل أمر البابليين أن يعيدوا بناء كل المعابد التي دمرها احشويرش، ومن بينها معبد بيلوس (مردوك-بيل في البابلية) الذي يكرمه البابليون أكثر من بقية الآلهة الأخرى، لذا

سميت إن المنطقة المكشوفة مع علامات الحرق ربما تذكر أكثر بساحة السوق (الاغورا) المنطقة التي دمرتها النيران.^(٤٧) إن وجود مسرح إغريقي مع منطقة ربما تمثل الاغورا قد تشير إلى وجود مستوطنين إغريق في بابل ربما من جنود الإسكندر الذين أسكنهم في المدن الجديدة في الشرق قد اسكن بعضاً منهم في المدن القديمة. ونمتلك إشارات عن تأسيس الإسكندر لدار ضرب النقود في بابل بعد وصوله مباشرة إليها من أجل تأمين رواتب لجنده الذين شكلوا حامية عسكرية هناك.^(٤٨)

تزودنا المصادر بمعلومات جيدة عن بعض إجراءات الإسكندر في بابل، فقد حفظ كل من أريان وسترابو معلومات تتعلق بتدخل الإسكندر في حقل الإدارة البابلية للجدول والأشهر. وينقل سترابو عن أحد قادة الإسكندر ويدعو أريستوبولوس قوله: "إن الإسكندر فتش الجداول ونظمها مع جيش من أتباعه وأنه أيضاً سد بعض مصباتها وفتح أخرى".^(٤٩) فضلاً عن ذلك فإن سترابو وأريان يسجلان إن الفرات قد أصبح صالحاً للملاحة، بفضل الإسكندر الذي رفع السدود الاصطناعية التي شيدها الفرس الأخمينيون لمنع الملاحة إلى أعالي نهري دجلة والفرات خشية هجوم خارجي.^(٥٠) وإن خطوات الإسكندر المباشرة لإصلاح وتجديد جداول الري والزل في الفرات، هي حركة تبدو مدفوعة باهتمامات ملاحية عملية وليس بإحساس من أجل رفاهية ومصصلحة النظام الزراعي في بلاد بابل.^(٥١) في الحقيقة كان الإسكندر يملك أسطولاً من السفن الحربية التي نقلت قطعاً بالسفن الكبيرة من فينيقيا إلى بلاد بابل تأهباً لغزو الجزيرة العربية وأنه بلا ريب يتطلب أن يكون الفرات وفروعه أسفل بابل في حالة جيدة، وحتى أريان يقول إن الإسكندر حفر مرفأ في بابل يتسع لألف سفينة حربية، وأنه أوفد ميغالوس الكلازومي إلى فينيقية وسوريا معه ٥٠٠ طالنت لتجنيد مجموعة من الجند واستخدام آخرين من ذوي الخبرة في الشؤون البحرية.^(٥٢)

لا نمتلك معلومات كافية عن مدن بلاد الرافدين في عصر الإسكندر ويشير الأستاذ بوتس إلى أنه في عصر سلالة أور الثالثة وبابل الأولى، كانت أور تقوم بالتأكد بوظيفة بوابة بلاد الرافدين للسفن القادمة من الجنوب. ويبدو إن تلك الوظيفة قد انتقلت إلى أريدو عند وصول الإسكندر. وكانت عمر أريدو نحو ٦٠٠ سنة حين دخل الإسكندر بلاد بابل. وقد بين الباحث الألماني فايسباخ منذ زمن طويل إن أريدو كانت مماثلة لمدينة تدعى تيريدون (Teredon) لدى مختلف المؤلفين الكلاسيكيين أمثال سترابو وديونيسيوس واميانيوس مارسلينيوس، ويريدوتس أو أريدوتس لأريان. وعلى وفق يوسيبوس نقلاً عن ابديونوس إن نبوخذنصر الثاني (٦٠٤-٥٦٢ قبل الميلاد) هو الذي أسس تيريدون ضد غارات العرب، وهو تلميح مهم، فأريدو المذكورة في نصوص بابلية حديثة واجر مختوم بشعار نبوخذنصر وجدت في الزاوية الشمالية الغربية لزقورة أريدو. ونظراً لعراقه أريدو فإن ذلك يجب أن ينظر إليه على أنه إعادة تأسيس إذا ما كان دليل يوسيبوس صحيحاً. ويقول نيرخوس أمير البحر لدى الإسكندر

شرع بترميم معبد مردوك ولكنه لم يتمكن لسوء الحظ من تحقيق ما فكر به، فقد تكشف له ضخامة المهمة التي عقد العزم على انجازها، عندما رأى بعد شهرين من الجهود أنه لم يتوصل بمعونة عشرة آلاف جندي إلا إلى إزالة التراب الذي كان يحجب الآثار المتداعية وطبقاً لسترابو كان مقدار العمل كبيراً جداً وأن إعادة المباني لم تكتمل في حياة الإسكندر.^(٤٢) وتشير المصادر إن موقف الإسكندر من اليهود في بابل كان يختلف عن ذلك الموقف في فلسطين، إذ نقرأ عن إجباره ليهود بابل على الاشتراك في بناء هيكل بيل وعاملهم بقسوة وجلدهم وأخذ منهم غرامة مالية، إلا إن اليهود تداركوا الأمر واسترضوا الفاتح وصالحوه، ودخل عدد منهم في جيشه وحاربوا مع المقدونيين جنباً إلى جنب.^(٤٣)

ولكن لا نعرف صحة هذه الأخبار لاسيما وأن الإسكندر كما رأينا في سياسته لم يضطهد أي صنف من أصناف السكان في الأقاليم المحتلة، ولكنه هاجم بقسوة بالغة المدن التي وقفت ضده وساندت الفرس، فهل كان اليهود في بابل مساندين للسلطة الفارسية فهاجمهم الإسكندر بعد دخوله بابل، ولكن نحن لا نعرف أي قوة يهودية اشتركت في القتال مع الفرس، فضلاً عن ذلك لم يكن اليهود في بابل إلا أقلية ضئيلة لا يمكن أن يعول الفرس على مساعدتها، لذا من الأرجح أن نعد هذه الرواية مختلفة لاسيما وإذا ما عرفنا أنه لا توجد أي إشارة إلى مجندين يهود في جيش الإسكندر ما عدا هذه الرواية. ونعرف إن الإسكندر حاول إدخال بعض المفاهيم الإغريقية إلى بابل ومنها أنه شيد المسرح اليوناني هناك قبل وفاته بستين.^(٤٤) يشير بعض الكتاب الإغريق الذين رافقوا الإسكندر في حملته إلى الشرق إلى إن الإسكندر كان ينوي جعل بابل عاصمته الشرقية.^(٤٥)

ويبقى هنا سؤال لا بد منه لدراسة الأوضاع في بابل في عهد الإسكندر المقدوني، وهو يتعلق بمدى وجود جالية إغريقية أو استيطان إغريقي في بابل؟ وتعبير أدق هل هناك مستوطنين إغريق يمكن أن نقرأ عنهم في بابل؟ فالأدلة الأثرية قد تشير إلى هذا الاقتراح لاسيما وجود مسرح إغريقي في بابل، والذي يُعد جزءاً مهماً في بناء المدينة الإغريقية، هذا المسرح الذي لا يشكل أهمية بكل الأحوال بالنسبة للبابليين. وهناك أدلة ربما تشير إلى وجود الاغورا (وهو نواة المدينة الإغريقية)، فهل هذا دليل على استيطان إغريقي في بابل؟ لا نمتلك معلومات كافية عن تواجد استيطاني إغريقي في بلاد بابل خلال عهد الإسكندر وقد جرى الاقتراح بوجود البحث عن حي إغريقي في منطقة في بابل المعروفة محلياً بالحميرة. ولكن ما من تنقيبات جرت لتأكيد ذلك. هذا مع العلم إن البعض فسر منطقة الحميرة على أنها بقايا الأنقاض التي رفعت بأمر الإسكندر من حوالي برج بابل.^(٤٦)

وقد كشفت التنقيبات الألمانية الأولى عن مساحة للحرق في هذه المنطقة فسرها على نحو رومانسي كولديفاي بأنها بقايا المنصة التي بناها الإسكندر لحرق جثة صديقه هيفايستون في حين بين

ارتابازوس: ارتاكاما وارتونيس... إلخ). وأغلب الظن إن هذا الزواج هو الإعلان الشكلي والتثبيت الرسمي لارتباطات زوجية كانت قد تمت من قبل. وقام الكهنة من رجال الدين المجوس واليونانيين بالصلوات والدعاء بأن تتحقق وحدة من الشعوب والملل والأجناس في ظل الإمبراطورية.^(٦٠)

ثانياً: موقف سكان الشرق الأدنى من احتلال الإسكندر المقدوني

إن محاولة فهم موقف مناطق الشرق الأدنى من الإسكندر المقدوني واحتلاله لأراضيها مسألة مهمة وقد اختلفت هذه المواقف في كل منطقة عن الأخرى فبعض مناطق الشرق القديم قد رحبت بالإسكندر على أنه محررها، والأخرى رفضت خضوعها له وقاومته بشدة، ونجد هاتين الصورتين في وقت مبكرة من تاريخ حملة الإسكندر على الشرق. إذ نعرف إن عدد من المدن اليونانية في آسيا الصغرى قد استقبلت الإسكندر بالترحاب الكبير على أنه محررهم من السيطرة الفارسية^(٦١) فمثلاً نعرف إن الإسكندر عندما وصل إلى إقليم ليكيا لم يجابه بعداء من قبل الليكيين ومن المحتمل أنه تم الترحيب به وفتحت اكسنائوس أبوابها طواعية. كذلك باقي المدن الليكية وذكر المؤرخ اناباسيس الإسكندري إن الليكيين قدموا (١٠) سفن شاركت أسطول الإسكندر الذي تحشد قبالة الساحل السوري، كما قدم الليكيين وحدات من مقاتلي الفرسان اندمجت مع قوة الإسكندر شأنها شأن القوات الليدية والسورية.^(٦٢) ولكن لم يكن الإسكندر رحيماً بالمدن التي عارضت احتلاله ونحن نمتلك أمثلة كثيرة عن مثل هذه المدن فعندما عبر الإسكندر مضيق الدردنيل (الهلسبوننت) (Hellespont) سنة ٣٣٤ قبل الميلاد اعترضت مدينة لاميساكوس (Lampsacus) تقدمه ولكنه أخطرها بالتخريب، وقد اقنع الإسكندر بالعدول عن تخريب المدينة وفد ترأسه المؤرخ اناكزيمينيس (Anaximenes)^(٦٣) ونعرف إن هيغسيسترا حاكم ميكال سلم المدينة إلى المقدونيين لكن ما إن وصلها الأسطول الفارسي حتى تراجع عن موقفه وصمم على مواصلة القتال، في وقت أعلن به السكان المحليون الحياد، لكن الإسكندر مع ذلك ضرب المدينة التي دافع عنها المرتزقة اليونانيون حتى الموت. كما رفضت مليتوس الاستسلام وبعد مقاومة هدمت خلالها المدينة وأعلنت استسلامها.^(٦٤)

ونعرف إن مدينة هاليكارناسوس عارضت الإسكندر وكان ممنون وهو قائد المرتزقة الإغريقي في جيش الفرس بنفسه يتولى قيادة حاميتها ومعه اورنتوباتيس حاكم كاريا، الذي خلف بيكسوداروس ومعهم بعض المنفيين من المقدونيين. وقد فرض الإسكندر الحصار على المدينة وقد أبلى المحاصرون بلاء حسناً في القتال وتمكنوا من مهاجمة أدوات الحصار الخاصة بالإسكندر مشعلين في بعضها النيران، وقتلوا أحد حراس الإسكندر واسمه بطليموس، كما قتلوا غيره من الضباط. ولما أصبحت المدينة في آخر الأمر لا سبيل للدفاع عنها أحرقوا ما لديهم من ذخيرة ومستودعات

إن في تريدون يقوم التجار بجمع البخور من البلدان المجاورة وجميع الافاوية العطرة التي تنتجها البلاد العربية.^(٥٣)

ومن أعمال الإسكندر المهمة في بلاد الرافدين أنه شيد مدينة الإسكندرية على دجلة، إذ يذكر بليني إن الإسكندر أمر ببناء مدينة قرب النقطة التي تلتقي فيها قناة الكارون بنهر دجلة، وقد أنشئت المدينة فوق رابية اصطناعية لحماية الموضع من فيضانات مياه الأنهار القريبة. وقد أراد الإسكندر دون شك أن تكون المدينة الجديدة ميناءً تجاريًا رئيسًا، يستوعب التجارة البحرية الغنية القادمة من الهند ومن شبه جزيرة العرب، فضلاً عن ذلك تكون رابطة بين الهند وعاصمته المقبلة في بابل. ولتهيئة عدد كاف من السكان فإنه تم إسكان المدينة بالجنود المقدونيين العاجزين من بين جيوشه العائدة من الحروب في الأقاليم الشرقية، كذلك نقل سكان من مدينة دورين (Durine) (التي ما يزال تحديدها غير معروف) القريبة. وقد سكن المقدونيين في حي من المدينة سمي بيللا (Pella) على اسم المدينة التي ولد فيها الإسكندر.^(٥٤)

وفي بلاد فارس يشير أريان إن سكان مدينة سوسة قد أعلنوا استسلامهم للإسكندر وأعطوه ما في المدينة من أموال^(٥٥) وإن الإسكندر قد عين في مدينة سوسة ستراب فارسي وهو ابولانيس العربي، كما عين مازاروس قائداً لحامية قلعة سوسة. واريخيلوس قائداً آخر،^(٥٦) كما عين ولاية فرس على ميديا وميديا بارتاسيني (Parartacene)، وقد عين بارمينيون في ميديا ومعه فرقة من التراقيين والمرتزقة كقائد موكل بالمحافظة على المواصلات البرية.^(٥٧) وقد حاول الإسكندر كما فعل في مصر من محاولة إرساء القيم الإغريقية في إيران، ففي سوسة نقرأ عن إقامته سباق الجري بالمشاعل، ومباراة رياضية^(٥٨). ولكن كان أهم إجراءاته أنه أمر بجمع شبان فارس وتدريبهم على يد مدربين من المقدونيين، واتخذهم جنداً في جيش الملك الجديد، وقد تعلم ٣٠٠٠ شاب فارسي فن الحرب والعادات واللغة الإغريقية.^(٥٩)

وتشير المصادر إن الإسكندر كان يبغى تنفيذ خطة دمج الشرق بالغرب، عن طريق توحيد العناصر الثلاثة الكبرى في إمبراطوريته وهم المقدونيون واليونانيون والفرس، وليس هناك من دليل على أنه ادخل في خطته هذه، أي شعب أو عنصر آخر. ويومئذ احتفل بزواج الشرق والغرب. وفي هذا الاحتفال تزوج الإسكندر من بارسين ابنة داريوس الكبرى، وباريستيس ابنة الصغرى لاوخوس الفارسي، حسب عادات الملوك العظام من الفرس، فضلاً عن زواجه سابقاً من روكسانا ابنة ملك سوغديانا وقد تزوج عدد كبير من ضباطه سيدات من الأسر الشريفة الفارسية، وقد طلقوهن جميعاً تقريباً بعد وفاة الإسكندر. ويقال أنه تم في هذا اليوم زواج تسعة آلاف جندي من نساء أسويات. ويذكر البعض أنه تم زواج ٨٠ قائداً من قادته وعشرة آلاف جندي (منهم هيفايستون الذي تزوج ابنة أخرى لداريوس، وكرايوس الذي تزوج اماسترينة ابنة عم بارسين، وتزوج برديكاس ابنة والي ميديا، كما تزوج بطليموس ويومينيس من ابنتي

وفي فلسطين لم يلبق فيها مقاومة إلا من مدينة غزة التي قاومت لمدة شهرين وقيل ثلاثة أو خمسة أشهر، ودافع عن غزة قائد أطلق عليه اريانوس اسم باتيس (ربما باطش) على رأس جيوش عربية أذاقت الإسكندر الأمرين، وكاد باتيس وقواته ينتصرون لولا وصول التعزيزات لجيش الإسكندر وأصيب الإسكندر نفسه بجراح. وإن فتك الإسكندر بأهالي غزة يصور مدى غضبه من مقاومتهم الشديدة له، فقد أبيدت الحامية واقتيد قائدها وذبح على أسوار المدينة وبيع سكانها عبيداً، واستولى الإسكندر على مخازن ضخمة من التوابل لأن المدينة كانت المستودع الرئيس لمنتجات الجزيرة العربية.^(٦٨) لا نعرف موقف الجالية اليهودية في فلسطين من تقدم الإسكندر المقدوني وبخبرنا المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيفوس (١٠٠-٣٧م) بأن الإسكندر خلال حصاره لصور طلب من سمعان الكاهن الأعلى للجالية اليهودية في القدس إرسال جيوش له، ولكن الأخير رفض على أساس ارتباطه بالملك الفارسي، ولا نعرف صحة هذا الخبر، ولا سيما أننا نعرف أنه لم تكن من إجراءات الإسكندر طلب من سكان المناطق التي يحتلها الانخراط في صفوف جيشه، أو حتى التطوع في القوات التي كان يبقيها للمحافظة على الأمن الداخلي. فلماذا يسأل الإسكندر الجالية اليهودية القليلة العدد بالذات بتقديم متطوعين لجيشه؟

يرى الأستاذ سامي سعيد الأحمد إذا كان هذا الخبر صحيحاً فربما يكمن سره في معرفته احتمال تسليح الفرس لإفراد هذه الجالية واعتمادهم عليهم في حفظ الأمن في البلاد ضد أية حركة قد تصدر من الأكثرية وبدو الصحراء القريبين لاسيما والقدس ذات موقع استراتيجي هام.^(٦٩) ولكن لا يمكن قبول هذه الرواية وربما ساقها جوزيفوس للتدليل على أهمية هذه الجالية في فلسطين وقوتها. ويستمر جوزيفوس بالقول ما إن أنهى الإسكندر احتلاله لصور وغزة حتى رأى الكاهن الأعلى للجالية اليهودية حلما دعاه إلى الاستسلام للقائد المقدوني. فإذا كان الكاهن الأعلى للجالية اليهودية باتفاق مع داريوس الثالث الملك الفارسي فلماذا لم يساعد الأخير وهو في فترة كان فيها بأمر الحاجة للمساعدة إن كان حقا يقدر الالتزامات ويحترم اليهود؟ والواقع إن الكاهن الأعلى إذا أخذنا كلام جوزيفوس مأخذ الحقيقة لم يتقدم لمساعدة سيده الملك الفارسي، بل انتظر ما تتمخض عنه هجمات الإسكندر على صور ثم غزة اللتين كانتا أقوى المدن في سوريا وفلسطين، فلما انتصرت الجيوش المقدونية ودخلت المدينتين المذكورتين تذرع الكاهن بحجة الحلم.^(٧٠) ولكن يمكن النظر إلى رواية جوزيفوس على إنها محض اختلاق للجالية اليهودية القليلة العدد لا يمكن إن يعول عليها كل من داريوس الثالث أو الإسكندر المقدوني، لاسيما وأن مقاومة غزة للإسكندر يُعدّ حدثاً هاماً للفرس، وإن الفرس إن أرادوا أن يعتمدوا على أحد في فلسطين فيجب أن يكونوا السكان الأكثرية من كنعانيين وعرب، لاسيما وأن مقاومة غزة قد قادها العرب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم تكن الجالية اليهودية قوية كفاية لكي

ولاذوا بالفرار، وقد وُكل الإسكندر إلى شخص يدعى بطليموس أيضاً ومعه ٣٢٠٠ من المرتزقة، أمره بإخضاع كاريا حيث كان اورنتوباتيس لا يزال معتمداً في قلعة سالاماكيس. وقد استطاع الأخير بفضل المساعدة التي لقيها في أغلب الظن من اغيس ملك إسبارطة، أن يصمد، ولكنه في النهاية هزم على يد بطليموس واساندر، على إن إتمام إخضاع كاريا لم يتحقق إلا في سنة ٣٣٢ قبل الميلاد.^(٦٥)

في سوريا يبدو إن موقف السكان هناك اختلف بين قابلٍ للسيطرة المقدونية أو رافضٍ لها فالمعروف إن أولى المدن التي أعلنت رفضها لسيطرة الإسكندر المقدوني كانت مدينة صور الفينيقية، التي حاصرها الإسكندر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، في وقت أعلنت مدينة صيدا ومدنا فينيقية أخرى مثل أرواد وببيلوس الاستسلام للإسكندر وعندما بلغت أخبار استسلام هذه المدن بحر ايجة هربت سفنها التي كانت في خدمة الفرس وعادت إلى أوطانها. وتشير المصادر إن الإسكندر عندما وصل إلى فينيقيا قابل وفداً من صور، عارضين عليه الخضوع والاستسلام بصورة عامة، ولكن الإسكندر لم يكن واثقاً كل الثقة بهذا الإعلان لذا طلب السماح له بدخول المدينة لتقديم القرابين والتضحيات لجده الأعلى هرقل (كان هرقل يوازي ميلكارت عند اليونانيين). فكان ردهم على طلب الإسكندر إنهم لن يسمحوا باستقبال أحد من الأغراب في المدينة سواء أكان من الفرس أم من المقدونيين. على أنهم أشاروا بوجود حرم مشهور لميلكارت في صور القديمة على البر الأصلي، وفيه قد يجد الإسكندر ضالته المنشودة مما يفي بمطالب ورعه.^(٦٦)

لا يمكن تصديق هذه الرواية كحقيقة تاريخية وذلك لعدة أسباب منها إن المدن التي أعلنت خضوعها للإسكندر ومنها المدن الفينيقية لم يحاول الأخير أن يبرهن عن صدقهم بل تقبل خضوعهم فقط، فضلاً عن ذلك إذا كانت صور قد أعلنت استسلامها فلماذا تمتنع عن دخول الإسكندر إليها، هذا نحن إذا صدقنا الرواية كما هي فإننا نخبرنا بوجود مزار لميلكارت في البر خارج صور أو صور القديمة كان يمكن للإسكندر أن يذهب إلى هناك لتقديم قربانه، لذا فالأرجح إن الرواية مختلفة أرادت أن تعطي السبب الذي من وراءه رفض صور احتلال الإسكندر لها. وقد تمكن الإسكندر بمساعدة المدن الفينيقية وسفنها الحربية من اقتحام مدينة صور عنوة، بعد حصار دام سبعة أشهر وكانت صور تتوقع المساعدة من قرطاجة حيث بعثت بشيوخها وأطفالها ونساءها إلى هناك ليبقى الرجال يقاومون الإسكندر ولكن أملها خاب وخضعت هذه المدينة - بعد إن قتل من الصوريين ٨٠٠٠ من محاربيهم للإسكندر- فدمرها الأخير وأعدم ٢٠٠٠ من سكانها وباع ما يقدر بثلاثين ألفاً منهم عبيداً واحتفل القائد المقدوني بنصره بإقامة الألعاب والشعائر الدينية وتقديم الذبائح في معبد ميلكارت.^(٦٧)

استقباله على بكرة أبيهم، وكان في مقدمتهم الكهنة والحكام، وكل يحمل هدية ويعرض استسلام مدينة أو قلع، ويقدم ماله^(٧٦). ويعلق بوتس على ذلك بأن هذا كله أوبرا وليس تاريخاً^(٧٧). يرفض البعض هذه الصورة على أساس إن السياسية الفارسية القاسية تجاه بابل ليست كما تصور، فالمعروف إن داريوس واحشويرش، قد دمرا معابد بابل في أثناء الانتفاضات البابلية الفاشلة. لذلك فإن الإسكندر عد محررا لبابل، ولكن هذه الصورة لا يمكن قبولها فتراث احشويرش في تدمير المعابد البابلية قد كشفه م. كورت وس. شيرون-وايت بأنه ابتداء متأخر من غير أساس^(٧٨).

وكان الأستاذ جورج رو قد نبه منذ وقت طويل إلى هذه الحقيقة إذ يقول إذا كان هيرودوتس قد قام فعلاً بزيارة بابل بعد ثورتها الأخيرة على احشويرش، بعشرين عاماً فان وصفه يسمح لنا بالاستنتاج بأنها قد عانت أذى قليلاً بدرجة ما. وفي الحقيقة فإن هيرودوتس يكتفي بذكر إن احشويرش قد سلب من إيساك-ايلا (معبد الإله مردوك في بابل) التمثال الكبير للإله مردوك المصنوع من الذهب. غير إن كتابات المؤرخين مثل أريان وكتيسياس وسترابو توحى لنا بأن أسوار المدينة قد أزيلت وإن المعابد قد سويت بالأرض، ولما كان اسم إيساك-ايلا والمعابد الأخرى يتكرر وروده في نصوص متأخرة، لذلك فمن المحتمل أن تكون تلك المعابد قد خربت جزئياً وتهدمت في القرون اللاحقة بسبب تركها دون صيانة^(٧٩). فإذا كانت الرواية القائلة بتدمير بابل من قبل احشويرش محض اختلاق فلماذا عُد الإسكندر محرراً؟

لا يمكن قبول فكرة استقبال البابليين للإسكندر على أنه محرر، وإن الروايات التي حيكت حول استقبال الإسكندر من قبل البابليين كما نقلها مؤرخو الإسكندر لا يمكن قبولها كمسلم تاريخي. فالأستاذ كورت قد عرض بوضوح إن أوج الاستقبال الحافل للبطل الفاتح، بمناسبة دخول الإسكندر بابل، يشابه تماماً الترحيب الذي تلقى به مواطنو بابل سرجون الأشوري سنة ٧١٠ قبل الميلاد، ثم كورش الكبير في ٥٣٩ قبل الميلاد، بصرف النظر عن تدفق الحماسة العفوي فإن مثل هذه المناسبة الاحتفالية التي نظمها تنظيمًا جيدًا كلا الطرفين بعد الأمر الواقع بالنصر العسكري الكبير وهرب أو أسر أو استسلام المدحور، تمثل نتيجة نهائية لمفاوضات معقدة فرضتها على المواطنين ظروف غير مرغوب فيها، وكما لاحظ ب. بريانت أنه بغض النظر عن التدهور نتيجة الضرائب الباهظة التي فرضها الملك الأخميني فإن بلاد بابل مرت بفترة من الهدوء والرخاء، وهذا يجعل المرء يفهم على النقيض من الفرضية المستقاة مباشرة من مادحي الإسكندر وأن الصفوة البابلية المثقفة لم تُعد الانتقال من الهيمنة الفارسية إلى الهيمنة المقدونية تقدماً^(٨٠).

يطلب الإسكندر منها المساعدة لاسيما أثناء حصار صور وهي المدينة القوية التي طالما استعصى فتحها على أقوى الجيوش فلماذا يحتاج الإسكندر مساعدة الجالية اليهودية؛ وإن قصة الحلم الذي جاء مبرراً لرئيس الجالية اليهودية تؤيد الاستنتاج، لذا يمكن أن نتصور الأمر إن الإسكندر لم يرسل أصلاً الجالية اليهودية، وعندما اقترب من القدس عمل هؤلاء على كسب وده كما فعلوا في السابق مع الفرس، وإن هدف جوزيفوس هو محاولة الدفاع عن بني جلدته وإظهارهم بمظهر القوي.

على أية حال؛ فإن القدس قد استسلمت للإسكندر، دون مقاومة تذكر بل رحبت به الجالية اليهودية ترحيباً منقطع النظير، ويظهر إن الإسكندر قد سمح لهذه الجالية في القدس أن تعيش وفق قوانينها الدينية وعاداتها الخاصة وعفا أفرادها من الضرائب لتلك السنة (٣٣٢ قبل الميلاد) حتى قيل أنه صلى في المعبد^(٧١). ويذكر جوزيفوس في رواية أخرى إن يهود القدس طلبوا من الإسكندر أن يسمح لليهود في بلاد بابل وميديا أن يعيشوا حسب شرائعهم، إلا أنه لم يذكر أحد من كتبة سيرة الإسكندر هذه المسألة ولهذا ارتأى الأستاذ هويلر إن القصة موضوعة وضعها اليهود المهملين أي الذين اقتبسوا العادات اليونانية في القرن الأول الميلادي، لكي يثبتوا إن علاقة اليهود قديمة باليونانيين من عهد الإسكندر^(٧٢).

ونقرأ عن وفد من السامريين قابل الإسكندر ودعاه إلى زيارة مدينة شخم واخبروه بأنهم ليسوا بيهود بل صيدونيين^(٧٣)! ولا نعرف السر في ذلك ولكن من غير شك أرادوا تمييز أنفسهم عن اليهود فكما هو معروف إن يهود السامرة يختلفون عن اليهود في كثير من الجوانب حتى في بعض المعتقدات الدينية. ولكن فيما بعد نقرأ إن أهالي السامرة قد قاموا بثورة عارمة أحرقوا خلالها الحاكم اندروماخوس حياً لا نعرف أسبابها وتفصيلها كانت نتيجة إن قام برديكاس بإجلاء سكان المدينة وإسكان مقدونيين بدلا عنهم^(٧٤).

وتشير المصادر إن الإسكندر قوبل بالترحاب من قبل المصريين الذين أخذوا يرون بالإسكندر الأخذ بالتأثر لهم من الفرس وربما يكمن السبب في أن السنوات الأخيرة للحكم الفارسي في مصر قد تميزت بالقسوة والاضطهاد وإهانة المصريين في ديانتهم ومعتقداتهم^(٧٥). لا نعرف صحة هذه الرواية ورغم إننا لا نمتلك ما يشير إلى عكسها إلا إن قسوة الحكم الفارسي في مصر ليس كافياً لجعل المصريين يرون بالإسكندر على أنه محررهم، وحتى ولو افترضنا صحة الرواية فلا بد وإن المصريين قد تغيرت فكرتهم عن الإسكندر وفتوحاته بعد السياسة التي نفذها المشرف على الخزانة كليومينيس النبطاطيسي، وهو الموظف الذي اشتهر بابتزازه للمعابد المصرية ومحاولته إهانة مقدسات المصريين.

في بابل يتحدث كل من كونتوس كوريتوس وأريان إن الإسكندر عندما دخلها استقبله ورجاله الناس الذين تدفقوا فارشين الشوارع بالزهور حتى كانت فرق من الكهنة تنشده ويمكن أن نقرأ وصف أريان لدخول الإسكندر إلى بابل: "خرج البابليون إلى

ومن ذلك نخلص إلى؛ أنه بشكل عام فإن فكرة استقبال البابليين للإسكندر بهذه الطريقة الموصوفة في الأدبيات الإغريقية التي كتبت حول سيرة الإسكندر لا يمكن عدّها ذات أسس تاريخية، فمؤرخو الإسكندر لا يدّون أن أضافوا الكثير من الخيال الخلاق عند تدوينهم سيرة ذلك القائد المقدوني الذي تمكن في غضون أربعة أعوام فقط من إسقاط واحدة من أقوى الدول في العالم القديم وألد أعداء بلاد اليونان. من جانب آخر نمتلك رواية لدى أريانوس ذا مغزى خاص يمكن أن تقدم لنا إضاءة حول قضية ترحيب البابليين بالإسكندر كمحرر تقول الرواية: "عندما كان الإسكندر وجيشه يعبران دجلة متجهين إلى بابل استقبله الفلاسفة الكلدان (الكهنة البابليين) وانحوا به جانباً، بعيداً عن (الأصحاب)، ورجوه أن يتوقف عن زحفه على المدينة. لقد أعلموه إن الإله بيل أوحى إليهم إن دخوله بابل في ذلك الوقت بعينه ليس في صالحه"^(٨١).

هل كانت هذه نبوءة عرافية أم رغبة بابلية بعدم دخول الإسكندر بابل، صحيح إن الإسكندر دخل بابل من غير حرب، ولكن يبدو إن السكان لم يكونوا راغبين في استبدال حكم فارسي بأخر مقدوني، ويمكن أن نصل إلى هذه القناعة إذا ما تابعنا رواية أريان التي تتحدث عن رد فعل الإسكندر على هذه العرافة: "خامر الإسكندر شك في نصيحة الكلدان، وجال في خاطره إنهم يحاولون صده عن زحفه على بابل لأنهم ينظرون إلى مصلحتهم الخاصة لا الزول على ما جاء في النبوءة"^(٨٢). ويحاول أريان أن يعطي تفسيراً لذلك، ويقول إن الكهنة البابليين لم يكونوا يريدون أن يقوم الإسكندر بترميم معبد مردوك لأنهم كانوا يستحذون على كل الذهب الموقوف للمعبد فإذا ما قام الإسكندر بترميم المعبد فإن كل هذا الذهب سيعود إلى المعبد ما إن يكتمل.^(٨٣)

يبدو إن هذا التعليل غير منطقي فالكهنة وإن كانوا يستحذون على الذهب المفترض أن يكون عائداً للمعبد مردوك فإنه بعد بناء هذا المعبد سيقبضون هم القوة المسيطرة الوحيدة على واردات المعبد، فإدارة المعبد كما هو معروف في بلاد الرافدين بيد الكهنة وليس هناك من إشارة إلى إن الإسكندر حاول التدخل في شؤون المعابد في المناطق المحتلة، باستثناء الإشارة الخاصة بالنسبة إلى كليومينيس، وابتزازه المعابد المصرية، وهذا أمر طبعه أحد إداري الإسكندر بعد مغادرته المدينة وليس بأمر منه. فإذا كان السبب الذي أعطاه أريان فلماذا حذر الكهنة البابليون الإسكندر من دخول بابل، بلا شك إن الهدف من ذلك سياسي فالبابليون رافضون لاحتلال الإسكندر ولكمهم غير قادرين على مقاومة الإسكندر وجيشه لذا لجئوا إلى العرافة لعلها تقنعه بمغادرة المدينة.

لا نمتلك معلومات عن موقف الفرس من الإسكندر المقدوني، ولكن انضمام الشبان الفرس في جيش الإسكندر يوحي بعدم وجود ميول عدائية ضده في بلاد فارس، ولكن مع ذلك لا يمكن أن نسلم إن الفرس بأجمعهم لم يظهروا عدائهم للإسكندر وفي أقل تقدير لا بد وأن كان أولئك الذين كانوا ماسكين بزمام السلطة السياسية

من الفرس في بلاد فارس قد كانوا معادين له، لأنهم فقدوا امتيازاتهم السابقة بسقوط الدولة الأخمينية، وينسحب الأمر كذلك على رجال الدين من الزرادشتيين الذين تضررت مصالحهم بغياب حماهم من ملوك الفرس، ونحن نمتلك رواية تشير إلى الضرر الذي لحق بالديانة الزرادشتية من جراء غزو الإسكندر المقدوني، فطبقاً للروايات المتداولة عن الافستا (الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية) والتي يتناقلها رجال الدين الزرادشتيين أنه توجد في العصر الأخميني نسختان فقط من الافستا إحداهما محفوظة في البلاط الشاهنشاهي في برسيولس والثانية محفوظة في مقر معبد النار اذرکشسب، وإن الإسكندر المقدوني عندما هزم الجيوش الأخمينية وأطاح بعرش داريوس الثالث سنة ٣٣١ قبل الميلاد ووصل إلى تخت جمشيد عن طريق سوسة أحرق القصر الملكي وراحت النسخة المحفوظة في القصر طعمة للنيران.

أما النسخة الثانية، والتي كانت في معبد اذرکشسب، فإن الإسكندر أمر بأن تُرسل إلى اليونان وتترجم هناك.^(٨٤) فإذا صححت هذه الرواية فلا بد وأن كان رجال الدين الزرادشتيين حائقين جداً على الإسكندر المقدوني ذلك القائد الذي تسبب في ضياع النصوص المقدسة لديانهم. وهناك رواية تعرف بين الزرادشتيين باسم: "كتاب عن فيراز الصالح" (أردا فيراز ناماك)، وهذا الكتاب يعود إلى القرن التاسع أو العاشر الميلادي ويُعدّ من الآداب الزرادشتية الأكثر انتشاراً وقراءة، بين الزرادشتيين، نقرأ فيه معلومات يمكن أن يستفاد منها لمعرفة موقف الزرادشتيين من الإسكندر والرواية تقول: "هكذا يقال بأن زرادشت الصالح نشر في زمن ما الدين على الأرض، الذي أوحى (به) الإله له، وظل هذا الدين محافظاً على نقائه، ولم يتعرض الناس للشك فيه لمدة ثلاثمائة سنة. من ثمّ، لتجبر روح الشر القذرة والملعونة، (دفعته) الناس على الشك بهذا الدين، (و) أرسلت الرومي المقيم في مصر الكسندر إلى إيران ليقوم بنهبها ونشر الرعب فيها، فقتل ملك إيران، ودمر قصره وسلب دولته. ذلك الأثم، الملعون، الحقود، الرومي، السافل الكسندر المقيم في مصر، جمع الكتب الدينية وأحرقها، وبالأخص افيستا والزند [تلك الكتب] التي كتبت بأحرف ذهبية على جلود الأسود، المجهز لهذا الغرض، وحفظت في مدينة واصطخر... وهو (الذي) قتل أيضاً الكثير من رؤساء الكهنة، والقضاة، والهرابذة، والموابذة. أنصار الزرادشتية وحكماء إيران وشخصياتها المعروفة. (و) زرع الكسندر الضغينة والفتنة بين النبلاء وبعض حكام إيران وصاروا يعادون بعضهم بعضاً نتيجة عمله هذا، ولكن الإسكندر نفسه هلك ودخل الجحيم".^(٨٥)

على الرغم من الأخطاء التاريخية في رواية أردا فيراز ناماك إلا إنها تشير إلى ذكريات ذلك العمل الذي ارتكبه الإسكندر في تدمير الكتابات المقدسة الزرادشتية. ولكن هل بالفعل عمل الإسكندر على تحطيم الزرادشتية، لا نمتلك معلومات تشير إلى عكس ذلك، ولكن يمكن أن نثق بالرواية الزرادشتية لأن فيها الكثير من

الوجهة، فأقل تقدير ربما بالفعل حُرقت نسخة الافستا عندما أقدم الإسكندر على حرق القصر هناك هذه الحالة التي تشير إليها الرواية الإغريقية أيضاً،^(٨٧) وربما كان الزرادشتيون يعتقدون إن حرق نسخة الافستا كان عملاً مقصوداً من الإسكندر.

ثالثاً: النتائج الفعلية لغزو الإسكندر المقدوني للشرق الأدنى

لقد كان لاحتلال الإسكندر المقدوني للشرق بداية فعلية لمتغيرات سياسية وحضارية بعيدة المدى إذ سمح هذا الاحتلال وعلى نطاق واسع باحتكاك شديد بين الحضارتين اليونانية (الهيلينية) والشرقية، وكان ذلك الاحتكاك قد استمر في عهد الإسكندر وخلفائه السلوقيين والبطالمة. وكان من نتائجه بروز عناصر حضارية طُبعت إقليم الشرق وسكانه، وهذه العناصر الحضارية تستمد مقوماتها من تراث الحضارة القديمة مع التأثيرات الهلينية، لذا يصطلح على تسمية السمات الحضارية الجديدة أو هذه المرحلة الحضارية، وبكل خصائصها السياسية والاقتصادية بمرحلة الحضارة الهلنستية.^(٨٧) ولكن السؤال الذي يبرز هل إن الحضارة الهلنستية هي نتاج غزو الإسكندر المقدوني للشرق وحسب؟ هل هناك من عوامل قد مهدت إلى هذا الامتزاج الحضاري أو يمكن إن نسميه الوحدة الحضارية التي عمت الشرق؟ هل من أدلة على تأثيرات شرقية بعيدة المدى في مهدت لظهور الحضارة الهلنستية؟ إن أدلة يمكن أن نسوقها هنا لإثبات إن الشرق هو الذي قد بدأ الخطوة الأولى نحو هذه الوحدة الحضارية، وعلى الأقل هناك عوامل مهمة مهدت للأرضية المناسبة لظهور الحضارة الهلنستية بهذا الشكل السريع أي مباشرة بعد دخول الإسكندر للشرق، وأول هذه العوامل هي الدولة الآشورية وبالأخص ما يعرف باسم سياسة الترحيل الآشورية كما لاحظ الأستاذ "هاري ساكز" المتخصص في الآشوريات.

يتحدث الأستاذ "ساكز" ويقول، أنه من المحتمل كانت أكثر المساهمات الآشورية إلى تاريخ العالم أهمية هي سياستهم في ترحيل السكان، إذ كان عدد السكان الذين تأثروا بالترحيل الآشوري كبيراً، وقد قدر العدد في القرون الثلاثة الأخيرة من عهد الإمبراطورية الآشورية إلى ما يقرب من أربعة إلى خمسة ملايين، وإن أهمية ذلك على الأمد البعيد هو التأثير على الاختلاط العرقي، فالاعتبارات الجغرافية، والجمال والأنهار والصحاري مجتمعة مع العوامل التاريخية التي عملت على تقسيم الشرق الأدنى إلى مناطق منفصلة تتجه نحو الانعزال. وكانت سياسة الترحيل الآشورية من أكثر القوى فاعلية في بدء عملية كسر الانعزال. وفي بعض مدن وعواصم بلاد آشور نفسها كان الآشوريون عرقياً يكونون الأقلية لأن أقواماً من لغات وأجناس أخرى غير الآشوريين قد استقروا هناك وعوملوا كمواطنين متساوين مع غيرهم. ومع استمرار عملية الاستيطان هذه، المفروضة بالقوة، في جميع أرجاء الحكم الآشوري، كان هناك زيادة كبيرة في الاختلاط العرقي يقابله إضعاف الخصوصية العرقية.

ولم تكن هذه عملية سريعة ولم تظهر نتائجها مباشرة إلا إنها مهدت الطريق للوحدة الحضارية المتزايدة في جميع أرجاء المنطقة. وقد أثر ذلك على التاريخ التالي لكل الشرق الأدنى. لقد وفرت عملية كسر الانعزال أرضية متجانسة جعلت من الممكن طبع الشرق الأدنى بطابع الهلنستية بعد الإسكندر.^(٨٨) ويمكن أن نلاحظ عامل آخر عمل على إعطاء الشرق القديم طابع الوحدة الحضارية وهو عامل اللغة الآرامية، فمنذ القرن السابع قبل الميلاد أخذت الآرامية بالانتشار وبدأت تقتحم معاقل اللغة الأكادية وعندما كان الملوك الأخمينيون يفتشون عن لغة مفهومة وسهلة بالنسبة لجميع الشعوب المختلفة التي خضعت لهم اختاروا اللغة الآرامية، وسرعان ما انتشرت الآرامية بقوة لدرجة إننا نجد إن عملة الحكام وأمرأ القبائل الذين كانوا في آسيا الصغرى كانت تحمل نقوشاً آرامية إلى جانب اللغة الإغريقية، وقد استخدم بعض أشرف هذا العصر اللغة الآرامية في نقوشين من نقوش آسيا الصغرى؛ واحد هذين النقوشين يستخدم الإغريقية إلى جانب الآرامية. وإن اللغة الآرامية نفسها قد امتدت في آسيا الصغرى حتى وصلت الدردنيل وسينوب على البحر الأسود.

ومن مصر وصلتنا نقوش آرامية ترجع إلى العصر الفارسي منها واحداً يرجع بتاريخه إلى السنة الرابعة من حكم احشوريش أي سنة ٤٨٢ قبل الميلاد. هذا وقد وجدت نقوش آرامية قديمة في داخل الجزيرة العربية في واحة تيماء شمال الحجاز وربما ألف أقدمها بل أهمها قبل العصر الفارسي، وقد دخلت الآرامية هنا عن طريق التجارة. ويمكن أن نتعرف أيضاً على فصول آرامية في العهد القديم وإن بعض فصول سفر عزرا الآرامية ربما دونت في العصر الفارسي.^(٨٩) بلا شك كان انتشار اللغة الآرامية الكبير ساعد بشكل واسع على تناقل الأفكار وفهمها بين عدد كبير من شعوب الشرق القديم الأمر الذي يمكن عده عامل مهم من العوامل الممهدة لانتشار الهلنستية فيما بعد. ولعل عامل لا يمكن إخفاءه هنا يقدم لنا تفسيراً عن سبب الانتشار السريع للهلنستية بمقدم الإسكندر المقدوني، إلا وهو الاحتكاك بين الشرق والغرب في عصر الدولة الاخمينية السابق لغزو الإسكندر الكبير.

وترجع بدايات الاحتكاك إلى عهد كورش الكبير مؤسس الدولة الاخمينية، عندما اجتاحت دولة ليديا في آسيا الصغرى واجتاح أيضاً بعض المستوطنات اليونانية في غربي آسيا الصغرى. وازداد هذا الاحتكاك تعمقاً بعد مشاريع داريوس الكبير العسكرية، عندما عبر البوسفور وتعبق ملوك قبائل الساكا، وبلغ في تحركاته نهر الدانوب فخضعت الكثير من المستوطنات اليونانية على الساحل الأسيوي وبعض الجزر القريبة لسيطرته، كذلك الاحتكاك باليونانيين من خلال مقاطعة مقدونيا. أما الحروب الفارسية (٤٩٠-٤٨٠ قبل الميلاد) بين اليونانيين والفرس فإنها قد نقلت الاحتكاك الخارجي بين الطرفين إلى واقع يعيشه آلاف من جنود المتخاصمين يومياً، فضلاً

عن الأسرى من الطرفين الذين نقل بعضهم إلى قصور الملوك والأمراء في المدن والعواصم.

ويمكن أن نتذكر أيضاً هذا الخصوص عهد ارتخششتا الأول، ذلك العهد السلمي بين الأخمينيين واليونانيين، والذي هباً الفرصة أمام العديد من المؤرخين والعلماء والفلاسفة اليونانيين للتوغل في أقطار الشرق الخاضعة للأخمينيين، ومن هؤلاء هيرودوتس الذين ساعدوا في عملية التفاعل الحضاري بين المركزين. وهكذا نجد بذور الهلنستية تغرس في العصر الأخميني الذي مثل العالم الشرقي بأسره. وكانت سبل المواصلات في هذا العصر متطورة إلى حد بعيد، وذلك بفضل المواصلات البحرية التي تطورت كثيراً بفضل الفينيقيين أو البرية التي ازدهرت طرقها الصحراوية بفضل الجمل وأصحابه التجار العرب، أو في الطرقات الأخرى التي بذل الأخمينيون جهداً ملحوظاً منذ أيام داريوس الكبير على شقها ورصفها بالحجارة، وزرع نقاط الحماية على طولها، وقد عثر على نقود يونانية في معظم الأقاليم الغربية للدولة الأخمينية، وبعضها يرجع للقرن الخامس قبل الميلاد، ومعظمها يعود للقرن الرابع قبل الميلاد. وجاءت هذه المسكوكات من بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين وجنوبي الجزيرة العربية. وتؤكد المكتشفات الأثرية من الصناعات الإغريقية في سوريا وفلسطين وإيران والعراق عن تطور الاتصالات بين العالمين الشرقي والغربي.

وهكذا أصبح العالم القديم بشقيه الشرقي والغربي مهياً لقبول المتغيرات النوعية في الحياة المادية والفكرية، ويرى البعض أنه لو تهيأت للفرس الأخمينيين السيطرة الناجزة على بلاد اليونان مركز الحضارة والفكر الغربي، ولو لم يكن الأخمينيون دعاة ديانة جديدة، تعصبوا إليها كثيراً، وهي الزرادشتية التي كان انتصارها في إيران بفضل الأخمينيين فلربما برزت عناصر الحضارة الهلنستية قبل تاريخها بوقت طويل.^(٩٠) من ذلك نخلص إن الهلنستية ليست نتاج للغزو الذي نفذه الإسكندر المقدوني للشرق بقدر ما هو نتاج مباشر للمدنية الشرقية القديمة فالأشوريون ساهموا أولاً في كسر الانعزال الفكري والجغرافي في أنحاء الشرق وكان للغة الآرامية دورها الفاعل في توحيد العالم القديم فكرياً، وساهم وجود الدولة الأخمينية في وضع كل تجارب الشرق السابقة أمام اليونانيين وأعطوا للمسلمات الأخيرة في جعل الطريق ممهداً أمام الإسكندر المقدوني لتنفيذ عملية نشر الهلنستية التي أصبحت جاهزة.

إن دراسة هذه الحقبة تشكل أهمية خاصة لمعرفة النتائج الحقيقية المترتبة على غزو الإسكندر لمقدوني للشرق، فمن جانب استولى الإغريق بزعامة الإسكندر المقدوني على الإمبراطورية الفارسية بكاملها ونقلوا نظام دولة المدينة (Polis) الاقتصادي حتى نهر السند وجيخون. وقد جعلت غزوات الإسكندر مصر وآسيا الغربية منطقة من مناطق النظام الثقافي والاقتصادي اليوناني، ومن نتائج هذه الفتوحات إنها فتحت آسيا للتجارة اليونانية وللإستعمار اليوناني، ولهذا خففت مؤقتاً من وطأة الأزمة

الاقتصادية التي تمر بها بلاد اليونان. وفي هذه المنطقة الجديدة الواسعة كانت تستعمل لغة يونانية واحدة، لذلك أصبحت الأفكار تنتقل بحرية، وعملت وحدة النقود والطرق الجديدة والمرافق والمنازل المحسنة والسفن الكبيرة على تسهيل المعاملات التجارية. إن ضم الإمبراطورية الفارسية لم يكن مجرد تغير في السلالة الحاكمة بقدر ما كان احتلال عالم جديد للإستعمار اليوناني،^(٩١) لكن من ناحية أخرى أدى تدمير الإمبراطورية الفارسية، إلى قيام هيمنة جديدة مؤسسة على استعباد شرس للسكان الأصليين على يد الإغريق والمقدونيين، كما أن هدم إمبراطورية الفرس لا يُعدّ مهمماً بالنسبة للجماهير الشعبية، فقد تلى نير الإمبراطورية الفارسية المتهرى استغلال أقصى مارسه المحتلون.^(٩٢)

لقد كان لقيام الإسكندر بتشديد عددًا من المدن الجديدة في الشرق ذا نتائج مهمة في طراز المدينة الشرقية، ويمكن أن نوضح الفرق الكامن بين المدن الشرقية القديمة والمدن الجديدة التي أنشأها الإسكندر، ففي المدن القديمة فضل المخططون القدماء وضع مناطق القصور والمعابد والمراكز الإدارية والشوارع الرئيسة على خطوط مستقيمة وترك أجزائها الأخرى في شبه فوضى وارتباك فحصل نتيجة لذلك تطور عفوي عشوائي، غير منتظم يتميز بشوارع ضيقة وأزقة ومناطق سكنى مزدحمة. وقد استمرت بعض المدن كبابل وأشور بهذا الشكل بعد غزو الإسكندر حيث أغلق قسم من شوارعها ولذلك لم يُعدّ هناك نظام أو ترتيب للسكنى.^(٩٣)

لكن الإسكندر قد فهم أهمية المدن من نواحي متعددة تشمل الإدارية والاقتصادية والأكثر أهمية السوقية. وقد شجع الإسكندر تأسيس المدن الإغريقية في الشرق، وهي سياسة اتبعها أبوه عند غزوه تراقية، لغرض السيطرة على مركزية الإدارة. وفي الوقت الذي كانت فيه المدن الشرقية القديمة تبنى بشكل غير منتظم، فإن المدن الجديدة شيدت حسب التخطيط المنظم الهيبوديمي (Hippodamian) الذي تميز بشوارع مستقيمة متقاطعة مع بعضها بزوايا قائمة. ومصمم هذا التخطيط المنظم أو الذي في بعض الأحيان يسمى بالتخطيط حسب رقعة الشطرنج، هو أيوني إغريقي من مدينة مليتوس في آسيا الصغرى الذي أعاد بناء مدينته في سنة ٤٧٩ قبل الميلاد بعد أن دمرها الفرس حسب تخطيط منتظم اشتهر باسمه. وقد اتبع هذا التخطيط في العديد من المدن الإغريقية والرومانية مثل بيرايوس ميناء أثينا في نحو منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ومدينة ثوري (Thurii) في سنة ٤٤٣ قبل الميلاد. وقد اتبع الإسكندر هذا التخطيط لأنه يلبي الاحتياجات العملية للمستعمرات والمدن الإغريقية. ويتم تشييد المدن عن طريق تخصيص الأراضي لمواقع الأبنية مسبقاً وحسب الأهمية فلاغورا (Agora) التي نواة ومركز حياة المدينة، خصص عدد من الوحدات المربعة أو المستطيلة والتي ضمت معابد المدينة وأسواقها التجارية ومراكز لتجمعاتها السياسية، وتميزت الشوارع بعرض واسع نسبياً

وقسم منها رصف بالحصى الناعم وقسمت أراضيها المخصصة للسكنى إلى وحدات سكنية ثم وزعت على المواطنين بالتساوي.^(٩٤)

وإن هذه المدن كانت تشبه المدن المعاصرة لها في بلاد اليونان بما تمتعت به من وسائل الحياة التي لا بد منها في المدينة الكلاسيكية، من الأغورا والمسرح والمباني الرسمية والمدارس والينابيع العامة. وكان يقطعها جماعات من الموظفين والتجار وأصحاب المصارف والصناع والمزارعين الذين يعملون في الصناعات والفنون حسب الأسلوب اليوناني ويعبدون آلهة يونانية، وكانوا جميعهم من الإغريق أو من المتأثرين بالهللينية. من جانب آخر: فإن المدن الشرقية القديمة وكل ما يبعث فيها النشاط من تجارة وصناعة وطنية وديانة وعلوم وقوانين ومؤسسات لم تصب بأي ضرر.^(٩٥) من هذا يتضح إن تشييد المدن الجديدة قد افترض نمطين من الحياة الأولى خاصة بالمدن الشرقية القديمة التقليدية وآخر خاصًا بالمدن الجديدة، ولكن بكل الأحوال هذا لا يعني إن التجديد والتطوير في مفهوم المدينة ارتبط بالإغريق الوافدين، فالمعروف إن البابليين والآشوريين أول من بنى المدينة بشوارع مستقيمة متقاطعة قائمة، فسنحارب عندما أعاد تشييد مدينة نينوى اعتنى بالطريق المؤدي إلى القصر الجديد، فقد قام بتوسيع الشوارع الموجودة ليعمل طريقًا ملكيًا عرضه أكثر من تسعين قدمًا، يتألف من طريق مرتفع من ألواح الحجر الكلسي.^(٩٦)

وفي مدينة بابل نجد أنها تتألف من ثمانية شوارع عريضة يؤدي كل منها إلى أبواب المدينة، وتنظم إليها الشوارع الضيقة والأزقة والمنعطفات المسدودة غير النافذة بالبيوت السكنية الخاصة، وهي بالطبع لم تكن تبدو جميلة بهذه الدرجة كالشوارع، وغير مبلطة بالحجارة ولكنها بقيت بحالة نظيفة ومرتبة، وبما إن أرضية المدينة عبارة عن طبقة زراعية سميكة لذا كانت أرضية الشوارع مغطاة بخلط من خامات الأجر المكسرة والنفايات والرماد والأوعية الخزفية المكسرة المدكوكة بإحكام.^(٩٧) رغم إن المدن الشرقية لم تصل إلى مستوى المدن الجديدة من حيث التخطيط إلا أن المخططين الشرقيين تمكنوا من التوصل إلى مفاهيم مهمة في تخطيط المدن، من ضمنها ظهور الشوارع المستقيمة.

من النتائج الأخرى لغزو الإسكندر للشرق أنه نفسه كما يبدو قد وقع تحت سطوة المؤثرات الشرقية وربما كان تعيين مازيوس كأول فارسي يتولى منصب إداري في إمبراطوريته له مغزاه، فقد كانت تعاليم أستاذه أرسطو له تقضي بعدم صلاحية البرابرة (المقصود بهم هنا الشرقيين) بطبيعتهم للحكم واعتبارهم غير أهل له، فأراد الإسكندر أن يرى مدى صلاحية ذلك، وكان أرسطو قد علمه إن أولئك البرابرة لابد من معاملتهم كما يعامل العبيد، ولكن الإسكندر قد أدرك إن معلمه أرسطو ليس مُصيبًا في هذا الشأن، فالإسكندر كانت قد بهرته الحضارات الخالدة التي كانت عليها مصر وبابل.^(٩٨) وسرعان ما أخذ الإسكندر يميل للشرق ويقع تحت تأثيره فعين الفرس في المناصب الإدارية، والجيش، وأظهر اهتمامًا متزايدًا

بالفرس بعد موت داريوس بدعم الأرستقراطية الفارسية، واقتبس العادات الفارسية منها الظهور بالملابس الفارسية في مناسبات معينة والمشاركة في الاحتفالات الفارسية، ومتخذًا مراسيم البلاط الفارسي فضلًا عن ذلك فقد اتخذ عادة السجود له وهي عادة فارسية، وكان بمقتضاها على جميع من يقتربون من الملك أن يسجدوا. وكان هذا الإجراء بالنسبة للفرس، أمرًا اقتضته الشعائر الرسمية، فالملوك الأخمينيون ليسوا بآلهة، وليس السجود بنظر الفرس ما يتضمن عبادة، ولكنه في نظر اليونانيين والمقدونيين كان ينطوي على عبادة حقة، وما كان الإنسان ليسجد إلا للآلهة، وكان الإسكندر على بينة تامة من الكيفية التي لابد أن يفسر بها ذلك السجود.

وبناءً على ذلك فهو لابد كان ينبغي أن يصبح إلهاً، وفي الواقع إن المقدونيون لم يبدو معارضة فعالة من هذه العادة، ولكن استياءهم بل غضبهم كان جليًا. ويمكن أن ننظر إلى هذا الاستياء ليس بسبب مسألة السجود للملك فقط، بل تدمر من كل سياسته الشرقية تلك السياسة التي جوهت بشدة من قبل جنده المقدونيين، وقد قتل الإسكندر فيما بعد كليتوس الصديق المقرب إليه عندما أعلن احتجاجه على سياسته الشرقية ودعم الفرس وعيره بأنه ابن أمون وليس ابنًا لأبيه.^(٩٩) وقد واجه الإسكندر مصاعب أشد عندما أخذ بالاستعداد لدفع مكافآت إلى المتقدمين في السن من جنده المقدونيين المتمرسين في القتال، بغية صرفهم من الخدمة وإعادتهم إلى بلادهم، واستبدالهم بالشبان الفرس الذين كان قد مضى عليهم خمس سنوات من بدء تجنيدهم سنة ٣٣٠ قبل الميلاد، وكانوا يتدربون على فنون القتال ويقومون بمهام الجنود في حراسة المعسكرات وحماية الحصون والقلاع.

وقد خشي الجنود المقدونيون من إنهم إذا نفذ الإسكندر خطته هذه، سيكون عددهم ثلث عدد الجنود في الجيش النظامي كله، فيصبح بإمكان الإسكندر أن يستغني عنهم متى شاء. ولهذا فقد اغضب ذلك الجند المقدونيون وأعلنوا جميعًا: "اتركنا نرجع بأجمعنا إلى بلادنا، وأبق أنت وحدك وحارب معاركك بمن معك من الفرس، ومعك أبوك أمون". ولكن عندما عزم الإسكندر على تنفيذ ما هدد به الجند، وأراد إعادتهم جميعًا إلى بلادهم، أنهموا الإضراب فكان له ما أراد.^(١٠٠) ويبدو إن الاعتراضات التي جوبه بها الإسكندر ليس فقط لتزايد النفوذ الشرقي لدى الإسكندر وحسب، بل ربما ترتبط بنظرة اليونانيين إلى الشرقيين بشكل عام. فالعالم اليوناني كان ينظر إلى الشعوب الشرقية على إنهم من البرابرة، ولا سيما الفرس الذين احتكوا بهم كثيرًا في السابق، ففي القرن الرابع قبل الميلاد وفي وقت حملة الإسكندر على الشرق كانت الأفكار السائدة عن الشرق بشكل عام في العالم اليوناني سلبية بشكل واضح فلم يرق لليونانيين أن يعمد البرابرة مثلًا وهم سلاطات دنيا لا تعرف القانون إلى مهاجمة بلادهم.

- لقد كان ولاية الفرس كما وجدهم الإسكندر في العديد من أقاليم الشرق الأدنى، يجمعون في أيديهم كل السلطة العسكرية والمدنية، وفي وسعهم سك العملة. لذا عمل الإسكندر على الفصل بين السلطات الثلاثة: المدنية والحربية والمالية.
- في مصر أبقى الإسكندر الإدارة بيد أهلها بالدرجة الأولى، ما عدا قيادة الحامية التي أودعها إلى قاداته.
- اتبع الإسكندر سياسة التسامح في بابل، فأعاد "مازبوس" إلى منصبه، وأبقى البابليين، مثلما فعل مع المصريين في مراكزهم الوظيفية والإدارية والدينية، ولكن شؤون الجيش والمالية انيطت بالمقدونيين، في وقت حاول الإسكندر كما فعل في مصر من محاولة إرساء القيم الإغريقية في إيران.
- إن محاولة فهم موقف مناطق الشرق الأدنى من الإسكندر المقدوني واحتلاله لأراضيها مسألة مهمة وقد اختلفت هذه المواقف في كل منطقة عن الأخرى فبعض مناطق الشرق القديم قد رحبت بالإسكندر على أنه محررها، والأخرى رفضت خضوعها له وقاومته بشدة، ونجد هاتين الصورتين في وقت مبكرة من تاريخ حملة الإسكندر على الشرق.
- كان أبرز نتائج احتلال الإسكندر للشرق بروز عناصر حضارية طبعت إقليم الشرق وسكانه، وهذه العناصر الحضارية تستمد مقوماتها من تراث الحضارة القديمة مع التأثيرات الهلينية، لذا يصطلح على تسمية السمات الحضارية الجديدة أو هذه المرحلة الحضارية، وبكل خصائصها السياسية والاقتصادية بمرحلة "الحضارة الهلنستية".

الهوامش:

- (١) أندرو روبرت برن، تاريخ اليونان، ترجمة: محمد توفيق حسين، (بغداد: مطبعة التعليم العالي، ١٩٨٩)، ص ٤٣٩.
- (٢) و.و. تارن، الإسكندر الأكبر، ترجمة: زكي علي، مراجعة: محمد سليم سالم، (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٣)، ص ١٩٦-٢٠٠.
- (٣) المصدر نفسه، ص ٢٠١-٢٠٣.
- (٤) واثق إسماعيل أوصالي، "النحت في العصرين السلوقي والفري"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٥)، ج ٤، ص ١٨٢-١٨٣.
- (٥) برن، تاريخ اليونان، ص ٤٣٩.
- (٦) واثق إسماعيل أوصالي، "العمارة في العصرين السلوقي والفري"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٥)، ج ٣، ص ١٨٨؛ واثق إسماعيل أوصالي، "المدينة منذ العصر السلوقي حتى ظهور الإسلام"، بحث ضمن موسوعة: حضارة العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٥)، ج ٣، ص ٣٥٠؛ ف. دياكوف وس. كوفاليف، الحضارات القديمة، ترجمة: نسيم واكين اليازجي، (دمشق: منشورات علاء الدين، ٢٠٠٦)، ج ٢، ص ٣٩٧.

ولكن الرأي السديد في ذلك العصر لم يجد مانعاً يحول دون أن يهاجم اليونانيون البرابرة متى شاءوا ذلك؛ فأفلاطون يقول إن البرابرة جميعاً أعداء بالسليقة وأنه من اللائق أن يشن اليونانيون الحرب عليهم، ولو أدى الأمر إلى استرقاقهم أو إبادةهم، كما سماهم ايسوقراط أعداء طبيعيين، وحض بشدة على خوض مثل هذه الحروب عليهم. أما أرسطو فيعد هذه الحرب عادلة وطبيعية، ونصح تلميذه الإسكندر بأن يعامل البرابرة على إنهم رقيق، وهذا هو وصفهم الطبيعي.^(١٠١) فإذا ما عرفنا كيف ينظر العالم اليوناني للعالم الشرقي يمكن أن نفهم جانباً مهماً من الاعتراضات التي واجهتها السياسة الشرقية للإسكندر.

إن حملات الإسكندر المقدوني على الشرق وظهور المؤثرات الهلينية لم يمح بشكل مؤكد العادات والتقاليد السائد في البلدان الشرقية والتي استمرت لآلاف السنين، وقد تسربت أخبار تقاليد العالم الشرقي للمدونات الإغريقية وإن كانت بشكل مشوه ولكن تخفي وراءه عادات وطقوس قديمة ما زالت موجود ليس عند دخول الإسكندر بابل، بل حتى إلى قرون متأخرة في عصر بلوتارك الذي يروي قصة عن الإسكندر في بابل تقول: "في ذات يوم بعد أن خلع الإسكندر ملابسه لمسح جسده بالزيت، وكان يلعب بكرة، وقبل أن يجلبوا ملابسه شاهد الشبان الذين كانوا يلعبونه رجلاً مرتدياً أردية الملك وواضعاً تاجاً على رأسه يجلس صامتاً على كرسي العرش. وسألوه مَنْ يكون؟ فلم يرد، وأخيراً بلغهم إن اسمه ديونيسيوس وأنه مسينيا، وأنه جُلب إلى هنا من شاطئ البحر بسبب جريمة إتهم بارتكابها ووضع في السجن زمناً طويلاً، وأن سيرايس ظهر له وحرر من قيوده وقاده إلى هذا المكان وأمره أن يرتدي رداء الملك وتاجه ويجلس حيث وجدوه ولا يقول شيئاً. وعندما سمع الإسكندر ذلك أمر بقتل الرجل وفقاً لمشورة عرافية، غير أنه فقد حيويته وثقته بحماية الآلهة ومساعدتهم، وأصبح يشك بأصدقائه".^(١٠٢) من الواضح إن ما رواه "بلوتارك" كان من طقوس بلاد ما بين النهرين القديمة الخاصة بتنصيب الملك البديل، وهو تقليد يبدو ما يزال حياً في وقت دخول الإسكندر إلى بابل.^(١٠٣)

خاتمة

من خلال الاطلاع على المادة المتوفرة عن سياسة الإسكندر المقدوني في الشرق توصل الباحث الى عدة نتائج أهمها:

- اتبع الإسكندر النظام الفارسي في تقسيم الإمبراطورية إلى ولايات (سترايات)، ووضع في المناصب الحكومية الرئيسة مَنْ يعتمد عليهم من المقدونيين واليونانيين.
- كانت أبرز أعمال الإسكندر الإدارية هي سك النقود وتأسيس المدن الجديدة.
- كانت سياسة الإسكندر في آسيا الصغرى تهدف إلى مراعاة الأنظمة السياسية التي ألفتها المدن اليونانية.

- (٧) ألبالي، المدينة، ص ٣٥٠.
- (٨) سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي، تاريخ الشرق القديم: إيران والأناضول، (بغداد: مطبعة جامعة بغداد، بلا.ت)، ص ١٣٠.
- (٩) دياكوف وكوفاليف، الحضارات القديمة، ج ٢، ص ٣٩٤.
- (١٠) أحمد والهاشمي، تاريخ الشرق القديم، ص ٣٨٧؛ طه باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، (بغداد: مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٠)، ص ٧٧.
- (١١) أحمد والهاشمي، تاريخ الشرق القديم، ص ٣٨٧.
- (١٢) انظر: مسألة تعلق الإسكندر بأبطال الإغريق في: تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٢٢؛ طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، (لندن: دار الوراق، ٢٠٠٩)، ج ١، ص ٦٥.
- (١٣) عبد اللطيف أحمد علي، التاريخ اليوناني: العصر الهلنستي، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٦)، ج ١، ص ١٢٢-١٢٣، برن، تاريخ اليونان، ص ٤١٥.
- (١٤) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٦٥؛ أحمد والهاشمي، تاريخ الشرق القديم، ص ٣٨٨.
- (١٥) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٤٦-٤٧؛ أحمد والهاشمي، تاريخ الشرق القديم، ص ٣٨٨.
- (١٦) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٤٨-٤٩؛ صلاح رشيد ألبالي، المملكة الحثية: دراسة في التاريخ السياسي لبلاد الأناضول، (بغداد: بلا.مط، ٢٠٠٧)، ص ٥٥٥؛ وقد البعض وجود امرأتين باسم أدا الأولى ابنة بيكسوداروس وزوجة اورنتوباتيس، وأدا أخرى من كاريا هي التي تبنت الإسكندر. انظر: أحمد والهاشمي، تاريخ الشرق القديم، ص ٣٨٩.
- (١٧) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٤٩-٥١.
- (١٨) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٥٤؛ أحمد والهاشمي، تاريخ الشرق القديم، ص ٣٨٩-٣٩٠.
- (١٩) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٦٠.
- (٢٠) حول هذه المدن انظر: المصدر نفسه، ص ٧٠-٧١.
- (٢١) المصدر نفسه، ص ٦٣-٦٤.
- (٢٢) المصدر نفسه، ص ٦٧-٦٨.
- (٢٣) فلافيوس اريانوس، أيام الإسكندر في العراق، ترجمة: فؤاد جميل، (لندن: دار الوراق، ٢٠٠٦) ص ٤٣؛ تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٨٤، ٩٤؛ سامي سعيد أحمد، تاريخ فلسطين القديم، (بغداد: مركز الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٩)، ص ٢٨٧.
- (٢٤) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، (بغداد: شركة التجارة والطباعة المحدودة، ١٩٥٦)، ج ٢، ص ٤٤٤.
- (٢٥) باقر، مقدمة، ج ٢، ص ٤٤٤؛ تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٨٠-٨٢؛ عامر سليمان، وأحمد مالك الفتیان، محاضرات في التاريخ القديم، (الموصل: مطبعة جامعة الموصل، ١٩٧٨)، ص ٢١٨؛ باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٧٩؛ برن، تاريخ اليونان، ص ٤٣٣؛ مصطفى العبادي، العصر الهلنستي: مصر، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٨)، ص ٢٠؛ فوزي مكاي، الشرق الأدنى في العصرين الهلنستي والروماني، (القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ١٩٩٩)، ص ١٦؛ دياكوف وكوفاليف، الحضارات القديمة، ج ٢، ص ٣٩٥.
- (٢٦) انظر هذا الرأي في: العبادي، العصر الهلنستي، ص ٢٠-٢١.
- (٢٧) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٨٢-٨٣؛ العبادي، العصر الهلنستي، ص ٢١-٢٢.
- (٢٨) العبادي، العصر الهلنستي، ص ٢٢-٢٣.
- (٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٤.
- (٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٣-٢٤.
- (٣١) المصدر نفسه، ص ٢٤-٢٥.
- (٣٢) المصدر نفسه، ص ٢٦.
- (٣٣) دياكوف وكوفاليف، الحضارات القديمة، ج ٢، ص ٣٩٥.
- (٣٤) باقر، مقدمة، ج ٢، ص ٤٤٤-٤٤٥؛ سليمان الفتیان، محاضرات في التاريخ القديم، ص ٢١٨؛ العبادي، العصر الهلنستي، ص ٢٠؛ مكاي، الشرق الأدنى، ص ١٦؛ دياكوف وكوفاليف، الحضارات القديمة، ج ٢، ص ٣٩٥.
- (٣٥) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٧٩؛ العبادي، العصر الهلنستي، ص ٢٦.
- (٣٦) باقر، مقدمة، ج ٢، ص ٤٤٥؛ تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٩٣؛ باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٨٠؛ باقر، مقدمة، ج ١، ص ٦٥٣.
- (٣٧) اريانوس، أيام الإسكندر في العراق، ص ٣٧؛ باقر، مقدمة، ج ٢، ص ٤٤٥؛ أحمد والهاشمي، تاريخ الشرق القديم، ص ١٢٩.
- (٣٨) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٩٣؛ باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٨٠.
- (٣٩) مارغريت روتن، تاريخ بابل، ترجمة: زينة عازار وميشال أبي فاضل، (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٧٥)، ص ١٧٣؛ يوسف غنيم، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، (لندن: دار الوراق، ٢٠٠٦)، ص ٨٤.
- (٤٠) أحمد والهاشمي، تاريخ الشرق القديم، ص ١٢٩؛ دانيال تي. بوتس، حضارة وادي الرافدين: الأسس المادية، ترجمة: كاظم سعد الدين، مراجعة: إسماعيل حجارة، (بغداد: منشورات الهيئة العامة للآثار والتراث، ٢٠٠٦)، ص ٣٩٨.
- (٤١) اريانوس، أيام الإسكندر في العراق، ص ٣٧.
- (٤٢) اريانوس، أيام الإسكندر في العراق، ص ٣٧؛ روتن، تاريخ بابل، ص ١٧٣؛ غاغيك سركيان، "أرض المدينة في بلاد بابل في العهد السلوقي"، بحث ضمن كتاب: العراق القديم، ترجمة: سليم طه التكريتي، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٦)، ص ٤٨١؛ سليمان والفتیان، محاضرات في التاريخ القديم، ص ٢١٨؛ الصالحي، العمارة، ص ١٨٨؛ جون اوتس، بابل، ترجمة: سمير عبد الرحيم الجلي، (بغداد: منشورات دائرة الآثار والتراث، ١٩٩٠)، ص ٢١٣؛ باقر، مقدمة، ج ١، ص ٦٥٣-٦٥٤.
- (٤٣) غنيم، نزهة المشتاق، ص ٨٤.
- (٤٤) درويش مكاي، مدن العراق القديمة، ترجمة: يوسف يعقوب مسكوني، بغداد: مطبعة شفيق، ١٩٦١)، ص ٤٩.
- (٤٥) الصالحي، العمارة، ص ١٨٨؛ اوتس، بابل، ص ٢١٢.
- (٤٦) باقر، مقدمة، ج ١، ص ٦٥٤.
- (٤٧) اوتس، بابل، ص ٢١٢؛ بوتس، حضارة وادي الرافدين، ص ٣٩٩.
- (٤٨) بوتس، حضارة وادي الرافدين، ص ٤٠١.
- (٤٩) المصدر نفسه، ص ٥٢.
- (٥٠) اريانوس، أيام الإسكندر في العراق، ص ٤٠؛ بوتس، حضارة وادي الرافدين، ص ٥٣.
- (٥١) بوتس، حضارة وادي الرافدين، ص ٣٩٧.
- (٥٢) اريانوس، أيام الإسكندر في العراق، ص ٥٥-٥٥؛ بوتس، حضارة وادي الرافدين، ص ٣٩٧.
- (٥٣) بوتس، حضارة وادي الرافدين، ص ٤٠٨-٤٠٩. والواقع إن مطابقة تردون مع اريدو ما زالت غير مؤكدة فالأستاذ أحمد يرى أن هذه المدينة بمحل ليس ببعيد عن جبل سنام في جنوب العراق وهو موقع قريب من مدينة اريدو. انظر: سامي سعيد أحمد، "العراق في كتابات اليونان والرومان"، مجلة سومر، م: ٢٦، ج: ٢-١، لسنة: ١٩٧٠، ص ١٣٥؛ في حين يعتقد البعض إنها في أنحاء مدينة الزبير الحالية. انظر: فؤاد جميل، العراق في القرن الرابع الميلادي بحسب وصف المؤرخ الروماني اميانوس مرشيلينوس، (لندن: دار الوراق، ٢٠٠٨)، ص ١٥.
- (٥٤) شيلدن آرثر نودلمان، "ميسان: دراسة تاريخية أولية"، ترجمة: فؤاد جميل، مجلة الأستاذ، م: ١٢، لسنة: ١٩٦٣-١٩٦٤، ص ٤٣٥؛ جون هانسمان، الجغرافية التاريخية لمنطقة رأس الخليج العربي، ترجمة: عادل عبد الله

- خطاب، (البصرة: مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨٠)، السلسلة الخاصة، العدد: ٤٢، ص ٢-١: سامي سعيد الأحمد، تاريخ الخليج العربي من أقدم الأمانة حتى التحرير العربي، (البصرة منشورات دراسات الخليج العربي، ١٩٨٥)، ص ٣٣٢: بوتس، حضارة وادي الرافدين، ص ٤٠٩.
- (٥٥) اريانوس، أيام الإسكندر في العراق، ص ٤١-٤٢.
- (٥٦) اريانوس، أيام الإسكندر في العراق، ص ٤٢-٤٣: تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٩٤.
- (٥٧) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٩٩.
- (٥٨) اريانوس، أيام الإسكندر في العراق، ص ٤٢.
- (٥٩) باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٨١: برن، تاريخ اليونان، ص ٤٣٤: دياكوف وكوفاليف، الحضارات القديمة، ج ٢، ص ٣٩٧.
- (٦٠) باقر، مقدمة، ج ٢، ص ٤٤٦: برن، تاريخ اليونان، ص ٤٣٨: مكاي، الشرق الأدنى، ص ٢٢: دياكوف وكوفاليف، الحضارات القديمة، ج ٢، ص ٣٩٧.
- (٦١) الأحمد والهاشي، تاريخ الشرق القديم، ص ١٢٧: ف. دياكوف وس. كوفاليف، الحضارات القديمة، ج ٢، ص ٣٩٤.
- (٦٢) الصالحي، المملكة الحثية، ص ٥٦٥.
- (٦٣) الأحمد والهاشي، تاريخ الشرق القديم، ص ٣٨٧.
- (٦٤) الأحمد والهاشي، تاريخ الشرق القديم، ص ٣٨٩.
- (٦٥) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٤٨-٤٩: الأحمد والهاشي، تاريخ الشرق القديم، ص ٣٨٩.
- (٦٦) انظر هذه الرواية في: تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٧٣-٧٤.
- (٦٧) باقر، مقدمة، ج ٢، ص ٣١١: سليمان والفتيان، محاضرات في التاريخ القديم، ص ٣٧٦-٣٧٧: برن، تاريخ اليونان، ص ٤٣٣: مكاي، الشرق الأدنى، ص ١٦.
- (٦٨) سليمان والفتيان، محاضرات في التاريخ القديم، ص ٣٧٧: برن، تاريخ اليونان، ص ٤٣٣: سامي سعيد الأحمد، فلسطين حتى التحرير العربي، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٨)، ص ٦٠.
- (٦٩) الأحمد، تاريخ فلسطين القديم، ص ٢٨٦.
- (٧٠) المصدر نفسه، ص ٢٨٦-٢٨٧.
- (٧١) الأحمد، تاريخ فلسطين القديم، ص ٢٨٧: الأحمد، فلسطين، ص ٦٠.
- (٧٢) غنيم، نزعة المشتاق، ص ٨٤.
- (٧٣) الأحمد، تاريخ فلسطين القديم، ص ٢٨٧.
- (٧٤) الأحمد، تاريخ فلسطين القديم، ص ٢٨٧: الأحمد، فلسطين، ص ٦٠.
- (٧٥) سليمان والفتيان، محاضرات في التاريخ القديم، ص ٢١٨: الأحمد والهاشي، تاريخ الشرق القديم، ص ١٢٨: باقر وآخرون، تاريخ إيران القديم، ص ٧٩: دياكوف وكوفاليف، الحضارات القديمة، ج ٢، ص ٣٩٥.
- (٧٦) اريانوس، أيام الإسكندر في العراق، ص ٣٦.
- (٧٧) بوتس، حضارة وادي الرافدين، ص ٣٩٨-٣٩٧. وقد أيد بعض المؤرخين الكتاب الإغريق في مسألة استقبال البابليين للإسكندر. انظر: الأحمد والهاشي، تاريخ الشرق القديم، ص ١٢٩: الصالحي، العمارة، ص ١٨٨: اوتس، بابل، ص ٢١٢.
- (٧٨) بوتس، حضارة وادي الرافدين، ص ٣٩٨: دياكوف وكوفاليف، الحضارات القديمة، ج ٢، ص ٣٩٥.
- (٧٩) جورج رو، العراق القديم، ترجمة: حسين علوان حسين، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٤)، ص ٥٤٨: وحول رواية هيروودوتس الخاصة بسلب تمثال الرب مردوك، انظر: هيروودوتس ١: ١٨٣. في: هيروودوت، تاريخ هيروودوت، ترجمة: عبد الإله الملاح، (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ٢٠٠٧).
- (٨٠) بوتس، حضارة وادي الرافدين، ص ٣٩٨.
- (٨١) اريانوس، أيام الإسكندر في العراق، ص ٤٦.
- (٨٢) المصدر نفسه، ص ٤٧.
- (٨٣) المصدر نفسه، ص ٤٩.
- (٨٤) عبد السلام عبد العزيز فهي، تاريخ اللغة الإيرانية، (النجاة: مطبعة شاتو، ١٩٧٢)، ص ٤١.
- (٨٥) افيستا: الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية، تحرير: خليل عبد الرحمن وآخرون، (دمشق: روافد للثقافة والفنون، ٢٠٠٨)، ص ٨٧٠-٨٧٢.
- (٨٦) حول مسألة حرق القصر في برسيبولس انظر: باقر، مقدمة، ج ٢، ص ٤٤٦: سليمان والفتيان، محاضرات، ص ٢١٨: برن، تاريخ إيران، ص ٤٣٤: الأحمد والهاشي، تاريخ الشرق القديم، ص ١٢٩: باقر، مقدمة، ج ١، ص ٦٥٢.
- (٨٧) الأحمد والهاشي، تاريخ الشرق القديم، ص ١٢٩.
- (٨٨) هاري ساكر، قوة آشور، ترجمة: عامر سليمان، (بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٩٩)، ص ٣٧٨-٣٧٩.
- (٨٩) حوا انتشار اللغة الآرامية انظر: تيودور نولدكه، اللغات السامية، ترجمة: رمضان عبد التواب، (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٣)، ص ٥٠-٥٢: سامي سعيد الأحمد، تاريخ اللغات الجزرية-مطبوع ضمن كتاب: حضارات الوطن العربي أساساً للحضارة اليونانية، (بغداد: مطبعة إيلاف، ٢٠٠٣)، ص ١٤٥-١٤٦.
- (٩٠) انظر هذا التحليل في: الأحمد والهاشي، تاريخ الشرق القديم، ص ١٣٥-١٣٦.
- (٩١) كوردن تشايلد، ماذا حدث في التاريخ، ترجمة: حسين مؤنس، (القاهرة: بلاط، ١٩٥٦)، ص ٢٣٦-٢٣٧: انظر كذلك: دياكوف وكوفاليف، الحضارات القديمة، ج ٢، ص ٣٩٧.
- (٩٢) دياكوف وكوفاليف، الحضارات القديمة، ج ٢، ص ٣٩٧-٣٩٨.
- (٩٣) الصالحي، المدينة، ص ٣٤٩-٣٥٠.
- (٩٤) المصدر نفسه، ص ٣٥٠-٣٥١.
- (٩٥) تشايلد، ماذا حدث في التاريخ، ص ٢٣٨.
- (٩٦) ساكر، قوة آشور، ص ٢٧٤.
- (٩٧) ف. أبليفاوسي، أسرار بابل، ترجمة: توفيق فائق نصار، (دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٧)، ص ١٥٧.
- (٩٨) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٩٧-٩٨.
- (٩٩) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ١٣٠-١٣٢: مكاي، الشرق الأدنى، ص ١٩-٢٠: دياكوف وكوفاليف، الحضارات القديمة، ج ٢، ص ٣٩٦.
- (١٠٠) برن، تاريخ اليونان، ص ٤٣٨: مكاي، الشرق الأدنى، ص ٢٢-٢٣.
- (١٠١) تارن، الإسكندر الأكبر، ص ٣٢.
- (١٠٢) اوتس، بابل، ص ٢١٢-٢١٣.
- (١٠٣) المصدر نفسه، ص ٢١٣.

الملك مكوسن من خلال النقوش الأثرية (١٤٨ – ١١٨ ق.م)

تيفغرمين المجيد

باحث في التاريخ القديم
نائب رئيس الجمعية الثقافية ثاموغلي
الجمهورية الجزائرية



ملخص

تكاد تقتصر جل دراسات المؤرخين في مجال تاريخ المغرب القديم من مصادرها على ما سجّله قدماء مؤرخي الإغريق الرومان، باستثناء القلة القليلة منها، ولهذا رغبت في دراسة شخصية الملك مكوسن (مسييسا) من خلال النقوش الأثرية التي تعتبر من أهم المخطافات الحضارية للملوك الأمازيغيون. لقد برز الملك مكوسن على عرش نوميديا الموحدة، حيث دام حكمه لها قرابة الثلاثين عامًا (١٤٨ ق.م - ١١٨ ق.م) ومن خلالها اهتم هذا الملك بتنمية مملكته مواصلا بذلك ما بدأه أبيه الملك ماسينيسا في تطوير مملكته اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا. كما ميّز الهدوء والاستقرار فترة حكمه الطويلة ومن مظاهر ذلك الإنجازات الحضارية التي حققها خاصة في الجانب المعماري والفني، ولهذا نجد أن معظم الأضرحة والمعابد التي تحمل النقوش الأثرية يرجع تاريخها إلى عهده، وتكمن أهميتها في صحة مضامينها بصفة قطعية وذلك بتأكيد تاريخ حكم الملوك وإنجازاتهم الحضارية، وفي دراستنا هذه سنحاول أن نخرج على البعض من هذه النقوش ومن ضمنها: نقيشة دوقا الأثرية ونقوش العاصمة سيرتا (قسنطينة) ويول (شرشال) والتي تحصلنا من خلالها على معلومات تاريخية مهمة جدًا حول أوضاع المملكة النوميديّة في تلك الفترة كما أفادتنا كثيرًا في مجال الطوبونيميا (Toponymie) وكلها تمهّد الطريق أمام الباحث في تعميق دراسته في تاريخ وحضارة بلاد المغرب القديم.

كلمات مفتاحية:

العرش الأمازيغي، النقوش البونية، المغرب القديم، المملكة النوميديّة، الجزائر القديمة

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٩ ديسمبر ٢٠١٣
تاريخ قبول النشر: ٢٥ فبراير ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

تيفغرمين المجيد، "الملك مكوسن من خلال النقوش الأثرية (١٤٨ – ١١٨ ق.م)". - دورية كان التاريخية، العدد الثلاثون، ديسمبر ٢٠١٥، ص ٥٢ – ٥٩.

مقدمة

وذلك من خلال إشارتها إلى الملك مكوسن وفترة حكمه الطويلة (١٤٨ - ١١٨ ق.م).

أولاً: عهد الملك مكوسن (١٤٨ – ١١٨ ق.م)

١-١/ شخصية الملك مكوسن (M.K.W.S.N):

تشير المصادر التاريخية إلى أن مولد الملك مكوسن كان حوالي سنة ٢٠٠ ق.م، غير أننا لا نعرف الكثير عن طفولته، وكل الذي وصل إلى المؤرخين هو أنه تربى في كنف والده الملك ماسنسن (ماسينيسا) وتعلم عليه أمور الحكم والسياسة،^(١) وقد أشار الجغرافي الإغريقي استرابون (Strabon) إلى أن الملك مكوسن يولي

لعل من أهم مخلفات الملوك الأمازيغ المادية والحضارية التي بقيت شاهدة على عصرهم، ما اكتشفه علماء الآثار أو عن -طريق الصدفة - من أنصاب وهي منقوشة بعدة لغات (لبيّة- بونية- بونية جديدة)، وهي منتشرة في كل أرجاء بلاد تامزغا ولاسيما الحواضر الكبرى كسيرتا ودوقا، ومن بين الملوك الذين اهتموا بتخليد عهدهم نجد الإغليد مكوسن بن الإغليد ماسنسن بن الإغليد قايا، حيث أن جل النصوص نُقشت خلال عهده، وفي دراستنا هذه سنتطرق إلى فحوى هذه النصوص وأهميتها التاريخية

أما توكيل مهمة التقسيم إلى القائد الروماني سيبون إميليانوس، فرأى ماسنسن أنه من الحكمة استشارتهم في ذلك كاستراتيجية لتجنب الصدام معهم مستقبلاً، وكذلك علاقاته الحسنة مع الرومان التي ربطته بهم في السلم والحرب. ومجمل القول ممّا سبق؛ أنّ العاهل ماسنسن استطاع أن يوفق في هذا القرار الملكي وذلك لمراعاته لجميع شروط توريث حكم المملكة. في خضم الحصار البحري الذي ضربه الرومان على قرطاجة ابتداءً من سنة ١٤٩ ق.م، قدم القائد الروماني سيبون إلى العاصمة سيرتا (Cirta) بأمر من الملك ماسنسن الذي توفي قبل يومين من وصول القائد،^(٨) وشرع سيبون في توزيع السلطات بين الأمراء الثلاث متبعاً الوصية الملكية وهي كالآتي: كانت الإدارة للملك مكوسن، في حين أسندت قيادة الجيش للملك غولوسا، أما القضاء فقد تكفل به الملك مسطان- بعل الذي تشبع بالثقافة الإغريقية، ولُقب كلّ واحد بلقب الملك (الإغليد) كما ورد في النقوش الأثرية والنصوص القديمة.^(٩)

وبهذا التقسيم تم تطبيق وصية الملك الراحل، وكان مكوسن على رأس هرم السلطة لتقلده الجهاز الإداري والخاتم الملكي. لم تستمر الأوضاع على هذه الحالة، فسرعان ما توفي الملك غولوسا ومسطنعل في ظروف غامضة، ويرجح سالوست أنهما ماتا بتأثير المرض.^(١٠) وأصبحت بذلك جميع السلطات بيد الملك مكوسن.

٣/١- إنجازات مكوسن الحضارية:

إنّ عهد مكوسن الطويل (١٤٨ - ١١٨ ق.م) لم يُحظَ باهتمام المؤرخين الإغريق والرومان نظراً لعدم اهتمام هؤلاء بالمنطقة المغربية إلّا عندما تكون محل احتكاك بالشعبيين الإغريق واللاتيني، ولا يُستبعد أن هذا الصمت ناتج عن سيادة الاستقرار في نوميديا خلال عهده.^(١١) سار الملك مكوسن على خطى والده في تطوير المملكة والنهوض باقتصادها وأولى عناية فائقة بالعمارة وحياة التمدن، وطبع سياسته الخارجية بطابع السلم والعلاقات الحسنة المبنية على المصالح المشتركة خاصة مع الدولة الرومانية حليفة أبيه الملك ماسنسن، ومن مظاهر هذه العلاقات جملة المساعدات التي قدّمها الإغليد مكوسن للرومان أثناء حروبهم الطويلة ومن أهمّها الفليق العسكري الذي أرسله بقيادة ابن أخيه الأمير يوغرطة سنة ١٣٤ ق.م، كما بعث بكميات كبيرة من القمح للجيش الروماني المحارب في سردينيا فيما بين سنتي (١٢٦ - ١٢٥ ق.م).^(١٢) أما عن جيرانه الغربيين (مملكة المور) فلم تذكر المصادر أي محاولة للملك مكوسن في توسيع مملكته على حسابهم. ومجمل القول؛ فإنّ الإغليد مكوسن ظلّ متبعاً لسياسة أبيه الخارجية ومن المحتمل أن يكون ذلك نتيجة وصية سرية تلقاها من أبيه.

أما عن السياسة الداخلية في المملكة، فرغم تخليه عن سياسة أبيه التوسعية، فإنّه قد واصل سياسته في تطوير دولته والاعتناء بعاصمته سيرتا حيث زاد في تجميلها وتحصينها ويذكر استرابون أنها

أهمية كبيرة للعلماء والمثقفين وغالباً ما يقضي أوقات فراغه في دراسة الفلسفة.^(١٣) أمّا فيما يخص اسمه، فيبدو أنّ اسم "مكوسن" أو مكواسن " (M.K.W.S.N) كما ورد في النقوش الأثرية، هو الاسم الحقيقي له بالنطق الليبي- الأمازيغي، وهو اسم شهرة يحمل دلالة العظمة والرياسة حسب ما أشار إليه باحث اللسانيات الأستاذ حدادو (Haddadou.M.A)،^(١٤) في حين ورد اسمه في الكتابات اللاتينية على الشكل الآتي: مكيبسا (Micipsa) وفي اللغة الفرنسية "ميسبسا".

٢/١- مكوسن يرث العرش الأمازيغي:

استطاع الملك ماسنسن أن يوحد بلاد المغرب القديم (تامزغا) ابتداءً من سنة ٢٠٣ ق.م وهي الوحدة الثانية بعد تجربة الملك الأمازيغي المازيسيلي سيفاكس (Syphax).^(١٥) امتدت مملكة تامزغا الموحدة من خليج السرت الصغرى في ليبيا إلى نهر مولوشا على حدود مملكة المور (نهر ملوية حالياً بين الجزائر والمغرب الأقصى) وإلى رفاف الصحراء (بلاد الجيتول) جنوباً. وقد دام حكم الإغليد ماسنسن حوالي ٥٦ سنة قضاه في خدمة شعبه وتطوير مملكته في جميع مجالات الحياة (اقتصادياً، اجتماعياً وعسكرياً) وأضحت المملكة من أقوى الدول في تلك الفترة على جميع الأصعدة، ولم تكن تابعة للتاج الروماني كما ذهب أولئك الذين يتحاملون على التاريخ الأمازيغي وسيادة الدولة الأمازيغية في تلك الحقبة القديمة. عاش الملك ماسنسن وبلغ سنّ التسعين^(١٦) حسب رواية المؤرخ الإغريقي بوليبيوس (Polybe)، وعندما أحسّ بدنو أجله، ترك وصية ملكية مفادها تقسيم سلطات العرش الأمازيغي بين أبنائه الثلاث الشرعيين مكوسن (Micipsa) وغللسن (Gulussa) ومسطان - بعل (Mastanabal)، وبحضور القائد الروماني سيبون إميليانوس (Emilien Scipion) والسؤال المطروح: ما هي الدوافع التي جعلت ماسنسن يوزع السلطات بين أبنائه؟ علماً أن وراثة العرش النوميدي كانت لأكبر العائلة الملكية سنّاً (الذكور)، وكيف نفسّر هذه الإجراءات المتخذة من قبل العاهل الأمازيغي؟

يبدو أن العاهل ماسنسن كان أكثر حكمة وحكمة سياسية وتطلعاً لمستقبل المملكة وكذلك الأخطار الخارجية المحدقة بها، وفي حقيقة الأمر نجد أن الملك قد عهد إلى أكبر أبنائه مكوسن بالخاتم الملكي الذي يدل على أولويته في الخلافة شرعاً^(١٧) وبهذا الإجراء يكون الملك قد راعى التقليد المعروف في توريث الحكم لأكبر العائلة سنّاً، أمّا إشراك أخويه الآخرين (غولوسا ومسطنعل) في الحكم، فهو كذلك كان وفقاً لنظام المدينة الأمازيغية التي تُسير من طرف ثلاثة أشفاط (Suffètes) أي القضاة كما هو الحال بالنسبة لمدينة مكثر (Maktaris) كما أشار إلى ذلك المؤرخ شارل بيكار (Ch.Picard)^(١٨) وهذا ما أكدته نقيشة دوقا الأثرية.

عند اقتراب أجل الملك مكوسن، استدعى هذا الأخير حاشيته وابنيه والأمير يوغرطة وألقى على مسامعهم خطاباً مطولاً سجله لنا سالوست، ويعد بمثابة وصية ملكية فيها أعلن تبنيّه للأمير يوغرطة وجاءت العبارة كالآتي: "يا يوغرطة بقدر كنت صبياً بلا أب ولا أمل ولا ثروة عندما دعوتك لأن تكون وريث تاج العرش، وهذا يبرهن على محبتي إياك مثل ولدي..."^(٢١) وبعد ثلاثة سنوات توفي الملك وهو ما يوافق سنة ١١٨ ق.م وحسب سالوست نجد أن التبني حدث في سنة ١٢١ ق.م أي بعد ١٢ سنة من حرب نومانس، وهذا يبطل الرأي القائل باتباع الملك مكوسن أوامر الحكومة الرومانية.

توفي الملك مكوسن في سن متقدمة وأقيم له حفل جنازي يليق بقائد أمة، أما عن قضية مكان دفنه فلم يثبت بعد، وسنتطرق إلى هذه النقطة عند الحديث عن نقيشة شرشال الملكية. اجتمع الأمراء الثلاث في العاصمة سيرتا للنظر في شؤون تسيير المملكة ولم يتفقوا في ذلك بسبب احتقار أبناء مكوسن لابن عمهم يوغرطة وأدرك هذا الأخير الخطر الذي ستعرض له المملكة بسببهما، ونتيجة ذلك اقتسم الأمراء الثلاثة كنوز العرش واختار كل واحد منهم إقليماً يسيّره بنفسه،^(٢٢) لكن يوغرطة لم يرض بذلك حيث قام بالقضاء على أبناء عمه بدءاً بهيمبسال سنة ١١٧ ق.م وأذربعل والجالية الرومانية بسيرتا سنة ١١٢ ق.م وأصبحت المملكة تحت سلطته من جديد، هذا ما جعل روما تعلن الحرب عليه ابتداءً من سنة ١١١ ق.م والتي دامت لمدة سبع سنوات برز فيها يوغرطة بمقاومته للإمبريالية الرومانية ومطامعها الاستعمارية.^(٢٣)

ثانياً: الملك مكوسن في النقوش الأثرية

١/٢- لمحة عن النقوش البونية والليبية:

تعتبر النقوش الأثرية (Epigraphie) من أهم المصادر المادية للتأريخ في مجال التاريخ الأمازيغي القديم، وعلى غرار مناطق أخرى من العالم القديم، تبرز بلاد تامزغا باحتوائها على عدّة نقوش خلّدت عهود ملوك الأمازيغ خاصة في الحواضر الكبرى (المدن) وسُجّلت هذه الكتابات على مختلف الأحجار وخاصة الحجر الكلسي بالخط البوني إلى جانب الخط الليبي المحلي.^(٢٤) عثر العلماء على نقوش أثرية بونية-ليبية وبونية جديدة في جميع أرجاء البلاد المغاربية، وبالإضافة إلى مدينة قرطاجة التي تحتوي على أكبر قدر من هذه النقوش، نجد العاصمة النوميديّة "سيرتا" حيث عثر في المعبد البوني بالحفرة (قسنطينة) على ٢٧٨ نقش وذلك في سنة ١٨٧٥، كما عثر في كالما (قالمة) على ١٠٧ نقش وسطيّف ٣٩ نقش...إلخ، وكلها مكتوبة بالبونوية والليبية والبونية الجديدة.^(٢٥)

تنقسم هذه النقوش الأثرية حسب طبيعتها إلى نوعين أساسيين: النوع الأول: نقوش إهدائية والتي تحمل كتابات مهداة إلى الآلهة تقريباً منها ونيل رضاها والاستعانة بها في قضاء المآرب ويتصدر الإله بل-حامون وقرينته الإلهة الأمازيغية "ثانيث" هذه

كانت قبلة العلماء والفنانين والفلاسفة الإغريق واللاتين،^(٢٦) وكذلك اهتمامه بتنمية الفلاحة والتجارة بتشجيع القرى الزراعية وتكوين ضيعة ذات مدخول وافر، وظهرت مدن هامة كباجة (Vaga) وثوقا (Thugga) وقفصة (Gafsa) بمواردها الاقتصادية والمالية، وكانت باجة أهم سوق في المملكة بفضل أراضيها الخصبة وأشاد المؤرخ سالوست بثرائها أثناء حديثه عن حملة ميتلوس سنة ١١٠ ق.م.^(٢٧) كذلك اهتم الملك مكوسن ببناء وتشجيع المعالم العمرانية والنصب الإهدائية والجنازية والتي أكدت سنوات حكمه وحدود مملكته وهو ما سنتطرق إليه في حديثنا عن النقوش الأثرية المتعددة في جل المدن النوميديّة. كما سك العملة باسمه وباسم والده ماسنسن لتنظيم المبادلات التجارية التي ربطته ببلاد الإغريق وجزر البحر المتوسط.

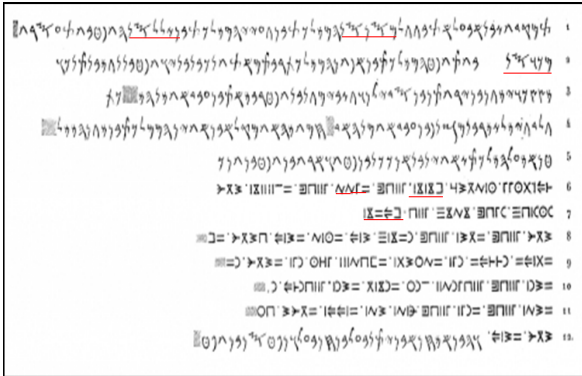
إن عهد الملك الأمازيغي مكوسن يعدّ من أزهى العهود وأكثرها سلماً واهتماماً بمجالات الحياة (الاقتصاد، العمران)، وكل هذه الإنجازات جعلت المؤرخ كامبس (Camps) يعلق على عهد مكوسن قائلاً: "إن ثلاثون سنة من السلم جعلت من عهد مكوسن أكثر عهود المملكة نفعا إن لم يكن أكثرها برقا"،^(٢٨) أما المؤرخ هشام الصّفي فيرجع ازدياد قوة المملكة النوميديّة بقيادة مكوسن هي التي أثارت مخاوف الرومان.^(٢٩)

٤/١- وفاة الملك مكوسن وخلافته:

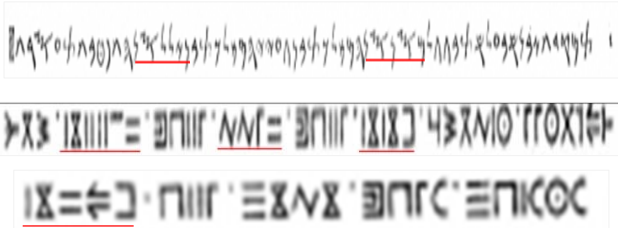
بعد وفاة كل من الملكين غولوسا ومستنبعل، تكفل الملك مكوسن بابين هذا الأخير وهو الأمير يوغرطة (Jugurtha) الذي أعطاه تربية الأمراء إلى جانب ابنه الأميرين أذربعل (Adherbal) وهيمبسال (Hiempsal)، وهنا يذكر سالوست صاحب كتاب "حرب يوغرطة"^(٣٠) أن الأمير يوغرطة كان ذو شخصية فذة وكان يمارس الصيد والرمية وفقاً للتقاليد النوميديّة، وكان يتفوق على أقرانه حيث لقبوه بـ "يوقرثن" أي المتفوق عليهم^(٣١) وأضحى بذلك محبوب الشعب النوميدي، وهذا ما أثار مخاوف الملك مكوسن من خطر هذا الأمير على مستقبل ولديه الصغيرين فعمد في البداية إلى التخلص منه ثم عدل على ذلك بسبب رد فعل الرعية، وفي تلك الأثناء أعلن الرومان الحرب على مدينة نومانس واستنجدوا بالملك مكوسن لمساندتهم، فوجد الملك فرصة للتخلص من ابن أخيه، حيث أرسله على رأس كوكبة من الفرسان إلى إسبانيا ليحارب إلى جانب الرومان لعله يقتل في ميدان الحرب^(٣٢) وفي تلك الحرب اظهر يوغرطة مقدرة عسكرية عالية ممل جعل القائد الروماني سيبيون يشيد بجدارته يوغرطة الحربية وعبر عن ذلك في رسالة شكر وجهها إلى الملك مكوسن ويعتقد بعض المؤرخين أنها رسالة تحمل في طياتها ضرورة تبني الأمير يوغرطة انطلاقاً من عبارة فيها سجلها لنا سالوست على لسان سيبيون ومفادها: "إنني أهنئكم باسم صداقتنا فلديكم هنا رجل شرفكم انتم وجدّه ماسينيسا".^(٣٣)

كتابه سنة ١٩٤٠ بعنوان: (Recueil des inscriptions libyques) وهو مجلد كبير جمع فيه حوالي ١١٢٠ نقشًا ليبيًا وبونيًا ومنها حوالي ٢٠ نقشًا مزدوج اللغة بونية - ليبية ثم ليبية ولايتينية.^(٣٢) ومنها النقيشة الثانية التي درسها في هذا الكتاب، وسنركز عليها من خلال ما ورد فيها من أسماء الملوك الأوائل لبلاد الأمازيغ.

• نص نقيشة دوقا الثانية:^(٣٣)



السّطرين الأولين من النّقيشة بالحرف البوني والليبي:



• ترجمة إلى الحرف العربي من الكتابة الليبية:

- ١- ص ك ن / ت ب ج ج / ب ن ي / ف ش ن / م س ن س
ن / غ ل د ت / و ج ي ي / غ ل د ت / و ز ل س ن / ش ف ط
- ٢- ص ب س ن د ه / غ ل د ت / س ي س ح / غ ل د / م
ك و س ن

• الترجمة العربية:

"شيد سكان دوقا من بني فشن هذا المعبد للملك ماسنسن بن الملك قايا بن السوفيت زبالسن، في السنة العاشرة من حكم الملك مكوسن".^(٣٤)

- ملاحظة: قمنا بوضع سطر تحت أسماء الملوك النوميديون مكتوبة بالخط البوني والليبي.

الأهمية التاريخية للنقيشة: تبرز أهمية هذه النقيشة في عدة مجالات تاريخية وحضارية وذلك من خلال تأكيدها لعدة حقائق تاريخية وردت في الكتابات الكلاسيكية ومنها:

- (١) جاء في النقيشة أنّ الأسرة النوميديّة كانت أسرة أبوية وذلك لكونها ذكرت نسب الملك مكوسن إلى أجداده كقايا وزلا لسن الذين تداولوا على الحكم سواء بلقب ملك أو سوفيت التي تعني القاضي.

النقوش لكونهما الإلهان الكبيران في هذه المنطقة، كما وجدت نقوش إهدائية على شرف الأغاليد والكهنة اعترافاً لهم بالفضل والرئاسة^(٣٦) وهي ما سنتناوله في شأن الملك مكوسن. أما النوع الثاني: فهي نقوش تذكارية جنائزية وهي غالباً ما تكون مطولة حيث تتناول عادة اسم الميت ومكانته الاجتماعية ثم تتطرق إلى مناقبه الشخصية وتختتم بنصوصها بصب اللعنات على كل من يحاول النيل من البناء الجنائزي،^(٣٧) ومن أهم هذه النقوش الجنائزية: نقش معبد دوقا أو ثوقا ونقش شرشال ونقوش معبد الحفرة.

عرفت المرحلة الاستعمارية لشمال إفريقيا العثور على الكثير من هذه النقوش، وانصب العلماء والمؤرخون على دراستها وفكّ رموزها ومن أهمهم الأب شابو (Chabot)، وجيمس فيفري (J.Février)، ومرسي (Mercier)، وقزال (Gsell)... إلخ، وألفوا المجلدات والدواوين في هذا المضمار ومن خلالها قمنا باختيار خمسة نقوش ذكرت ملكنا الإغليد مكوسن وهي: نقيشة دوقا، نقيشة سيرتا الملكية، نقيشة الملوك السّيرتية، ونقيشة شرشال الملكية.

٢/٢- نقيشة دوقا الثانية الأثرية:

في حدود السنة العاشرة من حكم الملك مكوسن الذي يوافق سنة ١٣٩ ق.م. (28) أعطى الملك مكوسن الأمر بتشييد معبد تذكاري تخليداً لوالده الإغليد ماسنسن، وتجدر الإشارة إلى أنّ مدينة دوقا أو ثوقا^(٣٨) (Dougga ;Thugga) هي إحدى المدن الهامة في المملكة النوميديّة. بعد اكتمال بناء المعبد، علّقت على جدرانها لوحتين من الحجر الكلّسيّ مزدوجتي الكتابة بونية وليبية، تناولت اللوحة الأولى أسماء الأعيان الذين شيّدوا المعبد، في حين كُتبت في اللوحة الثانية النص الإهدائي الذي ذكر أسلاف الملك ماسنسن وابنه مكوسن حيث لقبوا جميعاً بلقب "إغليد". (انظر: الشكل رقم ١).

يعود أول اكتشاف لنقيشة دوقا الأولى إلى سنة ١٦٣١ م إلى ما قام به الرّحالة توماس داكروس الذي أخذ نسخة طبق الأصل (Un calque) للنقيشة وقدمها إلى أحد مواطنيه وهو العالم بيراز (Peirese) الذي انكب على دراستها، وبعد ذلك بحوالي قرنين من الزمن عمل السّير توماس ريد (Thomas Read) قنصل بريطانيا في تونس، على اقتطاع اللوحة الحجرية التي تحمل النص الجنائزي وحملها إلى بريطانيا، وبعد وفاة القنصل وضعت اللوحة في المتحف البريطاني بلندن تحت رقم (٤٩٤-٤٩٥) ولا تزال هناك إلى يومنا هذا.^(٣٩) أما النقيشة الثانية فقد اكتشفها مصلحة الآثار القديمة للإدارة الاستعمارية سنة ١٩٠٥، ووضعت بعد ذلك في متحف باردو بتونس العاصمة.^(٤٠)

بعد ذلك نشطت وكثرت أعمال البحث والتنقيب والدراسة للنقوش الليبية والبونية، وتُعَدّ الدراسة التي قام بها الباحث الفرنسي شابو (Chabot) من أهم الدراسات في هذا المجال وأصدر

٣- ب ع س ر / و ا ح د / ل م ل ك م / م ك و ا

٤- س ن.

• قراءة النص بأكمله: (٣٧)

- (إلى المو)

١- لى إلى بعل المقدس في

٢- الخامس من شهر مفع السابق (أو الأول)

٣- في السنة الحادية عشر للملك مكوا

٤- سن.

• الفائدة التاريخية لنص هذه النقيشة:

تكمُن أهمية هذه النقيشة الأثرية التي عثر عليها في العاصمة سيرا، كونها:

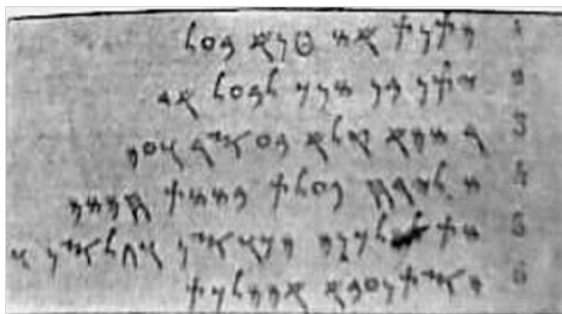
١- ذكرت النقيشة أن الإله بعل البوني قد تمت عبادته في سيرا بمعبد الحفرة ووصفته بالمقدس وهذا ما يدل على مكانته بين الآلهة البونية.

٢- كذلك أكد نص النقيشة حكم الملك مكواسن في سيرا، كونها نُقِشت في السنة الحادية عشر لحكمه وهو ما يصادف سنة ١٣٨ ق.م، أي بعد تاريخ نقش دوقا السالف الذكر بسنة واحدة.

٤/٢- نقيشة الملوك السيرتية: (٣٨)



أ- النصب الذي يحوي النقيشة



ب- نص النقيشة الملكية

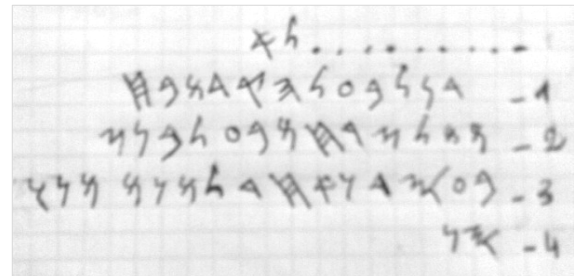
(٢) يمكن أن نستشف من النقيشة السابقة، أن النظام البلدي لمدينة دوقا في عهد مكوسن كان دقيقاً ومنظماً ومراعياً لأصول الحكم النوميدي العتيق، وكان فيها مجلس للأعيان يقوده أشفاط ومختلف على التنظيم الاجتماعي القرطاجي في كثير من التفاصيل مما يسمح بالقول أنّ التأثير البوني كان شكلياً والتنظيم الليبي كان هو الأصل.

(٣) أكد نص النقيشة أسماء الملوك الأمازيغيون بالنطق الليبي الأصلي (مكيبسا : مكوسن، ماسينيسا: ماسنسن، زلايسن: زلالسن) وذلك بوجود اللاحقة اللّيبية حرف النون.

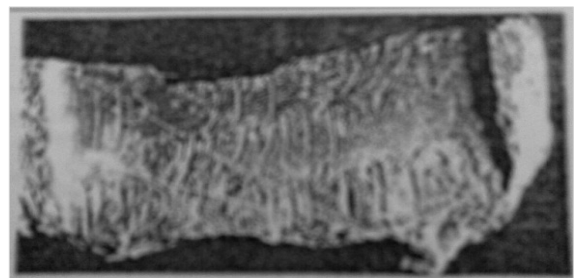
٣/٢- نقيشة مكوسن السيرتية:

اكتشفت هذه النقيشة سنة ١٩٥٠ بمعبد الحفرة البوني بسيرا (قسنطينة حالياً)، وتم حفظها في متحف سيرا الوطني ولا تزال موجودة فيه إلى يومنا هذا، وقد صنفها المؤرخان شارلي وبرتي (Charlier et Berthier) في كتابهما المعنون: (Le Sanctuaire d'Elhofra) تحت رقم ٦٤، لوحة (٨)، وقد كتب هذا النقش بالخط البوني على حجر كلسي أسود طوله (٥,١٢) سم وسمكه (٨ سم)، وارتفاعه (١٠ سم)، وقد شوّه السطر الأول منه ممّا صعب قراءته. (٣٥)

• صورة النقيشة الملكية على الحجر الكلسي الأسود: (٣٦)



أ- الحجر الحامل للنقيشة



ب- إعادة كتابة النص بالحرف

• نص النقيشة بالخط العربي:

- (ل ا)

١- د ن / ل ب ع ل / ه ق د ش / ب ح

٢- م ش ل ي ر ح / م ف ع / ل ف ن ي

تسليمها لتحف اللوفر وهي موجودة فيه إلى يومنا هذا.^(٤٢) قام فيليب بيرجي (Philippe Berger) بدراستها فيما بين سنتي ١٨٨٧ و١٨٨٨ ووجد صعوبة كبيرة في فك رموزها وقراءتها.

• قراءة النص كاملاً باللغة العربية:^(٤٣)

- ١- معبد " كنام " حياة الأحياء Vie des vivants مكيبسا ملك الماسيليين
- ٢- المجيد أو المجد المهيمن على بلاد عديدة الملك المتسامح
- ٣- هو الذي نصّب هذا التمثال من أجل..... قبر إزم
- ٤- ابن جاكوكتان ابن بوغوت ابن ماسينيسا، المكلف أو المنوط به أشياء مقدمة.
- ٥-
- ٦-الذي هو على قيد الحياة
- ٧-
- ٨-
- ٩-الذين هم له إبان طول عمر فلان
- ١٠- هذه البلدان التي تنتهي النقيشة قام بوضعها أريس، ابن ن.....

• قراءة النص كما بيّنه المؤرخ كامبس (Camps.G):

"مقدس جنائزي لأعظم الأحياء مكوسن ملك الماسيليين ... " والمهدي إزم Y'ZEM يعلن نفسه "خادم الإله" يهدي تمثالاً ومعلمًا جنائزيًا وأدوات عبادة للذكرى المجيدة لرعية الجلالة المرموقة والكمال الأسع،"^(٤٤) "وهو إزم بن جاكوكتان بن بوغوت بن ماسينيسا....."^(٤٥)

• أهمية النقيشة:

يكتسي هذا النص الجنائزي أهمية قصوى، فهو يقدم لنا معلومات وحقائق تاريخية على عهد الملك مكوسن ومدينة شرشال الملكية ومن جملتها:

- تبرز هذه الصفات شيئا من الطابع الألوهي باعتبار أن إزم خادم الإله غير مسمى الذي هو احتمالاً الملك مكوسن المتوفى ذاته، فالعبارة "أعظم الأحياء" واضح أنها تنطبق على المتوفى وتكتسي طابعاً ألوهياً حقيقياً.
- كذلك يرى المؤرخ كامبس (Camps.G) أنه من غير المستبعد أن تكون مدينة شرشال (يول) عاصمة للملك مكوسن، وذلك استناداً إلى اهتمام هذا الأخير بهذه المدينة، وعلاوة عن ذلك وجود ظاهرة تعدد العواصم لدى الملوك الأمازيغيين حيث كان للملك سيفاكس عاصمتين (سيرتا وسيفكا) ونفس الشيء للملك يوقرثن ويوبا الأول، فمن المحتمل أن تكون يول عاصمة ثانية للملك مكوسن بعد سيرتا.

• فك رموز النقيشة بالحرف العربي:

- ١- م ت ن ت / ا ش / ت ن / ا ب ع ل
- ٢- ي ت ن / ب ن / ش ن / ك ل ب ع ل
- ٣- ر / ش م / ا ق ل / ب ع ش ر / و ع م
- ٤- ش / ل ي ر ح / ب ع ل ت / ب ش ش ت / ح م ش م
- ٥- م ت / ل م ل ك ن م / م ك و س ن / و غ ل س ن / و
- ٦- م س ت ن ع ب ا / م ل ك ت

• قراءة النص بأكمله:

نصب تذكارى شيدّه بعليّاتون بن شيناك لبعل ادير لأنه استجاب لدعائه، وكان ذلك في الخامس عشر من شهر بعلوات؟ من السنة السادسة والخمسين قبل بداية حكم الأمراء مكوسن وغلسن ومستنبعل.^(٣٩)

• التعليق على النص وفائدته التاريخية:

تثبت المصادر التاريخية أن بداية حكم أبناء ماسنسن الأمراء قد بدأ سنة ١٤٨ ق.م، أي على إثر وفاة والدهم، ويذكر النص أن تاريخ نقشه يرجع إلى ما قبل وفاة ماسنسن ب ٥٦ سنة أي إلى سنة ٢٠٤ ق.م وهو التاريخ الذي اعتلى فيه ماسنسن عرش نوميديا،^(٤٠) كما أكد النص التسمية الحقيقية باللغة الليبية للأمراء الأمازيغ (أبناء ماسنسن) وهم كالاتي:

- "م ك و س ن" وهو اسم الملك ميسيبسا أكبر أبناء الملك ماسنسن.
- "غلسن" وهو اسم الملك غولوسا .
- "مستنبعل" أو مستن - بعل وهو اسم الملك مستنبعل.

٥/٢- نقيشة شرشال الملكية:

• تقديم النقيشة:

هي عبارة عن حجر رخامي أبيض علوه ٣٠ سم وعرضه ٢٣ سم، وقد نقش عليه النص الجنائزي بالخط البوني الجديد (Néo punique) ويتألف من إحدى عشر سطر، وقد أصاب النقيشة كسر في الأسطر السبعة الأخيرة، مما أدى إلى اكتناف الغموض في أجزائها الأخيرة.^(٤١)

• قصة العثور على النقيشة:

كانت النقيشة ضمن ممتلكات معمر اسباني يدعى ماركدال (Marcadal) الذي كان يملك مزرعة عنب على بعد ٢ كم غرب مدينة شرشال (يول قديماً)، وكانت هذه المزرعة موجودة في موقع مقبرة لم يتم حفرها بشكل معمق، فكثيراً ما يعثر عمال هذا المعمر آثار قديمة ويتم بيعها إلى صانع ساعات في المدينة وكان من بينها هذه اللوحة الحجرية، وعرضها هذا الصانع للبيع، وقد اشتراها السيد شميتير (Chmiter) وأصبحت ملكاً له، إلا أنه قرر فيما بعد

الهوامش:

- (١) محمد الصغير غانم، "نقيشة مسيسيسا السيرية، دراسة لغوية تاريخية"، حولية المؤرخ، العدد(٣-٤)، مركز البحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر ٢٠٠٥، ص: ١٥.
- (2) Charl André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Ed. Payot, Paris.1968.P:125.
- (3) Haddadou M.A, Guide de la culture Berbère, Ed. TALANTIKIT, Bejaïa.2010.P.323.
- (٤) سيفاكس: لا نعرف تاريخ ميلاده إلا أن تاريخ وفاته كان بروما سنة ٢٠١ ق، عندما تم شنقه من طرف الرومان في مدينة تيبور الإيطالية وقد ورد اسمه باليونية في عملته التي سكّها في عاصمته سيقا كما يلي: "سفك همملكت" أي سيفاكس الملك، ولم تذكر المصادر تاريخ اعتلائه العرش الماصيصلي، وقد وُجد بلاد تامزغا تحت زعامته واستمر حكمه لها حوالي ٢٠ سنة (٢٢٠ - ٢٠١ ق.م) حيث جعل كل من سيقا وسيرتا عاصمتين ملكيتين، وطبق نظام اللامركزية في التسيير الإداري، كما تجلّى دوره أيضا في الوساطة بين طرفي النزاع الدولي (الرومان والقرطاجيين) في المؤتمر الدولي بسيقا لسنة ٢٠٦ ق.م وتصفه المصادر أنه من أقوى ملوك شمال إفريقيا في تلك الفترة، انظر: السليماني أحمد، تاريخ ملوك البربر في الجزائر القديمة، دارالقصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٧، ص: ٨٧ - ٨٨.
- (5) Polybe, Histoire général, XXXVI, 16, collection de la Pléake, Paris, 1970, pp.1169 - 1170.
- (٦) محمد البشير شنيبي، "قضية النوميديّة من خلال المصادر القديمة"، مجلة التاريخ، معهد التاريخ (جامعة الجزائر)، العدد: ٥، الجزائر، ١٩٨٨، ص: ٣٨.
- (٧) محمد الصغير غانم، المملكة النوميديّة والحضارة اليونية، ط١، دار الأمة للنشر، الجزائر: ١٩٩٨.
- (8) Polybe, XXXVI, 16.18.
- (٩) محمد الصغير غانم، معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، دار الهدى للنشر، الجزائر، ٢٠٠٣، ص: ١٣١.
- (10) Salluste, la Guerre du Jugurtha, Trad. Par: Charl Durosoir, Ed. Librairie Garnier, Paris. (s.d), V, p.5.
- (١١) شعبان علي أحمد، السياسة الخارجية لمملكتي نوميديا وموريتانيا من القرن ٣ ق.م إلى ٤٠ م، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب القديم، جامعة الجزائر: ٢٠٠٩ - ٢٠١٠، ص: ٥٠.
- (12) Gsell Stéphane, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, Ed. Hachette, paris.1913- 1928, VII, P.139.
- (13) Charl André Julien, Op.cit., p.125.
- (14) Salluste, XLVII, p.54
- (15) Camps (G.), Aux origines de la berberie, Massinissa ou les débuts de l'histoire, Libya. Alger, 1960 p.240.
- (١٦) هشام الصفدي، تاريخ الرومان (في العصور الملكية - الجمهورية - الإمبراطورية حتى عهد الإمبراطور قسطنطين)، دار الفكر الحديث، ط١، لبنان، ١٩٦٧، ص: ٢٢٧.
- (١٧) كتاب حرب يوغرطة للمؤلف الروماني غايوس كريسبوس سالوستيوس، تناول فيه أحداث الحرب النوميديّة - الرومانية بزعامة الملك يوغرطة وكتبه حوالي سنة ٤٠ ق.م، وهو الكتاب الوحيد في هذا المجال، لكن رغم ذلك لا يخلوا من أحكام كسيفة شأنه شأن المصادر اللاتينية الأخرى التي تتميز بتطاولها على تاريخ المنطقة المغاربية.
- (18) Camps (G.) et Chaker(S.), «Jugurtha», in encyclopédie berbère, Aix - en - provence, Edisud, 2004, p.3975.

- كذلك أهميتها كونها أشارت إلى البعد الجغرافي (حدود المملكة النوميديّة)، وأنّ هذه المناطق كانت بصفة قطعية تابعة للتاج النوميدي ودحضت تأويلات المؤرخين المحدثين الذين حصروا المملكة في الجهة الشرقية للجزائر حاليًا وغرب البلاد التونسية، ولم تكن هذه الجهة تابعة لمملكة موريتانيا كما ذهب إلى ذلك أندري بيرتي (Andrée Berthier) في مقالته (Nouvelle Recherche sue le Bellum Jugurthinum).

خاتمة

لا يزال الكثير من الغموض يكتنف العديد من هذه النقوش الليبية- البونية الموجودة سواء في متاحفنا أو مدنتنا الأثرية، وهي تحتاج إلى دراسة علمية معمقة قصد الوقوف على مضامينها التاريخية والحضارية، ولاسيما أنها شواهد تثبت الحقيقة التاريخية بصفة قطعية على عهود ملوك الأمازيغ الحاكمين لبلاد تامزغا وانجازاتهم الحضارية. وفي الأخير أدعوا كل المهتمين بالأصول الأمازيغية من مختصين ومؤرخين الإقدام على دراسة هذا الموروث التاريخي لأجدادنا والرجوع إلى مادته في مختلف الدراسات التاريخية والاثنوغرافية المعمقة من أجل وضع حدّ للشكوك التي تساورنا فيما يخص هويتنا وأصالتنا في هذه المنطقة من العالم القديم.

استنتاجات عامة

- تُعَدّ النقوش الأثرية من أهم المصادر الموثوقة للتأريخ في مجال تاريخ وحضارة المغرب القديم، لاسيما عهود الملوك الأمازيغيون وانجازاتهم في حقل الحضارة الإنسانية، وقد أعطت بعض هذه النقوش المكتشفة بصفة تلقائية! معلومات تاريخية مهمة جدًا وقد توصلنا في دراستنا هذه إلى البعض منها:
- تأكيد بعض النقوش الأثرية بصفة قطعية تواريخ حكم الملوك المغاربة كماشسن ومكواسن.
 - أعطت هذه النقوش التسمية الحقيقية لبعض الملوك (م.س.ن.س.ن / م.ك.و.ا.س.ن / غ.ل.س.ن)، وكذلك الألقاب الحكومية (غ.ل.د / ش.ف.ط) وأسماء المدن والقبائل.
 - الإشارة إلى الأنظمة الإدارية التي تسيّر المدن النوميديّة مثل دوقا ومكثّر وذلك بوجود مجالس للأعيان على رأسها أشفاط (Suffètes) أي القضاة، وهو نظام قديم ومنه استمدّ نظام " تاجماعت" في منطقة القبائل.
 - إبراز المعالم الجغرافية كالأحدود الجغرافية للمملكة النوميديّة الموحدة ومجالها (نقش شرشال).
 - الإشارة إلى الجانب الاقتصادي للمملكة وخاصة الأراضي الفلاحية والمنتوجات الزراعية المتنوعة.

(٤٤) كاميس غابريال، مرجع سبق ذكره، ص: ٣٤٧.
(٤٥) السليمان، المرجع السابق، ص: ٢١٨.

(19) Sahli(M.Ch), Le message de Youghourtha, éd. En-Nahda, Alger, 1968, p.43.

(20) Salluste, IX, p.8.

(21) Ibid., X, p.9.

(٢٢) المجيد تيغرمين، استراتيجية الملك يوغورثا في حربه ضد الرومان (١١١ - ١٠٤ ق.م)، رسالة الماجستير في تخصص دراسات إفريقية، جامعة خميس مليانة، الجزائر: ٢٠١٢ - ٢٠١٣، ص: ٥١.

(٢٣) علي أحمد، مرجع سبق ذكره، ص: ٥١.

(٢٤) أطلق الباحثون في مجال اللسانيات على اللغة الليبية ذلك الكلام الذي تداوله المجتمع المغربي القديم منذ الألف الأولى ق.م، أي منذ أيام القبائل الليبية القديمة كالتحنو والتمحوثم المشوش والليبو... واستمرت في التداول بين أفراد قبائل الماصيل والماصيصل والمور، انظر: العيساوي مها، المجتمع اللوبي في بلاد المغرب القديم، أطروحة الدكتوراه في تاريخ المغرب القديم، جامعة منتوري بقسنطينة، الجزائر: ٢٠٠٩-٢٠١٠.

(٢٥) البونية الجديدة: هي عبارة عن كتابة متطورة من البونية القديمة خاصة بعد سقوط قرطاجة سنة ١٤٦ ق.م وتختلف عن هذه الأخيرة في رسم بعض الحروف، وقد تم نقش نصب شرشال بالخط البوني الجديد الذي سوف نتطرق إليه لاحقا. انظر: غانم، معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، دار الهدى للنشر، الجزائر: ٢٠٠٧، ص: ١٢٦.

(٢٦) غانم، معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، مرجع سابق، ص: ١٢٨.

(٢٧) نفسه، ص: ١٣١.

(٢٨) محمد الصغير غانم، "الرموز الكتابية الليبية في شمال إفريقيا"، مجلة التراث، العدد: ١٠، الجزائر، ١٩٩٩، ص: ٢٠.

(٢٩) دوقا أو ثوقا: هي من أقدم المدن الأمازيغية، وتعود إلى القرن ٤ ق.م وبها مباني كثيرة ومجلس للأعيان وكانت مهد أجداد الملك ماسنسن، وفيها ضريح على شرف ماسنسن ويوجد بها إلى الآن. انظر:

- Gsell, (S.), H.A.A.N, T.VII, p.228

(٣٠) غانم، الرموز الكتابية الليبية في شمال إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص:

١٢-١١

(٣١) نفسه، ص: ١٣.

(٣٢) نفسه، ص: ٣٢.

(33) J.b. Chabot, Recueil des inscriptions Libyques, imprimerie nationale, Paris.1940.p: 3.

(٣٤) مها العيساوي، المجتمع اللوبي من عصور ما قبل التاريخ إلى عتبة الفتح الإسلامي، أطروحة الدكتوراه في تاريخ المغرب القديم، نوقشت بجامعة منتوري- قسنطينة- الجزائر ٢٠١٠ وبإشراف الدكتور محمد الصغير غانم، ص: ٢٩٢.

(٣٥) غانم، "نقيشة ميسبسيسا السيرتية"، مرجع سبق ذكره، ص: ١٥.

(٣٦) نفسه، ص: ١٤.

(٣٧) غانم، "نقيشة ميسبسيسا السيرتية (دراسة لغوية تاريخية)"، مرجع سبق ذكره، ص: ١٧.

(٣٨) غانم، معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، مرجع سبق ذكره، ص: ١٣٢.

(٣٩) نفسه، ص: ١٣٣.

(٤٠) نفسه.

(٤١) أحمد مولاي السليمان، المكنون الحضاري الفينيقي القرطاجي في الجزائر، منشورات مركز البحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر: ٢٠٠٧، ص: ٢١٥-٢١٦.

(٤٢) السليمان، مرجع سبق ذكره، ص: ٢١٦.

(٤٣) نفسه، ص: ٢١٨.

عبادة الإله آمون والإلهة تانيت في بلاد المغرب القديم بين الأصل المحلي والاحتواء الأجنبي

الصالح بن سالم



أستاذ التعليم المتوسط
باحث دكتوراه – جامعة الأمير عبد القادر
قسنطينة – الجمهورية الجزائرية

ملخص

عندما أطل الإنسان لأول مرة على هذا العالم ورأى عظمة السماء، من سطوع الشمس وضيء القمر وعلو الجبال وسعة الأرض فأدهشه ذلك، ونتيجة لسذاجة عقله فإنه لم يستطع الوصول إلى حقيقة الخالق ف شعر أنه ضعيف وعاجز أمام هذه المظاهر فخر ساجدا لها في اعتقاده أن الخضوع لها حماية وقوة والابتعاد عنها خوفاً وحيرة^(١) هذا الحس الداخلي يسمى تدبنا فالغريزة الدينية مشتركة بين الأجناس البشرية حتى أشدها همجية، ورغم وجود بعض الجماعات الإنسانية البدائية من دون حضارة وعلوم ومع ذلك فلها ديانة،^(٢) فالدين هو مجموعة من الوقائع التي تشمل العقائد والطقوس، وهو مؤسسة اجتماعية لها جانبين الأول روحي مكون من العقائد والثاني مادي متمثلاً في الطقوس،^(٣) وهناك فرق جوهري بين الدين والفكر والمعتقد فالفكر هو اجتهاد إنساني عقلي قد يصيب ويخطأ، أما الدين فهو منسوب إلى الإله يجب إتباعه وتطبيق شرائعه من دون البحث عن مدى صحته وخطأه، وصولاً إلى المعتقد الذي هو مجموعة من الأفكار التي تشكل منهجاً معيناً يتبناه مجموعة من البشر ويسعون إلى تطبيقه عن طريق مجموعة من الطقوس وهو جزء من الدين.^(٤) لقد اختار سكان بلاد المغرب القديم كغيرهم من الشعوب ديانة يسيرون على شريعتها والمتمثلة في الديانة الوثنية والتي تنوعت بين عبادة مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والنجوم والحجارة والماء... وبين العبادة الطوطمية (الحيوانات والنباتات) والعبادة الروحانية (الأنيميات)، وبين هذا وذاك برز للمغاربة مجموعة من الآلهة والتي كانت بمثابة الملهم لهم فتمسكوا بها ودافعوا عنها، حتى أن الديانات السماوية التي جاءت بعد ذلك في شاكلة المسيحية مع (الرومان) والإسلام مع (العرب الفاتحين) وجدت صعوبات جمة في اختراق هذه المعتقدات، بل أنها لم تستطع أن تمحيها ولو جزئياً من مخيلتهم ومن ممارساتهم اليومية، ومن بين هذه الآلهة نجد كل من الإله آمون إله الشمس والإلهة تانيت إلهة القمر.

كلمات مفتاحية:

الوثنية، آمون، تانيت، المغرب القديم، الإغريق، الرومان

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٢ أغسطس ٢٠١٥

تاريخ قبول النشر: ١٨ أكتوبر ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الصالح بن سالم، "عبادة الإله آمون والإلهة تانيت في بلاد المغرب القديم: بين الأصل المحلي والاحتواء الأجنبي"، دورية كان التاريخية، العدد الثلاثون، ديسمبر ٢٠١٥، ص ٦٠ - ٦٤.

مقدمة

إلى هذه الأخيرة كل النجاح والفشل،^(١) وقد أنجبت المخيلة المغربية إلهين مهمين شكلا زوج مقدس وهما آمون وتانيت، والمشرقية والغربية في شكل مدح واحتواء واقتراء، كان سبباً في اختيارنا لهذا البحث للغوص فيه، فضلاً عن رغبتنا في إثراء معارفنا حول هذا الجانب - الدين والمعتقد - في حياة سكان بلاد المغرب القديم، ولعل من بين أهم الإشكالات التي طمح البحث لمناقشتها واقتراح إجابات

كانت الديانة الوثنية تعتبر العالم حلبة روحانية واسعة،^(٥) بما فيها الشمس والقمر والأنهار والرياح ويتزعم هذه النظرية في العصر الحديث الفيلسوف تايلور، الذي يرى أن الديانات قامت على أساس عبادة الأرواح وإن الإنسان عبارة عن جسد وروح، وينسب

منه الحجارة، ويقابل الشمس في السماء^(٢٠) وقد تأثر سكان قرطاجة بهذا الإله الذي جلب لهم الانتصارات في المعارك،^(٢١) فشيّدت له العديد من المعابد أهمها قرطاجة وسوسة.^(٢٢)

لكن السؤال المطروح ما هو سبب الانتشار السريع والواسع لعبادة بعل حمون في المغرب؟ والجواب متمثل في رأي خبير اللغة البونوية (جيمس فيفري) بأن جذوره المغاربة قبل المجيء الفينيقي هو سبب هذا الانتشار السريع، أما المصادر الأجنبية فتري أن السبب يعود إلى: سرعة تأثير الديانة القرطاجية في أي مكان حلت به هذا من جهة وقابلية المغاربة لكل ما هو آت من الخارج من جهة ثانية.^(٢٣) والدليل على أن بعل حمون القرطاجي هو نفسه آمون المغربي نذكر: أن بعل حمون رمز له بالكبش وكذلك كان آمون المغربي، كما أن الإله بعل حمون هو إله شمسي وأيضاً آمون المغربي، وصعوبة التفريق في اللغة البونوية بين الألف، الباء، الحاء (بعل آمون، بعل هامون، بعل حامون).^(٢٤) وعند المجيء الإغريقي إلى برقة وقورينة بليبيا "القرن السادس قبل الميلاد" زادت شهرة آمون، خاصةً بعد مزجه مع الإله الإغريقي الشهير زيوس ليصبح زيوس آمون،^(٢٥) وأصبح الإله زيوس آمون مقصد للإغريق لطلب التنبؤ بالمستقبل، خاصة بعد زيارة الإسكندر المقدوني له،^(٢٦) وكان الإغريق بقورينة يزورون معبده، ويطوفون حوله حاملين تمثاله - الكبش - ويرتلون بعض التعاويذ الليبية قصد استرضائه ويقوم على خدمته مجموعة من الرجال والنساء العذارى.^(٢٧)

١- تجسيد الإله آمون:

لقد جسد الإله آمون في أشكال ورموز متعددة، حيث جسد على شكل شيخ يجلس على العرش ويمسك بكبش وصورة أخرى لإنسان على رأسه قرص الشمس يقف بمدخل المعبد وكأنه سيد للمعبد،^(٢٨) أو على شكل كبش على قرنيه قرص الشمس وهو الشائع،^(٢٩) وتظهر مكانة آمون عند النوميدي من خلال صك عملة بوعد من الرومان "سنة ٤٩ ق.م"، نقش على الوجه الأول صورة للملك يوبا الأول مكافأة لمساعدته قوات بومبي ضد قيصر، والوجه الثاني صورة للإله آمون الكبش وبين قرنيه قرص للشمس،^(٣٠) كما أن الإمبراطور كركلا قام بتشييد معبد للإلهة مينيرفا بتبسة نقش عليه صورة للكبش آمون، وهذه إشارة على وفاء الإمبراطور لديانة أجداده،^(٣١) لكن أشهر الأشكال المجسدة للإله آمون نجد كل من قرص الشمس وحيوان الكبش.

الشمس:

أجمعت المصادر القديمة على أن أولى عبادات المغاربة كانت الشمس وهذا ما ذهب إليه هيرودوت^(٣٢) وهذا لفائتها - الدفاء والإثارة^(٣٣) - باستثناء قبائل الأترانتس "الجيوتل" بالصحرى الذين كانوا يلعبونها لأشعتها الحارقة،^(٣٤) عكس الليبيون في الشمال الذين يقدمون لها الأضاحي،^(٣٥) نجد قبائل النسامون المستقرون حول بحيرة تريتون الليبية،^(٣٦) وأطلق المغاربة على الشمس عدة ألقاب

لها: ما هو أصل عبادة الإله آمون والإلهة تانيت؟ وكيف تمكن المغاربة من تطوير فكرهم والوصول به إلى معتقد في حياتهم الدينية؟ هل هذه المقدمات كافية لإنشاء دين أو معتقد مغربي؟ أم هي مجرد معارف بدائية بسيطة؟ وكيف نفسر علاقة التأثير والتأثيرين المعتقدات المحلية والوافدة على بلاد المغرب القديم؟ وما هو السر وراء محافظة المغاربة على معتقدتهم الديني رغم كل المؤثرات الخارجية؟ وهل تمكنت الديانات السماوية المسيحية والإسلام في القضاء على هذه المعتقدات؟

١- عبادة الإله آمون

يعتبر من أكبر الآلهة المختلف في أصولها بين المنادي بأصله المحلي المغربي، وبين الذي يعتبره أجنبي عن بلاد المغرب القديم (مصري، قرطاجي، إغريقي، روماني) وسنحاول في هذا البحث إثبات هويته من خلال بعض الأدلة الأثرية.

يقول المؤرخ (هنري بأسيه): "كان آمون إلهاً كبيراً عند البربر..."^(٣٧)، فمن ناحية اللغة يرى أصحاب الاختصاص أن حرف الميم هو مصدرها عند المغاربة، فالهاء اسمه - أمان، والألف - إيمان - وهذه الحجة الأولى على مغربيته.^(٣٨) كما أن وجود مجموعة من النقوش الصخرية للإله آمون في كل من معبد الحفرة - قسنطينة - حيث وجد به حوالي (٢٨١) نصب لآمون، ووجدت له نقوش أخرى في كل من (هيون، دلس، شرشال، تيبازة)، وكل هذه المناطق تنتمي إلى المملكة النوميديّة، دليل آخر على مغربيته،^(٣٩) وكان الإله آمون عند المغاربة يعتبر إله الخير وخلود الروح والشمس،^(٤٠) أما المؤرخ "ديودور الصقلي" فيرى بأن آمون كان ملكاً ليبياً أسطورياً صار إله فيما بعد.^(٤١)

بينما نسبت المراجع المصرية الإله آمون إلى مصر، وتقول أنه كان يعبد بمدينة طيبة، وقبل ذلك يجب الإقرار أن آمون كان إلهاً لوحدة سيوة^(٤٢) الليبية قبل أن تصبح مصرية منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد^(٤٣) وهيرودوت يلحقها في خريطته في ليبيا^(٤٤) ثم غير اسمه من آمون إلى آمون طيبة وأصبح رئيساً للآلهة المصرية، وتنافس الفراعنة على تشييد المعابد له وإقامة الحفلات والأعياد تحت شرفه.^(٤٥) وقد حيكت حول وجوده عدة أساطير،^(٤٦) لكن تمييز هيرودوت في كلامه بين زيوس آمون المغربي وزيوس المصري يدمغ الموقف المصري، زيادة على ذلك فإن آمون المغربي كان إلهاً للنبوءات^(٤٧) بالدرجة الأولى، أما آمون المصري فكان إله للزراعة والحصاد، قبل أن يصبح سيد الآلهة.^(٤٨)

وقام الكهنة المصريون بدمج الإله رع معبود منفيس بالدولة القديمة مع الإله آمون معبود طيبة بالدولة الوسطى ليصبح "آمون رع".^(٤٩) وهناك من المؤرخين من يرجع أصله إلى قرطاجة باسم بعل حمون الذي هو عبارة عن شطرين بعل ويعني السيد بالفينيقية، وحمون ويعني الموقد ليصبح سيد الموقد الذي تخرج

عبادتها ببلاد المغرب يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد،^(٥٠) حيث قام الفينيقيون باحتوائها ونشر عبادتها على شكل دمي جميلة تهدى للأطفال المغاربة.^(٥١)

إلا أن المؤرخ المشرقي "خزعل الماجدي" يقر بأن أصل هذه الإلهة بريريا تبناها القرطاجيون،^(٥٢) ويقابلها عند الفينيقيون إلهة الخصوبة عشترت.^(٥٣) ولعل تمسك المغاربة برمزاها إلى يومنا هذا من خلال الإبريم الفضي الذي تستخدمه المرأة في لباسها، والوشم على جهة المرأة هو خير دليل على جذورها المغربية.^(٥٤)

١/٢- تجسيد الإلهة تانيت:

لقد جسدت الإلهة تانيت في رموز وأشكال متعددة منها: مثلث يعلوه خط مستقيم يمثل الذراعين تتوسطها نقطة مستديرة تمثل الرأس،^(٥٥) والنخلة والحمامة والرمانة التي تدل على الخصوبة،^(٥٦) كما وجدت على شكل امرأة تضع ابنها على ركبتيها،^(٥٧) والبهل والقرص الذي يرمز إلى القمر،^(٥٨) وتقابل حسب هيرودوت إله الشمس أمون،^(٥٩) والصولجان الذي يتكون من غصن الزيتون يحمل أعلاه جناحين وتلتف حوله أفاعي،^(٦٠) والسنبال والسمكة التي ترمز للأمومة.^(٦١)

كما عثر علماء الآثار سنة ١٩٤٠م على حوالي "١٥٨ قطعة" نقود من الرصاص والبرونز يبي باب الجزيرة - الجزائر العاصمة - تعود إلى القرنين الأول والثاني قبل الميلاد تحمل على وجهها صورة لامرأة على رأسها تاج وأمامها رمز النصر وهي الإلهة تانيت،^(٦٢) كما وجد ضريح ضخيم بصبرانة^(٦٣) منقوش عليها شكل تانيت رمز المثلث،^(٦٤) وقد عثر بمعبيها في قرطاجة على عدة جرار فخارية بها عظام أطفال وهي دلالة على تقديم الأضاحي البشرية للإلهة تانيت،^(٦٥) كما وجد لها أزيد من أربعة آلاف نقش مع قرينها أمون.^(٦٦)

منها: الإله الأكبر، الأعلى، الملك، اله السماء الأقوى،^(٦٧) كما لقبوها بالإله جرزيل وكان تمثاله على شكل ثور بين قرنيه قرص شمس واستمرت عبادته حتى القرن الحادي عشر الميلادي حسب رواية (البكري) بقبائل هواره،^(٦٨) ويرى هيرودوت أن الليبيون كانوا يقدمون القرابين للشمس بقطع أذان الضحية ويرمونها فوق المسكن، ثم يقتلون هذا الحيوان بلي رقبته،^(٦٩) ومازال المغاربة لحد الآن يمارسون بعض السلوكات التي ترمز إلى عبادة الشمس.^(٧٠)

ولعل أهم دليل على تجذر هذه العبادة في أوساط المغاربة ما قاله ماسينيوس عند استقباله لشبيون الأميلي "أتوجه إليك أيتها الشمس العالية، واليك يا آلهة السماء جميعاً بأن تجعليني أرى في مملكتي سيبيون..."^(٧١) ويوبا الثاني كانت له زوجة تسمى كليوباترا سيليني والتي تعني الشمس.^(٧٢)

الكبش:

يؤكد الباحثون أنه لا توجد شواهد كتابية تدل على عبادة المغاربة للكبش باستثناء النقوش والرسوم الصخرية التي وجدت على شكل كبش بين قرنيه قرص يدل على الشمس وفي رقبته قلاند، وتمائم وزوائد صوفية تضفي عليها هالة تعبدية وهذا يوحي بعلاقة بينه وبين الإله المصري أمون - رع، وهذا تفسير بعيد لأن رسوم جبال الأطلس تعود إلى عصر النيوليتي القديم. كما وجدت رسوم صخرية للكبش في كل من: أفلو، خنقة الحجر، وعين الناقة والصافي بورنان - الجلفة - كما وجدت نقوش له في جنوب غرب وهران، وكان يسمى (بوعلام زناقة).^(٧٣) وقد لقب المغاربة كبشهم بـ (أ - م - و - ن) يدل على الإله أمون، واستمرت عبادة الكبش في العصر الوسيط حسب رواية البكري الذي يذكر قبيلة في الجنوب المغربي كانت تقدس الكبش. وفي الأخير نستطيع القول أن الإله أمون هو إله واحد مغربي الأصل وإنما التسميات اختلفت حوله فالمصريون أطلقوا عليه (أمون رع) والقرطاجيون (بعل حمون) والإغريق (زيوس أمون) والرومان (ساتورن).^(٧٤)

٢- عبادة الإلهة تانيت

كانت الإلهة تانيت تشكل زوج إلهي مقدس مع قرينها أمون لدى المغاربة، وكانت رمز للأمومة والخصوبة،^(٧٥) ويعود تمسك المغاربة بالإلهة أنثى إلى قيمة المرأة في المجتمع القبلي واتخاذها رمزاً للخصوبة.^(٧٦) أما أصل هذه الإلهة فهي محل اختلاف أيضاً بين الأصل القرطاجي والأصل المغربي فإذا أخذنا برأي المتخصصين في اللغات فإن اللغة الأمازيغية هي الوحيدة التي تفتتح اسم المؤنث بحرف التاء وتختتم بنفس الحرف - تانيت -^(٧٧) والذين يرجعونها للأصل الفينيقي فقد استدلو بالنقوش التي وجدت حديثاً بلبنان ترمز إلى تانيت، وتعود إلى القرن السادس قبل الميلاد،^(٧٨) وبرأي علماء اللغة فإن اسم تانيت مشتق من الكلمة الفينيقية "إيتن" أي يعطي وكانت مختصة لمنح الذرية والغبى،^(٧٩) ويعود تاريخ انتشار

خاتمة

من خلال ما تم تقديمه في هذا البحث يمكن القول بأن: وجود آثار لعبادة آمون وتانيت لوقتنا الحالي في بعض مناطق الجزائر أكبر دليل على أصلية مغاربيتهما، فرغم أن الإسلام هو دين الشعب والدولة بالجزائر بنسبة تفوق (٩٨%) إلا أن بعض السلوكات والأفعال الناجمة عن بعض الأشخاص والتي توارثوها أبا عن جد خير دليل بأن آمون وتانيت أبر من مجرد رمزين من رموز الهوية الأمازيغية، وإليك بعض الأمثلة عن هذا السلوكات:

- وضع العجايز في الكثير من مناطق الجزائر ابزيم من أجل شد ثيابه (وهذا الابزيم هو رمز من رموز الالهة تانيت، على شكل مثلث يعلوه خط مستقيم ودائرة).
- مازال مربوا الماشية بالجزائر عند جز صوف الكباش يتركون شكل دائرة على ظهر الكبش وهي من أقوى صور ورموز الاله آمون المغاربي.
- مازال الطفل الصغير بالجزائر عند نزع ضرسه يرميه باتجاه الشمس ويقول: (أعطيتك ضرر حمار فاعطيني ضرر غزال) وهي من المقولات الخالدة للقبائل المغاربية القديمة نحو الاله آمون.
- الكثير من الجزائريين يضعون عجلات سيارات على منازلهم اعتقاداً منهم بأنها تحمي منازلهم من العين الحاسدة، والعجلة هي رمز من رموز الاله آمون قديمًا.
- الكثير من الفلاحين بالجزائر أثناء حرث الأرض يرمي حبات من فاكهة الرمان على المحراث اعتقاداً منه بأن هذا الفعل سيجعل السنبلة ممتلئة مثل حبة الرمان، وللعلم فان حبة الرمان هي من رموز وأشكال الالهة تانيت.

الهوامش:

- (١) عبد الحميد خطاب: الوضع العقائدي ومجيء الإسلام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٢، ص ١١.
- (٢) عبد القادر بخوش: تاريخ الأديان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ٩.
- (٣) سوسن بيطار: "فلسفة الدين"، الموسوعة العربية، ج ٩، ط ١، دمشق، ٢٠٠٦، ص ٥٦٣.
- (٤) عبد القادر بخوش: تاريخ الأديان...، ص ١١.
- (٥) فراس السواح: موسوعة تاريخ الأديان - الكتاب الأول، الشعوب البدائية والعصر الحجري، ط ٢، منشورات علاء الدين، سورية، ٢٠٠٧، ص ٢٢٨.
- (٦) عبد القادر بخوش: تاريخ الأديان...، ص ٢٤.
- (٧) ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، ط ٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧، ص ٥٧.
- (٨) أحمد بوساحة: أصول أقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص ٥٦ - ٦٠.
- (٩) محمد الصغير غانم: الملامح الباكورة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، دار الهدى، الجزائر، ٢٠٠٥، ص ٨٧ - ٨٨.
- (١٠) محمد العربي عقون: الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، دار الهدى، عين مليلة، ٢٠٠٨، ص ٢١٢.
- (١١) البرغوثي عبد اللطيف محمود: التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور إلى الفتح الإسلامي، ج ١، ص ١٣٨.
- (١٢) واحة سيوة: هي واحة تقع غرب النيل ألحقها هيرودوت في خريطته بليبيا وتمتد حتى الحدود الليبية غربا، كان متنازع فيها بين المصريين والليبيين، أنظر: محمد صغير غانم: الملامح الباكورة...، ص ٧٨.
- (١٣) عبد اللطيف محمود البرغوثي: التاريخ الليبي القديم...، ص ١٣٨.
- (١٤) محمد الصغير غانم: الملامح الباكورة...، ص ٧٨.
- (١٥) إبراهيم العيد بشي: تاريخ مختصر لأهم حضارات الشرق القديم، دار هومة، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ١٢١.
- (١٦) أساطير آمون: قيل أنه كان راعيًا فأهدى عددًا من المواشي إلى الإله ديونسيون فكافاه هذا الأمير بأن رفعه إلى منزلة الآلهة، وأخرى تقول أن الإله ديونسيون كان عابراً للصحراء فاشتد به العطش، فاستغاث بأبيه زيوس، فأرسل له كبش آمون وله منبع الماء، انظر: عبد اللطيف محمود البرغوثي: التاريخ الليبي القديم...، ص ١٣٨.
- (١٧) محمد العربي عقون: الاقتصاد والمجتمع...، ص ٢١٨.
- (١٨) عبد اللطيف محمود البرغوثي: التاريخ الليبي القديم...، ص ١٣٩.
- (١٩) محمد الهادي حارش: التاريخ المغاربي القديم - السياسي والحضاري - منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٢، ص ١٤٦؛ محمد الصغير غانم: الملامح الباكورة...، ص ٧٨؛ محمد الهادي حارش: "حول أصول عبادة بعل حمون في قرطاج"، مجلة الدراسات التاريخية، ع ٣، معهد التاريخ، الجزائر، ص ١١١.
- (٢٠) محمد الصغير غانم: الملامح الباكورة...، ص ٨٦.
- (٢١) عبد اللطيف محمود البرغوثي: التاريخ الليبي القديم...، ص ١٤٢.
- (٢٢) عبد الكريم غلاب: قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج ١، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٥، ص ١٥٣.
- (٢٣) محمد الهادي حارش: "حول أصول عبادة بعل حمون..."، ص ١٠٩.
- (٢٤) محمد الهادي حارش: "حول أصول عبادة بعل حمون..."، ص ١١٠ - ١١١.

- (٥١) عبد العزيز الثعالبي: مقالات في التاريخ القديم. تاريخ شمال إفريقيا. ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص١٧.
- (٥٢) خزعل الماجدي: المعتقدات الكنعانية. ط١، دار الشروق، الأردن، ص ١٥٥؛ أندري أيمار، جانين أبوايه: تاريخ الحضارات العام - روما وإمبراطورتها -، تعريب: داغر أسعد وفريد أبو ربحانة، ط٦، منشورات عديسات، بيروت - باريس، ٢٠٠٦، ص٦٠ - ٦١.
- (٥٣) عزت زكي حامد القادوس: آثار العالم العربي في العصرين اليوناني والروماني- القسم الإفريقي-، مطبعة الحضري، الإسكندرية، ٢٠٠٥، ص١٩٤.
- (٥٤) محمد العربي عقون: الاقتصاد والمجتمع...، ص٢١٥.
- (٥٥) محمد الصغير غانم: الملامح الباكورة...، ص٩١؛ عزت زكي حامد القادوس: آثار العالم العربي...، ص٥٧.
- (٥٦) محمد العربي عقون: الاقتصاد والمجتمع...، ص٢١٥.
- (٥٧) محمد الصغير غانم: الملامح الباكورة...، ص٩١.
- (٥٨) شال أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج١، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٧٨، ص١١٩.
- (٥٩) محمد الهادي حارث: التاريخ المغاربي القديم...، ص١٤٥.
- (٦٠) خزعل الماجدي: المعتقدات الكنعانية...، ص٨٥ - ٨٥.
- (٦١) خزعل الماجدي: المعتقدات الكنعانية...، ص٨٥ - ٨٥.
- (٦٢) علي عبد القادر حليبي: مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل ١٨٣٠، ط١، دار الفكر الإسلامي، الجزائر، ١٩٧٢، ص١٤٢.
- (٦٣) صبراته: مدينة تقع على الساحل الليبي، أسسها الفينيقيون في القرن السادس قبل الميلاد، أما اسمها فهو اغريقي يعني سوق الحبوب، انظر: عزت زكي حامد القادوس: آثار العالم العربي...، ص٥٧.
- (٦٤) عزت زكي حامد القادوس: آثار العالم العربي...، ص٥٧.
- (٦٥) محمد الصغير غانم: التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، دار الهدى، الجزائر، ٢٠٠٣، ص٥٧.
- (٦٦) مادلين هورس ميادان: تاريخ قرطاجة، ترجمة: إبراهيم بالش، ط١، منشورات عديسات، بيروت - باريس، ١٩٨١، ص٦٨.
- (٢٥) محمد العربي عقون: الاقتصاد والمجتمع...، ص٢١٥؛ محمد الهادي حارث: التاريخ المغاربي القديم...، ص١٤٦.
- (٢٦) عبد اللطيف محمود البرغوثي: التاريخ الليبي القديم...، ص١٤٠؛ محمد العربي عقون: الاقتصاد والمجتمع...، ص٢١٨.
- (٢٧) عبد اللطيف محمود البرغوثي: التاريخ الليبي القديم...، ص١٤٠.
- (٢٨) محمد الصغير غانم: الملامح الباكورة...، ص٨٧ - ٨٨.
- (٢٩) عبد اللطيف محمود البرغوثي: التاريخ الليبي القديم...، ص١٤١؛ رشيد الناظوري: المغرب الكبير - العصور القديمة -، ج١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، ص٢١١.
- (٣٠) محمد الصغير غانم: "علاقة نوميديا بالرومان"، مجلة التراث، ع٠٣٤، مطبعة الشهاب، الجزائر، ١٩٨٨، ص٢٤.
- (٣١) مها عيساوي: "مدينة تبسة في العصور القديمة"، مجلة التراث، ع٠٩٤، مطبعة الشهاب، الجزائر، ١٩٩٧، ص٤١.
- (٣٢) عبد اللطيف محمود البرغوثي: التاريخ الليبي القديم...، ص١٣٦؛ محمد الهادي حارث: التاريخ المغاربي القديم - السياسي والحضاري - منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٢، ص١٤٥.
- (٣٣) محمد الصغير غانم: الملامح الباكورة...، ص٢٢.
- (٣٤) عبد الحميد عمران: الحركة الدونانية بين الانشقاق الديني والتحرر (٣٠٥ - ٤١١م)، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، ٢٠٠٥، ص٣٧.
- (35) Stephen Gsell: Hérodote dexte relatifs L'histoire de l'Afrique du nord, ed. J. Leroux, Alger, Paris, 1916, P.185.
- (٣٦) محمد الصغير غانم: الملامح الباكورة...، ص٢٢.
- (٣٧) محمد الصغير غانم: الملامح الباكورة...، ص٢٢.
- (٣٨) عبد اللطيف محمود البرغوثي: التاريخ الليبي القديم...، ص١٣٦.
- (٣٩) عبد اللطيف محمود البرغوثي: التاريخ الليبي القديم...، ص١٣٦.
- (٤٠) إذا نزع الطفل ضرره يرميه اتجاه الشمس، ويقول أعطيتك فضة أعطيني ذهباً، انظر: مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج١، دار النهضة الجزائرية، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٧٥، ومازال المغاربة يضعون عجلات السيارة على المنازل لحمايتهم من العين؛ انظر: عثمان الكعاك: موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣، ص٣٢.
- (٤١) محمد العربي عقون: الاقتصاد والمجتمع...، ص٢١٣.
- (42) Mahfoud Kaddache: L'algerie dans l'antiquité, société Nationale d'éditions et diffusions zirout Yousef, ALGER, 1982, P.72.
- (٤٣) محمد الصغير غانم: الملامح الباكورة...، ص٥٢.
- (٤٤) محمد الصغير غانم: المملكة النوميديّة والحضارة البونية، ط١، دار الأمة، الجزائر، ١٩٩٨، ص٢٠٦.
- (٤٥) محمد العربي عقون: الاقتصاد والمجتمع...، ص٢١٢.
- (٤٦) رشيد الناظوري: المغرب الكبير...، ص٢٠٩.
- (47) Mhomed fantar: CARTAGE, la prestigieuse cite d'el lissa Maison, tunisienne de l'Edition, Tunis, 1970, p. 158 - 159.
- (٤٨) محمد الصغير غانم: المملكة النوميديّة...، ص٢٠٧؛ محمد الصغير غانم: الملامح الباكورة...، ص٩٢ - ٩٣.
- (49) Mhomed fantar: CARTAGE..., P. 158 - 159.
- (٥٠) محمد الصغير غانم: المملكة النوميديّة...، ص٢٠٧.

المستعمرة الرومانية كولونيا يوليا زليس

هشام الغرباوي

أستاذ التاريخ والجغرافيا
باحث دكتوراه في الأركيولوجية الكلاسيكية
طنجة – المملكة المغربية



ملخص

يتناول المقال دراسة تاريخية وأركيولوجية للمستعمرة الرومانية زليل المتواجدة في شمال المغرب، اعتماداً على إشارات المصادر الكلاسيكية، والتي تبقى قليلة جداً باعتبار أن المعلومات التي أدلى بها المؤرخون والجغرافيون القدامى جاءت عند تقاطعها مع تاريخ تواجد شعوبهم في المنطقة، لهذا فالباحث عندما يريد التأريخ للمغرب يجد نفسه يؤرخ للشعوب التي كانت لها اتصالات مع السكان المحليين، ولذلك فإن هذه المصادر لا تفي بالغرض الذي يتوق إليه الباحث للإحاطة بتاريخ وجغرافية سكان المغرب القديم. هذا النقص في المعلومات حول تاريخ المغرب القديم عامة وزليل خاصة، تغطيه الدراسات والأبحاث الأركيولوجية التي عرفها الموقع إذ ساهمت بشكل كبير في إمطة اللثام عن العديد من نقاط الغموض عن تاريخ المستعمرة وخاصة موقعها، حيث كان يعتقد أن مدينة أصيلة الحالية بنيت فوق مدينة زليل. كما تم التعرف على المراحل التاريخية لزيل حيث تم العثور على بعض اللقى الأثرية تعود لمراحل تاريخية مختلفة، ابتداء من مرحلة ما قبل التاريخ مروراً بالفترة المورية وصولاً إلى الفترة الرومانية، بالإضافة إلى ذلك فقد تم من خلال هذه الأبحاث الأركيولوجية أيضاً الكشف عن العديد من البنايات وخاصةً الرومانية منها.

كلمات مفتاحية:

الحمامات الرومانية، تاريخ الحفريات، موريطانيا الطنجية، المغرب القديم

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٥ نوفمبر ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ١٣ فبراير ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

هشام الغرباوي، "المستعمرة الرومانية كولونيا يوليا زليس"، دورية كان التاريخية، العدد الثلاثون، ديسمبر ٢٠١٥، ص ٦٥ - ٧٠.

مقدمة

إن المتتبع لتاريخ المغرب القديم، لا يمكنه أن يجادل في افتقار الخزانة العربية إلى بحوث مختصة تتناول المواقع الأثرية في المغرب، وخاصةً تلك التي ترجع إلى العصر الروماني وما قبله، بحيث نجد أن كل ما كتب حول تاريخ المغرب القديم كتبه الأجانب بعد قيامهم بعدة أبحاث أثرية في العديد من المواقع الأثرية المغربية كويلي، وليكسوس، وزليل موضوع الدراسة حيث نجد من بين أهم الباحثين الذين نقبوا فيها هناك مورييس لونوار (Maurice LENOIR) وزوجته إيليان لونوار (E.LENOIR) بالإضافة إلى الباحث المغربي عمر أكراز.

جاء ذكر هذه المستعمرة الرومانية في النصوص الأدبية على شكل زليل (Zilil) أو زليس (Zilis)، وتوطن حالياً بالدشر الجديد، وهي مدينة مورية قديمة ورد اسمها في المصادر الأدبية بصيغ مختلفة، وقد كان يعتقد منذ شارل تيسو (Ch. TISSOT) أن مدينة أصيلة الحالية تغطي أطلال مدينة زليل، غير أن أوزينا (M. EUZENAT) وقبله سبول (J.E.H. SPAUL) رجحا أنها تقع في مكان يسمى الدشر الجديد، ليتم تأكيد ذلك من طرف حفريات البعثة الفرنسية-المغربية، بفضل اكتشاف نقيشة لاتينية تحمل الاسم الكامل للمدينة، وبذلك تم تحديد موقعها نهائياً.

١- الموقع الجغرافي

تقع زليل (Zilil) على بعد (٤٠) كلم جنوب مدينة طنجة، و(١٣) كلم شمال شرق مدينة أصيلة فوق منطقة تلية،^(١) تطل على نهر الخروب.^(٢) ويوجد الموقع في مكان استراتيجي يتمثل في وجوده على إحدى الطرق الرئيسية التي تربط شمال موريطانيا الطنجية بجنوبها،^(٣) وخاصةً الطريق الساحلية، وهذا الموقع جعل زليل (Zilil) تلعب دورًا استراتيجيًا في الربط بين مختلف مواقع المغرب القديم.

٢- زليل (Zilil) من خلال المصادر الأدبية

ورد اسم المدينة المورية القديمة زليل في المصادر بصيغ مختلفة ويعتبر ألكسندر بولستور (ALEXANDRE POLYHISTORE) أول من أشار إلى مدينة زليل حيث وردت عنده على صيغة (Xilia)، وقال أنها مدينة ليبية.^(٤) بعد ذلك نجدها مذكورة عند سترابون (STRABON) إذ يقول: "عندما نبحر من لينكس (Lynx) في اتجاه البحر الداخلي، نجد زليلس (Zélis) وتنجيس (Tinges)"،^(٥) وأشار إليها أيضًا بومبونيوس ميلا (POMPONIIUS MELA) قائلاً: "ومدن أخرى على البحر هي سلا ولكسوس والتي يرونها نهر اللكسوس، بعيداً عن هنا، توجد مستعمرة زليلس (Zilis)".^(٦) كما ذكرها بلين الشيخ (PLINE L'ANCIEN) في معرض حديثه عن المدن المورية، حيث يقول: "على بعد خمس وعشرين ألف قدم من طنجي (Tingi)، توجد على ضفاف المحيط، مستعمرة أغسطس (AUGUSTE) المسماة يوليا كونستانتيا زليلس (Iulia Constantia Zilis)، المعفاة من سلطة الملوك والخاضعة لحكم البتيك".^(٧)

أما الجغرافي بطلمي (PTOLEMEE)، فقد وردت لديه بصيغة (Zilia)، حيث ذكرها ضمن المدن المورية الداخلية لموريطانيا الطنجية، وحدد لها الإحداثيات التالية: "الطول (٦) درجات و(١٠) دقائق، والعرض (٣٥) درجة و(٣٠) دقيقة"،^(٨) كما وردت في مسلك أنطونان (D'ANTONIN ITINERAIRE) بصيغة زلي (Zili) ضمن الطريق الرومانية الساحلية، والرابطة بين أدميكوريوس (Ad Mercurios) وطنجي (Tingi)، والصيغة نفسها التي وردت بها في مسلك أنطونان (ITINERAIRE D'ANTONIN)، نجدها عند الجغرافي الرافييني (GEOGRAPHE DE RAVENNE).^(٩)

٣- تاريخ الحفريات

عرف موقع الدشر الجديد لأول مرة من طرف القنصل الإنجليزي في طنجة (DRUMMOND HAY) خلال القرن التاسع عشر الميلادي، الذي أشار إلى وجود بقايا رومانية، وبالأخص بقايا مسرح مدرج.^(١٠) وخلال القرن نفسه وبالضبط سنة ١٨٧٨، أعطانا شارل تيسو (Ch. TISSOT) وصفاً دقيقاً للبقايا التي تمكن من رؤيتها، ومن بين هذه البقايا أجزاء من جدار مبني بأحجار كبيرة منتظمة ومصقولة، وبنية ذات شكل مستطيل تمثل "الهرى (El

(Heri) " (مخزن الحبوب)، يبلغ حجمها حوالي (٢٥) متر على (١٥) متر، وجزء من بناية يعتقد أنها تمثل معبد.^(١١) وقد قام أيضًا (H.P. de la MARTINIERE) بإنجاز حفريات على مستوى المسرح، بحيث قام بحفر خندق بعمق مترين، لم يكشف من خلاله عن أية بناية، كما عمل على كشف بعض أجزاء المعبد والصهيرج.^(١٢) بعد ذلك ساهم الموقع حتى سنة ١٩٣٩، ليستأنف (D.CESAR L. MONTALBAN) الحفريات، حيث تابع الكشف عن المعبد، وسور المدينة من الجهة الشمالية- الشرقية للموقع، كما تم الكشف عن حي سكني يتكون من منازل ذات أعمدة (Maison à péristyle).^(١٣) وفي سنة ١٩٥٠ قام طراديل (M. TARRADELL) باستبارات سمحت له باكتشاف مستوى استيطاني يرجع على الأقل إلى بداية الفترة المسيحية والفترة الرومانية المتأخرة.^(١٤)

تجدر الإشارة إلى: أن كل هؤلاء الباحثين المشار إليهم، كانوا يعتقدون أن موقع الدشر الجديد هو محطة أدميكوري (Ad Mercuri)، وأن مستعمرة زليل (Zilil) تقع تحت المدينة الحالية أصيلة، نظرًا للتقارب الحاصل بين اسمي المدينتين. ويعتبر الإنجليزي سبول (J.E.H. SPAUL)،^(١٥) هو أول من اقترح توطين زليل (Zilil) بالدشر الجديد سنة ١٩٥٨، معاكسًا باقتراحه هذا الآراء السائدة من قبل. ونظرًا لأهمية المنطقة واحتوائها على مواقع أركيولوجية تعود لفترات تاريخية مختلفة، بالإضافة إلى الإشارات العديدة لموقع الدشر الجديد في العديد من الدراسات، حيث يحتوي على بقايا أثرية مهمة وبنيات عمومية، واستيطان سكني يعود لفترات تاريخية طويلة، كل هذه الأسباب، دفعت بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية إلى إنجاز حفريات منتظمة في موقع الدشر الجديد، تحت إشراف البعثة العلمية الفرنسية- المغربية.^(١٦)

وفي أكتوبر من سنة ١٩٧٦، قامت هذه البعثة بعملية المسح (Prospection) همت الموقع، من أجل الكشف عن البقايا التي تمت الإشارة إليها من قبل، وتمثلت في ثلاث نقاط: الأولى دراسة "الهرى" والجوانب المحيطة به وطبيعته، النقطة الثانية تتجلى في القيام بحفريات في المباني الجنوبية وتأكيد علاقتها مع "الهرى"، أما النقطة الثالثة والأخيرة فكانت على مستوى القلعة "Citadelle".^(١٧) من سنة ١٩٧٧ إلى سنة ١٩٨٠ أقيمت حفريات مكثفة، حيث قامت نعيمة الخطيب بوجيبار بحفريات على مستوى الهرى والقنوات المرتبطة بهذه البناية، كما قامت إليان لونوار (E. LENOIR) بحفريات على مستوى الحمامات، فيما اهتم موريس لونوار (M. LENOIR) في القلعة (Citadelle).^(١٨) وبالموازاة مع هذه الحفريات، أقيم مسح جيوفيزيائي تحت إشراف (A. KERMERVANT)،^(١٩) كان بمثابة مرشد لحفريات جديدة.^(٢٠) وقد تواصلت الأبحاث من طرف نفس البعثة الأثرية، ليتم اكتشاف سنة ١٩٨٦ على نقائش لاتينية تحمل اسم (Colonia Iulia Constantia Zilil)، وهي الصيغة نفسها التي وردت لدى بلين الشيخ (PLINE L'ANCIEN)، وتحدث كذلك

حيث تم العثور بالإضافة إلى الأدوات المحلية، على العديد من الأدوات المستوردة من الخارج وتتمثل في: الخزف ذو البريق الأسود (céramique à vernis noir)، بأنواعه المحلية (نوع القواس) والمستوردة (الكمانى نوع A و B)، الخزف الدقيق (céramique à paroi fines) الذي يعود للفترة الجمهورية، الأمفورات الإيطالية نوع (Dressel 1) و (Lamboglia)،^(٣٦) والأمفورات الإسبانية نوع (Dressel 7/11). كما تم التعرف على معبد مكون من حجرة وحيدة للتماثيل (Cella unique)، بُني على المصطبة الشمالية للموقع، تحت حمامات الفترة الفلافية.^(٣٧)

٣/٤- الفترة الرومانية الأولى:

عرفت المدينة خلال الفترة الأوغسطية تدميراً ما بين (٣٣ و ٢٥) ق.م، حينما قرر أوغسطس (AUGUSTE) إنشاء مستعرة رومانية اسمها يوليا كونستنتيا زليل (Iulia Constantia Zilil)، ويخبرنا سترابون (STRABON) أن سكان المدينة نقلوا مع سكان طنجة (Tingé) إلى إسبانيا لتعمير مدينة يوليا جوزا (Iulia Izoa) في إقليم بتيكا.^(٣٨) فهذا الانتقال لسكان زليل (Zilil) باتجاه بتيكا، يمكن أن يكون مترام مع التدمير الذي عرفته الهضبة الجنوبية،^(٣٩) خصوصاً المستوى الموري الثاني.^(٤٠) وباستثناء ما ورد لدى سترابون (STRABON)، وبلين الشيخ (PLINE L'ANCIEN) من معلومات عن زليل (Zilil) الرومانية في عهد أوغسطس AUGUSTE، فإننا لا نتوفر على معلومات يمكن أن تعطينا فكرة عن أهمية المدينة، فحتى الأبحاث الأثرية لا تساعدنا في إكمال النقص الذي تركته المصادر التي تتحدث عن الفترة الأوغسطية لزيليل. إن البنايات المؤرخة بهذه الفترة هي نادرة في موقع زليل (Zilil)، ربما تكون تحت بنايات الفترات اللاحقة، ومع ذلك فالحفريات المنجزة بشكل أوسع، وكذلك الدراسات الحديثة، سمحت بالقول أن التعمير الروماني بالموقع، يعود إلى القرن الأول ق.م، دون المغامرة بنسب هذه البنايات إلى الفترة الأوغسطية، أو إلى فترة الاحتلال الروماني للجزء الغربي للمملكة المورية، الذي أصبح إقليمًا رومانيًا يحمل اسم موريطانيا الطنجية.^(٤١)

٤/٤- الفترة الرومانية المتأخرة:

عرفت زليل (Zilil) في هذه الفترة تطورًا حضاريًا مهمًا تمثل في تشييد مجموعة من البنايات العمومية:

- المعبد: يوجد فوق المصطبة الشمالية، وقد عرف تغيرات هامة، وذلك خلال القرن الأول بعد الميلاد، ثم في النصف الثاني من القرن الثاني بعد الميلاد، ليصبح من أربع حجرات للتماثيل (quatre celle)، وأمام هذه الحجرات توجد مقدمة المعبد (Pronaos).^(٤٢)
- الحمامات الرومانية: تقع شرق المصطبة الجنوبية، ويعود تاريخ بنائها إلى القرن الأول بعد الميلاد،^(٤٣) وهي بناية ذات شكل

هذه النقائش عن سكان المدينة بالصيغة التالية (Zilitanorum)،^(٤٤) ليتم الحسم نهائيًا حول تحديد موقع هذه المدينة القديمة.

٢- المراحل التاريخية لزيليل (Zilil)

أسفرت حفريات البعثة الفرنسية-المغربية عن وضع استراتيجرافية مضبوطة لمراحل إعمار المدينة، وذلك منذ ما قبل التاريخ، مروراً بالفترة المورية ثم الرومانية.

١/٤- فترة ما قبل التاريخ:

عرفت زليل (Zilil) والنواحي استيطان بشري منذ العصر الحجري الوسط، وتشهد على ذلك بعض اللقى الأثرية،^(٤٥) التي تعود إلى الفترة الإيبيروموروزية (iberomauresien) والعترية (Atérien)، كما تم العثور على حجر مصقول (Hache Polie)، يبدو أنه ينتهي إلى العصر الحجري الحديث.^(٤٦)

٢/٤- الفترة المورية:

توجد المدينة المورية بزيليل (Zilil) في الهضبة الجنوبية، وقد تم تقسيم المستوى الموري إلى مستويين:

- المستوى الموري الأول: يؤكد الباحثون أن بداية إعمار هذا المستوى غير مضبوط، بالرغم من بعض الفرضيات التي ترجع تأريخه إلى النصف الثاني من القرن الرابع ق.م، ويرجع ذلك إلى طول فترة أشكال الخزف والأمفورات المكتشفة في هذا المستوى، وخاصة النماذج الفينيقية والمحلية.^(٤٧) ويعتقد أن تاريخ المستوى الأول، يعود إلى القرن الثاني ق.م أو إلى نهاية هذا القرن.^(٤٨) وقد كشفت الحفريات أن هذا المستوى عبارة عن حي سكني متجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، يفصل بينهما طريق، وقد تم بناء هذا الحي بالأجر المجفف (Briques Crues).^(٤٩) كما أن هذا الحي يتكون من أجزاء مستطيلين، وهما متصلين فيما بينهما من خلال باب،^(٥٠) وعلى الرغم من تأريخ هذا الحي بالقرن الثاني ق.م، فإنه لا زال محل نقاش.^(٥١) ويتميز المستوى الأول بوجود منتجات محلية الصنع تتمثل في وجود: الخزف المصبوغ (la céramique peinte)، الخزف ذو البريق الأحمر (céramique à vernis rouge)، وأمفورات من نوع (Mana-Pascual A 4).^(٥٢)

- المستوى الموري الثاني: يؤرخ هذا المستوى من بداية القرن الأول ق.م إلى حوالي سنة ٣٠ ق.م،^(٥٣) وبالضبط قبل انتشار الخزف الأرتزي (Arétine).^(٥٤) ويتكون هذا المستوى من مجموعة من المساكن ذات اتجاه شمال غرب- جنوب شرق، بجانبها طريق.^(٥٥) وقد عرفت المدينة خلال هاته الفترة توسعًا عمرانيًا وحضاريًا، تشهد على ذلك البقايا التي تم العثور عليها تحت الحمامات الرومانية،^(٥٦) ويتميز هذا المستوى بالانفتاح على التجارة المتوسطية، وخاصة المنتجات الإيطالية والإسبانية،^(٥٧)

الشمالية، الذي يسمح بالوصول إلى الحمامات، وباب رابع يمكن أن يكون على الهضبة الوسطى.^(٥٣)

٦/٤- حي المنازل ذات الأعمدة:

(Le quartier des maisons péristyle)

تم الكشف عن هذا الحي سنة ١٩٣٩ من طرف (MONTALBAN)، ولم يعط له أي تأريخ. وعلى كل حال، فتقنيات البناء وتصميم المنازل بالأعمدة، يدفع الباحثين إلى الاعتقاد أن بنائها كان خلال الفترة الرومانية المتأخرة. ومن خلال اتجاه الحي يبدو أنه عرف مرحلتين في بنائه، المرحلة الثانية يمكن أن تكون معاصرة لبناء المدينة خلال القرن الرابع بعد الميلاد، ولتأكيد هذه الفرضيات لابد من القيام بحفريات جادة ومنظمة.

وقد عرفت مدينة زليل (Zilil) انحطاطاً ما بين (٢٣٨) ومنتصف القرن الرابع الميلادي، وهذه الفترة التاريخية تعرف من جهة من خلال نقيشة تاريخها معروف لحد الساعة، وهي نقيشة (Gordien)، وهي مفقودة اليوم، ومن جهة أخرى من خلال تاريخ إعادة بناء المدينة، حيث يلاحظ إعادة استعمال بقايا الفترات السابقة، في تشييد بنايات الفترة اللاحقة.^(٥٥) ومن خلال دراسة النقود من طرف (E.DEPEYROT)،^(٥٦) يظهر بشكل واضح أن إعادة بناء المدينة، نتج عن قرار إمبراطوري، يمكن أن يؤرخ بشكل قريب من الدقة سنوات ٣٥٥ و ٣٦٠ بعد الميلاد. دمرت المدينة بشكل رهيب بسبب حريق، بحيث أن البقايا التي تم العثور عليها أثناء الحفريات، تعود لبداية القرن الخامس بعد الميلاد، وتشهد على عنف هذا التدمير، بحيث لا النقود ولا بقايا التدمير تسمح بوضع تاريخ محدد، ويعتقد بعض الباحثين أن مرور الونداليين سنة ٤٢٩ بعد الميلاد هو سبب هذا التدمير، غير أن عدم وجود أية شواهد أركيولوجية، تدفع إلى عدم تأكيد هذه الفرضية، فمجموعة من البقايا الموجودة في مستويات التدمير لا تسمح بتقديم تاريخ محدد بدقة.

خاتمة

إن اللقى الأثرية والبنائيات التي خلفها سكان زليل مكنتنا من تتبع مراحل تاريخ إعمار المدينة منذ القرن الرابع قبل الميلاد إلى غاية تدميرها في بداية القرن الخامس بعد الميلاد حسب اعتقاد بعض الباحثين، غير أن تاريخ المدينة يتخلله بعض النقائص وذلك في انتظار أبحاث أثرية من شأنها تصحيح وتفسير بعض الأحداث التي لازالت غامضة، خاصة تلك المتعلقة ببداية التواجد الروماني في المدينة.

مستطيل، تبلغ مساحتها حوالي (٤٠) متر على (٣٥) متر، متجهة من الشمال إلى الجنوب، ومتصلة بصهرج (Citerne) من الجهة الشمالية-الغربية ومكون من أربع حجيرات (Compartiments) تزود الحمامات بالماء من خلال قناة تحت أرضية. وقد جاء التصميم العام لقاعات الحمامات حسب محورين عموديين: محور شرق-غرب، يمر من وسط الحمام البارد (Bain Froid)، وجدار كبير ذو اتجاه شمال-جنوب يقسم القاعات إلى قسمين، القاعات الساخنة في الغرب، والقاعات الباردة في الشرق.^(٥٥)

يوجد مدخل الحمامات في الشمال الغربي، حيث يوجد رواق طويل (٢)، بجانبه من الجهة الشمالية قاعة (٣) لم تحدد وظيفتها، وبجانب هذه القاعة يوجد فضاء مفتوح (٤)، ويمكن الدخول إلى هذا الفضاء من خلال رواق صغير يوجد بالجانب الشرقي.^(٥٦) وفي الجهة الشرقية للرواق، توجد قاعة ذات شكل مستطيل (١٦)، مزودة بمقاعد حجرية تعرف باسم (Apodyterium)، ويعتقد أنها قاعة للتمارين الرياضية، وفي الجهة الشمالية لهذه القاعة توجد المراحيض (١٩).^(٥٧)

(Frigidarium) أي القاعة الباردة (١٢)، وهي عبارة عن جزء واسع مئمن الزوايا، مفتوحة على ثلاثة أحواض باردة، يوجد الحوض الرئيسي في الجانب الشرقي، وهو على شكل مثلث منتهي بمحراب، وهو متصل بحوضين صغيرين جداً، لهما شكل سداسي.^(٥٨)

(Tepidarium) أي القاعة الدافئة (١١)، فمثل معظم الحمامات الرومانية، فهذه القاعة عبارة عن قاعة صغيرة، ذات محرابين منبسطين، وتصميمها قريب من المربع، وهي عبارة عن حلقة وصل بين القاعة الباردة والقاعة الساخنة.^(٥٩)

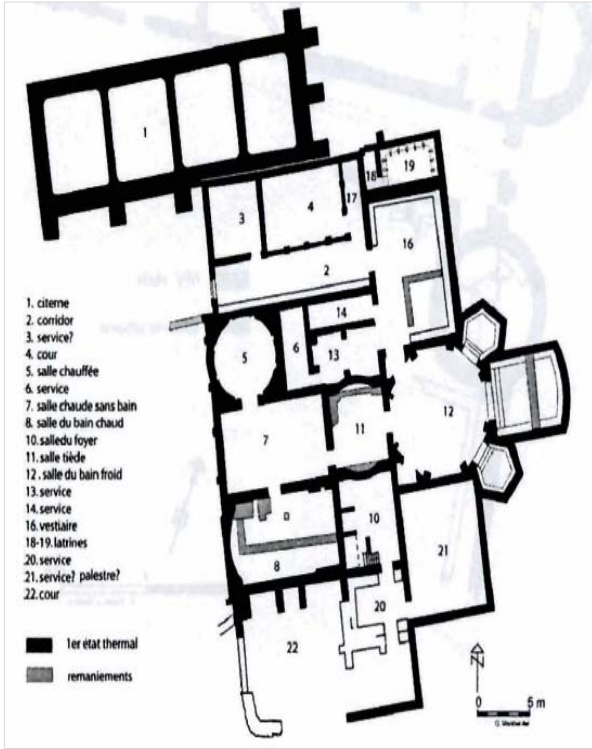
من (Tepidarium) يمكن الوصول إلى (7) (Loconicum)، وهو عبارة عن فضاء واسع ذو شكل مستطيل، من خلاله يتم الوصول إلى القاعة الساخنة (٨) الموجودة في الجهة اليسرى لـ (Loconicum)، وفي الجهة الشرقية لهذه القاعة، يوجد فرن من أجل تزويد القاعة الساخنة بالحرارة.^(٥٠)

وقد بقيت هذه الحمامات تزاوّل وظيفتها إلى بداية القرن الخامس بعد الميلاد، لتتجر بشكل نهائي في نفس الفترة التي تركت فيها المدينة.^(٥١)

٥/٤- أبواب المدينة:

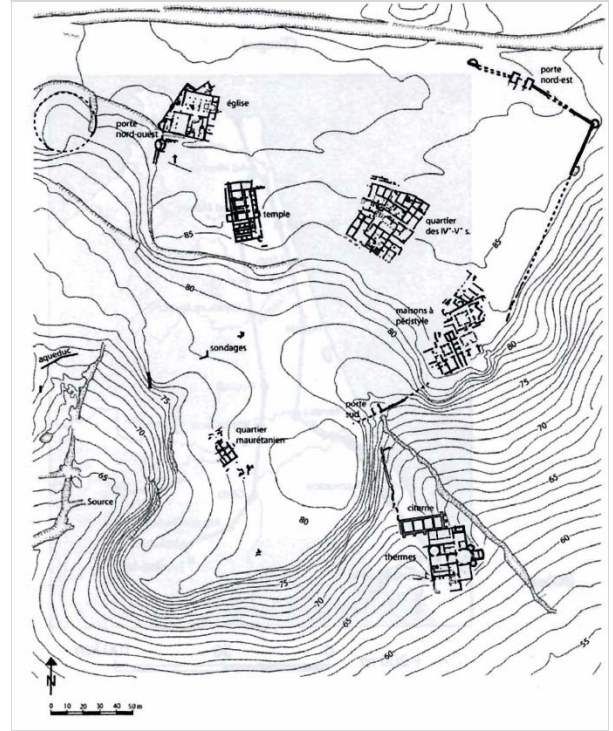
خلال النصف الثاني من القرن الثاني بعد الميلاد، وكسائر المدن الأخرى لموريطانيا الطنجية،^(٥٢) عرفت مدينة زليل (Zilil) بناء سور يحيط بالمدينة، والذي تم التعرف على معظم آثاره بفضل المسح الكهربائي، كما تم الكشف عن بعض أجزائه، ويحتوي هذا السور على أربع أبواب رئيسية، باب يوجد في الشمال-الشرقي، وباب في الشمال-الغربي، وباب ثالث في الجنوب-الشرقي فوق الهضبة

الملاحق



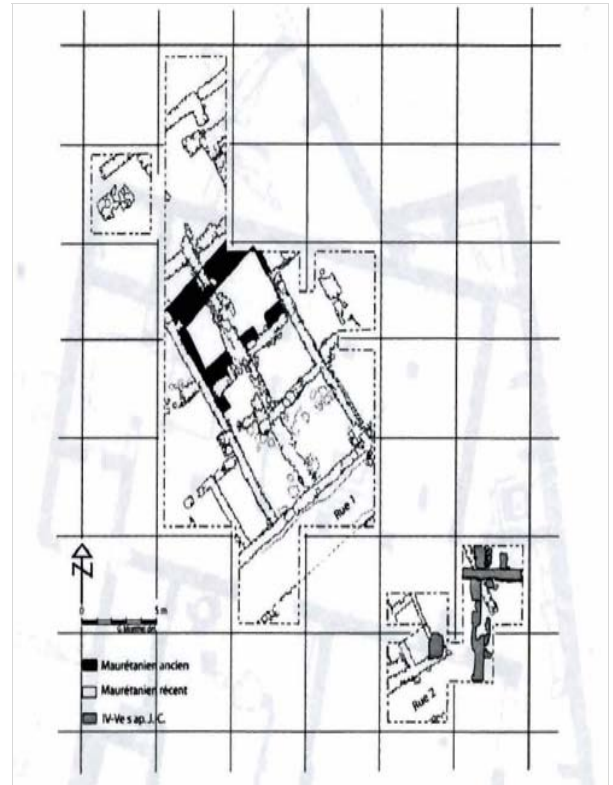
شكل رقم (٣)

الحمّامات الرومانية في زليل



شكل رقم (١)

تصميم عام لموقع زليل



شكل رقم (٢)

المستويات المورية لموقع زليل

(30) AKERRAZ (A.) et alii, loc.cit., p. 201-202.

(31) DEPEYROT (G.), op.cit., p. 12.

(32) AKERRAZ (A.) et alii, loc.cit., p. 197.

(33) Ibid., p. 195.

(34) DEPEYROT (G.), op.cit., p. 12.

(35) LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 67.

(36) AKERRAZ (A.) et alii, loc.cit., p. 203-206 ; LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 67.

(37) LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 68.

(38) DEPEYROT (G.), op.cit., p. 12.

(39) STRABON, III, 140.

(40) LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 68.

(41) DEPEYROT (G.), op.cit., p. 12

(42) LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 68

(43) LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 69.

(44) Ibid., p. 69.

(45) AKERRAZ (A.) et alii, Fouilles..., loc.cit., p. 183.

(46) LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 69.

(47) LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 69.

(48) Ibid.

(49) Ibid.

(50) Ibid., p. 70.

(٥١) أسوار مدن موريطانيا الطنجية كلها تؤرخ بالقرن الثاني الميلادي، فسور وليلي يؤرخ بـ ١٦٨-١٦٩ الميلادي، وكذلك أسوار تموسيدا وسلا وبناسا تعود إلى النصف الثاني من القرن II الميلادي.

(52) LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 70.

(53) LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 70.

(54) Ibid.

(55) DEPEYROT (G.), op.cit., p. 13.

(56) LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 71.

(1) LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil du Ier siècle av J.-C au IV siècle ap. J.-C., Pallas, 68, 2005, p. 65.

(2) AKERRAZ (A.) et alii, Fouilles de Dchar Jedid 1977-1980, BAM, 14, 1981-1982, p. 169.

(3) CHEDDAD (A.), Notes sur quelques sites archéologiques du Nord marocain, L'Africa Romana, Atti XIII convegno di studio Djerba, 10-13 dicembre 1998, Rome 2000, p. 1811.

(4) ROGET (R.), Le Maroc chez les auteurs anciens, Les belles-lettres, Paris, 1924, p. 21.

(5) STRABON, XVII, 6.

(6) POMPONIIUS MELA, III, 10.

(7) PLINIE L'ANCIEN, H.N., V, 2.

(8) PTOLEMEE, IV, 1, 7.

(9) GEOGRAPHE DE RAVENNE, III, 11.

(10) CHATELAIN (L.), Le Maroc des romains, BEFAR, Paris, 1944 p. 44-46.

(11) TISSOT (Ch.), Recherche sur la géographie comparée la Maurétanie Tingitane, t.9, Paris, 1878, p. 268-271.

(12) LA MARTINIERE (H.P.), Notes sur les ruines de Ad Mercuri, BCTH., 1889, p. 277-280.

(13) MONTALBAN DON. CESAR (L.), Resumen de la memoria presentada ante esta junta par Don César L. Montalban referente a los trabajos efetuados en el ano 1939 en las ruinas de Ad Mercuri y Tabernes, Junta Superior de Monumentos Historicos y Artisticos, n° 1. Larache, 1940 ; d'après : LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 66.

(14) TARRADELL (M.), Guia Arqueologica del Marruecos Espanol, Tetouan, 1953, p. 33-34.

(15) SPAUL (J.E.H.), Une colonie d'Auguste en Tingitane, B.A.M., 17, 1998, p. 339-343.

(16) AKERRAZ (A.) et alii, loc.cit., p. 172.

(17) AKERRAZ (A.) et alii, loc.cit., p. 172-173.

(18) Ibid., p. 173.

(19) Ibid., p. 174-175-176.

(20) LENOIR (E.), La ville romaine..., loc.cit., p. 66.

(21) LENOIR (M.), Ab eo XXV in ora oceani colonia Auguste Iulia Constantia Zilil, L'Africa Romana, Atti del IV convegno di studio, Sassari, 12-14 dicembre 1986, Sassari, p. 435-444.

(22) LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 66.

(23) DEPEYROT (G.), Zilil I, Colonia Iulia Constantia Zilil, Etude de numéraire, Rome, (Collection de l'EFR, 250), 1999, p. 11.

(24) op.cit., p. 12.

(25) LENOIR (M.), Dchar Jdid-Zilil, la maison du niveau « maurétanien 1 », BAM., t. XX, 2004, p. 175.

(26) Ibid., p. 176.

(27) Ibid., p. 168.

(28) LENOIR (E.), La ville romaine de Zilil..., loc.cit., p. 67.

(29) KBIRI-ALAOUI (M.), Les établissements punico-maurétaniens de Kouass et de Dchar Jdid-Zilil (Asilah, Maroc) dans le circuit du détroit de Gibraltar, BAM, XX, p. 195-213.

المحتوى التاريخي للنقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية

د. بعيطيش عبد الحميد

أستاذ مساعد التاريخ القديم

قسم العلوم الإنسانية

جامعة الحاج لخضر- الجمهورية الجزائرية



ملخص

يحاول هذا البحث الإلمام بالعديد من الجوانب المتعلقة بمنهجية وتصنيفات النقوش الصخرية بأنواعها في الصحراء الجزائرية، استعرض من خلاله طبيعة النقوش والمشاهد الصخرية وأهميتها في تدوين وتاريخ ما تحويه المنطقة من الأشكال الأدبية والحيوانية، والموضوعات المرتبطة بالحياة اليومية لإنسان المنطقة في العصور القديمة، وكذلك البحث في الموضوعات المتعلقة بالتصنيف الأشكال الهندسية، والرُخفية، والنباتية، والتحليل الكمّي لهذه المشاهد والنقوش الصخرية.

كلمات مفتاحية:

النقوش الصخرية - طاسيلي - الهقار - الفترة النيوليتية- الصحراء الجزائرية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١١ يوليو ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٢٠ أكتوبر ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بعيطيش عبد الحميد. "المحتوى التاريخي للنقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية". - دورية كان التاريخية. - العدد الثلاثون، ديسمبر ٢٠١٥، ص ٧١ - ٧٨.

مقدمة

التاريخ، فهي توضّح لنا الكثير من حياتهم اليومية من خلال تلك النقوش أو الرسوم بألوانها الزاهية والواضحة والمعبرة عن الواقع في ذلك الوقت. ويرجع الفضل إلى المجهودات التي قام بها العلماء الغربيون في التعريف بالآثار الحضاري العريق من خلال النقوش لأجل تحديد الإطار الزمني لأهم مراحلها وكتابات أبرز هؤلاء المعاصرين الذين دونوا مراحل الفن الصخري أو نقلها عن الباحثين السابقين.

إن أغلب الرسومات والنقوش الصخرية تعود لفترة العصر الحجري الحديث أو قبله بقليل اعتماد على الدراسات التي قام بها الباحثون أمثال بوني (١٨٨٨م)، وفلاماند (G.B.M Flamand) (١٨٩٢م) الذي اهتم بهذه النقوش في بداية عشرينيات القرن الماضي، وكانت دراساته محل بحث من قبل الباحث أف. غوتيه (E.F. Gautie) (١٩٢٨م)، وتلت أبحاث قوتيه في الأهمية أبحاث كل من هنري بروي (H. Breuill)، و(ل. بالوت ١٩٥٢م)، و(ك. موتزروج ١٩٥٨م)، و(ج. دوبيف ١٩٥٩م)، غير أن أول دراسة جادة تتعلق بالصحراء قبل التاريخ هي تلك التي نشرها القس ريتشارد

لا يمكن كتابة تاريخ الشعوب القديمة وحضاراتها إلا من خلال تكامل معطيات مختلف أنواع المصادر المكتوبة منها والأثرية، ويظهر جلياً للمهتم بتاريخ المغرب القديم وحضارته، أن المصادر الأثرية التي اعتمدها غالبية الدراسات والأبحاث في مختلف اللقى الأثرية التي عثر عليها في الجزائر، وهي تكتسي أهمية بالغة في كتابة تاريخ المنطقة. تُعدّ النقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية البدايات الأولى للنواة الحضارية الدالة على الاستقرار فيه، وعليه فقد أعطينا المنطقة كل الاهتمام، ذلك لأنها تمثل خلفية لبداية الانطلاقة الحضارية المعتمدة على نمط حياة معيَّة والاستقرار في الكهوف والملاجئ.

١- بعض من نتائج البحوث الأثرية في الصحراء الجزائرية

إن دراسة النقوش الصخرية وما تحويه من رسومات ورموز تُعدّ مصدرًا هامًا جدًا في معرفة تاريخ البشرية وطرق معيشتهم وأنماط حياتهم ونشاطهم اليومي، خاصةً في فترات عصور ما قبل

يمكن اعتبار الفنون والنقوش الصخرية الوثيقة الأكثر وضوحًا التي قد تساعد على دراسة وفهم جوانب عدة من تلك الثقافات، وذلك لما تتميز به أغلب لوحات هذه الفترة من واقعية برأي الباحثين.

فإذا لم يمتلك السكان القدامى اللغة المكتوبة كانت الرسوم والنقوش هي البديل والتي مكنتهم إلى حد كبير تسجيل حياتهم مصورة على الصخر بدلاً من النصوص المكتوبة، وكانت المشكلة في فهم الجوانب المعنوية في الكثير من المناظر وبخاصة المرتبطة بالطقوس والعقائد، فالكثير منها قد يصعب تفسيره، ولهذا حاول بعض علماء الآثار الاستعانة بعلم الأنثروبولوجيا كعلم مساعد في تفسير بعض المناظر المدونة على الصخر، ومع ذلك لم يتسنّ بعد تفسير الكثير من المناظر الصخرية التي مازالت مهمة رغم محاولات العلماء تفسيرها.

بيد أن الدراسة من خلال صور صماء قد يكتنفها بعض المشاكل وذلك من حيث عدم الدقة واختفاء التفاصيل الدقيقة في بعض الصور نتيجة الحالة السيئة لهذه المناظر، فالتصوير الفوتوغرافي على الرغم من التكنولوجيا الحديثة قد لا يوفّر صورة طبق الأصل تحاكي الموجود في الطبيعة، كذلك فإن نقل المشاهد يدويا لا تصل بالدقة المطلوبة.

٣- الإطار الزمني للنقوش والرسومات الصخرية في الصحراء الجزائرية

أصبحت الدراسات الحديثة المهتمة بفترة ما قبل التاريخ تتجه إلى اعتبار شمال إفريقيا إحدى أقدم المناطق التي عرفت بداية العصر الحجري الحديث مبكراً، وذلك بعد ظهور دراسات جديدة متعددة التخصصات ساعدت على اكتشاف أن بداية هذا العصر بمنطقتنا تعود على الأقل إلى الألف الثامن قبل الميلاد، فقد مكنت دراسات النقوش والرسومات الصخرية من المساهمة في تجاوز المعطيات التي كانت سائدة من قبل والتي تعتبر شمال إفريقيا آخر المناطق التي عرفت هذه الثورة التقنية، ويبقى أي تأريخ يعتمد على هذه الوثائق نسبياً في ظل الصعوبات التي يطرحها تأويل وتأريخ الفنون الصخرية رغم تطور التقنيات المستعملة في دراسته، ورغم أيضاً محاولات الباحثين المستمرة في الاستعانة بنتائج الدراسات متعددة التخصصات لمحاولة الوصول إلى تأويل وتأريخ مطلق (Vaufrey 1936: 624-638).

لقد حاولت الكثير من الدراسات الانطلاق من مواضيع هذه النقوش قصد رسم إطار تاريخي لثقافة العصر الحجري الحديث بالصحراء الجزائرية من خلال المقارنة مع الصحراء الكبرى، وقد تراوحت بين الألفية الثامنة والسابعة قبل الميلاد، إلا أن عدم استنادها على معطيات أثرية ملموسة (التحليل الكيميائي) للنقوش الصخرية بمواقع الاستقرار البشري القديم يجعل نتائجها مجرد فرضيات تنتظر التأكيد أو النفي. (Camps 1968: 609-622). إن صعوبة تأريخ هذه الفنون والنقوش الصخرية وصعوبة إيجاد تأويل موحد لها يجعل الاستنتاجات حولها لا تخرج في كثير من الأحيان

(Richard) سنة ١٨٦٨م والتي أجراها عن الصحراء الجزائرية، (اليونسكو ١٩٨٠: ٥٩٢) دون أن ننسى فضل هيجس. إ.س (Higgs E.S) الذي نشر نتائج أبحاثه سنة (١٩٧٦م) تحت اسم "أصول الاستقرار" (les origines de la domestication)، حيث أشار فيه إلى ظاهرة الاستقرار البشري في الصحراء بعد فترة زحف الجفاف على معظم أنحاء الصحراء الكبرى في نهاية العصر الحجري الحديث.

ويعتبر هنري لوط (H. Lhote) مكتشف مراحل الفن الصخري في الأطلس الصحراوي أن المعطيات تدفع للاعتقاد أن الفن الطبيعي الكبير الذي ثبت قدمه على الإطلاق كان منشأه في الجنوب الوهراني، معتبراً إياه أكبر المتاحف المفتوحة على الهواء في العالم". إضافة إلى أبحاث ودراسات كل من ب. قرازيوزي (P. Graziosi) وغابريل كامس (G. Camps) والفريد موزوليني (A. muzolini) الذي انطلقت أبحاثه منذ سبعينيات القرن الماضي إلى غاية منتصف تسعينياته. وعلى أثر ذلك أدرك الباحثون المختصون أهمية معالجة الأسباب الحركية والآثار المترتبة على التغيرات المناخية والعوامل الطبيعية التي ساهمت في اختفاء الكثير من النقوش الصخرية في كثير من المواقع الصحراوية.

٢- أهمية دراسة النقوش الصخرية

تعتبر الكتابات والنقوش القديمة من المصادر الرئيسية التي استقى منها المؤرخون والباحثون كل ما دَوّن ويدوّن عن تاريخ الجزائر القديم، فهي التي يعتمد عليها بالدرجة الأولى لأنها تمثل وجهة نظر صانع الحدث ذاته، فهي تشكل صفحات تروي قصص وحكايات السكان القدامى الذين استوطنوا بالمنطقة منذ أمد بعيد، كما تعتبر منظومة اتصالية تضمن الترابط والتواصل بين الأجيال التي عمرت بهذا الموقع على مر الأزمان، وتبقى شاهداً مادياً على جذور المنطقة الضاربة في أعماق التاريخ.

تمتلك النقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية أهمية خاصة، فهي تعكس وتوضح لنا طبيعة البيئة في شمال إفريقيا والصحراء خلال العصور الحجرية، حيث تمتع سكان الصحراء خلال العصور الحجرية بوفرة الأمطار وازدهار الحياة النباتية والحيوانية، مما مكّهم من العيش لآلاف السنين في رغد، وحين حل الجفاف رحل الجميع وتركوا نقوشهم وفنونهم على الصخور كشاهد قوي وأكد على الطبيعة الجغرافية للمنطقة خلال العصور الحجرية، ومن هنا تأتي أهمية النقوش الصخرية كمصدر تاريخي. (Tauveron et Vernet 1996: 265-266)

تكتسب الكتابات والنقوش القديمة أهمية كبيرة من حيث أنها ثروة تاريخية مفيدة مهما كان موضوعها، وتعتبر مادة وثائقية مهمة بالنسبة للباحثين، فهي تسجل حياة أصحابها وطرق معيشتهم وعلاقاتهم بجيرانهم، وعلى الرغم من عدم خلو هذه الكتابات والنقوش القديمة من المبالغات والادعاءات والتخيلات أحياناً والسذاجة والغموض أحياناً أخرى، إلا أنها تعتبر المصدر الرئيس لتصوير عادات أصحابها وعقائدهم وأوضاعهم الاجتماعية، ولهذا

إن تسجيل الفن الصخري لانطباعات السكان القدامى على الصخر لا يعني الاقتصار على التعبير عن مجال أو بعض المجالات المحددة من حياة الإنسان، بل إن الفن الصخري يتغلغل ويتطرق إلى مظاهر الحياة الإنسانية كافة، فهو يعكس البيئة والمعتقدات الدينية والشعائرية أو الحياة العائلية والمشاكل التي واجهت إنسان المنطقة.

٥- معايير تصنيف النقوش ومشاهد الرسومات الصخرية في الصحراء الجزائرية

إن النقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية الواسعة تنفرد ببعض الخصائص الفنية ذات الأسلوب المتميز، حيث تقدم لنا هذه العناصر صورة صادقة عن أساليب الحياة المختلفة، فنترقب من خلالها على الكثير من العادات والتقاليد والأعراف ومختلف أنماط السلوك الاجتماعي للجماعات البشرية التي عاشت على تراب هذه المنطقة، فضلاً عن تصويرها لأساليب الحياة المعيشية والاقتصادية المختلفة، كما تكشف لنا هذه الرسوم والنقوش جانباً مهماً من النواحي العقيدية والفكرية والأساليب الفنية والدوقية للأقوام الذين خلّدوا لنا هذه الفنون الجميلة، وبصرف النظر عن الدوافع التي أدت إلى إنتاج هذا الفن الصخري الرفيع في المنطقة، فإنها تقدم لنا ثروة هائلة من المعلومات التي تنطوي عليها أهمية تاريخية، ومثل هذه المعلومات الكثيرة ستساعد بلا شك على رسم التسلسل التاريخي للصحراء الجزائرية وغيرها من المناطق، بالإضافة إلى أنها ستعمل على توضيح البناء الحضاري الذي شهدته عبر عصورها التاريخية المختلفة (Cornevin 1982: 439-450)، وبالرغم من هذه الأهمية إلا أن دراسة فن الرسوم والنقوش الصخرية في الجزائر ما تزال في مراحلها الأولية.

تمتد هذه الرسوم عبر الزمن حسب عدة فترات أو عهود تعكس كل واحدة منها حياة حيوانية معينة تتميز بنمط مختلف وهذه الفترات هي:

- ١- الفترة الطبيعية (Naturiste): وهي الأقدم وتعود إلى فترة العصر الحجري القديم، أي إلى عصر الصيادين، وقد جسدت أصنافاً من الحيوانات مثل الفيلة وفرس النهر، ولذلك كانت موضوع عناية الفنان في عملية الصيد طاغية على معظم رسوماته.
- ٢- الفترة المسماة بالقدمية أو العتيقة: تعود إلى الألف الثامنة قبل الميلاد، والملاحظ أن معظم مشاهد الرسومات الصخرية مركبة من الألوان، والحيوانات المرسومة في هذه الفترة كثيرة جداً وتناسب مع مناخ رطب.
- ٣- فترة رعاة البقر: تمتد هذه الفترة من ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد إلى ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد، وهي الأهم من حيث عدد الرسوم المحفوظة التي تتميز برسوم للأشخاص وقطعان الأبقار ومشاهد من الحياة اليومية، وقد عرفت نقوشه بالتعدد والتحرر والانفتاح الفني، وبلغت مشاهد الرسومات الصخرية قمة المهارة والتقنية والإبداع.

عن إطار الفرضيات، فبالنسبة للتأريخ يصعب الحسم في العلاقة ما بين المواقع الأركيولوجية ولوحات الفن الصخري، والمناهج المعتمدة.

٤- طبيعة النقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية

إن مشاهد الرسومات الصخرية تختلف من موقع إلى آخر بما تحتويه من عناصر، فقد يحتوي المشهد على عنصر واحد فقط أو قد يتضمن مجموعة عناصر واحدة، وقد تشمل المجموعة مجموعة العناصر المتجاورة أو المتداخلة (superposition)، وكان من حسن الحظ أن تزيّن صخور الصحراء الجزائرية بآلاف المناظر التي تعكس الكثير من جوانب الحياة سكانها القدامى، ولهذا قيل عن هذه المناظر بأنها كتاب الصحراء المفتوح، فهو الكتاب الذي يظهر لنا ما لم تظهره المصادر الأخرى من حياة سكان الصحراء القدامى.

يمتزج تعقّد وتعدد الفن الصخري الصحراوي (L'art rupestre) بإمكانية ألا يكون ممثلاً لجنس فن صخري أوحد لمجتمع واحد، فهو يشير من خلال تعدد الأساليب وتنوع المحتوى إلى أنه وجد عدد من المجتمعات عاشت في أزمان مختلفة وفي أجزاء متعددة من الصحراء، والتي أنتجت أشكالاً فيها الخاص، بالتالي فإنه لدى محاولة تفسير ما قد قيل في الفن الصخري الصحراوي يصبح الأمر صعباً بفعل انعدام كرونولوجية للرسوم، وغموض هوية الجماعات الثقافية المبدعة له، إننا محظوظون لوجود كتلوج متحف كولون الذي يعرض اللوحات الصحراوية "كوبر" (Kuper 1978) حيث تم فيه إعادة إنتاج الكثير منها بالحجم الطبيعي بما في ذلك اللوحات التي كشفت عنها بعثة هنري لوط في طاسيلي ناجر (Laude 1959: 640-661)، أيضاً مع هذه المجموعة الهامة توجد صور فوتوغرافية نفذها لايو (Lajoux 1963)، تم نشر العديد منها ومصادر أخرى منشورة تشمل لوحات لوط (Lhote 1959).

حاول الفنان القديم استخدام ما وفرته البيئة لتنفيذ هذه المناظر ونفذ مناظره على الصخر، سواء كانت صخوراً لينة كالبحر الجيري أو لأحجار صلبة كالجرانيت، مستخدماً في ذلك ما توافر لديه من أدوات النقش، وقد تنوعت الواجهات التي نفذت عليها المناظر، ففي محطات أو مناطق المناظر الصخرية نجدها تنفذ في العراء في الأماكن المسطحة من أرضية الصخر، أو تنفذ بشكل رأسي على كتل الخور المتوافرة بالمنطقة، أو يتم تنفيذها على جدران الملاجئ الصخرية، أو الكهوف التي تعد بمثابة تسجيلاً لانطباعات السكان القدامى على الصخر. (Vervialle 1947: 235-252)

يدل تنوع طرق الصيد واختلاف وسائله التي نجدها مجسدة بكثرة في اللوحات على مستوى التفكير والتطور التقني الذي وصل إليه سكان المنطقة، كما تعكس مدى قدرتها على اختراع أكثر من طريقة لضمان أمنها الغذائي في محيط بيئي تحقّه العديد من الصعوبات والمخاطر الطبيعية، كما أن العديد من الرموز المصاحبة لهذه اللوحات القديمة والتي أولت على أن لها علاقة بمعتقدات منجزها تبرهن هي الأخرى على وجود تصور معين للكون لدى هؤلاء.

(fausse)، وربما يكون الهدف من ارتداء القناع هو الحصول بشكل مؤقت على صفات الكائن الذي يمثل القناع (Le Quellec 1998: 269)، فقد كانت الأقنعة في حد ذاتها عبارة عن فتيشات.*

٤- الأشكال الأدمية التخطيطية التجريدية: إن تمييز هذه الأشكال الأدمية التجريدية أو الشديدة التخطيط غالباً ما تكون عملية معقدة، ويمكن تمييزها عن طريق مقارنتها بالرسومات التي تكون مقترنة بها، ولهذا نجد أن الشكل الإطاري وقسمات الوجه والسمات الجنسية لهذه الأشكال مرسومة بأسلوب تجريدي أو مختلطة أو مكبرة أو ناقصة أو معدلة إلى أبعد حد، مع محافظتها على أوجه الشبه، إما في شكل الجسم أو الجذع والرأس مع الأشكال الأدمية، الأمر الذي يجعلنا نميزها رسوماً أدمية.

٥/٢- الرسوم الحيوانية:

تمثل أشكال الحيوانات الغالبة العظمى من الرسوم الصخرية الرمزية التي عُثر عليها في العديد من المناطق وأبدعها المنتشرة خصوصاً في منطقتي الطاسيلي والهقار (Chudea 1907:138-146)، حيث نجد في كثير من مواقع النقوش والرسوم الصخرية أن رسوم الحيوانات تفوق ما عداها من الرسوم وخاصة الرسوم البشرية، ويتضح من هذا أن الحيوان كان يشكل اهتماماً خاصاً لدى فناني عصور ما قبل التاريخ، ولم تكن الرسوم الحيوانية في كثير من الحالات مقرونة بالأشكال الأدمية، ومن أبرز الحيوانات التي وجدت في المنطقة ما يأتي:

- الأبقار وهي ذات قرون مختلفة، فأبقار لها قرون متوازية، وأخرى ذات قرون على الأمام، (Huard 1968:114-120) وعن هذه الأخيرة يشير هيرودوت إلى أن الجرامنت ** (Gramantes) لهم أبقار ذات قرون متجهة إلى الأسفل، بحيث تغرس في الأرض كلما حاولت السير إلى الأمام، لذلك فهي ترجع إلى الوراء في رعيها!
- الفيل: عُثر على رسومات له في وادي جرات بالطاسيلي طوله ستة أمتار، وفيلا آخر في منطقة تيساليتين (Tissalatin)، وفيلة بيضاء اللون قد تكون من الحيوانات الأسطورية.
- وحيد القرن: هناك (٨٦) رسماً لوحيد القرن في منطقة تيساليتين (Tissalatin) بوادي جرات (Le Quellec 1998: 130)، أما بقاياها الأثرية فهي قليلة.

* - الفتيشة: هي تقديس الأشياء المسحورة والتمايم والفرز والتصور، إن قوى الكون تجتمع فيه لذلك اتخذت الآلهة صفة هذه الأشياء المقدسة. ومن الأمثلة عن الفتيشات نذكر الأقنعة والتيجان والرموز المختلفة، انظر: خزعل الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، دار الشروق، الأردن، ١٩٩٧، ص ١٧٤.

كانوا متركزين في المنطقة الممتدة بين جل نفوسة وجهات الفزان الحالية إلى - ** الطاسيلي، ويبدو أنهم أحفاد الشعب المحارب الذي استعمل العربات في تنقلاته وحروبه، انظر:

Herodote, Histoire, texte trad. par: E. Legrand, ed- les belles lettres, Paris, 1948, tome, IV, 183.

٤- فترة الخيول: تغطي الفترة نهاية العصر الحجري الحديث، وهي تصادف اندثار العديد من الأنواع الحيوانية بسبب الجفاف، كما تتميز بظهور الحصان (رسوم لخيول متوحشة وخيول مستأنسة موصولة بعربات). (بشي ٢٠٠٨ م: ٣٨، ٣٩)

٥- فترة الجمال: بدأت في القرون الأولى من العهد الميلادي تتصادف مع ظهور الجمل. (بشي ٢٠٠٨ م: ٤٤)

وتميز هذا الدور بكثرة النقوش والرسوم الصخرية بتقنيات مختلفة، منها الحز على الصخر والتنقيط، أي الرسم عن طريق إحداث النقاط المتتابعة التي تظهر الأجسام المراد إبرازها في رسوم هذا العصر. وهذا يعني أن دراسة الرسوم الصخرية يمكن أن تؤدي إلى الربط بين سلسلة التتابع التاريخي للحضارات التي قامت على أرض هذا الإقليم بشكل خاص والصحراء الكبرى على وجه العموم. أمّا أبرز أنواع هذا الفن الصخري فهي على النحو الآتي:

٥/١- الرسوم الأدمية:

وجد عدد من الرسوم الأدمية في مواقع الرسوم الصخرية خصوصاً في منطقتي الطاسيلي والهقار والتي تعود لحقبة ما قبل التاريخ، وتختلف الرسوم الأدمية من حيث الشكل وأسلوب التنفيذ من حقبة لأخرى، وتتكون الأشكال الأدمية في هذه المنطقة من أربع فئات، وهي:

١- الأشكال الأدمية ذوات الرؤوس المستديرة: من أقدم الأشكال المجسدة تعود إلى الألف الثامنة قبل الميلاد وهي منتشرة بكثرة في منطقة الطاسيلي، وبعض هذه الأشكال عودية الأسلوب والرؤوس دائرية الشكل.

٢- الأشكال الأدمية ذوات الرؤوس المقنعة: إن الرسوم والأشكال الأدمية ذوات الرؤوس المقنعة شائعة في الصحراء الجزائرية خصوصاً بمنطقة الطاسيلي، وقد أظهرت بعض المشاهد صيادين يضعون أقنعة من رؤوس الغزلان فوق رؤوسهم وربما الهدف من ذلك التمويه حتى يتقربوا بها من الفريسة المراد صيدها، وقد رأى البعض أن هذه الأقنعة هي الأقنعة التي يتنكر فيها الصيادون، أو أن هذه الأشكال قد تكون لراقصين مقنعين، على أن هناك من يعتقد أن المقنعين الراقصين قد عُثر عليهم في مختلف مناطق العالم، وأن هؤلاء المقنعين يمثلون صيادين يقومون بوضع هذه الأقنعة شَرَكاً يخدعون به الحيوانات التي كانوا يقومون باصطيادها، ويرى هؤلاء أن هذه الأقنعة أو أن التنكر بحد ذاته يمثل قوة سحرية روحية (Lhote 1966: 34-40)، ولهذا نجد أن الإنسان استخدم القناع أو التنكر ليس في مجال الصيد فحسب، بل حتى في الطقوس الدينية اعتقاداً منه أن التنكر يزيدهم قوة، وإن كان هناك مَنْ يعارض هذه الفرضيات التي تقول إن الأشكال الأدمية المقنعة تمثل صيادين أو سحرة مقنعين.

٣- الأشكال الأدمية الواقعية: تكثر الرسوم البشرية في منطقة الطاسيلي، وتزيد بعض هذه الرسوم حجمها عن حجم الإنسان الطبيعي وهي عادات تقضي باستخدام وجه مغاير لوجههم (visage

قرص الشمس، ومن الأمثلة عنها كبش قرص الشمس في حجرة سيدي بوبكر (hadjra sidi boubaker) الواقعة جنوب الجلفة، (Lhote 1984: 293).

ظهرت الرمزية منذ القدم أين قام الإنسان الأول بالتعبير عن آرائه برموز معينة، فالرمز علامة عن شيء ما، وجوهره غير واضح بالنسبة لغيره، فهو قد يحمل معاني وتفسيرات مختلفة تبعاً لنظرة الباحثين وقراءاتهم للرموز، (Gourhan 1964: 148) ففي المشاهد الصخرية الصحراوية نجد رموزاً تعبر عن مظاهر دينية وأساطير، وبعض من هذه الرموز يمكن تفسيرها بسهولة لوضوحها، بينما رموزاً أخرى تبقى غامضة لعدم معرفة الباحثين بمعتقدات ونمط تفكير الإنسان في تلك الفترة، ولم تكن رسوماته عملاً تلقائياً بل كانت تتم وفق طقوس معينة نابعة عن معتقداته الروحانية، ومن بين الرموز والصور ذات الدلالات نجد:

- استعمال الألوان: فاللون الأحمر مثلاً كان يرمز إلى استمرارية الحياة، وهذا ما نلاحظه في العديد من رسوم الحيوانات مثل الطباء العملاقة والأروية والزرافات. (Hachid 1998: 148) واستعمل كذلك اللون الأبيض بارتباطه بالشخصيات الأسطورية والآلهة والأرواح مثل مشاهد الشخصيات السابحة في أونرات، ومشاهد أخرى لحيوانات وكائنات أسطورية باللون الأبيض في صفار. (Hachid 1998: 218) إضافة إلى اللون الأصفر الذي له علاقة بطقوس الدفن كما هو واضح في موقع تين هناكتن.

- استعمال الأقنعة: فالعديد من الرسوم الصخرية تعبر عن الرأس المقنع، فهناك أقنعة برؤوس الحيوانات (Théranthropes) بحيث يعطي للشخص لنفسه مظهر يشبه الحيوان أو الكائن الأسطوري. (Hachid 1998: 200) وربما يمكن أن يعطي انطباعاً مغايراً مثل حماية المقنع من القوى أو الأرواح الشريرة أثناء الطقوس أو الحصول بشكل مؤقت على صفات الكائن الذي يمثله القناع. (Le Quellec 1998: 269).

ويلحظ على رسوم الصحراء هذه أنها تختلف من حيث طبقة التقادم وهذا، يعني أنها تعود في تاريخها لصور مختلفة، كما اختلفت مهارة التنفيذ ودقته من لوحة لأخرى بل ومن موقع لآخر، ومع ذلك لم تتغير الأغراض كثيراً، أما عن أبرز ما تحويه الرسوم فيمكن أن نجعلها في النقاط الآتية:

(١) هناك مجموعة من الرسوم الصخرية غير مميزة: أي عديمة الهوية والجنسية، في حين أن بعضها تفرق بين الذكور والإناث من خلال إبرازها لعضو الذكورة بالنسبة للرجال، أو تجسيد المؤخرة البارزة أو الشعر الطويل في رسوم النساء. وتتميز بعض الرسوم الأدمية بالمهارة العالية والإبداع الفني، حيث ظهرت بملامح تجسدية أكثر واقعية باستثناء ملامح الوجه الطبيعية،

- فرس النهر: فقد جُسد في رسومات بمنطقة تين تزاريفت، وعثر على بقايا له في عرق أدمير (Admer) وعين قزام (In Guzzam) وإن زوا (In Azoua) وواد جرات بمنطقة الطاسيلي. (Le Quellec 1998: 133)

- النعامة: مشاهد عديد للنعامة في العديد من مناطق الصحراوية، ومن المشاهد الغربية التي جُسدت بها نجد صورة جسم نعامة ولكن برأس زرافة وكذلك صورة نعامة بأربعة أرجل، وصورة أخرى لنعامة بقرون كبيرة.

- التماسيح: مجسدة في كهوف إن إتينان (In Itinan) وواد جرات، وبقاياها التي عثر عليها في منطقة وان راشلة (Wan Rachla) جنوب الطاسيلي (Le Quellec 1998: 144).

- الأسماك: مجسدة بكثرة في منطقة الطاسيلي مثلما هي مبينة في مشهد السباحين في تين تزاريفت ومنطقة صفار (Safar).

- حيوانات أخرى: إضافة إلى هذه الحيوانات المذكورة فقد جسدت حيوانات أخرى منها: الجاموس، الغزال، الأسد، الفهد، الحمار الوحشي، والأروي (mouflon) والزرافة المجسدة في منطقة تجبرت والقردة التي جسدت في كهوف تين تزاريفت (Tin Tzarift) بالطاسيلي (Lajoux 1977: 134,135).

٣/٥- الأسلحة:

أما عن رسم الأسلحة فهي موجودة في أغلب المواقع المشار إليها في هذه الدراسة، ومن هذه الأسلحة ما يأتي:

- الأقواس والسهام: وتعد من أقدم الأسلحة استعمالاً، ومن أكثرها شيوعاً، وقد وجدت أيضاً في العديد من اللوحات التي عثر عليها في منطقة الطاسيلي، وقد ظهرت مقرونة بالأشكال الأدمية، حيث يشاهد الرجل عادة وهو يمسك القوس والسهام في حالة وقوف بلا حراك، وفي بعض الرسومات نرى الرجل وهو يصوب سهامه باتجاه الهدف المراد والذي غالباً ما يكون حيوان الوعل أو الغزال أو الجاموس، وفي عديد مناطق من الطاسيلي جسدت معارك بين رماة السهام مثلما هو مبين في موقع تين تزاريفت (tin tazarifit) وإيدو تيسوكاي (iddo tissoukai) وفي تين أبهار (tin abenher). (Lhote 1958:112).

- الرماح العصي والخناجر: وتظهر بشكل مكثف في الرسوم الصخرية خاصة بمنطقة الطاسيلي والهقار وفي نفس المناطق المذكورة إيدو تيسوكاي وتين أبهار وتين تزاريفت.

٤/٥- الوسوم والعلامات والرموز:

عادةً ما تربط الوسوم والعلامات في الفن الصخري بأشكال الإنسان والحيوان، وتتخذ هذه العلامات أشكالاً مختلفة بحسب المنطقة التي توجد فيها، وقد توجد العلامة نفسها في أكثر من موقع ولا يعرف الغرض منها، ومن العلامات المهمة تلك الزوائد المجسدة بين قرون الحيوانات في مشاهد الأطلس الصحراوي ممثلة أساساً في

النشاط الإنساني وتناول تفاعله مع البيئة الطبيعية التي عاشها، ومع الجماعات البشرية التي اختلط بها، ولهذا فإنه يتناول ما خلفه هذا التفاعل من شواهد توضح تطوره عبر العصور.

٦- جوانب من التطورات الحضارية التي عرفها إنسان الصحراء في العصور القديمة

إن البنية الحضارية لا تكتمل إلا إذا كان ذلك المجهود المبذول مكتملاً، للوصول إلى تلك الثمرة الحضارية التي ترك إنسان الصحراء لنا بصماتها في شكل مشاهد مختلفة مجسدة في رسوم عديدة، نستخلص من خلالها صفحات طويلة من ذلك التاريخ، لقد أماطت لوحات الفن الصخري اللثام عن صحراء خضراء وفيرة المياه كانت مرتعاً لحيوانات استوائية من قبل الفيل فرس النهر والزرافة وغيرها، كما كانت عبارة عن مرعى كبير لقطعان البقرات المتوحشة وقد أشار هنري لوط في هذا السياق قائلاً: "لقد كان الفن الصخري في الصحراء سجلاً حافلاً بالنقوش والرسوم المختلفة التي دون فيها سكانها القدماء مشاهد حياتهم اليومية وعبرت عن محيطهم الواقعي، فإذا كانت الوديان التي نراها قاحلة صخرية اليوم فقد كانت في الماضي مليئة بالمياه، وفي الوقت الذي تتسم الجبال الطاسيلية بكونها جرداء داكنة اليوم فقد بينت الرسوم التي كانت تكسوها الأعشاب والغابات الكثيفة، وكانت الجهات الخالية الموحشة الآن مرتعاً خصباً للفيلة وفرس البحر والزرافات، في هذه الفترة سطر صيادو طاسيلي ناجر نشاطهم اليومي وعمليات الصيد والقنص بكل أمانة.

لقد كان يقابل سيادة الحيوانات الكبرى المتوحشة مجال خصب وفير المياه وفر للإنسان المحلي من الطرائد ما لم يكن معه في حاجة إلى التفكير كثيراً في مصدر عيشه، ثم طرأت تغيرات جذرية على هذا المجال الذي بدأ يتحول نحو الجفاف، لقد عكس الفن الصخري ذلك من خلال تركيزه على رسم ونقش الحيوانات التي تأقلمت مع البيئة الجديدة وتراجعته عن نقش ورسم الحيوانات الكبرى الاستوائية، فقد بدأت مقابل ذلك تظهر قطعان الأبقار ومن ثم حدثت أولى محاولات التدجين وامتلاك القطعان، وكان للتغيرات المناخية على ما يبدو الدور الحاسم في التحول التقني والحضاري لإنسان المنطقة دفعت به إلى التنقل جهة الشمال. (Aumassip 1988: 139)

وبالنسبة لتأويل الفن الصخري، فإن الباحثين اعتبروه يلخص الحياة اليومية لإنسان المنطقة خلال عصور ما قبل التاريخ، أي طرق القنص وأنواع الطرائد والوسائل المستعملة لذلك من شرك وأسلحة، ثم الاعتقادات وبعض الحيوانات التي استهدفها الإنسان بالعبادة وعلاقة هذه الكائنات بالخصوبة وغير ذلك من المظاهر التي شكلت هاجساً دائماً للإنسان القديم، وقد تكون الظاهرة بعيدة عن فكرة الفن من أجل الفن وإنما تميزت بخصائص فريدة قد يستشف منها المرء مظاهر حضارية مركبة ومتطورة روحياً وبصفة

وفي هذا دلالة على تطور جوهر وأسلوب تنفيذ تلك الرسوم من عصر لآخر.

(٢) يلحظ أن الرسوم الحيوانية الصحراوية خصوصاً في منطقتي الطاسيلي والهقار قد جاءت في معظمها بأشكال غير متحركة، إذ إننا نجد ندرة في الملامح والصفات الحركية في هذه الرسوم، وهذا لا يعني أن الفنان هنا لم يكن قادراً على التعبير عن الحركة في مصورات، بل من المحتمل أن عنصر الحركة في رسوماته كان شيئاً ثانوياً، ولم يكن الفنان يلقي له بالاً أو يهتم به كثيراً، بدليل أنه عبر في بعض الحالات عن الصفات الحركية والتفاعل الحركي في بعض الرسوم المختارة وخاصة في الرسوم شبه الواقعية، أضف إلى ذلك أن الفنان قد تمرس في تمثيل الحركة في رسوماته في معظم مناطق الصحراء الأخرى، مثل موقع تيسوكاي، في طاسيلي ناجر الذي يجسد منظر معسكر مع نساء وأبقار وغيرها.

(٣) أظهرت لنا مناظر الصيد أسلوب الإنسان في بحثه عن غذائه، كما بينت أنواع الحيوانات التي كان يطاردها لتوفير طعامه، وقد كانت حيوانات الوعول والغزلان والنعام في مقدمة الحيوانات التي كان يفضلها الصيادون. وفي هذا إشارة إلى أنها كانت تمثل جزءاً مهماً من غذائه الرئيس، وأوضحته الدراسة كذلك بعضاً من الحيوانات التي كانت تشكل خطراً على حياة الإنسان، وتمثل هاجساً له.

(٤) لم توضح لنا الدراسة نوع الملابس التي كانت ترتديها شعوب المنطقة، باستثناء ظهور بعض الأقنعة الواقية للرأس التي رأينا الفرسان ذوي الأحجام الطبيعية يرتدونها، بالإضافة إلى ظهور أشكال بأحزمة ومشدات للصدر، وما يشبه البلوزات والتنورات؛ مما يدل على أن إنسان تلك العصور قد صنع ونسج من الملابس ما كان يستر به عورته كما هي مجسدة في العديد من المواقع من بينها موقع لبيوض واد سيدي الشيخ وبوسمغون وادي الرمل بجبال لقصور (الأطلس الصحراوي) (Capdérout et Soleihavoup 1997: 609-618).

(٥) توجد أعداد كبيرة من الرسوم ذات الأذرع المرفوعة لأعلى أو الممتدة مع ثني الجسم كما لو كان الشكل في حالة توسل، وقد توحى لنا مثل هذه المناظر عن ممارسة بعض الشعائر والطقوس الدينية كما ظهرت لنا أشكال مقنعة قد يكون لها علاقة ببعض العقائد والممارسات الدينية، أو أنها تدل على ممارسة بعض أعمال السحر والشعوذة.

(٦) أثبتت الدراسة كذلك أن هناك العديد من المحتويات الفنية المتماثلة في جميع الأشكال الآدمية والحيوانية، وهذا التشابه يجعلنا نعتقد أن الشعوب التي تعاقت على سكى المنطقة كانوا متقاربين في أفكارهم وسلوكهم الاجتماعي، ولم يخرج الفنانون على ما يبدو عن تقاليد من سبقهم بالرغم من البعد الزمني ولا شك في ذلك، فمن الواضح أن الفن الصخري بدأ مع

- (٣) كشفت النقوش الصخرية عن الذوق الفني لأصحابها، وعن المواضيع التي كانت تشغلهم.
- (٤) أعطت تصورًا عن بعض أنماط الحياة المتنوعة، وبعض الأعراف والتقاليد الاجتماعية، فضلاً عن أنها تساعدنا في استيعاب بعض الأفكار والثقافات التي انتشرت في المنطقة عبر مختلف العصور.
- (٥) قدمت تصورًا عن بعض المعبودات الدينية التي ربما سادت عبادتها في المنطقة، كما يمكن أن نستوحي ذلك عن طريقها بعض الطقوس الدينية.

خاصة تلك الأعمال التي تبتدئ من العصور السحيقة إلى غاية الدور الرعوي وتنم عن عالم مجهول لكنه غير مشتبه فيه بالرغم من أن معظم الرسوم القديمة، إلا أنها لا تخلو من ظاهرة الشعور السحري والشعوذة والدين وتجلت فيه مظاهر الرقة والشعور الغني الذي سيطر على تنفيذ العمل. (ديورنت ١٦٦: ١٩٦٥)

لقد انتبه العديد من الباحثين وجلهم أجنب السباقين لاكتشاف ودراسة النقوش والفنون الصخرية في الجزائر وصحرائها إلى أهمية هذا النقوش لكتابة تاريخ المنطقة وحضارتها التي نلمس تجلياتها في اللوحات الصخرية المنقوشة بالمواقع، مما يستدعي علينا دراستها باعتبارها حلقة وصل بين عصور ما قبل التاريخ والفترة التاريخية، ففهم الكثير من جوانب هذه الأخيرة يقتضي عدم إغفالنا لمعطيات حضارة ما قبل التاريخ، لأن الفترتين متتاليتين ولا يمكن إحداث قطيعة حضارية تامة بينهما.

لقد كانت علاقات الإنسان بعالم الحيوانات في تلك العصور الغابرة والتي تأرجحت بين الصراع والمنفعة والتقدير إحدى المحركات الأساسية لعملية البناء الحضاري لدى الإنسان القديم ومن ثمّ فلا غرابة إذا وجدنا أن عالم الحيوانات هو الطائي في أقدم النقوش الصخرية في الصحراء الجزائرية شأنها في ذلك شأن باقي الفن الصخري في الصحراء الكبرى.

خاتمة

دلت الأبحاث الأثرية ولا تزال على أن الشمال الإفريقي من أقدم المناطق التي استقر فيها الإنسان ومارس مختلف الأنشطة التي تلبي حاجياته وفي احتكاكه الطويل ببيئته، ونحن لازلنا بعيدين عن إدراك ضغط البيئة الحاسم كقوة مؤثرة في التطور الإنساني ومن الواضح أن كل ذلك قد حصل بفعل قدرات فكرية استثنائية تمامًا، حيث تعتبر نقوشه التي خلفها خطوة هامة في تطور قدراته التعبيرية سرعان ما وصلت إلى التعبير بالرموز والكتابة قبل العصر التاريخي، فهو يعتبر دليل عميق على أنها شهدت حضارة فكرية وعقلية في فترة ما قبل التاريخ، وهي على أية حال مصدر رئيس للتعرف على الفكر الإنساني وقتذاك.

إن النقوش الصخرية جسدت لنا تاريخ الصحراء الإنساني من خلال الأشكال والرسوم التي دونها سكان الصحراء القدامى عن حياتهم اليومية، فلوحاتهم ونقوشهم في أغلبها واقعية منسجمة مع تاريخ حياتهم، وقد كشفت الدراسة أهمية هذه النقوش في التأريخ، وذلك على النحو الآتي:

- (١) كشفت عددًا من الأساليب الفنية في النقوش الصخرية، وهذا يعني أن هذا الفن قد مر بمراحل عدة كان يتطور فيها من مرحلة لأخرى.
- (٢) أظهرت براعة الفنان في تصوير الأشكال بأحجام طبيعية، كما وظف مهارته بدرجة كبيرة نحو إظهار التفاصيل الجسدية الدقيقة لرسوماته.

الدراسات والأبحاث:

- Camps (G), Tableau chronologique de la Préhistoire récente du nord de l'Afrique, bulletin de la société préhistorique française. 1968, tome 65.
- Capdérout (M) et Soleihavoup (Fr), Deux station rupestres de l'Atlas saharien: lahsi et oued dermel. Une association originale de l'homme et du béliet, bulletin de la société préhistorique française. 1997, tome 94.
- Cornevin (M), Les Néolithiques du Sahara central et l'histoire générale de l'Afrique, bulletin de la société préhistorique française. 1982, tome 79.
- Chudea (R), Quelques renseignements ethnographiques sur le Sahara et le Soudan, Bulletins et mémoires de la société d'anthropologie de Paris, V^e série, tome 8, 1907.
- Huard (P), Nouvelles figuration sahariennes et nilo-soudanaises de bœufs porteurs, montés et attelés, bulletin de la société préhistorique française. 1968.
- Laude (J), En Afrique noire: arts plastique et histoire, Annales. Economies, sociétés, Civilisation. 14e année, N.4, 1959.
- Lieutenant Vervialle (M), Les gravures et peintures rupestres du pays Ajjer, bulletin de la société préhistorique française. 1947, tome 44.
- Lhote (H), Les peintures pariétales de l'Ennedi relevées par Gérard Bailloud dans le cadre du Sahara, bulletin de la société préhistorique française. 1966, tome 63.
- Tauveron (M) et Vernet (R), Climats anciens du nord de l'Afrique, bulletin de la société préhistorique française. 1996, tome 93.
- Vaufray (R), L'Age des spirales de l'art rupestre nord-africain, bulletin de la société préhistorique française. 1936, tome 33.

المراجع العربية:

- اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام، المنهجية وعصر ما قبل التاريخ في إفريقيا في كتاب تاريخ إفريقيا العام، إعداد اليونسكو ١٩٨٠.
- بشي (محمد العيد)، تاسيلي ناجر، الأزمنة الجيولوجية والمؤشرات الحضارية والعوامل الطبيعية المكونة للمنطقة، ج ٢، دار الحبر، الجزائر، ٢٠٠٨.
- خزعل الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، دار الشروق، الأردن، ١٩٩٧.
- ول ديورنت، قصة الحضارة، مجلد ٦، تر: زكي نجيب محمود، ط ٣، ١٩٦٥.

المصادر والمراجع الأجنبية:

- Aumassip (G), l'élevage au Sahara, Milieux, Hommes et techniques du sahara préhistorique, problèmes actuels. Paris 1988.
- Gourhan (A.L), Les religions de la Préhistoire (Paléolithique), presses universitaire de France, 1964.
- Hachid (M), Tassili N-Ajjer au source de l'histoire il' ya 50 siècle avant les Pyramids, ed- Mediterranean, Paris, 1998.
- Herodote, Histoire, texte trad. par: E. Legrand, ed- les belles lettres, Paris, 1948.
- Lajoux (J. D), Tassili N-Ajjer, art rupestre du sahara préhistorique, Paris, ed- du Chêne, 2^eed, 1977.
- Le Quellec (J.L), Symbolisme et art rupestre du Sahara, ed- Harmattan, France, 1998.
- Lhote (H), Les gravures rupestres de l'Atlas saharien, monts des Ouled Nail et region de Djelfa, Algerie, office du parc national du Tassili, 1984.
- Lhote (H), A la découverte des fresques de Tassili, ed- Arthaud. Paris, 1958.

التعاقبات الحضارية والخصائص المعمارية في مدينة تيديس الأثرية

بوعوييرة نبيل

أستاذ مساعد صيانة وترميم المواقع الأثرية
جامعة عبد الحميد مهري - قسنطينة (٢)
الجمهورية الجزائرية



ملخص

لقد تميزت مدينة تيديس الأثرية بخصائص واستثناءات مهمة جاءت نتيجة سببين مختلفين، تمثل الأول في التنوع التاريخي الذي عرفته المنطقة، وتجسد الثاني في الطبيعة التضاريسية للمدينة، حيث سنسعى هنا للبرهنة على هذه الاستثناءات الناتجة عن هذين السببين، ففيما يتعلق بتأثير التنوع والتعاقب التاريخي فسوف نؤكد من خلال دراسة تطور الأسوار الحامية للمدينة، وأما بخصوص انعكاسات الطبيعة التضاريسية على المدينة فسوف نصورها في أهم ما تميزت به هذه المدينة من استثناءات معمارية.

كلمات مفتاحية:

تيديس، الكاستلوم تيديتاتوروم، التحصينات الرومانية، الخصائص المعمارية، المحن الرومانية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٥ مايو ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٢١ أغسطس ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بوعوييرة نبيل، "التعاقبات الحضارية والخصائص المعمارية في مدينة تيديس الأثرية"، دورية كان التاريخية، العدد الثلاثون، ديسمبر ٢٠١٥، ص ٧٩ - ٨٦.

مقدمة

تُعَدّ تيديس واحدة من بين المدن الأثرية ذات الأهمية الكبيرة بالشرق الجزائري نتيجة لطبيعة مخلفاتها التي اعتبرت صورة حية تجسدت فيها أهم الحضارات المتعاقبة على منطقة شمال إفريقيا وقسنطينة خصوصاً، حيث عرفت الوجود الليبي وبعده البوني ثم الروماني والمسيحي وفي الأخير الإسلامي، كما اكتسبت أهميتها أيضاً من مجموعة الخصائص والاستثناءات المعمارية التي انفردت بها دون غيرها من المدن، ومنه سنسعى هنا لتقديم صورة نبين من خلالها هذا التراكم الحضاري الذي شهدته هذه المدينة، كما سنسعى لاستخلاص النتائج المنعكسة عن هذا التراكم على طبيعة وآثار المدينة. وللإشارة؛ فإن هذا العمل كان ميدانياً في أغلب مراحلها أُعتمد فيه على الوصف الميداني بالاستعانة أحياناً ببعض نتائج حفريات الباحث (Berthier André) كما كانت أغلب الاستنتاجات شخصية مستمدة من نتائج الدراسة الوصفية لمعالم المدينة، وهو الأمر الذي جعل هذا النص يفتقد إلى كثرة الإحالات.

أولاً: التعاقبات الحضارية من خلال المنشآت التحصينية

إن الشواهد المادية الدالة على التعاقبات الحضارية في مدينة تيديس كثيرة ومتعددة بتعدد معالم هذه المدينة واختلاف أشكالها ومراحلها التاريخية، فالمتتبع لمخلفات هذه المدينة يستطيع أن يكتشف هذا التعاقب التاريخي المنضوي عبر منشآتها، ومن بين أهم المنشآت المعمارية التي ارتسمت فيها مظاهر التعاقب الحضاري نجد البوابة الرئيسية وبقياء الأسوار المحيطة بالمدينة (العمارة التحصينية)، حيث اعتبرت من أهم المعالم المجسدة لهذا التسلسل والتداخل التاريخي، وهو الأمر الذي حملنا على اختيارها دون غيرها كمعيار لدراسة هذا التطور.

١/١- المنشآت التحصينية:

١ (١/١) - البوابة الشمالية

إن المدخل الشمالي للمدينة قد أُستهل ببوابة كوينتوس موميوس روجاتوس (Q Memmius Rogatus) الذي بناها بماله الخاص.^(١) دعائمي هذه البوابة لها فتحة واحدة ولا يظهر بها أي

توضح بعض خصائص نقش الحروف التي تعود إلى النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي.^(٧)

فيما يخص حالة حفظ البوابة فيمكن القول أنها حسنة خاصة بعدما عرفته من عمليات الترميم، التي استطاعت أن تحفظ شكلها العام، وذلك رغم العناصر التي تنقصها، والتي فقدت من قبل مثل طبقة السطح (Attique)، وأيضاً الوجه الداخلي للقوس، كما أن بعض حجارة هذه البوابة تتعرض لضعف وتآكل سطحها أو تشققه.

(١/١) ٢- الأسوار الدفاعية والحصون

في نهاية القرن الثالث وبداية القرن الثاني قبل الميلاد وفي الزمن الذي كانت فيه قسنطينة مدينة بونية كبيرة، فإن المنحدر الشرقي لهضبة تيديس قد شُغل بدوره بتجمع سكاني، ولحماية هذا التجمع استوجب الأمر إيجاد سور حامية. إن مسار هذا السور يتجسد في منحني ذو اتجاهين حيث أن جزء منه يتجه نحو الشرق والجزء الآخر يتجه نحو الشمال، وبالقرب من الحنية التي تربط بين السورين تتواجد البوابة التي أطلق عليها برتي البوابة البونية الشمالية.^(٨) إن الجزء من السور الذي يقابل الجهة الشرقية غير متجانس حيث أدرجت به بعض المقاطع المبنية بحجارة متقنة الترتيب، وهي إما أن تكون عبارة عن فراغات مسدودة، أو أنه قد أدمجت به واجهة لمعلم ما يشكل بجداره جزء من هذه السور الخارجية.^(٩) طريقة البناء تميزت بترتيب كل من: حجارة كبيرة غير منتظمة الترتيب زائد بلاطات سميكة، بالإضافة إلى الدبش، ولقد نظمت هذه العناصر عن طريق دمج حجارة السند أو الدعم (pierre de Calage) بطريقة قواعد أفقية، كما أن بعض الحجارة الكبيرة قد أدمجت عمودياً بعرض الحائط.^(١٠)

أما فيما يخص البوابة التي تفصل هذا الجدار، فإنها تُدخل إلى الحي السفلي بمدينة تيديس، أين يتواجد الكثير من المنشآت البونية، ولقد كان توجُّه هذه البوابة البونية نحو الشمال، وهي تفتتح على قمة منحدر يتكى بدوره على جدار دعم، بني بنفس مواد بناء السور السابقة، أحيط جانبي هذه البوابة بحصنين غير متساويين في بروزهما عن هذه البوابة، فقد كان بروز الشرقي ب (٢,١٠ م). أما الحصن الغربي فقد برز ب (٦,٥٠ م)، أما العرض الطبيعي للبوابة فقد كان (٢,٩٥ م) وهذا قبل أن تُنقص من عرضه دعامة بنيت في فترة لاحقة.^(١١) أما في الجانب الآخر من البوابة فإن السور قد غيرت اتجاهها نحو الجنوب حيث يظهر على السور مجموعة من الملاحظات، والتي منها أن السور يلتصق مباشرة مع حاجز صخري يحف الكاردو من الجهة الغربية، ليرسو بعد ذلك فوق الحافة الصخرية التي تشرف على بوابة موميوس، لينتهي في الأخير مرتكزاً على الصخر الكبير للمنحدر الشمالي.

وعلى ما يبدو فإن المعمارين الرومان أثناء إنشائهم لطريق الكاردو قد قطعوا جزءاً من السور البونية التي أعاقمت امتداد الكاردو قليلاً نحو الشمال. إذا كانت السور البونية قد أنجزت

تزيين معماري، ولقد جاءت هاتين الدعامتين على شكل شبه متوازي المستطيلات يعلوه كورنيش (Corniche) يشكل بدوره قاعدة ترتكز عليها جوانب القوس، فيما يخص الكتابة الإهدائية لهذا الباب فقد نقشت بالأعلى في السطح المعمد (Entablement)، قياسات هذه البوابة كانت كالآتي: (٠,٦٠ م) العلو الكلي، (٠,٨٤ م) العرض الكلي، و(٢,٧٠ م) عرض فتحة الباب، وعلو الفتحة حتى بداية حدود القوس قدرت ب (٠,٣١ م) دعامتي البوابة لهما السمك نفسه المقدر ب (٣,٨٠ م) لكن عرضهما غير متساوي حيث قدر في القاعدة الغربية ب (٢,٧٠ م) أما الشرقية فكان (٣ م)، هذا الاختلاف الذي كان سببه الكتلة الصخرية التي تحاذي الدعامة الغربية، ولقد تكونت كل دعامة من هاتين الدعامتين من قاعدة فوقها كتلة مكعبة مبنية ويعلوها كورنيش (Corniche).

حيث زينت القاعدة بحواف ذات بروز بقياس (٢٠ سم). أما الكتلة المكعبة المبنية فقد انجذبت عن القاعدة ببعد (٢٠ سم) وهي مكونة من خمسة طبقات من الحجارة، يعلو الخامسة منها الإفريز الذي يشكل بحافته وجهاً مقابل يشابه حافة القاعدة ويتجه بصفة مقلوبة نحوها، فيما يخص الحجارة المستعملة في بناء واجهة هاتين الدعامتين فقد اختلفت قياساتها حسب كل طبقة، إذ جاءت أطوالها ما بين (٠,٤٧ م) إلى (١,٣٨ م)، أما علوها فكان ما بين (٠,٥٠ م) و(٠,٦٥ م).

نستطيع أيضاً بهذه البوابة أن نلاحظ آثار نظام غلق وفتح البوابة، هذه الآثار التي تجسدت في ثقب المفصلات (Gonds)، وكذلك في الحز أو الأخدود الذي كان مخصصاً لاحتواء القضيب الذي يعمل على سد مصراعي الباب^(١٢)، قوس هذه البوابة تظهر عليها عمليات الترميم ولها ارتفاع (٣ م) وعرض (٨,٤٠ م)، العقد مكون من (١٢) عموداً أساسياً بالإضافة إلى مفتاح العقد (La clé de voute) ذات العلو (٠,٨٥ م) وقد زينت بنقش لسيف (Glaive)^(١٣) بطول (٠,٦٠ م) يعلو قبضته شكل نصف دائري، وهو ما يشير إلى الدور العسكري للمدينة التي كانت عبارة عن (Castellum)^(١٤) أما حافته فقد جاءت مثلثة، إلا أن حالة الحفظ غير المستقرة لهذا النحت تصعب من رؤيته نتيجة التآكل الذي مس سطحه وكذلك التغير في لونه، ولقد انتهى هذا القوس من الأعلى بسطح معمد (entablement) احتوى بدوره على:

- الأرشيتراف (Architrave) أو سنده مكون من شفتين أو حزين.
- الإفريز (Frise) وهو الجزء الذي يحتوي على الكتابة، حيث تَكُون من ست (٦) أجزاء غير مكتملة وجدت بأماكن مختلفة أثناء الحفريات.

للعلم فإن هذين الجزأين (الأرشيتراف + الإفريز) قد نقشاً في حجارة واحدة وهو الأمر الذي قلل من عرض الإفريز قصد ترك أكبر مكان للكتابة^(١٥)، بخصوص طبقة السطح (Attique) فإنها غير موجودة. إن الكتابة الإهدائية على البوابة لا تعطي أي تاريخ لكنها

كبيرة مقطعة بشطر من جدران مبنية بمواد بناء معالم مهدمة، وقد بني فوق طريق قديم منحوت في الصخر.

- إن استعمال الجدار الصخري الطبيعي (ج) شجع على بناء جدار صغير بهذا الجانب، بالإضافة إلى ذلك فقد وجدت أربعة أسوار متوازية تحد الجانب الجنوبي بين (ب و د) على واجهة بطول ١٥٠ م.

- الحاجز الصخري (د) وجد به فراغ أستكمل بناؤه بجدار مكون من عناصر كبيرة، وابتداء من هذا الحاجز الصخري (د) فإن السور يواصل كل مساره متسلقا حواف الجرف الصخري، وفي المجال الذي ينعدم فيه هذا السور يبرز هناك حصن دفاعي بني بعد الفترة الرومانية (ما يسمى بالحصن البيزنطي) هذا الحصن يبلغ ارتفاعه ٥.٥ أمتار، وقد يكون بناؤه من خليط يجمع حجارة غير متقنة التهذيب مع حجارة معالم أخرى قد هدمت، حيث يظهر أنه قد بني في مرحلة استأنفت فيها الحياة بعد توقفها إذ عُمل على تحصين الهضبة بعد أن هُجر المنحدر الشرقي.^{(١٤) (١٥)}

٢/١ - استخلاص مراحل التعاقب الحضاري للمدينة:

إن دراسة هذه الأسوار التحصينية سمحت بالخروج بمجموعة من النتائج التي تخص مراحل الاستيطان بهضبة تيديس:

- أول الملاحظات تتمثل في أن قمة هضبة تيديس لم تستغل أبدا بصفة كلية من طرف السكان، ولقد قسمت إلى قسمين القسم الجنوبي منها والذي يشرف على واد الرمال، قد بقي فضاء عبادة كما احتوى على قبور الدولن والمقبرة، أما الجزء الشرقي فقد وجدت به منشآت معمارية باستثناء الحيز الصخري المحيط بالقمة.

- أقدم تجمع سكاني تواجد بأعلى الهضبة تحت حماية سور يمكن إرجاعه لفترة فجر التاريخ، إذا أخذت بعين الاعتبار طريقة بنائه الضخمة، كما أن خراب جزء كبير من هذا السور جاء بعد انتقال التجمع السكاني إلى المنحدر الشرقي، وهذا التوسع كان في الفترة البونية، وهي الفترة التي بُني فيها السور البوني، هذا السور الذي أُرُخ عن طريق تقنية بنائه، وكذلك عن طريق بقايا الفخار، والنقود التي وجدت بجواره.^(١٦)

- توسع المدينة تزايد في الفترة الرومانية وهي الفترة التي لعبت فيها الأسوار دورا أقل أهمية.

- أما في المرحلة ما بعد الرومانية، فإن الاضطرابات المختلفة دفعت سكان تيديس إلى هجر سطح المنحدر الشرقي للتجمع باتجاه الأعلى، وبالتالي إعادة إحياء السور الحامية لفترة فجر التاريخ عن طريق سد كل الفتحات الموجودة بها، هاته الفتحات التي أنجزت قصد تسهيل التواصل بالمدينة في فترات تلت فترة فجر التاريخ.

للزيادة من مساحة السطح، وذلك لامتداد الأبنية على جهة المنحدر الشرقي للهضبة، فإن برتبي يرى أن سكان فترة فجر التاريخ قد استغلوا فقط أعلى الهضبة التي كانت محاطة بسور خارجية على طول محيطها وعلى كل جوانبها الأربعة.

الواجهة الشرقية من السور المحيطة تظهر بين الحصن الدفاعي للفترة البيزنطية والمنحدر الشرقي، هذا الشطر الذي له طول حوالي (٢٠٠ م) غير متجانس فهو مكون من مقاطع بدائية ترتكز على الصخور ومقاطع أخرى مبنية بمواد بناء أعيد استعمالها وترتكز على رديم. أجزاء البناء السابقة المبنية على الصخر تظهر نمط بنائي يتجدد على طول محيط السور. هنا وتحديدًا في الأماكن التي لا تزال تحتفظ ببقايا البناء البدائي فإن هذا النمط البنائي يختلف كل الاختلاف عن النمط البوني حيث أن حجارته كبيرة كما أنها ذات أوجه متعددة وغير مهذبة بدقة كما أن فراغاتها ملئت بالحصى، مما يشرح أن هذا الجدار قد هدم بصفة كبيرة وذلك بعد التوسع السكاني الذي أوجب وصل الأحياء العليا مع الأحياء السفلى، ولقد أعيد إنشاؤه في المرحلة التي تلت الفترة الرومانية وذلك باستعمال حجارة معالم رومانية مهدمة.^(١٧)

أما بخصوص الثلاث واجهات الأخرى فإن تحصينات فترة فجر التاريخ تظهر بها أحسن حفظًا من هذه الواجهة السابقة. بالواجهة الشمالية يوجد شطر محفوظ معلق على الجدار الصخري الذي يشرف على مضيق (المغارة الساخنة)، هذا الحد الصخري الذي يُشكل في ذاته تحصين طبيعي، ثم يُستأنف هذا الانقطاع بشطر آخر من جدار أقل قوة لأنه يعلو منحدرًا، إذ استند على جدار صخري عمودي، ولقد بني هذا الجدار من الحجارة المكومة داخل صفيين من الدبش الكبير مكونا بذلك واجهة مزدوجة، وهو ينتهي برأس القمة أين ينحني متجهًا بزاوية مستقيمة.

ابتداءً من رأس القمة فإن السور يتجه اتجاهًا مستقيماً ذو محور شمال جنوب، حيث يقسم الهضبة إلى قسمين، فاصلاً التجمع السكاني عن الناحية الغربية أين توجد المقبرة الميجاليتية (Mégolithique)، حيث لم يبق من هذا السور إلا أسسه، وعلى مساره يتواجد الكثير من بقايا الدبش الذي هو نتيجة تهدمه، وعلى بعد (٢٧٥ م) من القمة توجد بقايا باب بجانبه حصنين بقياسات (٢٢٥ م) عرض و (٢٦٠ م) بروز، بنيت هذه السور من الدبش المربع الخشن بالإضافة إلى حجارة ضبط (Pierre de Calage) بقواعد أفقية، المسافة بين الحصنين قدرت ب (٣٧٥ م).

هذا الجدار ينتهي إلى حافة المنحدر الشمالي أين يلتصق بسور تحصيني آخر (أ)، وحسب التقسيم المعتمد في مخطط برتبي لهذا السور فإن الواجهة الجنوبية لسور الهضبة ستكون ابتداء من هذا السور (أ) من: حاجزين آخرين هما (ب + د) وحاجز وسيط بينهما (ج).^(١٨)

- فيما يخص البناء بين (أ، ب) فإنه كان بنفس طريقة بناء سور الواجهة الغربية، أما فيما بين (ب، د) فإن السور بني بعناصر

– وبهذا فإنه وجد بتيديس أثرين للتحصين، الأول وجد لتحصين الهضبة، والثاني أحاط بسطح المنحدر الشرقي للمدينة ومنه فإن الجزء العلوي للهضبة لم يسكن إلا في بداية تاريخ المدينة، وكذلك في آخر مراحل تاريخها، وبين هاتين المرحلتين لم يتوقف التوسع العمراني للمدينة باتجاهه نحو الشرق.^(١٧)

من خلال منشآت مدينة تيديس فإنه بالإمكان القول: أنها عبارة عن لوحات متكاملة تُصور مجموعة من الحلقات التاريخية التي رسمت تاريخ هذه المدينة عبر ما جسده من معالم يشهد اختلافها على تواجد متنوع من الحضارات الإنسانية التي ساهمت في تطور المدينة منذ فترات فجر التاريخ، أين كانت عبارة عن تجمع سكاني بربري استقر بأعلى الهضبة، مروراً بالفترة النوميديّة البونية (Numido-Punique) التي يظهر فيها استغلال السفح الشرقي للهضبة، وتبع بعد ذلك بالتواجد الروماني الذي كان من أهم فترات التوسع الذي تشهد عليه أغلب مكونات المدينة الحالية، و التي تشغل كل منحدر وسفح الجانب الشرقي للهضبة تيديس، هذه المرحلة التي أتت بفترة بيزنطية تشهد عليها أيضاً تلك التحصينات على السور البربرية الموجودة بأعلى المنحدر الشرقي، ولقد انتهت كل هذه الحلقات بالمرحلة الإسلامية التي لم تكن ذات تأثير واضح على معالم المدينة، حيث تجسد تواجدها في إعادة استغلال المنشآت السكنية شمال الخزانات الكبرى بالإضافة إلى بعض المخلفات الفخارية.

ثانياً: الخصائص والمميزات المعمارية في مدينة

تيديس

بهذا فإنه مثلما استطاعت منشآت تيديس أن تشهد على تاريخ غني بالتعاقبات الحضارية للمدينة، فإن هذه المنشآت التي يعود معظمها للفترة الرومانية تشهد أيضاً على خصائص ومميزات واستثناءات عمرانية ومعمارية جعلت من تيديس مدينة ذات خصوصية أثرية نادراً ما نجدها في المدن الأثرية الأخرى، وللعلم فإن هذه الخصوصية الأثرية -وكما أسلفنا القول- لم تكن عفوية بل كانت نتيجة الطبيعة التضاريسية والتاريخية التي ميزت المدينة، ومن بين هذه الخصوصيات الكثيرة نذكر التقسيمات العمرانية التي شهدتها المدينة في الفترة الرومانية، حيث عمل مهندسوها على تطبيق مبادئ العمارة الرومانية التي من أهم أسسها توزيع المعالم وتموقعها اعتماداً على شارعين رئيسيين متقاطعين ومتعامدين على شكل محورين، محور شمال جنوب ويسمى كاردو ومحور شرق غرب ويسمى ديكيومانوس، وهو المبدأ نفسه الذي طبق في هذه المدينة، لكن الاستثناء يكمن في طريقة تطبيقه، فتقاطع الطريقين وتعامدهما لم يُحقّق بل كان عبارة عن تلاقي لطريقين في نقطة ما، كما أن الكاردو بالإضافة إلى ضيقه فهو لم يجسد الاتجاه شمال جنوب إلا في الأربعين مترًا الأولى التي تلي البوابة الشمالية، بالإضافة إلى انكساره الشديد بعد تلاقيه بطريق الديكيومانوس، إذ انكسر

بزواية حادة تُوجّهه إلى الشمال الغربي بعدما كان متجهًا جنوبًا، ليعيد بعد ذلك وبانحناء آخر توجهه نحو الجنوب، وفي مقابل ذلك فإن الديكيومانوس وفي انطلاقه من الجهة الشرقية لم يكن طريقًا بل كان افتراضًا جسد على شكل درج يتصاعد إلى أن ينتهي إلى طريق يكمل مساره للالتقاء بطريق الكاردو وهو مكون من ثمان وثلاثين درجة تتخللها خمسة استراحات.^{(١٨) (١٩)} ونظرًا لالتزام المهندس الروماني بتطبيق مبدأ التعامد الذي لم يتحقق هنا فقد عمل على إعطاء خصوصية إضافية لمدينة تيديس تمثلت في انجاز قوسين بفتحتين، الأولى لها اتجاه شمال جنوب، والثانية شرق غرب وهي تحقق مبدأ التعامد الذي لم يتجسد مع الطريقين السابقين.^{(٢٠) (٢١)}

ومن بين المميزات الناتجة عن الخصوصية التضاريسية أيضًا صغر مساحة المعالم سواء المدنية منها أو الدينية، وهذا ما يتجلى لنا مثلاً في مساحة الكنيسة المسيحية وحجم قاعات معبد ميثرا، وكذلك صغر مساحة الفوروم الذي يُعدّ من أصغر الساحات العامة الرومانية في شمال إفريقيا، بالإضافة إلى صغر قاعات الحمامات المحاذية للخزانات الكبرى، وكذلك المساكن الخاصة، هذا الصغر في مساحة الأرضية حتم على بُناة المدينة أيضًا التصغير في حجم المباني وبالأخص منها مساكن العامة، وهذا قصد ربطها بطوابق علوية وهي التقنية التي تؤكد الكثرة من مخلفات الثقوب المنحوتة في الصخر والتي عملت على احتواء أعمدة الخشب الحامل لتلك الطوابق في الكثير من المعالم التي لا تزال تحتفظ بهذه الثقوب مثلما هو الحال في القاعة (أ) من الفوروم، وهو معبد ميثرا والغرفة ذات القبو بنفس المعبد، وكذلك المنازل المنحوتة في الصخر جنوب الحصن البيزنطي، بالإضافة إلى تلك الثقوب فقد توضحّت تقنية الطوابق أيضًا في بعض السلالم أو الأدراج التي انتهت أحياناً إلى مستويات تعلو أسقف بعض الأقبية أو الغرف السفلية مثلما نشاهده في سلالم فيلا الفسيفساء.

وزيادة على هذه الميزات فإن الطبيعة التضاريسية والخصائص التاريخية والاجتماعية قد نتج عنها أيضًا تغير في الوجه العام للمدينة من حيث عدم اعتماد بعض المرافق التي توجد في المدن الرومانية عادة، على غرار المسرح الذي لم يوجد بتيديس ربما بسبب نقص المساحة أو لسبب الدور العسكري الذي لعبته المدينة، أو بسبب المستوى الاجتماعي البسيط لطبقة السكان بتيديس التي تعتبر ضيقة صغيرة تخلو من مظاهر الأبهة والبذخ الموجودة في جميلة وتيمقاد مثلاً، ومن المنشآت أيضا التي لم توجد بتيديس أقواس النصر والمراحيض العمومية والنافورات.

كما نتج كذلك عن الطبيعة التضاريسية لتيديس خاصية مهمة أخرى تميزت في الاستعمال الواسع للعمارة الصخرية بهذه المدينة،^(٢٢) حيث عمل الرومان على تهذيب الصخر ونحته بما يخدم ويكمل بناء المنشآت المختلفة، فبسبب ضيق المساحة وبسبب الطبيعة الصخرية لغالبية الفضاء المحيط بهضبة تيديس، فقد

للهضبة ابتداء من المغارات القريبة من بوابة موميوس إلى قمة الهضبة، وهي تتسلق أيضا الجانب الجنوبي الشرقي للمدينة ابتداء من مغارة فيستا (Vista) حتى مركب معبد سيراس (Ceres) هذا بالإضافة إلى كل من معبد ميثرا والكنيسة المسيحية والكابيتول المجاور لبوابة موميوس، وهي كلها منشآت دينية شكلت بتوزعها أغلب معالم المدينة، وجعلت من كل هضبة تديس فضاء عبادة بالدرجة الأولى، وهذا ما يبرر أحد تسميات المدينة الموسومة بقدس الأقداس.

إذن هذه مجموعة خصائص استثنائية سمحت لتديس أن تكون مدينة متميزة ذات طابع فريد نادراً ما نجد له مثيل وهي كلها معطيات تزيد من القيمة الحضارية لهذه المدينة وتضاعف من أهميتها التي تقتضي توفير الحماية الجدية والدائمة لما تبقى من مخلفاتها. وبالحديث عن هذه المخلفات فإنه يجب العلم أن ما تبقى منها من جدران وأرضيات وأعمدة وأقبية وغيرها من عناصر معمارية، كلها تشير إلى طرق وتقنيات بناء معمارية عرفتها مدينة تديس، وهي في عمومها تقنيات بناء معروفة في مختلف أنحاء العالم الروماني، وهذا فإن الخصائص والاستثناءات العمرانية التي امتاز بها عمران تديس عامة لم تنطبق على تقنيات بنائها، ولقد استعمل في بناء معالم مدينة تديس العديد من التقنيات، والتي كان من أكثرها استعمالاً التقنية الإفريقية (Opus Africanum)،^(٢٦) حيث بنيت بها أغلب معالم المدينة، لكن استعمال هذه التقنية كان عن طريق بناء جدران من الدبش المتوسط تقطعها فواصل من الحجارة الكبيرة المتعامدة فوق بعضها على شكل أعمدة ذات وضع عمودي، ولا وجود للحجارة الفاصلة ذات الوضع الأفقي، ومن أمثلة هذه التقنية جدران فيلا الفسيفساء والأحياء السكنية المجاورة لها وكذلك جدران معبد (Sereres).

ومن التقنيات المستعملة أيضاً التقنية المختلطة (Opus Mixtum) التي وجدت بأنماط عديدة منها (Opus Mixtum à panneaux) التي وجدت بجدران قاعات الفوروم وكذلك جدران حمامات فيلا الفسيفساء، وهي شكل من أشكال كسوة الجدران حيث تجسدت هذه التقنية في بناء جدران من الآجر تتخلله لوحات ذات شكل زائد (+) من الدبش الصغير المنتظم البناء، هذا بالإضافة إلى نوع آخر من التقنية المختلطة (Opus Mixtum à une bande alternée de moellons et de briques)^(٢٧) أي القطع المزوجة بين شريط الآجر والحجارة، وهي التي تواجدت في جدران الخزانات الكبرى وجدران الحمامات المحاذية لها. بالإضافة إلى ذلك فقد استعمل في تديس تقنية أخرى وهي تقنية النظام الكبير (Opus quadratum) التي يستخدم فيها الحجارة الضخمة ذات الحجم الكبير (pierre de taille) وتتجلى هذه التقنية في قاعدتي بوابة موميوس وكذلك الجدران الحامل لساحة الفوروم، بالإضافة للحصن والصور البيزنطي بأعلى المنحدر.

وجد المعماري الروماني بهذه المدينة أنه مجبراً على استغلال هذه الفضاءات، وذلك رغم ما تمليه من وجوب توفير للوسائل وبذل للجهد، واستهلاك للوقت، حيث تمثل إدماجهم لهذه العمارة في نحت الصخر باختلاف أحجامه للحصول على أوجه جدران وأرضيات بأشكال مختلفة، لتستكمل هذه الأشكال بإضافات مبنية بالدبش أو الحجارة المختلفة، للحصول في الأخير على منشآت مدمجة في تكوينها بين العناصر الصخرية والعناصر المبنية، ولهذا النمط أمثلة وأشكال متعددة من زوايا المدينة، ومن بين أهم المعالم التي تميزت بها معبد ميثرا الذي كانت أغلب جدرانه صخرية، إلا واجهته الشرقية وتسقيفه والواجهة التي تفصل الغرفة ذات القبو عن الغرفة التي تليها، حيث اندثرت كلها تاركة فقط كل ما هو صخري.

بالإضافة إلى هذا فقد تجسدت العمارة الصخرية في الصخرة المهذبة التي تشرف على قاعة الفوروم والمقابلة للمنزل الصغير الملحق بالفوروم، حيث هذبت لتشكل على غرفتين استعملت واجهتهما الشرقية بجدران مبنية، وهي التقنية نفسها المستعملة في مغارة فيستا (Vista) وكذلك المنازل الصخرية بالجهة الغربية للحصن البيزنطي، ولقد تجسدت هذه التقنية حتى في بعض الأجزاء التكميلية للعمارة، كأن ينحت الصخر على شكل كوة مثلاً تجسد الحنية التي تتوسط الجدار المقابل لأروقة الكنيسة المسيحية الصغيرة، أو كأن ينحت الصخر لإنجاز سلم أو درج يربط بين طابقين أو يوصل إلى طريق أو يربط مستويين، ولقد استغل الصخر في تديس حتى في تهيئة بعض الممرات التي هذبت لتكون طرق.

ومن بين أهم الخصائص العمرانية أيضاً التي ميزت الطابع العام لمدينة تديس هي كثرة الخزانات والأحواض المائية، مما زاد حقاً في الطبيعة الاستثنائية التي اتسمت بها هذه المدينة، حيث أن ندرة المياه والمانع بها، وكذلك تضاريسها الوعرة التي صعبت إيصال الماء إليها، ألزمت سكانها بالبحث عن موارد أخرى للمياه تُعوّض العجز الموجود في هذا العامل الضروري للحياة، وبهذا سعى سكان تديس إلى الاستغلال الواسع لمياه الأمطار^(٢٨)، عن طريق إنجاز ما يفوق السبعين (٧٠) خزاناً بمختلف الأحجام موزعة عبر كل أرجاء المدينة لخدمة جميع المنشآت العمومية والخاصة، وهي مبروطة بشبكة مائية تستقطب كل مياه الأمطار التي تنزل بمختلف فضاءات المدينة أكبر هذه الخزانات هي التي تواجدت بأعلى المدينة وهي عبارة عن ثلاثة خزانات مدمجة في خزان واحد حيث بلغت سعتها (٣٥٠) متر مكعب.^(٢٩)

زيادة على التأثيرات الطبيعية التي خلفت الكثير من الاستثناءات العمرانية بمدينة تديس، فإن الجانب الديني أيضاً كان له نصيبه في التأثير، هذا التأثير الذي تجسد في كثرة المنشآت والمخلفات الدينية التي تعود لمختلف الفترات التاريخية المتعاقبة على هذه المدينة، ومن أهم هذه المنشآت المعابد التي غزت الهضبة من حدودها الجنوبية حتى أعلى القمة، كما تتدرج على الجانب الشمالي

الملاحق



صورة رقم (١)

البوابة الشمالية لمدينة تيديس



صورة رقم (٢)

السيف المنقوش بمفتاح العقد بقوس البوابة الشمالية



صورة رقم (٣)

السيف المنقوش بمفتاح العقد بقوس البوابة الشمالية

ومن التقنيات المستعملة كذلك تقنية القطع الآجورية (Opus Testaceum)^(٢٨) التي يستعمل فيها فقط حبات الآجر المنتظمة، وهي أيضا شكل من أشكال كسوة الجدران والموجبة في العادة إلى المعالم والمنشآت المائية، وأكثر ما تجسدت هذه التقنية بتيديدس في الحمامات الكبرى. ومن أهم تقنيات البناء الحاضرة في تيديدس أيضا تقنية (Caementicium) أو خليط الشظايا التي تستخدم كنواة داخلية أو سند للجدران، وهي خليط من الآجر والحجارة الصغيرة مع الملاط، حيث تسمح بإنجاز منشآت أعلى بكثير من تلك المنجزة بالحجر كما أنها اقتصادية وسهلة التنفيذ، وأوضح ما طبقت هذه التقنية بجدران قاعات الفوروم وكذلك أسوار الخزانات الكبرى، وهذا لما لهنذين المنشأين من دور معماري مهم يقتضي إعطاؤهما قوة ربط ودعم كبيرة.

تقنية السنبلة أو الحسكة (Spécatume) وتسمى كذلك هيكل السمكة، تستعمل عادة في نهايات الجدران أو كحشو لها أو تستعمل كتبليط وتهيئة الأرضيات، هي أيضا من التقنيات التي وُظِّفت في بناء منشآت تيديدس إذ وجدت خاصة في تبليط الأرضيات، وهو الأمر الذي نلاحظه في أرضية حوض الحمامات الصغرى والقاعة التي تليها بالإضافة إلى الحوض الصغير لإحدى قاعات فيلا الفسيفساء وكذلك أرضية قاعة أخرى بنفس الفيلا. وزيادة على كل هذه التقنيات فقد استعمل بتيديدس تقنية (Vittatum) التي اعتمدت على نطاق ضيق، حيث تبرز فقط في أجزاء من المدينة على غرار الأسوار المحيطة بساحة معبد فيستا التي استعمل فيها فقط الدبش المتوسط الحجم بأبعاد متفاوتة نسبياً، هذا الدبش الذي استكملت فراغاته وفواصله في أغلب الأحيان بحصى كبيرة. إذن هذه كلها مجموعة من تقنيات البناء الرومانية التي جسدتها مخلفات مدينة تيديدس، وهي بتنوعها النسبي تشير نوعاً ما إلى تفتح الثقافة المعمارية لدى معماري هذه المدينة ولو بشكل بسيط، وهذا رغم طغيان الطابع الوحيد المتمثل في التقنية الإفريقية.

خاتمة

بهذا نكون قد عددنا مجموعة مختلفة من الصور التي لاحظنا من خلالها أثر التعاقب الحضاري على مدينة تيديدس، وما خلفه من خصوصيات معمارية كانت ناتجة بدورها أيضاً عن الطبيعة التضاريسية، والخصوصية العسكرية، وكذلك المستوى الاجتماعي لهذه المدينة الصغيرة، التي استعمل فيها المعماري كل ما هو بسيط، متحاشي بذلك مظاهر البذخ، ومعتمداً فقط على مواد بناء بسيطة، كالحجارة والآجر والملاط، هي كلها مميزات زادت من قيمتها الأثرية الاستثنائية.



صورة رقم (٧)
القوسين الممثلين لتقاطع الطريقين الرئيسيين



صورة رقم (٤)
جزء من السور التحصينية للجهة الشرقية



صورة رقم (٨)
العمارة الصخرية بمعبد ميثرا



صورة رقم (٥)
الحصن الدفاعي للفترة البيزنطية



صورة رقم (٩)
الخزانات الكبرى بمدينة تيديس



صورة رقم (٦)
الدرج المجدد لطريق الديكيमानوس

- (1) Berthier(A), Tiddis, dans R.S.A.C, volume65, 1942, p145.
- (٢) انظر: الملاحق، صورة رقم (١).
- (3) Berthier(A), Tiddis, dans R.S.A.C, volume65, 1942, p145.
- (٤) انظر: الملاحق، صورة رقم (٢).
- (٥) أندري برتي، تيديس القلعة التيديتانية القديمة، ترجمة: العربي عقون، د ت، ص ٢٤.
- (6) Anne marie (L), les arcs de triomphe dédiés a Caracalla en Afrique romaine, doctorat en histoire de l'art et archéologie, université de Nancy2, France 2006, p182
- (7) IBID. p182.
- (٨) انظر: الملاحق، صورة رقم (٣).
- (9) Cherbonneau (M), Rapport sur les fouilles des kheneg (Tiddi et Calda), dans R.S.A.C, 1863, p.p170.213.
- (١٠) انظر: الملاحق، صورة رقم (٤).
- (11) Berthier (A), Tiddis cité antique de Numidie, T20, BOCCARD, Paris 2000, p39.
- (12) Berthier (A), Tiddis cité antique..., Op. Cit. p40
- (13) Berthier (A), Tiddis cité antique..., Op. Cit p41.
- (14) Berthier (A), Tiddis cité antique de..... op.cit. p41.
- (١٥) انظر: الملاحق، صورة رقم (٥).
- (16) Berthier (A), Tiddis cité antique de.... op.cit., p41.
- (17) Berthier (A), Tiddis cité antique..., Op. Cit. p42.
- (18) Abderrahmane Khelifa, Cirta, Constantine la capitale céleste, Colorset Alger 2011, p 26
- (١٩) انظر: الملاحق، صورة رقم (٦).
- (20) Abderrahmane Khelifa, Op. Cit, p 26.
- (٢١) انظر: الملاحق، صورة رقم (٧).
- (٢٢) انظر: الملاحق، صورة رقم (٨).
- (23) Cherbonneau (M), Op.cit, p.p170.213.
- (24) Abderrahmane Khelifa, Op.cit. p 26.
- (٢٥) انظر: الملاحق، صورة رقم (٩).
- (26) Jean-Pierre (A), la construction Romaine, matériaux et techniques 3(eme)edition, Paris1995. p.130.
- (27) Jean-Pierre (A), Op. cit. p155.
- (28) Jean-Pierre (A), Op. cit. p157.

إشكالية صناعة الأمفورات في شبه الجزيرة الطنجية خلال الفترة الرومانية

بوعزة بن مسعود بوعزة

باحث دكتوراه في التاريخ والأركيولوجيا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – تطوان
جامعة عبد الملك السعدي- المملكة المغربية



ملخص

دخلت شبه الجزيرة الطنجية في بوتقة الاقتصاد المتوسطي منذ وصول التجار الفينيقيين إلى أقصى غرب البحر الأبيض المتوسط، حيث عرفت المنطقة تطوراً كبيراً في بنيتها الاقتصادية سواء في الميدان الفلاحي أو الصناعي أو التجاري. وقد واكبت المنطقة التطور الاقتصادي الذي كان يعرفه حوض البحر الأبيض المتوسط عبر مر العصور، فمحترفاتها نشطت في كثير من الصناعات، من بينها صناعة الأمفورات التي تطورت منذ القرن السادس قبل الميلاد، إذ طورت محترفات المنطقة مجموعة من أصناف الأمفورات التي تعددت استعمالاتها ووظائفها، ومن أهم هذه المحترفات يمكن ذكر الأقواس ظهر أسقفان وعين مصباح. لكن ما يثير الانتباه هو أن بعض هذه المحترفات توقف في الفترة الرومانية ولا نعلم الجهة التي كانت تمول المنطقة بالأمفورات، خاصة وأن المنطقة عرفت انتعاشاً اقتصادياً كبيراً في هذه الفترة تطلب وجود عدد كبير من الأمفورات لتصدير خيرات المنطقة إلى الخارج. فهل صنعت محترفات شبه الجزيرة الطنجية الأمفورات في الفترة الرومانية أم أن منطقة ما زودتها بهذه الحاويات؟

كلمات مفتاحية:

شبه الجزيرة الطنجية، حوض البحر الأبيض المتوسط، مضيق جبل طارق، أمفورة، طنجة، ليكسوس، روما.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٥ يوليو ٢٠١٥
تاريخ قبول النشر: ٩ أكتوبر ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بوعزة بن مسعود بوعزة. "إشكالية صناعة الأمفورات في شبه الجزيرة الطنجية خلال الفترة الرومانية". - دورية كان التاريخية. - العدد الثلاثون؛ ديسمبر ٢٠١٥. ص ٨٧ - ٩١.

مقدمة

الرومانية، مع العلم أن المنطقة كانت بحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى الأمفورات نظراً للاستغلال المكثف للثروات الذي شهدته المنطقة في هذه الفترة؟

من خلال هذه الصفحات سنحاول صبر أغوار الإشكال الذي لا زال يحوم حول صناعة الأمفورات في شبه الجزيرة الطنجية في الفترة الرومانية، مع العلم أن المنطقة طورت محترفات هذه الصناعة منذ القرن السادس قبل الميلاد، فمحترف الأقواس صنع مجموعة من أصناف الأمفورات التي وجدت في مناطق مختلفة من حوض البحر الأبيض المتوسط كأصناف (Maña-Pascual A4) نهاية القرن السادس ق.م - الثاني ق.م^(١)، و (Carmona T-9.1.1.1) بداية القرن الرابع ق.م ونهاية القرن الثالث ق.م^(٢) وأمفورات (Maña C2b) نهاية القرن الثاني ق.م - الربع الثالث من

عرفت شبه الجزيرة الطنجية رواجاً اقتصادياً كبيراً في الفترة الرومانية وهذا ما تشهد عليه المصادر التاريخية القديمة وكذا المخلفات الأثرية المنتشرة على رقعتها، إذ تضاعفت المستغلات الفلاحية بالمنطقة كما تضاعفت معامل تملح السمك التي انتشرت على سواحلها. وقد كانت جل منتجات المنطقة تصدر إلى الخارج خاصة نحو روما، هذه المنتجات أغلبها كان بحاجة إلى حاويات لنقلها نحو الخارج، خاصة السمك المملوح الذي كان لابد له من الأمفورات لتعبئته، لكن ما يثير الانتباه هو عدم العثور إلى حد الساعة بالمنطقة على محترفات لصنع الأمفورات في شبه الجزيرة الطنجية تعود لبدائيات التدخل الروماني بالمنطقة. يحق التساؤل إذا عن الأماكن التي كانت تعبأ وتصدر منتجات المنطقة في الفترة

مهارة كبيرة وتقنيات عالية بقدر ما كانت تحتاج إلى مواد أولية لا يخلو منها مكان؟

١- حاجيات شبه الجزيرة الطنجية من الأمفورات

توجد بشبه الجزيرة الطنجية عدة معامل لتمليح السمك تنتشر من مصب نهر مرتيل إلى وادي ليكسوس^(١٢)، هذه المعامل كانت بحاجة إلى عدة أمفورات لتعبئة منتوجاتها التي كان جزءها الكبير موجه للتصدير نحو الخارج. فمعامل تمليح السمك في مدينة ليكسوس مثلاً كانت تنتج حوالي مليون لتر من السمك المصبر ونقيع السمك، وبهذا تكون معامل ليكسوس أكبر معامل لتمليح السمك في البحر الأبيض المتوسط في الفترة الرومانية، هذه الكمية الكبيرة كانت بحاجة إلى (٢٥٠٠٠) أمفورة لتعبئة منتوجاتها. أما معمل تمليح السمك بتهدارت فقد فاقت طاقته الإنتاجية (٤٣٢٠٠) لتر كانت تحتاج حوالي (١٠٠٠٠) أمفورة، بينما وصل إنتاج كوطا إلى ما يزيد عن (٢٧٠٠٠) لتر كانت تحتاج إلى (٦٧٥٠٠) أمفورة^(١٣)، هذه الوحدات الإنتاجية الثلاثة كانت في حاجة إلى (٤١٧٥٠٠) أمفورة لنقل إنتاجها دون احتساب المعامل الأخرى. إذن فأمام الحاجة الكبيرة لهذا الكم الهائل من الأمفورات كان لابد من وجود مزود رئيس لهذه المعامل من الأمفورات التي تحتاج إليها معامل تمليح السمك، المنتشرة على السواحل الطنجية والتي أنتجت كمية كبيرة من السمك المصبر ونقيع السمك، دون الحديث عن الخمور وزيت الزيتون التي أنتجت بكميات وفيرة في هذه الفترة، بحيث يستحيل معها استيراد الأمفورات الفارغة من مناطق خارج شبه الجزيرة الطنجية كما اقترح بونسك. إذن من كان يزود المنطقة بالأمفورات لحمل وتصدير منتوجاتها؟

إلى حد الساعة تتوفر على محترف واحد كان يصنع الأمفورات في شبه الجزيرة الطنجية خلال الفترة المتأخرة من التواجد الروماني في المنطقة، وهو محترف ظهر أسقفان^(١٤) الذي أنتج نوعاً واحداً هو (Almagro 51) أصناف^(١٥) A-B et C الذي يؤرخ بنهاية القرن الثالث والقرن الخامس. لكن لدينا بعض الأدلة توجي بوجود محترفات أخرى في شبه الجزيرة الطنجية كانت تشتغل قبل هذا التاريخ^(١٦)، إذ تم العثور في مناطق مختلفة من حوض البحر الأبيض المتوسط على مجموعة من الأمفورات كتب عليها عبارات تحمل أسماء بعض المدن لشبه الجزيرة الطنجية ونوع المنتج الذي كانت تحمله هذه الأمفورات، تعود كلها إلى الفترة الرومانية.

٢- أمفورات مدينة ليكسوس

عُثر في منطقة أليريا الإسبانية على أمفورة من نوع Beltran IIA تحمل عبارة:

COD PORT LIX VET Co(r)d(ula)⁽¹⁷⁾
Port(uensis)⁽¹⁸⁾ Lix(itana) uet(us).

القرن الأول ق.م.^(١٧) وأمفورات (Dressel 7-11) النصف الثاني من القرن الأول ق.م - النصف الأول من القرن الأول م،^(١٨) كما صنع في محترف عين مصباح (جنوب مدينة أصيلا) صنفين من الأمفورات: (Dressel 7-11)، و (Halter 70) النصف الثاني من القرن الأول ق.م - النصف الأول من القرن الأول الميلادي، كما ثبت صنع أمفورات (Maña-Pascual A4) صنف (T-12.1.1.1) القرن الثالث - القرن الثاني ق.م، بمحترف ظهر أسقفان. إضافة إلى هذا يحتمل أن تكون بعض مدن شبه الجزيرة الطنجية قد صنعت بعض أصناف الأمفورات، كليكسوس وتمودة اللتان يرجح أن تكونا قد صنعتا صنفين^(١٩) (Dressel 18)، و (Dressel 7-11)، كما يحتمل أن تكون مدينة طنجة قد صنعت أمفورات^(٢٠) (Dressel 18)، كذلك يرجح أن تكون مدينة سبتة قد صنعت أمفورات^(٢١) (Dressel 7-11). يدل هذا على أن شبه الجزيرة الطنجية نشطت في صناعة الأمفورات قبل الاحتلال الروماني، وطلورت أصناف مختلفة من هذه الصناعة، فهل حافظت المنطقة على إنتاجها من الأمفورات في الفترة الرومانية عجز البحث الأثري كشف النقاب عنه؟ أم أن الرومان كانوا في غنى عن محترفات المنطقة فاستوردوا الأمفورات من خارج شبه الجزيرة الطنجية؟

بعد إحكام الرومان قبضتهم على موريطانيا الغربية وتحويلها إلى ولاية رومانية تحت اسم موريطانيا الطنجية (٤٠-٤٢ م)، شرع الغزاة الرومان في استغلال ثروات المنطقة المتنوعة، سواء مواد أولية أو مصنعة لاقت إقبالا كبيرا في الأسواق الرومانية. إذ عمل الرومان على تطوير بعض الصناعات المحلية التي مارسها الإنسان الموري لقرون عدة، ونخص بالذكر صناعة تصبير السمك الذي برع في إنتاجه الموريون منذ القرن السادس والخامس ق.م.^(٢٢) ففي المرحلة الرومانية تضاعف عدد معامل تمليح السمك بشبه الجزيرة الطنجية على طول الساحلين المتوسطي والأطلسي. ولا شك أن صناعة تصبير السمك ومشتقاته كانت بحاجة ماسة إلى الأمفورات، كما تزايدت المستغلات الفلاحية بالمنطقة التي نشطت بها زراعة الزيتون واستخراج الزيت، وكذا زراعة الكروم وإنتاج الخمور.^(٢٣) لكن رغم هذا التطور والنشاط الاقتصادي الذي شهدته المنطقة بقي إنتاج الأمفورات في المنطقة خلال العهد الروماني لغزاً حير كثيرًا من الباحثين بهذا المجال الجغرافي مما حذى بالباحث بونسك أن اقترح فرضية استيراد الأمفورات من شبه الجزيرة الإيبيرية فارغة لتعبأ هنا بهذه المنتجات.^(٢٤) لكن ما هو عدد الأمفورات التي كانت تستورد من شبه الجزيرة الإيبيرية أمام الاستغلال المفرط لثروات المنطقة من طرف المستعمرين الرومان؟ وهل فعلاً عجز الطنجيون عن صناعة الأمفورات ليستوردوها من الضفة الشمالية للمضيق، مع العلم أن هذه الصناعة لا تتطلب

كما عُثر في (Augst) على أمفورة من نوع (Dressel 9) كتب عليها: MVR Mur(ia) L[---] L(ixitana)?⁽²⁹⁾.

إضافة إلى هذا عُثر في كل من: (Ladenburg) ألمانيا، و (Augst)، و (Aquileia) إيطاليا على بعض الأمفورات اللوكسية التي كانت مختصة في حمل السمك المصير.⁽³⁰⁾

٣- أمفورات مدينة طنجة

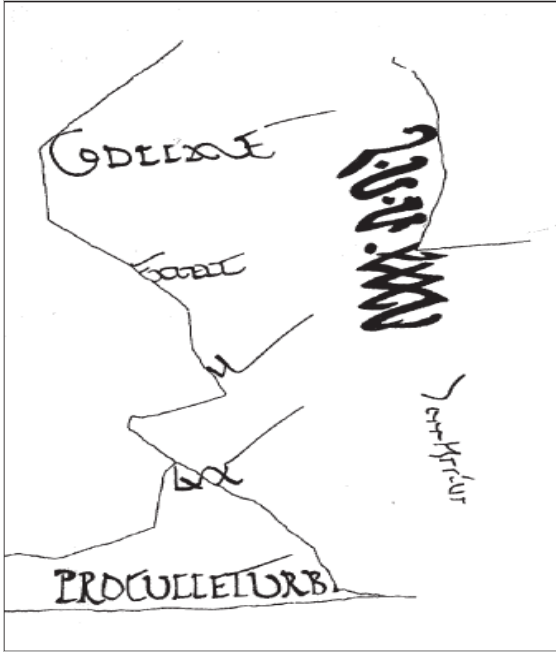
أما عن مدينة طنجة فقد عُثر في (Vindonissa) سويسرا على أمفورتين من نوع (Beltran IIB)، الأولى كتب عليها عبارة (CORD TING VET) والأخرى كُتبت عليها عبارة (COD TING VE)⁽³¹⁾، وفي مدينة بومبي عُثر على عدة أمفورات طنجية من النوع نفسه كُتبت عليها عبارات مختلفة نذكر منها:

-CORD T ARG VE cord(ula) T(ingitana) arg(uta) ue(tus)⁽³²⁾
- COD TI VE Co(r)d(ula) Ti(ngitana) ve(tus) XXX XXX
M ET L CLAVDIORVM M(arci?) et L(uci?) Claudiorum⁽³³⁾
- COD TING VET Co(r)d(ula) Ting(itana) vet(us) SVMMAR summar(um)
P XX p(ondus?) XX LXXX LXXX
C. TARENTI PAVLLI C(ai) Terenti Paulli⁽³⁴⁾
- LAC BES TING VE Lac(catum) BES Ting(itanum) ve(tus)
EXCELL excell(ens)
AAA (annorum trium)
CXXXXV CXXXXV
A. ATINI HERCVLANI A(uli?) Atini Herculani⁽³⁵⁾
- CODT TNG VE Co(n)d(i)t(um) T(i)ng(itanum) ve(tus)
SVMMAR summar(um)
XXX XXX
G[---] G[---]
M ET L CLAVDIORVM M(arci) et L(uci) Claudiorum⁽³⁶⁾.

إضافة إلى هذا، عُثر في كل من (Alésia) فرنسا، و (Fos) فرنسا وروما على بعض الأمفورات كُتبت عليها عبارات (COD (PORT VET)، و (COD PO V)، و (COD POM VET) هذه الأمفورات تنسب إلى مدينتي طنجة وليكسوس لأنهما المدينتان اللتان عرفتا بإنتاجهما الكبير لهذا النوع من السمك المصير ونقيع السمك بعمودي هرقل.⁽³⁷⁾ كما يحتمل أن تكون مدينة سبتة قد صنعت أمفورات (BELTRÁN IIA)، حيث عُثر على بعض القطع لهذه الأمفورات تعرضت لعملية شي غير ناجحة⁽³⁸⁾، هذا وقد أشار الباحث داريو كسسولة أثناء دراسته للأمفورات مدينة سبتة، خاصة

أما في مدينة بومبي (إيطاليا) فقد عُثر على مجموعة من الأمفورات كُتبت عليها عبارات مختلفة منها:

- CORD L ARG VE cord(ula) L(ixitana) arg(uta) ue(tus)⁽¹⁹⁾.
- COD LIX VE Co(r)d(ula) Lix(itana) ve(tus) EXCEL excel(lens).
- M. VALERI ABINNERICI M(arci) Valeri Abinnerici⁽²⁰⁾
- C[---] LIX VE C[ordula] Lix(itana) ve(tus)
- EXCELL excell(ens)
- SVMMA summa(rum?) XXXX XXXX⁽²¹⁾
- COD LIX V Co(r)d(ula) Lix(itana) v(etus) SVMMA summa(rum) EXCEL excel(lens)
X[---] X[---]
XXXX XXXX⁽²²⁾
M. COSCONI SATVRNIN M(arci) Cosconi Saturnin(i)
- COD LIXS Co(r)d(ula) Lix<s>(itana) EXCELL excell(ens)
SVMMAR summar(um)
AIIIIA (annorum) IIII XXV XXV
C. PAPINI PLANTAES C(ai) Papini Plantaes⁽²³⁾
- LAC BES LIX A VET Lac(catum?) BES Lix(itanum) a(rgutum) vet(us) SVMMAR summar(um?)
AAA (annorum trium)
CXL CXL
C. TARENTI PAVL[---] C(ai) Terenti Paul(li)⁽²⁴⁾
- [---]D LIX VE [Cor]d(ula) Lix(itana) ve(tus) [---]MAR [sum]mar(um?)
[---]II [annorum duorum?]⁽²⁵⁾
- CORD L ARG VE Cord(ula) L(ixitana) arg(uta) ve(tus)
PENVAR penuar(um)
SVMMAR summar(um)
AXIIIA (annorum) XIII CC CC⁽²⁶⁾
ASPASIA POLIDDORI Aspasia Poli<d>dori
- CONDT ARG LI Cond(i)t(um?) arg(utum) Li(ixitanum)
PENVAR penuar(um)
CI CI⁽²⁷⁾.
وفي Augst (سويسرا) عُثر على أمفورة من صنف Beltran IIB كُتبت عليها:
COD LIX VE Co(r)d(ula) Lix(itana) ve(tus) [---] [penuarum]
SVM sum(marum)
EXCEL excel(lens)
LXX LXX
M[---] M[---]⁽²⁸⁾.



شكل رقم (٢)

أمفورة لمدينة ليكسوس عثر عليها في Mainz

Source: Martin-Kilcher, 1994, fig. 272, n.1

صنف (ALMAGRO 51 A-B) إلى أن هذه الأمفورات محلية الصنع.^(٣٩)

خاتمة

إذا كان الحديث عن صناعة الأمفورات يحتاج إلى قرائن دامغة أكثر من هذا، إما بالعثور على أفران لصناعة الأمفورات أو العثور على أمفورات تعرضت للحرق أو لعملية الشي غير ناجحة، فتبقى هذه المساهمة كمقدمة لمشروع بحث أثري في المنطقة لرفع اللبس عن هذا الإشكال، فالبحث الأثري هو الكفيل بإثبات أو نفي هذه الفرضية، لكن العثور على هذه الأمفورات في مناطق مختلفة من حوض البحر الأبيض المتوسط تحمل أسماء بعض المدن ونوع المنتج الذي كانت تحمله ربما يوحي بأن شبه الجزيرة الطنجية كانت تتوفر على محترفات أخرى لصنع الأمفورات في الفترة الرومانية، زيادة على محترف ظهر أسقفان، خاصة بعد ظهور مؤشرات في مدينة سبتة توجي بصنع المدينة لبعض أصناف الأمفورات، إضافة إلى هذا ثبت صنع أمفورات (Beltrán IIB) في مدينة تموسيدا^(٤٠)، هذا ما يزيد من تأكيد ضرورة البحث الأثري في المنطقة لرفع هذا الإشكال بشبه الجزيرة الطنجية.

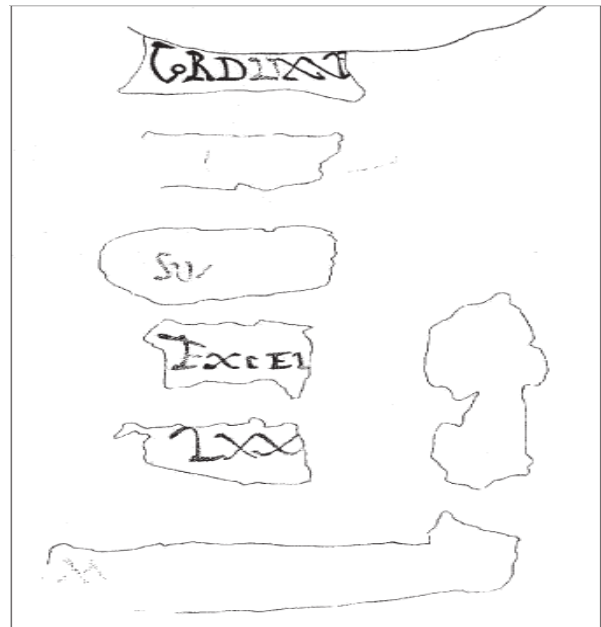
الملاحق:



صورة رقم (١)

أمفورة لمدينة ليكسوس عثر عليها في Pecio Gandolfo

Source: B. Liou et E. Rodríguez-Almeida, 2000, p.12



شکل رقم (۱)

أَمْفُورَة مَدِينَة لِيكْسُوس عَثْر عَلِيهَا فِي August

Source: Martin-Kilcher, 1994, p. 27

- (20) CIL IV, 5630.
 (21) CIL IV, 5632.
 (22) CIL IV, 5633.
 (23) CIL IV, 5636.
 (24) CIL IV, 5648.
 (25) CIL IV, 9369.
 (26) CIL IV, 9370.
 (27) CIL IV, 10286a.
 (28) S. Marttin-Kilcher, 1994, p. 27.
 (29) L. Cerii, 2006, p. 2180.
 (30) B. Liou et E. Rodríguez-Almeida, 2000, p. 13.
 (31) B. Liou, 1987, p. 68.
 (32) Ibidem.
 (33) CIL IV, 5629.
 (34) CIL IV, 5637.
 (35) CIL IV, 9373.
 (36) CIL IV, 10286b.
 (37) B. Liou, 1987, p. 69; B. Liou, 1993, p. 140; B. Liou et E. Rodríguez-Almeida, 2000, p. 12- 13.
 (38) D.-B. Casasola y otros, 2009, pp. 14-16.
 (39) D.-B. Casasola 1996, pp. 1191-1233.
 (40) A. Akerraz et alii, 2007, p. 163.

- (1) M. Ponsich 1969, p. 75-98; H. Hassini, 2001, p. 38 ; Id., 2006, p. 804 ; M. Kbiri-Alaoui, 2004, p. 201 ; Id., 2007, pp. 65-99.
 (2) M. Kbiri-Alaoui, 2007, p. 77-78.
 (3) B. Mlilou 1990-91, p. 67-68.
 (4) L. Callegarin, 2000, p. 1338.
 (5) A. El Khayari et M. Lenoir, 2012, 131-145.
 (6) H. Hassini, 2001, p. 49 et 60; M. Majdoub, 1996, pp. 300-2
 (7) M. Ponsich, 1970, p. 187.
 (8) J.J. Díaz Rodríguez, p. 2011, 573.
 (٩) تشير كثير من الدلائل عن إنتاج السمك المصير بموريطانيا الغربية منذ القرن السادس ق.م حيث عثر في بلاد الإغريق على بعض الأمفورات التي صنعت في محترفات الأقواس بداخلها بعض بقايا السمك المصير، إضافة إلى هذا صنعت المنطقة أصناف متنوعة من الأمفورات كانت مخصصة لحمل هذا المنتج كأمفورات (Maña-Pascual A4) و (Carmona T-9.1.1.1) وأمفورات (Maña C2b) وأمفورات (Dressel 7-11). كل هذه الأمفورات كانت مخصصة لتقل السمك المملوح.
 (10) M. Ponsich, Exploitations agricoles romaines de la région de Tanger, BAM, V, 1964, pp. 235- 252; Id., Contribution à l'atlas archéologique du Maroc: région de Tanger, BAM, V, 1964, pp. 253-290; Id., Contribution à l'atlas archéologique du Maroc région de Lixus, BAM, VI, 1966, pp. 377-423; Id., Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, Paris, 1970.
 (11) M. Ponsich 1970, p. 253- 254.
 (١٢) من بين هذه المعامل نذكر: معمل سانية الطريس، سبتة، القصر الصغير، الزهارة، سيدي قنقوش، كوطا، تهدارت، الأقواس، ليكسوس.
 M.Ponsich et M.Tarradell, Garum et industries antiques de salaison dans la Méditerranée occidentale, Coll. "Université de Bordeaux et Casa de Velasquez", Bibliothèque des Hautes Etudes hispaniques, 36, Paris, 1965.
 (13) A. Hesnard 1998, p. 174.
 (١٤) توجد محطة ظهر أسقفان على الضفة اليمنى لواد القصر الصغير على بعد ٨٥٠ متر من شاطئ البحر، وقد أشار إليها الباحث طراديل في ستينيات القرن الماضي. M. Tarradell, 1966, pp. 434-5. بدأت الحفريات في هذه المحطة سنتي ٢٠٠٥ و ٢٠٠٦ إثر مد الطريق السيار طنجة- واد الرمل، وقد أقيمت عملية التنقيب المستعجلة قبل أن يتم تحطيم الموقع المهم الذي يغطي فترة مهمة من تاريخ المغرب (الفترة المورية -القرن السادس قبل الميلاد- والفترة الرومانية ثم البدايات الأولى للفتح الإسلامي للمغرب). A. El Khyari et A. Akerraz, 2012, p. 11.
 (15) A. El Khyari et A. Akerraz, 2012, p.14.
 (16) H. Hassini, 2006, p. 805.
 (١٧) تطلق كلمة Cordula على صغار سمك التونة التي لم تبلغ السنة من عمرها.
 (١٨) تطلق كلمة Port(uensis) أو port(ensis) على نوع من السمك المصير الذي اختصت منطقة مضيق جبل طارق في إنتاجه خاصة في معمل طنجة وليكسوس وقادس ومالفا. B. Liou, 1993, p. 140; B. Liou et E. Rodríguez-Almeida, 2000, pp. 12-13.
 (19) B. Liou, 1987, p. 68.

نماذج من التماثيل المحفوظة في متحف شرشال - الجزائر دراسة وصفية

أبولو (Apollo) - باخوس (Bacchus) - ديانا (Diana) - فينوس (Venus) - اسكلابيوس (Aesclepius)

بلقاسم عماج



أستاذ مساعد الآثار
قسم العلوم الاجتماعية والإنسانية
جامعة معسكر - الجمهورية الجزائرية

ملخص

يندرج هذا المقال ضمن العمل المتحفي المتمثل في الدراسة الوصفية لبعض التماثيل المحفوظة في متحف شرشال - الجزائر، بحيث قمنا بإعطاء لمحة تاريخية موجزة حول تاريخ المدينة (شرشال)، كما خصصنا محور لدراسة ميثولوجية بعض التماثيل المدروسة من حيث الرمزية الخاصة لكل تمثال بالإضافة إلى دراسة اهتمام النحات في العصر القديم إلى احترام النسب المتمثلة في التناسق الجسمي للتماثيل وإعطائها صورة جمالية تعكس الشخصية المقصودة بها.

كلمات مفتاحية:

النحت الإغريقي، التماثيل الدينية، الفن الروماني، المتاحف الجزائرية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٧ سبتمبر ٢٠١٣
تاريخ قبول النشر: ١٠ ديسمبر ٢٠١٣

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بلقاسم عماج، "نماذج من التماثيل المحفوظة في متحف شرشال - الجزائر: دراسة وصفية"، دورية كان التاريخية، العدد الثلاثون، ديسمبر ٢٠١٥، ص ٩٢ - ٩٧.

مقدمة

رخامية عثر عليه بمدينة شرشال يحمل اسم هذا الملك. بعد وفاة الملك الموريتاني باخوس الثاني سنة ٣٣ ق.م الذي اتخذ من أيول عاصمة لدولته أثناء الحروب البونية قام الإمبراطور أغسطس قيصر بتولية يوبا الثاني حاكمًا على بلاد المازيس وبلاد الروم بعد إلحاقهما ببعضهما البعض لأن باخوس الثاني لم يخلف وريثًا للعرش عند وفاته وأن يوبا استحق عرش أبيه.

إهتم يوبا ببناء مدينة أيول وأطلق عليها لقب القيصرية متخذًا منها مقرًا لإدارة المملكة الواسعة،^(٣) عمل على تزيين العاصمة ليظهر ذلك في البنايات ذات الهندسة اليونانية والرومانية،^(٤) بعد وفاة يوبا الثاني سنة ١٨ ق.م تولى الأمر بعده ابنه بطليموس (١٨ ق.م - ٤٠ ق.م)، الذي كان يطلق على القيصرية اسم كانوش،^(٥) واصل بطليموس على خط أبيه بتمهيد المنطقة لاستيطان الرومان فقد بذل ما بوسعه ليغير الوجه الحضاري لمدينة المملكة خاصة

بعد الألف الثانية قبل الميلاد، عرفت السواحل الإفريقية إقبالاً كبيرًا من طرف الفينيقيين وأسسوا فيها مدن كثيرة، ولقد حظيت السواحل الجزائرية بحصة الأسد في ذلك حيث أسست مدن عدة اختيرت لها جزر هامة كجزيرة جونيغال التي أقيمت عليها مدينة أيول والتي تتوفر على حصانة نسبية من طرف هذه الجزيرة من أخطار الأمواج العاتية من الشمال الغربي شتاءً والشمال الشرقي صيفًا.^(١)

سُميت بأيول نسبة لآلهة فينيقية.^(٢) بعد نهاية الحرب البونية الثانية، استغل الحاكم النوميدي ماسينيسا (١٠٤-١٦٠ ق م)، انهزام قرطاجة ضد الرومان ليضم مدينة أيول لمملكته المساسيلين، خلال القرن الأول قبل الميلاد استقر ميسيبسا وهو آخر ملوك المستقلين في أيول، وهذا ما يبينه نقش قبر محفور على لوحة

وتصنيف الشعر،⁽⁸⁾ على يد إتروريا تعلمت روما حضارة الإغريق فكانت بذلك الجسر العظيم الذي عبرت فوقه فنون الشرق إلى الغرب.

النحت الروماني كان أصلاً فناً للتفاخر يحرص على إقامة التماثيل الأباطرة تشريعاً وتمجيداً لها فنجد أن الأقواس التي أقيمت على شرفها نحتت فيها مواضيع تخلد انتصاراتهم الحربية هداماً جعل الفن في خدمة الإمبراطورية. كما عرف الفن الروماني فن البوتريه وفي عهد الإمبراطور تراجانوس شرع النحاتون في استخدام أساليب تقنية بحتة لإثارة الانطباعات كإبراز تموج الشعر وحدقات العيون، وعلى يد إتروريا،⁽⁹⁾ تعلمت روما حضارة الإغريق، فكانت بذلك الجسر العظيم الذي عبرت فوقه فنون الشرق إلى الغرب. أقيم الإتروسك في روما منذ القرن السادس قبل الميلاد، لم يلبثوا أن غرسوا في هذه الإمبراطورية الجديدة ديانتهم وعلوم العرافة ثم أضافوا إلى تقنية نحت التماثيل البرونزية، بينما الإغريق عملوا على أن يجعلوا من مدينتهم صورة للعالم.⁽⁹⁾ ففي الفترة الكلاسيكية القرن الخامس قبل الميلاد، اقتصر مهمة النحات الروماني على صنع نسخ لا حصر لها من التماثيل، تلبيةً لرغبة الهواة جامعي التحف أمثال يوبا الثاني، وأشهر النحاتين الكلاسيكيين أمثال: ميرون، بوليكلات، فدياس، براكسيثال.

ثانياً: ميثولوجية التماثيل الدينية عامة

١-٢/ أبولو: (Apollo)

عند الإغريق هو، إله الشمس، إله الموسيقى، إله الرماية وليس إله الحرب إله الشعر، إله الرسم، إله النبوة، إله الوباء والشفاء، إله العناية بالحيوان، إله التألق، إله الحرث. يملك جمال ورجولة خالدة، وهو ابن الإله زيوس، والأخ التوأم لأرتيميس. وكان مقر عبادته بجزيرة دولفي في اليونان. حسب إلياذة هوميروس البجع مقدس عند أبولو (تقول أحد الأساطير بأن أبولو كان يطير على ظهر بجعة إلى أرض هيبوربانز حيث كان يقضي شهور الشتاء بينهم، والذئب والدولفين أيضاً مقدسين عنده يملك القوس والسهام، وعلى رأسه تاج غار، ويملك قيثاره ومضرب. لكن ملكيته الأكثر شهرة هي الحامل الثلاثي، رمز سلطاته النبوية، أبولو كان يعبد في كافة أنحاء العالم اليوناني، في ديلفي كل أربع سنوات كانت تعقد ألعاب بيثيان على شرفه. كان له العديد من الألقاب، أبولو بيثيان اسمه في دولفي، أبولو أبوتروبايوس (Apotropaeus)، أبولو الذي يتفادى الشر، وأبولو نيمفيغيستس (Nymphegetes)، أبولو الذي يعتني بالحيوانات، إله الرعاة، كان عنده لقب (Lukeios) أيضاً (lykos) يحيي القطعان من الذئب.⁽¹⁰⁾ كان أبولو يوجه الكهنة في دولفي لإعطاء توجيهه قدسي، حيث يقرر اتجاه الاستكشافات والفتوحات، كان هذا أثناء قمة عصر الاستعمار حوالي (٧٥٠-٥٥٠) قبل الميلاد. حيث كان لقبه الرئيسي

الساحلية منها، إضافة إلى الحرص على أمان وراحة الجالية الرومانية بها،⁽⁶⁾ لما صعد كاليجولا عرش الإمبراطورية الرومانية، خلفاً لتيبيريوس فكر في ضم موريتانيا والاستلاء على أملاك بطليموس فيها، فأمر بقتله وكان ذلك سنة ٤٠م، عين بدله حاكماً رومانياً وألحقت مملكته مباشرة بالإمبراطورية الرومانية بعد أن قسمت إلى مقاطعتين: موريطانيا الطنجية غرب الملوية، موريتانيا القيصرية من الملوية إلى منطقة سطيف، لكن القيصرية لم تفقد مركزها التجاري لأنها أصبحت عاصمة للولاية الرومانية الجديدة التي شملت ثلثي الشمال الجزائري.⁽⁷⁾ بعد دمار شرشال على يد الوندال سنة ٣٧٢م خضعت المدينة للبيزنطيين منذ سنة ٥٣٤م هي وتبسه المجاورة الذين أعادوا لها شيئاً من أهميتها السابقة، ولكن بعد الفترة البيزنطية تدهورت شرشال وانحطت حتى اختفت من الذاكرة وبعد الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا سميت بـ "شرشال".

متحف شرشال يحتوي على تماثيل فائقة الجمال والصنع مثل: التماثيل الضخمة للإلهين الرومانيين اسكلابيوس وباخوس، يوجد في جنوب المتحف بعض الآثار الرومانية مثل الفوروم، البازيليكا السفيرية كذلك المسرح الروماني، وإلى الغرب توجد الحمامات ومما يذكر أنه في عهد الاستعمار الفرنسي نُقلت تماثيل شرشال إلى متاحف باريس، كما استعملت حجارة المسرح في بناء الثكنات الفرنسية والكنائس.

والإشكالية المطروحة في هذا الموضوع هي: هل هذه التماثيل نحتت في شرشال؟ هل المادة الأولية محلية؟

أولاً: لمحة تاريخية عن النحت الإغريقي

ليس النحت وليد إحساس جمالي بل نشأ لإشباع حاجة لا شعورية ناتجة عن معتقدات دينية من ورائها جسم الإنسان هذه القدرات في تماثيل دقيقة الصنع كأنها واقعية. اهتم الإغريق بالفن ووجه لكل جهوده إلى إيجاد لغة فنية عالية تعبر عن عبقريته الخاصة وقد تخطى في ذلك كل التقاليد الفنية: الإيجية، المصرية، الآسيوية، اهتموا بنحت الإنسان وأبدعوا فيه إلى درجة الكمال الجسدي والنفسي، وكانت كل غايته أن يصل بذلك إلى كمال الروح. الإنسان هو مقياس كل شيء في هذا العالم، ولا يوجد أجمل من جسمه، ولا أمهر من يده، ولا أذكى من عقله، ولم يكن بإمكان الإغريقين التحليق في سماء الفن بأجنحتهم الخاصة لو ظلوا منطويين على أنفسهم ومنعزلين عن فنون العالم الخارجي. وقد شعر هؤلاء خلال القرن الثامن قبل الميلاد بضرورة الخروج عن بلادهم، والاتصال بجيرانهم ليستوحوا من فنونهم ويتعلموا على أيديهم صناعات فنية لم يألفوها، لكن الشرق لم يكن معلمهم الأوحد لأنهم تعلموا أيضاً على مدرسة مصر. وأخذوا عنها فن نحت التماثيل، وفي التماثيل الإغريقية الحجرية الأولى بعض التفاصيل التي نقلت عن النماذج المصرية كتقديم الرجل اليسرى إلى الأمام

٥/٢ - اسكلابيوس: (Aesclepius)

عند الإغريق إله الصحة والطب حسب معتقداتهم؛ هو ابن الإله أبولون وأمه أرتميس حسب بعض الرواية أنه ولد في مدينة (ترك). ملامحه في البداية كان يظهر بدون لحية ثم أصبح يمثل بصفة كهل ذو لحية كثيفة، وشعر طويل يرتدي شملة عادةً ما يترك الصدر عاري يتكئ على عصا، يلتوي عليها ثعباناً الذي له القدرة على العلاج أحياناً مرفقا بـكلب حراسة. هناك رواية أخرى بـبلوبونزية تروي أن كرونيس أنجبت ابنها قرب مدينة أبيدور ووضع الصبي فوق جبل فأطعم من طرف عزة وحرس من طرف كلب، وبعد تعلمه فن الطب عن السيناتور شيرون أصبح ماهراً في العلاج.⁽¹⁵⁾ كما توصل إلى إحياء الموتى، هذا ما أدى إلى إثارة غضب الإله زوس وقتله بصاعقة، وصلت عبادة اسكلابيوس إلى آسيا ما بين (٤١٩) و (٤٢٠) ق.م. أما إلى روما وصل خلال القرن الثالث قبل الميلاد لأن في سنة ٢٩١ ق.م أصيبت روما بمرض الطاعون فقام مجموعة من المواطنين بنقل أحد ثعابين الإله من معبده إلى روما.

ثالثاً: الدراسة الوصفية

(تماثيل متحف شرشال - الجزائر)

وضع بطاقة تقنية لكل تمثال:

البطاقة:	رقم (١)
رقم الجرد:	٢٠٠/١
اسم التمثال:	أبولون.
المقاسات:	الطول: ٢,٤٣ م، العرض: ٣٩ سم، طول الرأس: ٣٠ سم
مادة الصنع:	رخام أبيض الشفاف ذو الحبيبات الرقيقة والخشنة والأبيض ذو العروق الرمادية.
الوصف:	عضلات التمثال بارزة تدل على القوة، الجسم عاري ذراعيه مبتورتين الذراع الأيسر يتكأ على الشجرة التي يلتف بها الثعبان، رجله اليمنى تتقدم عن اليسرى مما يظهر وكأنه يتكأ عليها.
التأريخ:	؟؟
حالة الحفظ:	المتحف تقام به بعض الأشغال، مما أدى إلى نقل التماثيل من مكانها.

(Archigetes) زعيم المستعمرين، طبقاً لأحد الأساطير؛ كان أبولو هو الذي ساعد المستعمرين الكريتيين أو الأكاديين على العثور على مدينة تروي.

٢/٢ - باخوس: (Bacchus)

يعادل الإله الإغريقي ديونيسوس عند الرومان إله الخمر، وإله المنتجات الفلاحية والكروم؛ يوصف في البداية على أنه مسن كثيف اللحية بعدها أصبح يمثل في صفة شاب عادةً ما يكون عارياً، يرتدي جلد صغير الظبية يحمل عادة بإحدى يديه كأس ذو عروتين أو عنقود عنب، يتكئ على مزراق الذي ينتهي بحبة صنوبر، يلتوي عليه نبات متسلق (اللبلاب)، غالباً ما يكون رأسه متوجاً بتاج من عناقيد ورق العنب.⁽¹¹⁾ تتمثل أهم ملحقاته في المزراق، الكأس ذو عروتين، عناقيد وأغصان وأوراق العنب واللبلاب، إلى جانب سلة مقدسة يتسرب عبر غطاءها الشبه مقوس رأس ثعبان، كما تلحق به حيوانات تتمثل في الكلب والفهد.

٣/٢ - ديانا: (Diana)

تعادل الإله الإغريقي ارتيميس صفتها إله الصيد؛ هي أخت إله أبولون، انتشرت بكثرة عبادة ديان في معظم المقاطعات الرومانية وتعبد أحياناً كإله القمر كون أخها إله الشمس، من طبيعتها أنها تظهر واقفة وأحياناً في وضعية مشي أو ركض.⁽¹²⁾ قصير تضع حزامين الأول في أسفل الصدر والثاني في مستوى الورك، تحمل وراء ظهرها رماح للصيد وببدها قوساً يرافقها كلبها وأحياناً الظبية. تصبح الهة الصيد وأخت الإله أبولون لكن دون التخلي تماماً عن الخصائص والطقوس الإيطالية، انتشرت عبادة ديانا في معظم المقاطعات الرومانية إذ تعتبر أحياناً إلهة القمر، كون أخها كان يعبد إله الشمس. غالباً ما ترتدي لباساً طويلاً، للإلهة ديانا ملحقات متعددة أهمها، أسلحة الصيد، تحمل فوق ظهرها علبة مملوءة بالرماح، وببدها قوساً، أما الملحقات الحيوانية فتتمثل خاصةً في الكلب والظبية، وبعض الحيوانات المتوحشة. فكإلهة الطبيعة عامة تحمل ببدها أزهاراً، أو كإلهة القمر يلمع بجبينها هلال وتحمل في بعض الأحيان مشعل وثعابين، وهذا ما يدل على طبيعتها الجهنمية.

٤/٢ - فينوس: (Venus)

تعادل إلهة الإغريقية أفروديت، أصبحت بذلك إلهة الحب والجمال بالدرجة الأولى بدون التخلي عن الخاصية الفلاحية، وتظهر أحياناً كإلهة بحرية كما كانت لها علاقة عاطفية مع إله مارس. انتشرت عبادة إلهة فينوس بكثرة يعود الفضل في ذلك إلى بعض الحكام وكانت بعض العائلات فخورة بنسبها كونها من سلالة (ايني) ابن فينوس، خاصةً يوليوس قيصر،⁽¹³⁾ حيث نقش في عملته صورة الإلهة.⁽¹⁴⁾ أما ملامح الجسمانية، فغالباً ما تكون رشيقة، وأحياناً تسريح شعرها يكون إلى الأعلى على شكل عقدة فراشة.

البطاقة رقم:	رقم (٤)
رقم الجرد:	٢٠٣/٣
اسم التمثال:	ديانا.
المقاسات:	الطول: ٥٢ سم العرض: ١٦ سم
مادة الصنع:	رخام أبيض الشفاف ذو الحبيبات الرقيقة والخشنة والأبيض ذو العروق الرمادية.
الوصف:	تظهر بلباس قصير ناعم رقيق، تحتزم بحزام على وسطها، تضع وراءها جعبة النبال، لغرض الصيد ذراعها مبتورتين، رجلها اليسرى متقدمة عن اليمنى، كأنها في حالة ركض، تبدو في لياقة بدنية جيدة، يرافقها كلها الصياد، تشبه تمامًا التحفة الأصلية الموجودة في متحف اللوفر.
التأريخ:	لا يوجد
حالة الحفظ:	المتحف تقام به بعض الأشغال، مما أدى إلى نقل التماثيل من مكانها.

البطاقة رقم:	رقم (٥)
رقم الجرد:	٢٠٤/٤
اسم التمثال:	فينوس.
المقاسات:	الطول: ١,٥٥ م العرض: ٣٦ سم
مادة الصنع:	رخام أبيض الشفاف ذو الحبيبات الرقيقة والخشنة والأبيض ذو العروق الرمادية.
الوصف:	جسم عاري متناسق، نحتت بشكل جيد، خصائص الأنوثة بارزة، ذراعها مبتورتين، الرأس أيضًا تنكئ على جذع مكسور يجاورها دلفين، رجلها الأيسر متقدم عن الأيمن.
التأريخ:	؟؟
حالة الحفظ:	المتحف تقام به بعض الأشغال، مما أدى إلى نقل التماثيل من مكانها.

البطاقة رقم:	رقم (٢)
رقم الجرد:	٢٠١/٢
اسم التمثال:	باخوس.
المقاسات:	الطول: ١,٦٥ م، العرض: ٣٩ سم، طول الرأس: ٢٩ سم
مادة الصنع:	رخام أبيض الشفاف ذو الحبيبات الرقيقة والخشنة والأبيض ذو العروق الرمادية.
الوصف:	يضع على كتفه الأيسر جلد معز، ذراعيه ورجليه مبتورتين، عضلات جسمه بارزة، التحفة الأصلية صنعت في مدرسة براكسيثال كما توجد نسخة من البرونز في بومي
التأريخ:	لا يوجد
حالة الحفظ:	المتحف تقام به بعض الأشغال، مما أدى إلى نقل التماثيل من مكانها.

البطاقة رقم:	رقم (٣)
رقم الجرد:	٢٠٢/٣
اسم التمثال:	إسكولابيوس.
المقاسات:	طول الجزء العلوي: ٥٨ سم، طول الجزء السفلي: ٥٦ سم طول الرأس: ٤٠ سم
مادة الصنع:	رخام أبيض الشفاف ذو الحبيبات الرقيقة والخشنة والأبيض ذو العروق الرمادية.
الوصف:	تمثال ضخيم وجد قرب المسرح، في وضعية جلوس، نصفه السفلي مغطى بوشاح، يضع على كتفه الأيسر وشاح، فمه مفتوح عينيه بارزتان لحيته كثيفة شعر رأسه مجعد، ذراعيه مبتورتين
التأريخ:	لا يوجد
حالة الحفظ:	المتحف تقام به بعض الأشغال، مما أدى إلى نقل التماثيل من مكانها.

رابعاً: الدراسة الفنية

(تماثيل متحف شرشال - الجزائر)

١/٤- المواد المستعملة في النحت:

الرخام، مرمر "مرمر" بالإنجليزية، "مرمر" باللاتينية (صخرة رسوبية صلبة ناتجة عن تحول الحجر الكلسي نتيجة الضغط والحرارة).⁽¹⁶⁾ يرتبط لونه بالمعدن الذي يدخل في تركيبة الحجر الكلسي الذي يشكله معطياً بذلك اللون الأبيض فاللون الأسمر يدل على أكسيد الحديد، الأصفر عن هيدوكسيد الحديد، والأخضر عن سيليكات المغنيزيوم، أما الرخام الأبيض الناصع فينحدر عن تحول بنية الحجر الكلسي النقي الصافي.

نحتت تماثيل المعروضة في متحف شرشال بالرخام الأبيض الصافي الشفاف ذو الحبيبات الرقيقة والخشنة والأبيض ذو العروق الرمادية، لكن المعطيات مازالت ناقصة وغير كافية لتحديد أصله ومصدره، واعتماداً على اللون والفحص بالعين المجردة، يبدو للوهلة الأولى شبيه بالرخام الأبيض لمحاجر فلفلة بسكيكدة، خاصة وأن هناك آثار استغلال الرخام الأبيض بصفة كبيرة بمحجر رأس فلفلة تعود للفترة الرومانية.⁽¹⁷⁾ كما يقترب من الرخام الأبيض ذو العروق الرمادية لمحجر رأس فلفلة بعنابة، ونظراً لكون التماثيل شبيهة برخام المناطق المجاورة، فإنه يمكن الاحتمال أنها من صنع محلي، غير أن هذا الانطباع يجب تعريضه باستمرار للرؤية الناقدة مادامت المادة الرخامية لم تدخل المخبر بعد.

٢/٤- تقنية النحت:

الفن الروماني فن مستورد، ما هو إلا مقلداً للنحت الإغريقي، استلهم نحاتو الفترة الرومانية سواء في روما أو المقاطعات الرومانية أعمالهم من نماذج المدرسة الإغريقية. يتميز أسلوب فيدياس بتجسيده الهيبة على التماثيل محاولاً رسم نوع من العظمة والفخامة، وهذه من خصائص الفترة الكلاسيكية الإغريقية التي تعطي للتماثيل نوع من الحركة. كما نحت الفنان بوليكلات، الرياضي رامي القرص العاري لإبراز عضلات الجسم، أسلوب فيدياس يتميز بالبساطة المهيبة، لم يكتفي فقط بتعظيم ما هو خارق للطبيعة، بل يبعث فيه الحيوية، الفخامة، الهيبة، كما نجده في التماثيل الموجودة في متحف شرشال ذات تحف خشنة من طراز كلاسيكي. في الحقيقة: هذه التماثيل لها طابع جمالي رغم إتلاف أجزاء منها، بل هي نسخ وماهرة لتحف أنجزها فنانون إغريق برعوا في مهنتهم، مثلاً تماثيل للإله جوبيتر عُثرا عليهما في مدينة خميسة، يوحيان كليهما بزوس دوتريكولي،⁽¹⁸⁾ (Zeus d'otricoli)، في متحف الفاتيكان ملامح وجهها؛ عليهما النبل والوقار، الشعر طويل ومتموج يرمز للقوة والأنفة.

٣/٤- التناسق الجسمي:

كان النحت الإغريقي يخضع انجاز تماثيله لقوانين حسابية قائمة على احترام النسب التي يجب أن يأخذها كل جزء من أجزاء الجسم وذكر فيتروفيوس النسب التي كان معمول بها عند معظم النحاتين الإغريق، إذ كان يقسم التمثال على (٨) أجزاء، يأخذ الرأس ثمن الارتفاع (٨/١) الكلي للجسم والوجه العشر (١٠/١)، أما ارتفاع الوجه فيساوي طول اليد من المعصم إلى نهاية الأصبع الأوسط.⁽¹⁹⁾ من خلال المقاسات التي أخذتها لمجموعة تماثيل متحف شرشال، خاصة بالنسبة لتمثال أبولوا، اتضح لي أن قانون النسب السابق الذكر الذي يرتبط فيه الرأس بالارتفاع الكلي للجسم قد احترم بشكل دقيق وعليه قدر ارتفاع رأس الإله أبولون. المقاسات: (الطول: ٢,٤٣ متر، العرض: ٣٩ سم، طول الرأس: ٣٠ سم، أي إذا قسم الطول (٢,٤٦ م على ٨) يساوي طول الرأس ٣٠ سم.

على هذا الأساس نقول أن النسب احترمت لبعض تماثيل شرشال، أما التماثيل المتلفة بعض أجزائها لا نستطيع أن نطبق عليها هذه النسب بسبب إتلافها لبعض أجزاء الجسم كالأطراف والأرجل وأحياناً الرأس. اتبعت بعض تماثيل متحف شرشال قانوناً آخر للنسب أقامه الفنان بوليكلات الذي يُعد ذروة أعماله معتمداً في ذلك على قواعد رياضية أساسها عرض الكتف، جزأ الفنان تماثيله إلى (٧) أجزاء عوض (٨) بأخذ ارتفاع الرأس (٧)، الإله أبولون بمقدار (٣٤ سم) من الارتفاع الكلي للجسم (٢,٤٦ م). أما القانون الذي أساسه عرض الكتف فكان يطبق على أعضاء الجسم، فالقدم يأخذ نسبة ثلاث مرات عرض الكف وستة للساق وأربعة من بداية العظم الأول للأصابع إلى المرفق وأربعة من المرفق إلى أعلى الكتف (20). يتخذ تماثيل الإله اسكولاب نفس وضعية تماثيل زوس قيصر فير وسبي في متحف الفاتيكان، جاء جالساً على العرش في هيئة الفخامة إنه مستوحى فيما يظهر من مدرسة فيدياس الذي أبدع نمطاً مثالياً لزوس وهو زوس أولمبي.⁽²¹⁾

خاتمة

من خلال دراستنا لتمائيل متحف شرشال، توصلنا إلى النتائج التالية:

- نُحتت التماثيل بأحجام مختلفة، فمنها ذات الحجم الطبيعي بالإضافة إلى التماثيل الضخمة.
- احتفاظ التماثيل بشتى أنواعها بالميزات نفسها التي حُصت بها النماذج الإغريقية الرومانية من النوع نفسه من ملامح الوجه، الهيئة، الخصائص الجسمانية ونوع اللباس لبعض التماثيل والملاحظات. أما الاختلافات الطفيفة تعود بلا شك أحياناً إلى عدم مهارة اليد العاملة، وأحياناً أخرى إلى رغبة النحات في إضفاء بصمته الشخصية والتعبير بمهارة على سمات وشخصية التحفة المنجزة.
- من خلال المقاسات التي أخذتها لبعض تماثيل متحف شرشال، اتضح لي أن قانون النسب سواء المعمول به عند معظم النحاتين الإغريق قد احترم.
- تنتهي مجموعة تماثيل الآلهة لمتحف شرشال، إلى مدارس فنية إغريقية شهيرة وهي المدرسة الآتيكية مدرسة فيدياس، مدرسة بوليكلات، ومدرسة براكسيثال إلى جانب مدرسة ليسيب.
- رغم ما تبديه التماثيل الميثولوجية من تشوهات إلا أنها جديرة بالاهتمام جمالياً، بل هي نسخ ذكية وماهرة لفنانين إغريق برعوا في مهنتهم مثل تمثال اسكولاب.
- احتمال استعمال فنانوا شرشال وضواحيها التقنيات نفسها والأدوات الشائعة في العالم الإغريقي الروماني كاستعمال المقص في المساحات المسطحة والمثقاب في الأماكن المخرمة مثل الشعر والعينين.

الهوامش:

- (1) Gsell (ST): Promenade Archéologique Aux Environs D'alger, Les belles Lettres, Paris, p9.
- (2) منير بوشناق: المدن القديمة في الجزائر، ط٢، الجزائر ١٩٨٢، ص٢٢.
- (3) نفسه، ص٢٢.
- (4) محمد البشير شنيقي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٩٩، ص١٥-١٦.
- (5) منير بوشناق: المرجع السابق، ص١٣-٢٢.
- (6) مارمول كريخال: إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، ج٢، دار النشر والمعرفة، الرباط ١٩٨٩، ص٣٥٥.
- (7) محمد البشير شنيقي: المرجع السابق، ص٤٧.
- (8) Boardman(J.), la sculpture Grecque archique, paris, 2003, pp 12-13 .
- (*) إتروريا: بلاد قديمة في وسط إيطاليا، تشمل اليوم منطقة توسكانيا وجزء من منطقة أمبريا، نشأت فيها حضارة قديمة بلغت أوج ازدهارها في القرن السادس قبل الميلاد.
- (9) سليم علال عبد الحق: الفن الإغريقي وآثاره المشهورة في الشرق، سوريا ١٩٥٠، ص٦٨.
- (10) Grimal (p).Dictionnaire de la mythologie, grecque et romaine, paris1951, P.125.
- (11) Richepin (J).nouvelle mythologie illustrée, t 1, paris 1923, p 68 .
- (12) Grimal (p) op, cit, P.123.
- (13) Champeaux (J), Le Culte de la fortune le monde romaine, t2, paris 1987, p46.
- (14) Daremberg (ch.) et saglio(v), dictionnaire des antiquités greques et romaine t1 , paris1926, p724.
- (15) Lavedan (p.), dictionnaire illustré de la mythologie antiquités greques et romaines, paris1931, p 115 .
- (16) Bertrant (L.), la science des roches, paris, 1949, p103.
- (17) Drombrowski(A.), Dumont(A.), Rondlet(A.), Avenne(P.), Notice sur les marbrières de filfila, province de constantine, Paris 1878, p4 .
- (18) Collignon (m.), Mythologiefigurée de laGrece, paris1883, p3 .
- (19) Perrault (M.), les Dix livres d'Architecture de Vitruve, Livre III, Paris 1988, p51.
- (20) Picard (ch.), Manuel d'archéologie grecque, sculpture, t2, Paris p 285.
- (21) Ibid, p4.

نقوش عربية شمالية من البادية الأردنية موقع تلة المعن نموذجاً

د. زياد عبد الله العلي طلاحفة

مديرية آثار المفرق

دائرة الآثار العامة

عمان – المملكة الأردنية الهاشمية

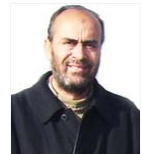


د. عبد القادر محمود الحصان

أخصائي الآثار الإسلامية والنقوش القديمة

مدير مديرية آثار محافظة المفرق

المملكة الأردنية الهاشمية



ملخص

يقدم هذا البحث دراسة تحليلية لغوية لعدة نقوش من النقوش العربية الشمالية القديمة، والتي اصطلح على تسميتها بالصفائية، وقد عُثِر عليها في تلة المعن الواقعة جنوب شرق بلدة الصفاوي بحوالي خمسون كيلو متر، وتبرز أهمية هذه النقوش بأنها أخرجت عن استخدام بعض الصيغ الطلبية الدعائية لعدد من الآلهة، فقد طلب من "اللات" الراحة بعد الضيق، وكذلك الطلب من "جد ضيف، اللات" السلام، وتدوين أحداث وقعت في الماضي مثل: لتوجع والتألم، قص الأثر، السبي من حوران، والمرض عند السكن في الدار.

كلمات مفتاحية:

النقوش الصفائية، خط البادية، النقوش الإخبارية، النقوش الدعائية، اللهجات العربية القديمة

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٠ يوليو ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ١٥ سبتمبر ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد القادر محمود عبد القادر الحصان، زياد عبد الله العلي طلاحفة، "نقوش عربية شمالية من البادية الأردنية: موقع تلة المعن نموذجاً"، دورية كان التاريخية، العدد الثلاثون، ديسمبر ٢٠١٥، ص ٩٨ – ١١٢.

مقدمة

هي المعلم البارز والظاهر في شرق حوران، وكانت مركزاً من مراكز الجيش الروماني (لتمان ١٩٤٩: ٢٤٨)، ولم يرد في النقوش الصفائية ذكر أو إشارة تؤكد هذه التسمية (ديسو ١٩٥٩: ١٦٢).
النقوش الصفائية التي تم اكتشافها كانت غالبيتها العظى في منطقة الحرة الممتدة جنوب سوريا وشمال شرق الأردن، وأما خريطة انتشارها فكانت من عرعر وبدنة شمال شرق السعودية جنوباً، حتى بعليك "جرد عسال" في لبنان والصالحية في سوريا شمالاً، ومن أم الجمال والأزرق في الأردن غرباً، إلى الرطبة في العراق شرقاً، والصخور التي دونت على صفحاتها النقوش صخور سوداء ملساء خرجت من باطن الأرض أثر بعض البراكين التي انتشرت على الظاهر، واحتوت هذه المنطقة على العديد من الأودية، والواحات الخصبة والتي توطنت بها القبائل العربية الصفائية وهذه التسمية أطلقها العلماء المستشرقون. وهي ليست اسم علم أطلق على قوم أو على قبيلة معينة (علي ١٩٦٨: ١٤٣).

إن مصطلح الصفائية اقترحه (De Vogue) الذي نشر أول قائمة من النقوش الصفائية سنة ١٨٦٢م، وأطلقه وثبته (J.Halevy) ١٨٨٢م ليطلقه على مجموعة النقوش التي عُثِر عليها حول تلال الصفا، والتي كانت خالية تماماً من أية نقش صفائي، حيث تركزت هذه النقوش في الحرة، واللجاة، وبادية الشام، وحوران وغيرها من المواقع في سوريا الجنوبية وما زال يطلق على سكان منطقة الصفا من العرب الذين يعيشون فيها وما حولها وإلى اليوم باسم عرب الصفا (ديسو ١٩٥٩: ٢٧).

ويقول (E. Littmann) إن الصفائية اسمها مأخوذة من تلال الصفا الموجود في بادية الشام ذكره جرير في بيت شعر:
هبت شمالاً فذكرى ما ذكرتكم
عند الصفاة إلى شرقي حوران
وهي تلال وعرة لا يقطنها أحد ولم يُعثر بها على نقش صفوي واحد، ووجدت آلاف النقوش بالحرة الواقعة بين حوران، وتلال الصفا

٢/٢- النقوشُ الإخبارية:

احتوت هذه النقوشُ على عددٍ من الإخبار والأحداث وقعت في الماضي مثل:

١- الإخبار عن "ع رب" بأنه توجع وتألّم على "كعس" كما في النقش ١.

٢- الإخبار عن "ع وذ" بأنه قص الأثر واقتفاه كما في النقش ٢.

٣- الإخبار عن "خ ط س ت" بأنه قص الأثر واقتفاه كما في النقش ٢أ.

٤- الإخبار عن "ظن إل" بأنه وجد سفر أصحابه كما في النقش ٢ ب.

٥- الإخبار عن "ن م ر" بأنه سب من حوران كما في النقش ٣.

٦- الإخبار عن مرض "شددات" سنت ما حلل بالدار كما في النقش ٤.

وكلّما تدلّ عن إخبار وممارسة للحياة اليومية.

٣/٢- النقوشُ الطلبية (الدعائية):

حيث وجه أصحابها من خلال هذه النقوش النداء إلى معبوداتهم الوثنية بالدعاء والطلب وكما يلي:

١- طلب صاحب النقش رقم ١، من معبوده "اللات" أن يمنحه الراحة، وأن يعور كل من أذى هذا النقش.

٢- طلب صاحب النقش رقم ٢، من معبوده "جد ضيف واللات" أن يمنحه السلامة.

٣- طلب صاحب النقش رقم ٢أ، من معبوده "جد ضيف، واللات" أن يمنحه الراحة.

السلامة، والوقاية من كل شدة.

٣- قراءة النقوش ونقل معانيها إلى العربية الفصحى

النقش رقم ١ (اللوحة ١ الشكل ١):

وجد هذا النقش على حجر بازلي مستطيل الشكل تقريباً، وجاءت حروفه متوسطة ومقروءة.

ل ع رب ب ن غ ن ث ب ن ش م ت ب ن أ ن
ع م ب ن ا س ب ن ش د د ت ب ن و ث ق ت ذ
أ ل ب ل و خ ر ص ف ه ل ت غ ي ر ت م ض ر
ك ه و و ج ع ل ك ع س و ع و ر ل ذ ي ع و ر
ه س ف ر

النقل إلى العربية:

لعرب بن غنث بن شمت بن انعم بن اس بن شددت بن وثقت ذال
بلل وخرص فهلت غيرت م ضرکه ووجع عل كعس وعور لذي عور
هسفر.

المعنى:

ل عرب بن غانث بن شامت بن أنعم بن أوس بن شدادت بن
واثقت من قبيلة بالل وخرص فياللات الراحة من الضيق، وتألّم
على كاعس وعور من يعور هذا الكتابة.

وقد تفرعت هذه الكتابة عن الخط المسند العربي الجنوبي، حيث الميزات والصفات المشتركة لأشكال الحروف والملاحم اللغوية. فنحن لسنا أمام مملكة أو حكومة مدنية: كالأنباط أو تدمر، بل أمام قبائل عديدة حرفتها الرعي والغزو، فكانوا يقضون الربيع والشتاء حول تلال الصفا، وقلعة الأزرق، وجبل سيس، ووادي راجل، ووادي غرز، وفي الصيف يصعدون بقطعاتهم إلى المنحدرات الشرقية من حوران. فهي قبائل متنقلة من مكان إلى مكان للبحث عن الماء، والكأ، لرعي ماشيتها التي كانت تشكل مصدر رزقها، وكانت لديهم النزعة الشديدة، والرغبة الجامحة إلى تخليد أنفسهم، وتسجيل ذكرياتهم، فدوّنوا آلاف النقوش، والتي تضمنت أيضاً الحنين لمن يحبون، والتضرع والدعاء إلى الآلهة، لشفاء مرضاهم وقضاء حاجتهم بصيغ الطلب مدونة على الصخور، وعلى الأحجار البركانية في المواقع التي توطنوا بها (طلافة ٢٠٠: ٣).

اجتهد بعض الباحثين في محاولة تغير اصطلاح الصفائية، وقالوا أن هذه الخطوط تمثل خط البادية، ويشير الأنصاري إلى تسمية هذا النوع من الخطوط بالخط الثمودي، والصفائي تسمية خاطئة، وإنهما خط المسند نفسه الذي انتشر في شمال الجزيرة، والذي كتب به أرباب القوافل، وسكان البادية، وأنه لا يعدو أن يكون خط البادية. هذا النوع من الكتابات أطلق عليه الباحثون والعاملون في هذا الحقل من الدراسات اسم الخط الصفائي (الأنصاري ١٤٠٢: ٢٣).

١- تلة المعن

يقع هذا الموقع الأثري الهام على امتداد وادي راجل من الجهة الشمالية الشرقية وعلى بعد ثماني كيلو مترات من غدير الملاح، والموقع عبارة عن مجموعة متسلسلة من التلال البازلتية البركانية التي تحيط بالوادي من الجهة الغربية وتنتقل عند غدير الملاح باتجاه الشرق الشمالي وصولاً للأزرق والقطافيات ويرتفع هذا التل عن سطح البحر (٦٤٨م). والموقع يحوي عدة مقابر رجمية تمتد جذورها من العصر الحجري الحديث مروراً بالبرنزي والحديدي وصولاً للعصور الكلاسيكية النبطية، والثمودية، والرومانية، والبيزنطية وكذلك العصور العربية الإسلامية الأموية، والعباسية والأيوبيّة والمملوكية، لأن الموقع ضمن الطريق التجاري الواصل ما بين بصرى الشام والأزرق عبر وادي السرحان حيث وجد آلاف النقوش والكتابات المتنوعة، وهذا دليل واضح على حيوية المنطقة والموقع على السواء وسعى الموقع باسم أكبر رجم فيه وهو رجم المعن والقبائل البدوية والمسافرين كانوا يربطون "عنان" خيولهم في تلك المنطقة عند استراحتهم أو تعذيبهم (الحصان طلافحة: دراسات ومسوحات في وادي راجل، ٢٠١٣، قيد الطبع).

٢- بنية النقوش

١/٢- نقوش الملكية:

بيانٌ مُلكيتهم لتلك النقوش والتي دونت على الحجارة: مثل النقش لفلان بن فلان.

اللام لام الملكية، وتبدأ بها معظم النقوش الصفائية، وتفسر على أنها بواسطة (by) أي كُتِبَ النقش من قبل فلان، أو إلى (for) أو (to) (Littmann1943:8).

ع ر ب

اسم علم مفرد مذكر على وزن فعل، العُرْبُ خِلاف العَجَم، والأَعْرَابُ سُكَّانُ البادية، وأقامتْ قُرَيْشٌ بَعْرَةَ، فَتُسَبِّتِ الْعَرَبُ إِلَيْهَا، وَتَعَرَّبَ أَهَامٌ بِالْبَادِيَةِ، وَالْعَرَبُ النَّشَاطُ (اللسان مادة: عرب).

وفي التنزيل قول الله تعالى ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ التوبة آية 97. اسم ورد في نقوش صفائية أخرى (Ababneh2005, In924:343: HIN414)، وجاء في النقوش الثمودية "ع ر ب" (WR92: King1990:524)، وفي القتبانية ورد "ع ر ب" (Hayajneh1998:188)، وظهر في السبئية "ع ر ب" بمعنى: مرتزقة، متطوعة (بيستون ١٩٨٢: ١٩).

غ ن ث

اسم علم مفرد مذكر على وزن فعل، غَنَيْتَ، شَرِبَ ثُمَّ تَنَقَّسَ، وَغَنَتْ نَفْسُهُ خَبْنَتْ، وَغَنَّتْ بَنُ أَفْيَانَ بْنِ الْقَحْمِ مِنْ بَنِي مَالِكٍ (القاموس المحيط مادة: غنث). اسم ورد في نقوش صفائية أخرى (HIN458: حراشة ٢٠١٠، نقش 128: 72)، وجاء في النقوش الثمودية "غ ن ث" (King1990:524).

ش م ت

اسم علم مذكر على وزن فعل، شَمَاتًا وَشَمَاتَةً فَرِحَ بِبَلِيَّةِ الْعَدُوِّ، وَالشَّمْتَةُ أَنْ يَرِجِعُوا خَائِبِينَ بِلا غَنِيمَةٍ (القاموس المحيط: مادة شمت). وفي التنزيل قول الله تعالى ﴿لَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءُ﴾ (الأعراف آية 150). اسم ورد في نقوش صفائية أخرى (HIN356: حراشة ٢٠١٠، نقش 177: 101)، وجاء في النقوش الثمودية "ش م ت" (King1990:516؛ الذيب ١٩٩٩، نقش ١٠٨: ١٠٣)، وفي النبطية ورد "ش م ت" و (Cantineau, 1978:152)، وفي السبئية "ش م ت" (HIN 356)، وجاء في المعنية "ش م ت" (Said1995:216).

أ ن ع م

اسم علم مذكر على وزن أفعل، النون والعين والميم أصل واحد يدل على ترفقه وطيب عيش وصلاح، والنعمة ما يُنعم الله تعالى على عبده به من مالٍ وعيش، والنعمة الخفض والدعة والمال (ابن فارس ١٩٧٢، ج ٥: ٤٤٦). وفي التنزيل قول الله تعالى ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ (الإسراء آية 83). اسم ورد في نقوش صفائية أخرى (Ababneh2005, In231:167: HIN90)، وجاء في النقوش الثمودية "أ ن ع م" (HIN90: King1990:476)، وفي النبطية "أ ن ع م" (الذيب ٢٠٠٢، نقش 23: 59)، وفي اللحيانية ورد "أ ن ع م" (HIN90)، وظهر في السبئية "أ ن ع م" (بيستون ١٩٨٢: 90).

أ س

اسم علم بسيط على وزن فَعَلَ، حذف منه حرفُ العلة الواو وهي ظاهرة موجودة في النقوش الصفائية والثمودية، ويقرأ "أوس" وهو اسم مركب بالإضافة من "أوس هاله" (طلافة ٢٠٠٠: ٤٨)، الهمزة والواو والسين كلمة واحدة وهي العطية وقالوا أسْت الرجل أوسه أوسًا أعطيته، ويقال الأوس العوض، الأوس الذئب (ابن فارس ١٩٧٢، ج ١: ١٥٦)، و"أويس" لفظة هذلية تعني الذئب (الطيب ١٩٨٦: ٤٦٩)، الأوس قبيلة من اليمن، والأوس من أنصار النبي ﷺ في المدينة (اللسان مادة: أوس).

وقد ظهر هذا الاسم بصيغة الفعل في نقوش قاع الفهدة "أوسه هنعم ولا تذر" بمعنى أمنحه وأعطيه (طلافة ١٩٩٨، نقش ١٠٠)، وورد في الثمودية بصيغة الفعل أيضًا "أوس" أُنح أعطي (المهباش ٢٠٠٣: ٤٤)، وأوس من الأسماء المنتشرة في النقوش الصفائية (الخريشة ٢٠٠٢، نقش ٩٣: ٣٢)، وجاء في "أ و س" والسبئية (بافقيه، وآخرون ١٩٨٥: ٤٢٠)، وظهر والمعنية "أ و س" (Said1995:67)، وورد في النبطية بصيغة "أ و س أ ل ه ي" (الذيب ١٩٩٤: ١٦١)، وورد في الثمودية بصيغة "اس، أوس" (الذيب ٢٠٠٣، نقش ٥: ٣٤)، وورد في اللحيانية "أ س" (أبو الحسن ٢٠٠٢، نقش ٢٠١: ٤٨)، ووجد اسم بحرف الشين في التدمرية "أ و ي ش" (Stak1971:66).

ش د د ت

اسم مفرد مذكر على وزن فعلة، الشدة تدل على القوة في الشيء، شَدَدْتُ الْعَقْدَ شَدًّا أَشَدُّهُ، وَالشَّدَّةُ الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ (اللسان مادة: شدد). وفي التنزيل قول الله تعالى ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ (الإنسان آية 28). ورد هذا الاسم في نقوش صفائية أخرى (Ababneh2005 In47:168: HIN343)، وجاء في التدمرية "ش د د ت" (Stak1971:113).

و ث ق ت

اسم مفرد مذكر على وزن فعلة، الوثيقُ المُحْكَمُ، وأَرْضٌ وَثِيقَةٌ كَثِيرَةُ الْعُشْبِ وَالْوَتَائِقِ، أَوْثَقَهُ شَدَّةً (القاموس المحيط مادة: وثق). وفي التنزيل قول الله تعالى ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ (الفجر آية 26). ورد الاسم "و ث ق" في نقوش صفائية أخرى (HIN635: WH1671).

ذال

"أل" أداة النسب التي تسبق أسماء الأعلام للدلالة على أنه اسم قبيلة، وأصلها "ذ أ ه ل" كما هو مثبت في النقوش المعينية، والفرق بين هذه وتلك هو أن حرف الهاء تبدل في النقوش العربية الشمالية إلى الهمزة، كما هو الحال في العربية الفصحى (السعيد ١٩٢٤: ٩٩)، "أل" أصلها "أهل" حذفت صوت الهاء للتخفيف (حراشة ٢٠٠٦، نقش ٢: ١١٤)، وكذلك يرى البعض أن "أل" منقلبة من "أهل" وهذا مستند على الارتباط الدلالي والتركيب، إذ أن "ه" "انقلبت" "ء" ثم تحولت إلى صوت مد طويل "آ" فأصبحت "أل" (صدقة ٢٠٠٥، نقش ١: ٤٨)، ويرى ليتمان أن

"ذ" تلفظ "ذو" كاسم موصول ويكون موافقاً "لذو" كما هو بلهجة قبيلة طيء (ليتمان ١٩٤٩: ٢٥٢)، وورد في بعض النقوش بأن "ذأل"، تسبق أسماء العائلات بينما أن الأداة "أل" تسبق أسماء القبائل وما يزال هذا التقليد مستمراً في العديد من البلاد العربية (العبادي ٢٠١٢، نقش ١٠٦: ٢).

ومن الممكن أيضاً أن نكون كلمة "عيال" والتي تسبق عادة الأعلام لتدل على القبيلة والتي ما زالت مستخدمة في لهجات أهل جنوب الأردن مثل "عيال الحصان" تحولت إلى "أل"، ويستخدم في الوقت الحاضر وبشكل محدود "أل" للدلالة على القبيلة في نواحي من الأردن وفلسطين.

ب ل ل

اسم مفرد مذكر على وزن فعل، الباء واللام في المضاعف التثنية، يقال بَلَّلْتُ الشيء أَبْلُلُهُ تضم الباء فيقال بُلَّة (ابن فارس ١٩٧٢، ج ١: ٤٥). و"ب ل ل" اسم لأحدى القبائل العربية الصفائية والتي كان موطنها في البادية الأردنية، وورد اسم هذه القبيلة في نقش محفوظ في مستودع قسم الآثار جامعة الملك سعود (الذبيب ٢٠٠٣، نقش ٥٥: ١١٨).

و خ ر ص

الواو حرف استئناف، خرص فعل ماضي على صيغة فَعَلَ لا يذكر لهذا الفعل معنى في المعجمات العربية، وأعطى هذا الفعل معنى: "راقب، بحث" لدى دارسوا النقوش ولفظة "الخُرص" في النقوش الآرامية والفينيقية وغيرها "تفيد بمعنى: حفر، قطع، شق"، وجميع الشواهد تجمع على معنى الفعل "خرص" كان له في النقوش الصفائية المعنى نفسه "القطع، الشق" (صدقة ٢٠٠٥: ٣٩). الخاء والراء والصاد أصول متباينة فالأول هو حزر الشيء، يقال خرصت النخل إذا حزرت، والخراص: الكذاب، وأصل آخر يقال للحلقة من الذهب خُرص، والخرص وهو كل ذي شعبة من الشيء ذي شعبة فالخريص من البحر الخليج منه، والخُرص: كل قضيب من شجرة وجمعه خرصان، والخُرص: صفة الجائع المَقْرور (ابن فارس ١٩٩٠، ج ٢: ١٦٩).

وفي التنزيل قول الله سبحانه وتعالى {قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ} {الذاريات آية ١٠}. ورد هذا فعل في نقوش صفائية أخرى (Ababneh, 2005, In 233: 168; WH, 634)، وردت في السبئية بمعنى: خمن قدر (بيستون ١٩٨٢: ٦٢)، وفي العبرية ورد "כַּרְס" بمعنى: قطع (Gesenius 1978: ٣٥٨).

ف ه ل ت

الفاء الهاء للتنبية، اللات هي من الآلهة العربية المعروفة والأكثر ذكراً في النقوش الصفائية، وردت في القرآن الكريم قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ {النجم آية ١٩}، قال الخازن: هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها، واشتقوا لها أسماء من أسماء الله عز وجل فقالوا من الله اللات، ومن العزيز العزى (الصابوني ١٩٨١، ج ١٧: ٢٨)، واعتبرت اللات إلهة الصفائيين

الرئيسة وأكثرها ذكراً في نقوشهم، ودخل اسمها في العديد من الأسماء المركبة مثل: تيم اللات، ووجد في مواضع مختلفة في كل من الأردن السعودية، سوريا، وورد في صيغ مختلفة "ل ل ل ت" "ل ت" "ه ل ت" و"الت" واللات" إلهة أنثى، ويراد بها الشمس، وقد ذكرها ابن الكلبي في كتابه الأصنام حيث يقول "واللات صخرة مربعة وكان يهودي يلت السويق وكان سدنتها من ثقيف، وكانوا قد بنو عليها بناء وكانت قريش وجميع العرب تعظمها، ولم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها" (الكلبي ١٩٢٤: ١٦: ١٧).

غ ي ر ت

الغين والياء والراء أصل صحيح يدل على صلاح وإصلاح ومنفعة، والغيرة هي الميزة وبها صلاح العيال، يقال غَزَتْ أهلي غِزَةً أي مِرْتُهُم (ابن فارس ١٩٧٢، ج ٤: 403). قرأ ليتمان "غ ي ر ت" كصيغة اسمية "غيرة" بمعنى: راحة، مشيراً أن الأصل في المعنى هو التغير إلى الحال الأفضل، الغَيْرُ: هو تَغْيَرُ الحال "وتعني: الفرج، والراحة (LP337)، أما رايكمنز فقرأها أيضاً كصيغة اسمية ولكن بمعنى: آخر فالغير هو "الميرة" (ملكاوي ١٩٩٩: ١٢٢)، وفي سياق هذا النقش نرى أنها تفيد معنى: الراحة. وردت "غ ي ر ت" على صيغة مصدر في نقوش صفائية أخرى (WH999: عبادي 2006، نقش 40: 79).

م

ترد أصلية وزائدة وبصيغتين "من"، و"م" مدغمة ومن معانها: الابتداء، بيان الجنس، التعليل والسببية، الظرفية المكانية (الروسان ٢٠٠٧: ٧٦).

ض ر ك ه

فعل ماضٍ مسند إلى ضمير المفرد الغائب، والضَّيْرُكُ الفقير البائس السيئ الحال، الضَّيْرُكُ الضَّيْر، وهو أيضاً الفقير الجائع، والجمع ضرائك (اللسان مادة: ضرك). ورد "ض ر ك" في نقوش صفائية أخرى (WH81)، وجاء في النقوش السبئية "ض ر ك" بمعنى: طوي بئر بحجارة (بيستون ١٩٨٢: ٤٢).

و و ج ع

الواو حرف عطف، "و ج ع" فعل ماضٍ مجرد لازم على وزن فَعَلَ، الواو والجيم والعين كلمة واحدة، والوَجَع اسمٌ يجمع المرض كله، وتوَجَّعت له رثيت (ابن فارس ١٩٧٢، ج ٦: ٨٨). ورد الفعل "و ج ع" في نقوش صفائية أخرى (LP299)، وجاء في النقوش الثمودية "و ج ع" بمعنى: ألم، مرض (المهباش 2003: ١٤١).

ع ل

حرف جر يرد اسماً وحرفاً بمعنى: فوق، ويرد في النقوش الصفائية بحذف حرف العلة من آخره ويجر الاسم الظاهر ومن معانيه: الاستعانة، الظرفية الزمانية، الظرفية المكانية، والتفصيل والتخصيص، الظرفية بمعنى: فوق، ويأتي بمعنى: إلى (الروسان ٢٠٠٧: ٧٦).

ل ع س

اسم علم مذكر على وزن أفعل، الكَعْسُ عِظَامُ السَّلَامَى، وعِظَامُ التَّزَاجِمِ في الأصابع، والعِظَامُ التي تَلْتَقِي في مَفَاصِلِ اليَدَيْنِ والِرْجُلَيْنِ (القاموس المحيط مادة: كعس). ونرى أن هذا اسم يرد لأول مرة في النقوش الصفائية.

وع ور

صيغة فعل أمر مزيد معتد على وزن فعَل (عور)، والعور: ذهاب حس أحد العينين، وقد يكون الطلب بإيقاع الأذى والتلف، والطمس (حراشة ٢٠٠٧، نقش ٢٩: ٣٩)، وعار عين الرجل عورًا وأعورها: فقأها، وأعورت العين: يبست (التاج: مادة عور).

ل ذ

ل حرف جر بمعنى: "إلى"، ذا: اسم موصول بمعنى: الذي، ل ذ: بمعنى: إلى الذي، أو لمن (عبادي ٢٠٠٦، نقش ٥: ٤٦).

ع ور

يمكن أن يقرأ "عور" فعل ماضي على وزن فعَل: اتلف، طمس (عبادي ٢٠١٢، نقش ٢: ١٠٦)، وتعود الكتاب درس، وكتاب أعور كتاب دارس، والعور الخراب (اللسان مادة: عور)، ونرى أن هذا المعنى من أقرب التفسيرات لمعنى "ع ور" فهذه الكتابة التي على الحجارة تصبح دراسة تالفة ومطموسة إذا أصابها العور، والملاحظ من هذا النقش وغيره أن تكرار هذه العبارة هي عادة متوارثة منذ أقدم العصور، وذلك بالدعاء على كل من يعور يخرّب يطمس أو يمحو النقش أو الكتابة أو الرسم المشار إليه، وقد ظهرت في العديد من النقوش والكتابات العربية القديمة، ودونما استثناء ابتداءً من العصور العربية الإسلامية" الأموية، العباسية، الأيوبية المملوكية" (الحصان ٢٠٠٧: ص ١٩٧ - ١٩٨، ٣٠٣ - ٣٠٤، ٣٣٣ - ٣٣٤). كما أنها ذكرت في مسلة شريعة حمورابي ملك بابل، وفي نقش أحيرام ملك جبيل وكذلك في نقش "كلمو الأول" ملك نجرلي وكذلك عند كافة الشعوب والقبائل العربية الوثنية، النبطية، الثمودية وغيرها (الذبيب ١٩٩٨، نقش ٢٢١).

ه س ف ر

الهاء أداة تعريف في النقوش العربية الشمالية "الصفائية"، السين والفاء والراء أصل صحيح يدل على الانكشاف والجلاء، ومن ذلك السفر والسَفَرُ الكتابة، والسفرة الكتابة وسمى بذلك لأنه الكتابة تُسَفِّرُ عما يحتاج إليه من الشيء المكتوب وتوضيحه (ابن فارس ١٩٧٢، ج ٣: ٨٣)، السَفَرُ الكتاب، وهو الكتاب الكبير، وقيل: هو جزء من التوراة، والسَفَرَةُ الكَتَبَةُ، واحدهم سافرٌ، وهو بالنبطية سافرا (اللسان مادة: سفر)، وهو اسم مفرد مذكر يعني: "نقش، كتابة" وفي العربية الأسفار الكتب الكبار واحدها سفر (عبادي ٢٠١٢، نقش ٢: ١٠٦)، وأسفار: تفيد معنى "كُتُبًا" بلهجة قبيلة كنانة (ابن سلام ١٩٨٤: ٢٨٠، ابن حسنون ١٩٧٢: ٤٧). ورد "س ف ر" في النقوش الصفائية فعل ماضٍ مجرد متعد على وزن فعَل بمعنى: "كتب (عبدالله ١٩٧٠: ٦٦)، وورد في النقوش

الصفائية أيضًا "س ف ر" بمعنى: كتابة (SIJ291)، وجاء "س ف ر" في النقوش اللحيانية فعل ماضٍ مسند إلى الضمير الغائب بمعنى "كتب، دَوَّن (القدرة ١٩٩٣: ١٣٨) وظهر "س ف ر" في النقوش النبطية اسم بمعنى: "الكاتب (الذبيب ٢٠٠٢: ١٦٣). وفي الترتيل قول الله تعالى ﴿كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ {الجمعة آية ٥}، مثل الحمار يحمل على ظهره كُتُبًا من كتب العلم لا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها، فالذين أوتوا التوراة والتي فيها بيان أمر محمد (ﷺ) مثلهم إذا لم ينتفعوا بما فيها كمثل الحمار الذي يحمل أسفارًا فيها علم فهو لا يعقلها ولا ينتفع بها (ابن كثير ١٩٨٧، ج ٤: ٣٨٩)، وقال الله تعالى ﴿يَأْيِدِي سَفَرَةٍ﴾ {عبس آية ١٥}، كتبه من الملائكة أو الأنبياء ينتسخون الكتب من اللوح أو الوحي (البضاوي ١٩٨٨، ج ٢: ٥٦٩).

النقش رقم ٢ (اللوحة ٢ الشكل ٢):

ل ع و ذ بن ش م خ ب ن بن ص ب ح ذ أ ل ض

ف و ق ص ص ف ه ج د ض ف و ه ل ت س ل

م

النقل إلى العربية:

لعوذ بن شمش م خ ب ن بن ص ب ح ذ أ ل ضف وقصص فهجد

ضف وهلت سلم

المعنى:

لعوذ بن شامخ بن صبح من قبلية ضيف وتنبع

الأثر فيا جد ضيف ويا اللات السلامة.

التوضيح:

ل

اللام لام الملكية، وتبدأ بها معظم النقوش الصفائية، وتفسر على أنها بواسطة (by) أي كُتِبَ النقش من قبل فلان، أو إلى (for) أو (to) (Littmann 1943: 8).

ع و ذ

اسم علم بسيط على وزن فعَل، عاذ يعوذ وعبادًا، لاذَ به ولجأ إليه واعتصم، ومعاذ الله أي عبادًا بالله والعائدُ من الإبل الحديثة النتاج (اللسان مادة: عوذ). وفي التنزيل قول الله سبحانه وتعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ {النحل الآية ٩٨}. اسم ورد في نقوش صفائية أخرى (Ababneh, 2005, in 176: 510; WH, 622)، وعوذ اسمٌ لأحد القبائل الصفائية (الروسان 1987: 339)، وظهر في الثمودية "ع و ذ" (TIJ 500)، وفي اللحيانية ورد "ع ي ذ" (أبو الحسن 2002، نقش 239: 147)، وفي النبطية ظهر "ع و ذ" (الذبيب 2002، نقش 204: 190)، وبصيغة "ع و ي د" (Cantineau 1978: 128)، وفي القتبانية ورد اسمٌ مشابه "ب ع ذ" (Hayajneh 1998: 97)، وفي التدمرية ورد على صيغة "ع و ي د" و" (Stark 1971: 105).

ش م خ

اسم علم بسيط على وزن فعَل، شَمَخَ الجَبَلُ يَشْمَخُ شُمُوحًا علا وارتفع، والشامخ: الرافع أنفه عزًّا وتكبرًا، وبنو شَمَخَ بَطْنٌ وَشَمَخُ بن

قَزَارَة (اللسان مادة: شَمَخ). اسم ورد في نقوش صفائية أخرى (Ababneh, 2005 In 109:160).

ص ب ح

اسم علم بسيط على وزن فَعَلَ، الصُّبْحُ أَوَّلُ النَّهَارِ، والصُّبْحُ الفجر، والصَّبَاُ نقيض المساء، والجمع أَصْبَاُحُ (اللسان مادة: صَبَح). وفي التنزيل قول الله تعالى ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ {هود آية 81}. اسم ورد في نقوش صفائية أخرى (Ababneh, 2005: HIN365)، وظهر في التمودية "ص ب ح" (King 1990: 517).

ذأل

انظر النقش ١

ض ف

اسم علم بسيط على وزن فَعَلَ، الضَّيْفُ يكون واحدًا وجمعًا، وقد يجمع على الأضياف والضيوف جانب الجبل والوادي (الصباح في اللغة مادة: ضيف). وفي التنزيل قول الله تعالى ﴿هل أتاك حديثُ ضِيفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ {الذاريات آية ٢٤}. ضيف اسم قبيلة عربية "صفائية" كان مساكنها: جبل سيس، الجثوم، جاوة، تل العبد، وادي مقاط، في بادية بلاد الشام، وقد ذكرت هذه القبيلة في نقوش عديدة (الروسان ١٩٨٧: ٣٢٨).

وق ص ص

الواو حرف استئناف، "ق ص ص" فعل ماضٍ مزيد متعدي على وزن فَعَلَ، بمعنى: يقص لأثر، يقتفي الأثر (حراشة 1994: ١٦٦)، قَصَّ أثره، أي تتبَّعَه، افْتَصَّ أثره، وتَقَصَّصَ أثره من ذلك قولهم: اقتصصْتُ الأثر إذا تتبَّعْتَه (اللسان مادة: قصص). في التنزيل قول الله تعالى ﴿فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ {الكهف آية ٦٤}. فعل ورد في نقوش صفائية أخرى (wH1019: ISBY)، وفي التمودية وردت "ق ص" بمعنى: تتبع الأثر (مهباش ٢٠٠٣: ١١٣)، وظهر في النقوش السبئية "ق ص" بمعنى: سدد، سوى، وورد في السبئية أيضًا بمعنى: جص، شيد (بيستون ١٩٨٢: ١١١). وفي لهجات الأحقاف ترد كلمة "قُ ص ص" بمعنى: حواف الجبل المرتفع (مريخ ٢٠٠٠: ٣٧٨).

ف ه ج د ض ف

اسم مركب مسبق بفاء الاستئناف، والهاء للتنبيه، والجذ تعني: النصيب والبخت في اللغة الفارسية والتركية "ومن معانيها أيضًا الحظ والخطوة والسعد، والجذ تعني العظمة (اللسان مادة: جدد). وفي الترتيل قول الله تعالى ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ {الجن آية ٣}، أي تعالت عظمة ربنا وجلاله (الصابوني ١٩٨١، ج ١٩: ٤٨)، فربما يكون هذا الإله إله الحظ والسعد العظيم، وهو إلهًا خاصًا بقبيلة "ضيف" إحدى القبائل الصفائية (الروسان ١٩٨٧: ٤٣٢)، "وجد" أحد آلهة العرب المعبودة عند القبائل التمودية والتدمرية وعرف كذلك عند الآراميين واليونانيين (ديسوس ١٩٥٨: ١٤١)، وارتبط الجزء الأول من اسم هذا الإله بأسماء الأماكن أو القبائل، فارتبط ببعل جد، وجدل جد،

ومن القبائل التي ارتبطت بهذا الإله قبيلة كون، وقبيلة عويد، وقمر عند الصفائيين، وقبيلة "يفع" عند التموديين وقبيلة "جدي بول" عند التدمريين (المعاني ٢٠٠٤: ٩٢).

وه ل ت

انظر النقش ١.

س ل م

مصدر مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره "سَلَمَ" يرد في النقوش الصفائية في سياق الدعاء والطلب من الآلهة بالحفظ والسلامة لصاحب النقش (حراشة ٢٠٠٧، نقش ٢١: ٣٧)، السين واللام والميم أصل صحيح وتفيد الصحة والعافية وكذلك السلام والتحية (ابن فارس ١٩٧٢: ج ٣: ٩٠). وفي التنزيل قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ {الأعراف آية ٤٦}، أي قالوا لهم السلام عليكم (الصابوني ١٩٨١، ج ٤: ١٨)، السلام بكسر السين الحجرة الصلبة سُميت "سلامًا" لسلامتها من الرخاوة، والواحدة سَلَمَةٌ وهي من لغات حمير (سلوم ١٩٨٧: ٢١٤). وفي التمودية ورد "س ل م" على صيغة الفعل و"س ل م ت" بمعنى: نجت سلمت وكذلك على صيغة الاسم "سلام" (مهباش ٢٠٠٣: ٨٨)، وفي النبطية ورد الاسم "س ل م" (الذيب ٢٠٠٢، نقش ١: ٣٥)، "س ل م و" (الذيب ٢٠٠٢، نقش ٣: ٣٧)، وفي اللحيانية ورد الاسم "س ل م" (أبو الحسن ٢٠٠٢، نقش ٣١٥: ٢٦٥).

النقش رقم ١٢ (اللوحة ١٢ الشكل أ٢):

ل خ ط س ت ب ن س ك ر ن ب ن ج ر م ا ل ذ

أ ل ض ف و ق ص ص ف ه ج د ض ف و ه ل ت

س ل م و و ق ي ت م ب ا س

النقل إلى العربية:

ل خطست بن سكرن بن جرم إل ذأل ضف

وقصص فهجد ضف وهلت سلم ووقيت من باس.

المعنى:

ل خاطست بن سكران بن جرم إل من قبيلة

ضيف وتتبع الأثر فيا جد ضيف ويا اللات السلامة

والوقاية من كل شدة.

الإيضاح:

ل

اللام لام الملكية، وتبدأ بها معظم النقوش الصفائية، وتفسر على أنها بواسطة (by) أي كُتِبَ النقش من قبل فلان، أو إلى (for) أو (to) (Littmann 1943: 8).

خ ط س ت

اسم علم مذكر على وزن فعلة، ويمكن أن يلفظ "غ ا ط س ت" على وزن فاعلة، ويعني الغمس في الماء، وهو من قبيل التغير بين الصوتين، فالخطس هو الغطس، وتغطس القوم في الماء: تغطأوا فيه، وليل غاطس كغطاش (اللسان مادة: غطس)، نرى أنه حدث إبدال صوتي بين صوت الغين وصوت الخاء فأصبح "خطس" بدل

الشيء أقيه إذا صُنّته وسترتة عن الأذى، وهذا اللفظ خبر أريد به الأمر أي لِيَقْ أحدكم وجهه النار بالطاعة والصدقة (اللسان مادة: وق). وردت هذه الصيغة في نقوش صفائية بمعنى: الوقاية من المرض (WH159)، والوقاية من الأعداء (WH1698).

م ن

انظر النقش رقم ١.

ب أ س

فعل ماضٍ مجرد على وزن فعل، الباء والمهمزة والسين أصل واحد تعني الشدة وما ضارعتها، فالبأس الشدة في الحرب العذاب ورجل ذو بأس وبئس أي شجاع والبؤس الشدة في العيش، والمبتس المتفعل من الكراهة والحزن والبؤس وهي مصدر (ابن فارس ١٩٧٢، ج ١: ٣٢٨). ورد هذا الفعل في نقوش صفائية أخرى (WH1112)، وجاء الثمودية "ب أ س" بمعنى: فقر، كآبة (مهباش ٢٠٠٣: ٤٥)، وفي النقش السبئية جاء "ب أ س" بمعنى: ضرر، شر (بيستون ١٩٨٢: ٢٥).

النقش رقم ٢ ب (اللوحة ٢ الشكل ٢ ب):

ل ظ ن أ ل ذ أ ل ض ف و ج د س ف ر أ ش ي ع

ه و خ ي ط

النقل إلى العربية:

المعنى:

ل ظن أ ل من قبيلة ضيف وجد سفر أصحابه ومر

مسرعاً

التوضيح:

ل

اللام لام الملكية، وتبدأ بها معظم النقوش الصفائية، وتفسر على أنها بواسطة (by) أي كُتب النقش من قبل فلان، أو إلى (for) أو (to) (Littmann 1943: 8).

ظ ن أ ل

اسم علم مذكر مفرد على وزن فعل، "ظن"، والظن شك ويقين إلا أنه ليس بيقين عيان إنما هو يقين تدبر (اللسان مادة: ظن). وفي التنزيل قول الله تعالى {إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ} {الحاقة آية ٢٠}، وعادة لا يدغم الحرف الثاني مع الثالث في الأسماء المشتقة من الفعل المضعف، وخلافاً لأكثر اللغات السامية، حيث يستدل من هذا أن نطق هذا الاسم كان ظانن، كما يقال في اللهجات العربية، "مادد، وضال" وقد ورد في النقوش الصفائية عدة أمثلة مثل "أ ب ل ل، وأ ج م م، وأ ر ت ت" (ليتمان ١٩٤٩: ٢٥١). اسم ورد في نقوش صفائية أخرى (العبادي ٢٠٠٦: ٣٨، نقش ٢: ٣٨)، وقد ورد الاسم في النبطية "ظ ن ن و" (PNNP: 33; Can, 11: 102)، والثمودية (King 1990: 521).

ذ أ ل

انظر النقش ١.

"خطس"، يقول إبراهيم أنيس: وجرى بعض المحدثين على مناج علماء العربية في اعتبار الغين والخاء من حروف أدنى الحلق إلى الفم واعتبار القاف من حروف اللهاة أقصى اللسان، والكاف أدنى من ذلك إلى مقدم الفم، ينطق أهل البادية الأردنية الشمالية صوت الغين خاء في بعض الكلمات فيقولون "شماخ بدلاً من شماغ" كونهما من مخرج واحد هو الحلق والخاء أسهل وكذلك يقولون عن "المخفر، مغفر" استبدالاً للغين بالخاء (طلافة ٢٠٠٠: ١١٩). وذكر العبادي أن الجذر "خطس" غير معروف في اللغات السامية، ولعله اسم فارسي (عبادي ٢٠١٢: ٢، نقش ٢: ١٠٦). ورد هذا الاسم "خ ط س" مصنف بأنه غير معروف المعنى (HIN223)، وورد في نقوش صفائية أخرى (WH658: CIS793: SIJ165).

س ك ر ن

اسم علم مذكر على وزن فعْلان، السَكَرَانُ خلاف الصاحي والسُكْرُ نقيض الصَّحْوِ (اللسان مادة: سكر). ورد هذا الاسم في نقوش صفائية أخرى (عبادي 1996، نقش 1: 243)، وجاء الثمودية "س ك ر ن" (أسكوبي ٢٠٠٤، نقش ١٤٧: ٢١٨)، وفي النقوش اللحيانية جاء "س ك ر" (أبو الحسن ٢٠٠٢، نقش ٣٣٨: ٢٩١).

ج ر م ل

اسم علم مذكر مركب من العنصر الاسمي "ج ر م"، و"واسم الإله المختصر "إل"، الجيم والراء والميم أصل واحد يرجع إليه الفروع، فالجُرمُ القطع، وجُرمُ صوف الشاة وأخذته، والجُرامة: ما سقط من التمر إذا جُرم، والجُرم والجريمة: الذنب، وبنو جارم في العرب (ابن فارس ١٩٧٢، ج ١: ٤٥). وفي التنزيل ورد قول الله تعالى ﴿لَا جَرَمَ أَنْ مَا تُدْعَوْنَ﴾ {الأعراف آية ٢٣}، ورد هذا الاسم في نقوش صفائية أخرى (Ababneh 2005, In 239: 170)، وجاء الثمودية "ج ر م" (King 1990: 487)، وفي النبطية جاء "ج ر م، ج ري م و" (1990: 19; Negev).

ذ أ ل

انظر النقش ١.

ض ف

انظر النقش ٢ أ.

وق ص ص

انظر النقش رقم ٢.

ف ه ج د ض ف

انظر النقش رقم ٢.

ف ه ل ت

انظر النقش ١.

س ل م

انظر النقش رقم ٢.

وق ي ت

الواو حرف استأنف، صيغة اسمية بمعنى: "وقاية"، "حماية" وهي مصدر وقَّيْتَه الشيء (حريشة ٢٠١٠، نقش ١٨٥: ١٠٦)، وقَّيْتُ

ض ف

انظر النقش ٢.

و و ج د

الواو حرف استئناف "و ج د" فعل ماضٍ مجرد على وزن فَعَلَ و
والواو والجيم والذال، يدل على أصل واحد وهو الشيء يُلفيه
ووجدت الضالة وجداناً (ابن فارس ١٩٧٢، ج ٦: ٨٦)، ويتبع عادة
هذا الفعل الأشياء التي وجدت مثل الأشياء، الأثر، السفر
(عبادي ٢٠٠٦، نقش ٥: ٤٤). ورد الفعل "و ج د" في نقوش صفائية
أخرى بمعنى: وجد (علولو ١٩٩٦، نقش ٨: ٢٦؛ CIS93:LP10)، وجاء
في التمودية الفعل "و ج د" بمعنى: لقي (المهباش ٢٠٠٣: ١٤١).

س ف ر

انظر النقش ١.

أ ش ي ع هـ

"أ ش ي ع هـ"، "أشباعه"، اسم مضاف إلى ضمير الغائب، وبناء
الكلمة ومعناها كفصحته العربية تمامًا (الخرشبة ٢٠٠٠: ٦٨)، وهو
جمع تكسير، مفردة شبعة، والشيع القوم الذين يجتمعون على
الأمر، وهم أتباع الرجل وأنصاره، وجمعها شيع وأشباع (حراشة
٢٠١٠، نقش ١٥٦: ٨٧)، الشين والياء والعين أصل يدل على
معاضدة ومساعدة، والشبعة هم الأعوان والأنصار (ابن
فارس ١٩٧٢، ج ٣: ٢٣٥). وفي التنازل قول الله تعالى ﴿كَمَا فُعِلَ
بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ (سبا آية ٥٤). وجاء في النقوش الصفائية "أ ش
ي ع" (حراشة ٢٠١٠، نقش ١٥٦: ٨٧؛ العبادي ٢٠٠٦، نقش ٥: ٤٤)،
وظهرت صيغة "أ ش ي ع ن" في النقوش التمودية (الخرشبة ٢٠٠٠: ٦١).

و خ ي ط

الواو حرف استئناف، الخاء والياء والطاء أصل صحيح واحد
يدل على امتداد الشيء في دقة (ابن فارس ١٩٧٢، ج ٢: ٢٣٣). وفي
التنازل قول الله تعالى ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ
الْأَسْوَدِ﴾ (البقرة آية ١٨٧)، وخاط فلان إذا امتد في السير لا يلوي
على شيء وخاط إذا مرَّ مسرعًا، ويقال ما أتيتك إلا الخيطة أي
الفينة، وتفيد معنى المرور، ويختص هذا المعنى إما بالسرعة أو
بالمرة الواحدة، خاط فلان خيطةً إذا مرَّ مسرعًا، والمخيطة الممر
والمسلك، والمخيطة آلة الخياطة "الإبرة" (اللسان مادة: خيط)،
والخيطة بلغة هذيل تفيد معنى: الود (سلوم ١٩٨٧: ١٣٤). وهو
فعلٌ مستخدم في النقوش الصفائية (NST28: عبد الله ١٩٧٠،
نقش ٦: ٣٢)، وظهر بصيغة "خيطة مدبر" (WH 742).

النقش رقم ٣ (اللوحة ٣ الشكل ٣):

ل ن م ر ب ن ق ت ل ب ن ش ع ا ل ب ن ب ن
ج م ل و س ب ا م ح ر ن و خ ي ط ف ا م ج د و
أ خ ل ص

النقل إلى العربية:

ل نمر بن قتل بن شع ال بن جمل وسبا م حرن
وخيطة فأمجد وأخلص

المعنى:

ل نمر بن قاتل بن شع إل بن جمل وسبا من
حوران ومر مسرعًا فأمجد وأخلص

التوضيح:

ل

اللام لام الملكية، وتبدأ بها معظم النقوش الصفائية، وتفسر
على أنها بواسطة (by) أي كُتب النقش من قبل فلان، أو إلى (for)
أو (to) (Littmann 1943: 8).

ن م ر

اسم مفرد مذكر على وزن فعل، التِمْرُ سَبْعٌ، والأنثى تَمْرَةٌ،
والتِمْرَةُ بُرْدَةٌ من الصوف تلبسها الأعراب، وماءٌ تَمْرٌ، عذباً كان أو
غير عذب (الصَّخَّاح في اللغة مادة: نمر). ورد الاسم "ن م ر" في
نقوش صفائية أخرى (HIN599:Ababneh2005, In ٦٠٠: ٢٧١)،
وجاء في النبطية "ن م ر أ، ن م ر و" (Negev 1990: 43)، وفي
القتانية ورد "ن م ر" (Hayajneh 1998: ٢٥٢).

ق ت ل

اسم مفرد مذكر على وزن فعل، القاف والتاء واللام أصلٌ
صحيح يدل على إذلال وإماتة، وَقَتْلُهُ قَتْلًا، وَقَتْلُهُ الْمَرَّةَ
الواحدة (ابن فارس ١٩٧٢، ج ٥: ٥٦)، ولعل ضبطه قَتَال، قاتل
(العبادي ٢٠٠٦، نقش ٣: ٧٢). ورد الاسم "ق ت ل" في نقوش
صفائية أخرى (HIN476:Ababneh2005, In 481: 242)، وجاء في
النقوش التمودية "ق ت ل" (WR92).

ش ع ا ل

اسم علم مذكر مركب من العنصر الاسمي، واسم الإله
المختصر "إل" ويمكن أن يقرأ "شوع إل" أو "ش ع إل"، والرجل
الشُع إذا كان متقشفًا طويل الشعر، والشَّوْعُ انْتِشَارُ الشَّعْرِ وَتَفَرُّقُهُ
كأنه شَوْك (اللسان مادة: شوع). ورد "ش ع ا ل" في نقوش صفائية
أخرى (HIN316:Ababneh2005, In 795: 315).

ج م ل

اسم مفرد مذكر على وزن فعل، الجَمَلُ من الإبل، والجمع
جِمالٌ وأَجْمالٌ، والجَمَالَةُ: أصحاب الجمال، والجمالُ الحُسْنُ
(اللسان مادة: جمل). ورد الاسم "ج م ل" في نقوش صفائية أخرى
(الخرشبة ٢٠٠٢، نقش ٤٣٨: ١٠٠؛ Ababneh 2005: ٨٧؛ In 9)، وجاء
في النقوش التمودية "ج م ل" (الذبيب ٢٠٠٣، نقش ٢٥: ٥٩)، وورد
في النبطية "ج م ل و" (Negev 1991: 19)، وبصيغة "ج م ل أ" في
النقوش التدمرية (Stark 1971: 82).

و س ب ا

الواو حرف استئناف، "س ب ا" فعل ماضٍ مجرد، على وزن
فعل، سَبَى الْعَدُوَّ سَبْيًا وَسَبَاءً أَسْرَهُ، كَأَسْتَبَاهُ، فَهُوَ سَبِيٌّ وَهِيَ سَبْيٌ

أيضاً والجمع سَبَايا (القاموس المحيط مادة: سبا). تُعَدُّ هذه الخصلة من الخصال الذميمة في المجتمع العربي قبل الإسلام، يذكر صاحبة بأنه ذهب للسبي في حوران ولك أن تحمل هذه الكلمة كامل الدلالة لمفهوم السَّبْي في التراث العربي قبل الإسلام فالسَّبْي هو التَّهْبُّ وأخذُ الناس عبيداً وإماءً، فالغزوات والغارات كانت من صميم حياة المجتمع القبلي قبل الإسلام، وكان المنتصر يسبي الأطفال والنساء، ويأسر الرجال، فالرجال من السبي يكبلون بالقيود لإذلالهم وخوفاً من الهرب، أما الأطفال والنساء فيصبحون رقيقاً، ولهم الخيار في بيعهم في الأسواق، وكانت هذه الأحداث هي مجال افتخار في أشعارهم وكتاباتهم (مدلل ٢٠١٠: ١٥).

م ح ر ن

من حرف جر، "ح ر ن" اسم مكان، ورد "ح ر ن" في نقش آخر بصيغة "و ط ر د م ح و ر ن خ ل" (WH 3049)، إلا أن "ح ر ن" ووردت أيضاً بالصيغة نفسها "ح و ر ن" في نقش (WH 3049)، وأرى أن تطابق الصيغتين في كلا النقشين يعطي دلالة واضحة أن "ح ر ن" هي "ح و ر ن" وحورن منطقة واسعة تطلق على المنطقة من جبل العرب وحتى جبال عجلون في الأردن، وكانت تعرف سابقاً بسوريا الجنوبية، حيث استوطن بها الآراميون والأنباط، وعرب الشمال الثموديين والصفائيين، وكانت حوران أيام الرومان قاعدتها مدينة بصرى (الروسان ٢٠٠٦، نقش ٣٢٣: ٢٤١)، وورد في عدد من النقوش الصفائية عبارات تذكر "ح ر ن" منها و"ط ر د خ ل م ن ح ر ن" (الخريشة ٢٠٠٢، نقش ٤٠٣: ٩٤) و"و ض ب ا م ح ر ن" (الروسان ٢٠٠٦، نقش ٣٢٣: ٢٤١)، و"و ص ي ر م ن ح ر ن" (طلافة ٢٠٠٠، نقش ٦٨: ٧٨).

و خ ي ط

انظر النقش ٢ ب.

ف ا م ج د

الفاء حرف عطف، "أ م ج د" فعل ماضٍ مزيد لازم على وزن أفعِل، أمجدت الإبل نالت من الكلاً قريباً من الشبع، وعرف ذلك في أجسامها، وأهل العالية يقولون مجد الناقة مخففاً إذا علفها ملء بطونها وأهل نجد يقولون مجدها تمجيداً مشدداً إذا أعلفها نصف بطونها، ومجدت الإبل إذا وقعت في مرعى كثير واسع، وأمجدها الراعي، وإذا شبع الغنم مجدت (اللسان مادة: مجد). فعِلَّ مستخدم في النقوش الصفائية (عبد الله ١٩٧٠، نقش ٦: ٤١) وورد كذلك "م ج د ت" بمعنى: "كلأ، علف (حراشة ٢٠١٠، نقش ٢٢: ١٣٠)، انتقلت دلالة هذه الكلمة في لهجة أهل البادية الأردنية والعربية الفصحى إلى معنى جديد فهي تفيد معنى الكرم والبذل السخي (طلافة ٢٠٠٠: ١٨٣).

و أ خ ل ص

الواو حرف استئناف، "أ خ ل ص" فعل ماضٍ مزيد لازم على وزن أفعل وهو من باب المبالغة والتي تعني: الزيادة في المعنى وتوكيده مثل: حسن، وأحسن (قباوة ١٩٨٨: ١١٣)، ويتناسب هذا

مع سياق النقش والذي يتحدث عن عملية للسبي فلا بد أن يكون الخلاص سريعاً من ذاك الموقف، خلص، وأخلص، وخلّص الشيء، نجا وسَلِم، وأخلّصه، وأخلّص لله دينه: أي الدين لخالص لله، وأخلّص الشيء: اختاره (اللسان مادة: خلص)، قرأ ليتمان "خ ل ص" كصيغة اسمية "خلاص" بمعنى نجاة، وقرأها "حراشة" كفعل أمر على وزن "فَعِلَ" خَلَّص "نَجَّ"، ووردت كذلك "خ ل ص ت" كصيغة اسمية بمعنى: نجاة، خَلَّص الشيء، يَخْلُص، خُلُوصاً إذا كان قد نشب بشيء، ثم نجا وسلم (ملكاوي ١٩٩٧: ٧٧).

النقش رقم ٤ (اللوحة ٤ الشكل ٤):

ل ش د د ت بن ظ ل ب ن خ ب ا ب ن غ ف رب

ن ظ ب ي و ح ل ل ه د ر س ن ت أ ن

النقل إلى العربية:

ل شددت بن ظل خبا بن غفر بن ظي وحلل هدر

سنت أن

المعنى:

ل شددات بن ظل بن خبا بن غافر بن ظي وسكن

الدارسنة المرض

ل

اللام لام الملكية، وتبدأ بها معظم النقوش الصفائية، وتفسر على أنها بواسطة (by) أي كُتِبَ النقش من قبل فلان، أو إلى (for) أو (to) (Littmann 1943: 8).

ش د د ت

انظر النقش رقم ١.

ظ ل

اسم علم بسيط على وزن فَعَلَّ، الظَّلُّ نَقِيضُ الضَّيْحِ، وهو الفَيْءُ، ويكون بالغداة، والفَيْءُ بالعَشِيِّ، (القاموس المحيط مادة: ظلل). ورد هذا الاسم في نقوش صفائية أخرى (الحراشة ٢٠١٠، نقش 333: 172) وورد أيضاً "ظ ل ل ت" اسم جنس بمعنى: الخيمة، الستر (ISB32)، وجاء أيضاً بصيغة "ظ ل ل ت" (HIN393)، وظهر في النقوش الثمودية: "ظ ل" والتي يمكن إعادة معناها إلى الكلمة العربية "الظَّل" التي تعني: "العز والمنعة" (الذبيب ١٩٩٩، نقش ٢٩: ٤٧)، وفي القتبانية جاء "ظ ل ل ت" (Hayajneh 1998: ١٨٥).

خ ب ا

اسم علم بسيط على وزن فَعَلَّ، خَبَأَتِ الشَّيْءَ خَبْئاً، والخابية وهي الخُبُّ، إلا أنَّ العرب تركتْ همزه، والخَبْءُ: ما خُيِّ، وخَبْءُ السموات: القَطَرُ، وخَبْءُ الأرض النباتُ، واختَبَأَتْ استترت (الصحاح في اللغة: مادة خبا). ورد الاسم "خ ب ا" في نقوش صفائية أخرى معنى: ستر، خيمة (HIN213)، وظهر في الثمودية "خب" بمعنى: نصب خيمة، خباء (مهباش ٢٠٠٣: ٦٧).

الخلاصة

قدمت هذه النقوش موضوع البحث قضايا تاريخية ولغوية واجتماعية في دراسة وفهم حياة الإنسان العربي قبل الإسلام، حيث طلب صاحب النقش الأول من معبوده "اللات" أن يمنحه الراحة من الضيق، وأن يؤذي كل من أتلف النقش، وأخير أيضاً بأنه تألم وحزن على "كعس". أما صاحب النقش الثاني فقد أخبر بأنه قص الأثر على شيء لا نعرفه وطلب من معبوده "جد ضيف واللات" أن يمنحه السلامة. أما "الجزء أ" من النقش فقد أخبر بأنه قص الأثر وطلب من معبوده "جد ضيف واللات" أن يمنحه السلامة والوقاية من كل بأس. "أما القسم ب" من النقش فقد أخبر بأنه وجد نقش وكتابة اصحابه ومرسراً من المكان.

أما صاحب النقش الثالث فقد أخبر بأنه سبا من حوران ومر مسرعاً، فأشبع دوابه وغادر المكان، ويشير هذا النقش إلى السبي وهو ممارسة وعادة جاهلية كانت من صميم حياة المجتمع القبلي قبل الإسلام حيث تُعدّ من الخصال الذميمة في المجتمع العربي قبل الإسلام، أما النقش الرابع فقد أخبر صاحبه بأنه أصيب بالمرض عندما حل بالدار والسكن الجديد، وتعود أهمية هذه النقوش في فهم التاريخ اللغوي لبعض المفردات النحشية وصلتها بالعربية الفصحى، ويظهر هذا الجانب من خلال تتبع البنائي لبعض الكلمات مثل: "ضرك"، قصص، أمجد، خيط، أن. وقد بينت هذه النقوش أن هناك التقاء في بعض مفردات النقوش واللهجات العربية القديمة مثل: هذيل، طيء، ودلت المقارنة لبعض الأسماء والأفعال مع النقوش السبئية والمعينية القتبانية والنبطية واللحيانية والثمودية والتدمرية على مدى انتشار بعضها وانحسار بعضها.

المختصرات

- ADAJ: Annual of the Department of Antiquities of Jordan
- CIS: Crops Inscriptionum Semiticarum V.1950.
- HCH: Harding, G.L.1953.
- HIN: Harding, G.L.1971.
- ISB: Oxtoby, W.G.1968.
- RÉS: Repertoire d'Epigraphie I-VIII, 1900-1968.
- LP: Littmann, E. Safaitic Inscriptions, 1943.
- SIJ: Winnett, F.V. Safaitic Inscriptions from Jordan, 1957
- NST: New Safaitic Texts, 1951.
- TIJ: Harding, G. and Littmann, E. 1952.
- Winnett, F.V. and Harding, G.L. 1978. WH:
- WR: Winnett, F.V., and Reed, W.L., 1970.

غ ف ر

اسم علم بسيط على وزن فَعَلَ، الغَفَرِ التغطية الستر، غَفَرَ الله ذنوبه أي سترها، والذي يكون تحت بيضة الحديد على الرأس مَغْفَر (اللسان: مادة غفر). ورد الاسم "غ ف ر" في نقوش صفائية أخرى (Ababneh2005, In652:282)، وفي القتبانية جاء "غ ف ر ت" (Hayajneh1998: ٢٠٧).

ظ ب ي

اسم مفرد بسيط على وزن فعل، الظاء والباء والحرف المعتل كلمتان، إحداهما الظَّيُّ، والأخرى ظَبُّ السيف، وما لواحدةٍ منهما قياس. فالظَّيُّ: واحدُ الظُّبَاء، معروف، والأنثى ظَبِيَّة (ابن فارس مادة: ظبي). ورد الاسم "ظ ب ي" في نقوش صفائية أخرى (Ababneh2005, In119:132: HIN391)، وفي المعينية ورد "ظ ب ي" (HIN391)، وفي القتبانية جاء "ظ ب ي" (Hayajneh ١٨٤: 1998).

و ح ل ل

الواو حرف عطف "ح ل ل" فعل ماضٍ على وزن فعل، حللَ حَلَّ بالمكان يَحْلُلُ حُلُولاً، نزول القوم بِمَحَلَّةٍ وهو نقيض الارتحال (اللسان مادة: حلل). ورد هذا الفعل في النقوش الصفائية آخر بمعنى: حل، أقام بالمكان (الذبيبة ٢٠٠٣، نقش ٣٣: ٨١)، وفي الثمودية ظهر "ح ل ل" بمعنى: حل، أقام (King1990:596) وفي السبئية جاء "ح ل ل" بمعنى: نزل، زالت حرمته، أُبِيح (بيستون ١٩٨٢: ٦٧).

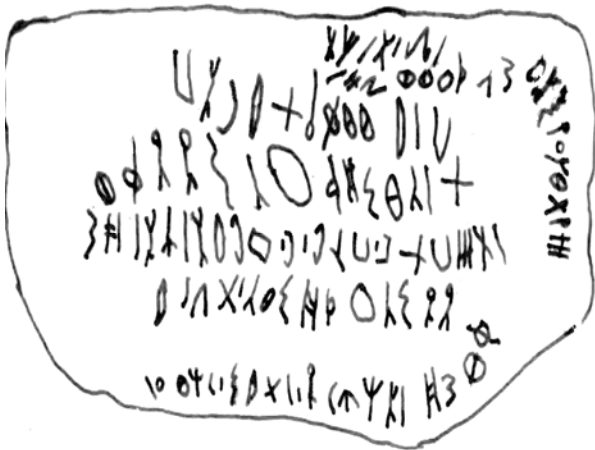
ه د ر

الباء أداة التعريف في النقوش الصفائية، والدار اسم مفرد مؤنث معرفة، بمعنى: الدار والمحل ومكان الإقامة، و"الدار" المحلُّ يَجْمَعُ الْبِنَاءَ وَالْعَرْصَةَ، الجمع، والدار كلُّ أرضٍ واسعةٍ بينَ جبالٍ، وما أحاطَ بالشيء (القاموس المحيط مادة: دور). ورد هذا الاسم في النقوش الصفائية أخرى (الحراشة ٢٠١٠، نقش ٢١: ٣٣)، وفي الثمودية ظهر "در" بمعنى: دار، بيت (WR100).

س ن ت

اسم مفرد مؤنث، وهي ظرف زمان تدل على الزمن، وقد وردت في النقوش الصفائية بمعنى: سنة (علولو ١٩٩٦: ٢)، ويأتي بعدها الفعل مباشرة ومثال ذلك: "سنت مردت نبط"، وقد يأتي بعدها الاسم أيضاً ومثال ذلك: "سنت جشم" (طلافة ٢٠٠٦، نقش ١: ٦٠: أن).

فعل ماضٍ مجرد متعد على وزن فعل، ويأتي بمعنى: بكى ناح من الألم، أَنَّ الرجلَ يَتُّنُّ من الوجعِ أُنَيْتًا، وَأَلْتَأَنُ بالضم مثل الأُنَيْن (اللسان مادة: أنن). ورد هذا الفعل في النقوش الصفائية أخرى بمعنى، بكى، تألم (WH345).



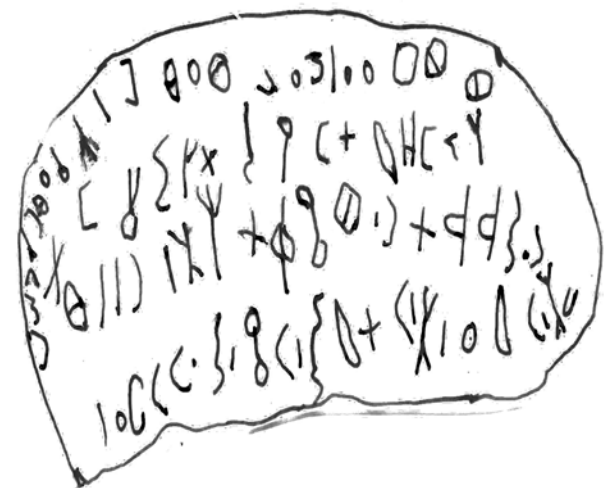
الشكل (٢) تفرغ الكتابات في اللوحة رقم (٢)



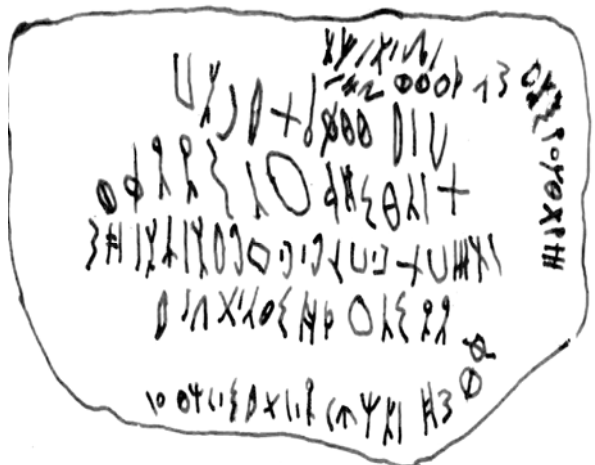
اللوحة (١) لقطة للحجر النقش رقم (١)



اللوحة (١أ) لقطة للحجر النقش رقم (١أ)



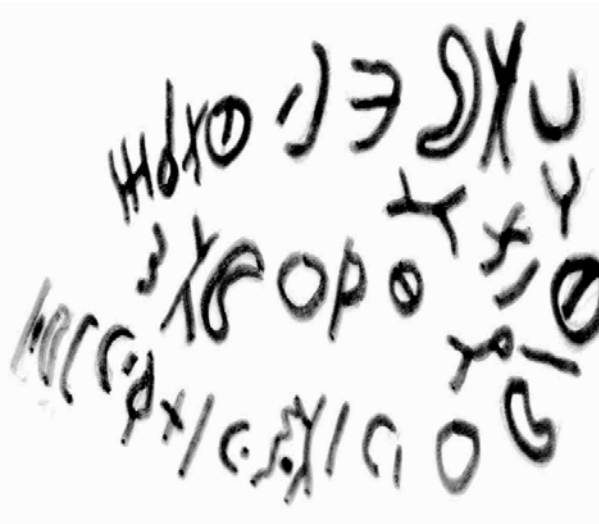
الشكل (١) تفرغ الكتابات في اللوحة رقم (١)



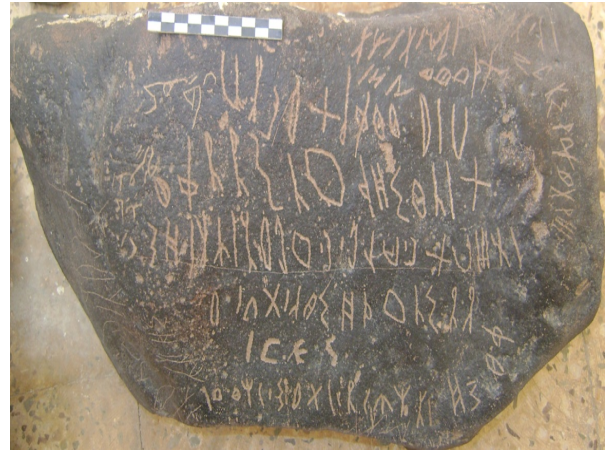
الشكل (١أ) تفرغ الكتابات في اللوحة رقم (١أ)



اللوحة (٢) لقطة للحجر النقش رقم (٢)



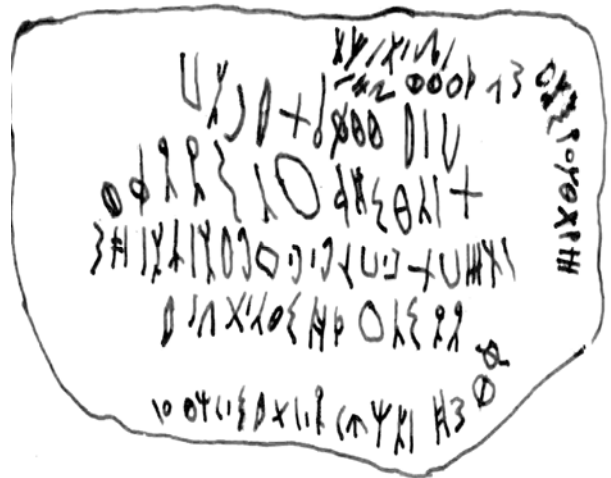
الشكل (٣) تفرغ الكتابات في اللوحة رقم (٣)



اللوحة (٢) لقطعة للحجر النقش رقم (٢) ب



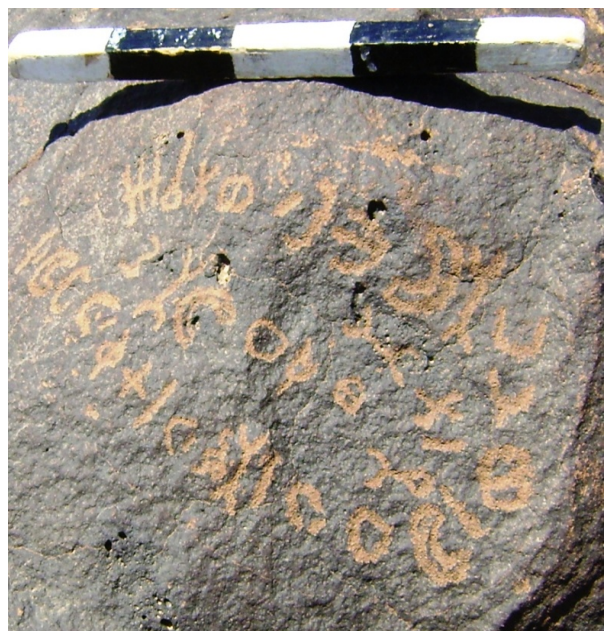
الشكل (٤) تفرغ الكتابات في اللوحة رقم (٤)



الشكل (٢) ب تفرغ الكتابات في اللوحة رقم (٢) ب



الشكل (٤) تفرغ الكتابات في اللوحة رقم (٤)

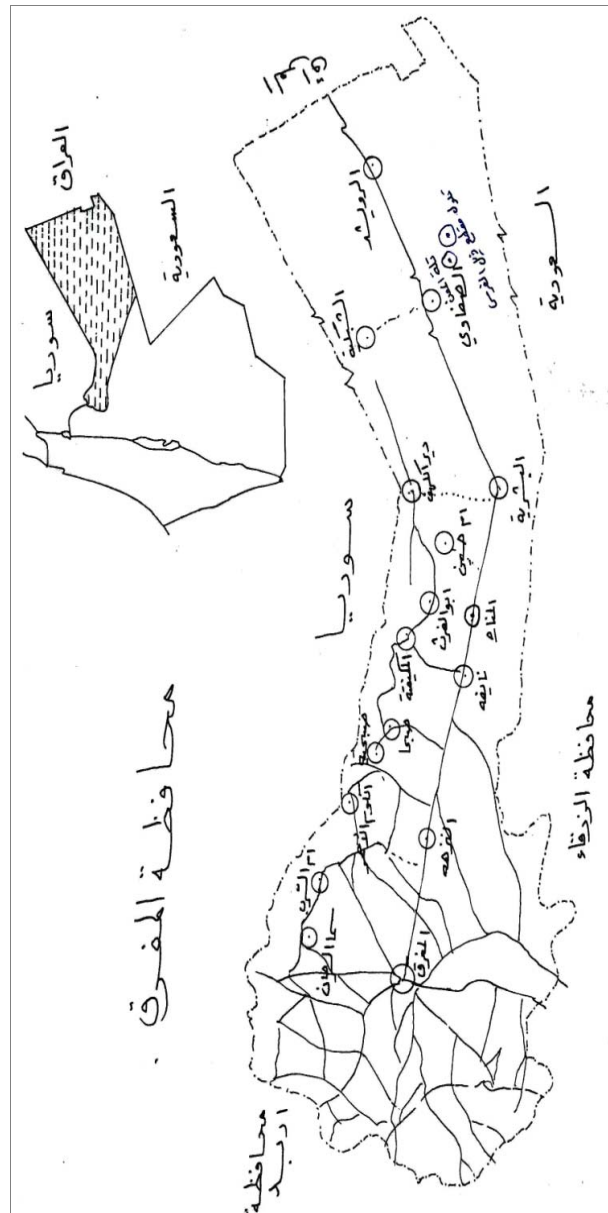


الشكل (٣) تفرغ الكتابات في اللوحة رقم (٣)

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

- الأُنسي، محمد على ١٣١٨هـ، قاموس اللغة العثمانية المسمى الدراري
- اللامعات في منتخبات اللغات، مطبعة جريدة بيروت، لبنان.
- بافقية، محمد، بيستون، رويان، الغول ١٩٨٥، مختارات من النقوش اليمنية القديمة، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، القاهرة.
- بيستون، جاك، ريكنمز، الغول، محمود، والتر، مولر ١٩٨٢، المعجم السبئي، مكتبة لبنان، ودار نشريات بيترز، بيروت.
- البيضاوي، ناصر الدين ١٩٨٨، تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الجوهري، إسماعيل بن مراد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق احمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت.
- حراششة، رافع ١٩٩٤، الفعل في النقوش الصفوية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد.
-، والشديفات ٢٠٠٦، نقوش صفائية مؤرخة إلى حكم أغريبا الثاني، مؤتة للبحوث والدراسات، المجلد (٢١) العدد ٦، جامعة مؤتة، الكرك، ص ص ١١١-١٢٩.
-، ٢٠٠٧، نقوش صفائية من البادية الأردنية، مجلة النقوش والرسوم الصخرية العدد الأول، دائرة الآثار العامة، عمان، الأردن.
-، ٢٠١٠، نقوش صفوية من البادية الأردنية دراسة وتحليل، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، طبع بدعم من وزارة الثقافة، عمان، الأردن.
- ابن حسنون ١٩٧٢، كتاب اللغات في القرآن، تحقيق صلاح المجند، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان.
- أبو الحسن، حسين ١٩٩٧، نقوش لحائية من منطقة العلا "دراسة تحليلية مقارنة"، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
-، ٢٠٠٢، قراءة جديدة لكتابات لحائية من جبل عكمة بمنطقة العلا، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
- الحصان، عبد القادر ١٩٩٩، محافظة المفرق ومحيطها عبر رحلة العصور، دراسات ومسوحات أثرية ميدانية، منشورات وزارة السياحة والآثار، مطابع الأزرق، عمان، الأردن.
-، ٢٠٠٧، مدونة النقوش العربية الإسلامية في محافظة المفرق والأردن، وزارة الثقافة، عمان، الأردن.
-، ٢٠٠٨، القلاع والخانات التركية العثمانية على طريق الحاج الشامية في الديار الأردنية، الطبعة الأولى منشورات وزارة الثقافة، مطبعة السفير، عمان.
-، طلافحة، زياد ٢٠١٣، دراسات ومسوحات أثرية ميدانية في البادية الأردنية، حولية دائرة الآثار العامة، عمان، الأردن.
- الخريشة، فوزا ٢٠٠٢، نقوش صفوية من بيار الغصين، مدونة النقوش الأردنية، منشورات جامعة اليرموك، عمادة البحث العلمي والدراسات، إربد.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن ١٩٥٨، الاشتقاق، جمعه وحققه، عبد السلام هارون، بيروت.
- ديسو، رنية ١٩٥٩، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، راجعه محمد مصطفى زيادة، نشرته لجنة التأليف والنشر، القاهرة.
- الذبيب، سليمان بن عبد الرحمن ١٩٩٤، دراسة تحليلية جديدة لنقوش نبطية من موقع القلعة بالجوف، مجلة جامعة الملك سعود، الآداب (١)، مج ٦، ص ص ١٥١-١٩٤.
-، ١٩٩٨، نقوش الحجر النبطية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
-، ١٩٩٩، نقوش ثمودية من المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.



الخريطة (١) موقع تلة المعن، البادية الأردنية محافظة المفرق

-، صبري، ٢٠١٢، الماء في النقوش العربية الشمالية القديمة (الصفوئية) دراسة تحليلية لنقشين صفوايين جديدين، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد ٦، العدد ٤، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- عبد الله، يوسف، ١٩٧٠، نقوش صفوية في متحف جامعة الرياض، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأمريكية، بيروت.
- علي، جواد، ١٩٦٨، المفصل في تاريخ العرب، دار القلم للملايين، بيروت.
- علولو، محمد يوسف، ١٩٩٦، دراسة نقوش صفوية جديدة من وادي السوع جنوب سورية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد.
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد، ١٩٧٢، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة.
- الفريز أبادي، مجد الدين، ٢٠٠٥، القاموس المحيط، دار الرسالة، بيروت.
- القدرة، حسين محمد عايش، ١٩٩٣، دراسة معجمية لألفاظ النقوش اللحيانية في إطار اللغات السامية الجنوبية، رسالة ماجستير غير منشورة جامعة اليرموك، إربد.
- قبوابة، فخري الدين، ١٩٨٨، تصريف الأسماء والأفعال، مكتبة المعارف، بيروت.
- ليتمان، إنو، ١٩٤٧، لهجات عربية قبل الإسلام، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة.
- ابن كثير، أبو الفداء، ١٩٨٧، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- الكلبي، أبو منذر هشام بن محمد بن سائب، ١٩٢٤، كتاب الأضنام، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر.
- مدلل، شادي إبراهيم عبد القادر، ٢٠١٠، السي في صدر الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين.
- مريخ، عادل، ٢٠٠٠، العربية القديمة ولهجاتها دراسة مقارنة بين ألفاظ المعجم السبئي وألفاظ لهجات عربية قديمة (الجبالية والمهرية)، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي.
- المعاني، سلطان، ٢٠٠٤، ذاكرة الحجر (استنطاق النقوش في الدرس الميثولوجي والحضاري العربي القديم)، منشورات أمانة عمان، عمان.
- ملاكوي، أمجد، ١٩٩٧، الصيغ الطليبية (الدعائية) في النقوش الصفوية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد.
- ابن منظور، ١٩٥٥، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- المهياش، ٢٠٠٣، خالد بن عبد العزيز، مفردات النقوش الثمودية دراسة دلالية مقارنة في إطار اللغات السامية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، الرياض.
-، نقوش قارا الثمودية بمنطقة الجوف: المملكة العربية السعودية، الرياض، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية.
-، ٢٠٠٢، نقوش ثمودية من سكاكا (قاع فريج، والطوير، والقدير)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
-، ٢٠٠٢، نقوش جبل ام جذايد النبطية دراسة وتحليل، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
-، ٢٠٠٣، نقوش صفوية من شمالي المملكة العربية السعودية، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية، الرياض.
-، ٢٠٠٣، نقوش ثمودية جديدة من الجوف . المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
- الروسان، محمود، ١٩٨٧، القبائل الثمودية والصفوية دراسة مقارنة، جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات، الرياض.
-، ٢٠٠٥، نقش شعير بن كحسان، أدوماتو، العدد الحادي عشر، الرياض.
-، ٢٠٠٦، نقوش صفوية من وادي قصاب بالأردن دراسة ميدانية تحليلية مقارنة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الملك سعود، الرياض.
-، ٢٠٠٧، حروف الجر ودلالاتها في النقش الصفائية، مجلة النقوش والرسوم الصخرية، العدد الأول، دائرة الآثار العامة، عمان.
- السعيد، سعيد، ١٤٢٤، نقوش ثمودية من تبوك، الدارة، العدد الرابع . السنة التاسعة والعشرون، ص ٩٧-١٢٩، الرياض.
- سلمو، داود، ١٩٨٧، المعجم الكامل في لهجات الفصحى، عالم الكتاب، بيروت.
- ابن سلام، أبي عبيد، ١٩٨٤، لغات القبائل الوردية في القرآن الكريم، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت.
- سلامة، عبيد، ١٩٧١، الثورة السورية، مطابع دار الغد، بيروت.
- شديفات، وحراشة، ٢٠٠٧، ملامح من العلاقات النبطية - الصفوية في نقوش مدفن في موقع دير الكهف/شمال شرق الأردن، المنارة للبحوث والدراسات، المجلد (١٣) العدد ١، جامعة آل البيت، المفرق.
- الصباوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، لبنان، بيروت.
- صدقه، إبراهيم، ٢٠٠٥، فهم جديد للفعل خرص في النقوش الصفوية، وقائع ملتقى اليرموك الثاني لدراسة النقوش والكتابات القديمة، تحرير عمر الغول، جامعة اليرموك، إربد.
- طلافة، زياد، ٢٠٠٠، لغة النقوش الصفائية وصلتها بلهجة أهل البادية الشمالية الأردنية، دراسة مقارنة، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة.
-، ٢٠٠٥، الإمالة ولإبدال بقايا لغوية ظاهرة في النقوش الصفوية، وقائع ملتقى اليرموك السنوي لدراسة النقوش والكتابات القديمة، تحرير عمر الغول، جامعة اليرموك، إربد.
- طلفاح، أحمد، ١٩٩٣، الآلهة عند الثموديين، رسالة ماجستير غير منشورة ، أربد، جامعة اليرموك.
- الطيب، عبد الجواد، ١٩٨٦م، من لغات العرب لهجة هنيل، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس.
- عبادي، صبري، ١٩٩٦، نقوش صفوية جديدة في الأردن/وادي الحشاد، مجلة دراسات ، المجلد الثالث والعشرون، العدد الثاني، ص ٢٤٢ - ٢٥٢، الجامعة الأردنية.
-، صبري، ٢٠٠٦، نقوش صفوية من وادي سلمي "البادية الأردنية"، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان.

ثانيًا : المراجع غير العربية

- Ababneh, M. ,2005, **Neue Safaitische Inschriften und deren bildliche Darstellungen**,Aachen.
- Cantineau, J.,1978.**Le Nabatéen**, Paris :Librairie Ernest Leroux (2vols).
- Gesenius,(1978).**Hebrew and English Lexice**, Oxford ,At The Clarendon Press.
- Branden, Alb. Van Den.,(1956)A,**Les Textes Thamoudeens de Philb**,vol.1,**Inscriptions dud**,Louvain:Bibliothèque Museon,vol.40.
- **CIS** :Crops Inscriptionum Semiticarum.
- **Harding** ,G. L. 1971. **An Index and Concordance of pre-Islamic Arabian Names and Inscriptions**: Toronto. (HIN)
-1953 The Cairn of Hani'.**ADAJ** 2:8-56(HCH)
- 1951 **New Safaitic Texts**,**ADAJ**1:25-29(NST).
- Hayajneh,H.,1998, **Die Personennamen der qatabanischen Inschriften**, Hildesheim:Georg Olms Verlag.
- Hess,J1912, **Beduinennamen aus Zentra-arabien**. Heidelberg.
- Al- Khraysheh , F. 1986. **Die Personennamen in den Nabataischen Inschriften des Corpus Inscriptionum Semiticarum** Marburg.
- King,G.,**Early North Arabian Thamudic E: A Preliminary description based on a new corpus of inscriptions from the Hisma desert of southern of Jordan and published material**,Unpublished Ph.D thesis School of Orriental and African Studis,1990,p500.
- Negev,A.1991 **Pesonal Names in the Nabatean Realem**, Jerusalem:Qedem Mongraphs of the Institute of Archaeology (PNNP).
- Littmann, E.,1943. **Safaitic Inscriptions** ,Leiden: Publications of Princeton University Archaeological Expeditions to Syria in 1904-1905 and1909.(LP).
- Maraqtan,M,1988, **Die Semitischen Personennamen in den alt -und rechsaramaischen Inschriften aus Vorderasien** , Hildesheim:Georg Olms Verlag.
- RÈS: **South Arabian Inscptions in:Repertoire d,Epigraphie**, Semitique Acadamie des Inscptions et,Bells-Lettrs,Paris.
- Al - Said , S.1995. **Die Personennamen in den minäischen Inschriften**, Wiesbaden: Harrassowitz.
- Stark ,J.,1971. **Personal Names in Palmyrene Inscriptions** ,Oxford :Clarendon Press.
- Winnett, F. Harding .G.1978. **Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns**: Toronto: University of Toronto Press,(WH).
- Winnett.F.V.1957.**Safaitic Inscriptions from Jordan**, Toronto: University of Toronto Press,(SIJ).
- Winnett .Reed, W, 1970,**Ancite Records from North Arabia** , University of

الشعارات المذهبية على النقود الإسلامية سكة الدولة الفاطمية نموذجاً

عز الدين حضري



باحث دكتوراه في علم الآثار الإسلامية
ملحق بالحفظ
المتحف الوطني للآثار القديمة – الجزائر

ملخص

تعتبر الدولة الفاطمية من أهم الدول التي ظهرت في العصر الإسلامي الذهبي: فهي الدولة التي أسسها الفاطميون (أسرة تنتسب للوحدة النبوية الشريفة)، سادت في الفترة الممتدة ما بين (٢٩٧-٥٦٧هـ/٩٠٩-١١٧١م)، وهي أكثر الدول الإسلامية إثارة للجدل، وهذا راجع: لخلفياتها المذهبية والسياسية والفكرية التي بنيت عليها. ولكن مع هذا تعتبر حلقة هامة وذخيرة في مسيرة تطور الحضارة الإسلامية في كل مجالاتها السياسية والاقتصادية والعمرانية والفنية... إلخ. والهدف الرئيس من هذه الدراسة هو التعريف بسكة تلك الدولة وتاريخها ومراحل تطورها (في طورها المغربي)، وتأثير مذهب الفاطميين الديني في نصوصها وشعاراتها، وكيف استغلوها للترويج لبعض مبادئهم المذهبية والسياسية والفكرية.

كلمات مفتاحية:

التبعية الإسماعيلية، السكة الفاطمية، العملة الفاطمية، الخلافة السنية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٤ فبراير ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٩ مايو ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عز الدين حضري، "الشعارات المذهبية على النقود الإسلامية: سكة الدولة الفاطمية نموذجاً"، - دورية كان التاريخية، - العدد الثلاثون: ديسمبر ٢٠١٥، ص ١١٣ - ١٢٥.

مقدمة

تعتبر "الدولة الفاطمية" التي سادت في الفترة الممتدة ما بين (٢٩٧-٥٦٧هـ/٩٠٩-١١٧١م) من أكثر الدول الإسلامية إثارة للجدل، وهذا راجع لخلفياتها المذهبية والسياسية والاجتماعية التي بنيت عليها، ولكن مع هذا تعتبر تلك الدولة حلقة هامة وذخيرة في مسيرة تطور الحضارة الإسلامية في كل مجالاتها السياسية والاقتصادية والعمرانية والفنية... إلخ. فمَن هم الفاطميون؟ وكيف انقسم المؤرخون حول تحديد نسهم، وكيف اختلفوا حول تسميتهم؟ وما السبب الأساسي في ذلك؟ هل هو مذهبهم؟ ومتى ظهرت دولتهم للوجود؟ وماهي السمات الأساسية لتطورها تاريخياً؟ خاصة في طورها المغربي قبل انتقالها لمصر منتصف القرن الرابع الهجري؟ وكيف روج الفاطميون لمذهبهم؟ وهل اتخذوا نقودهم وسيلة في ذلك؟

منهجية دراسة الموضوع:

في الواقع لا يمكن فهم الترابط بين الوقائع والأحداث التاريخية إلا بفهم علاقة السببية فيما بينها، ويقرر المؤرخون أن: إبراز الترابط بين تلك الأحداث والوقائع وتوضيح علاقة السببية بينها يمكننا تفسير التطور الذي طرأ على حياة الأمم والمجتمعات والحضارات المختلفة، وتبين كيف حدث هذا التطور ولماذا حدث. بالتأسيس على هذا فلا يمكننا فهم تطور السكة الفاطمية وخاصة في موضوعاتها ونصوصها وشعاراتها إلا من خلال فهم التطور السياسي للدولة والفاطمية، والظروف الصعبة التي واجهتها، بالإضافة -وهو الشيء الأساسي- تميزها المذهبي وأسسها الفكرية والفلسفية. من أجل ذلك فقد قسمت موضوعي هذا إلى محورين: محور أول تاريخي: تعرضت فيه بإيجاز للتعريف بالفاطميين وخصوصيتهم المميزة (الأصول والنسب، التسمية، المذهب الديني)، كما تعرضت لتأسيس دولتهم ببلاد المغرب ودور القبائل البربرية في

الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين و الأثبات في العبيديين خلفاء الشيعة في القيروان والقاهرة، من نفهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم والطن في نسهم إلى إسماعيل الإمام ابن جعفر الصادق، يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلُّقا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفتنًا في الشمات بعدوهم حسبما تذكر بعض هذه الأحاديث في أخبارهم ويغفلون عن التفتن لشواهد الوقائع و أدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك من تكذيب دعواهم و الرد عليهم^(٦).

الفريق الثاني:

يكذب ذلك الادعاء، ومنهم "عبد القاهر البغدادي" الذي قال: ثم لما تمادت الأيام ظهر المعروف منهم بسعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديسان القداح، فغير اسم نفسه ونسبه، وقال لأتباعه: أنه عبيد الله بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ثم ظهرت فتنته في المغرب وأولاده اليوم مستولون على أعمال مصر^(٧)، كما تحدث "ابن خلدون" في مقدمته عن بعض العلماء الرافضين لانتساب الفاطميين إلى آل البيت-ع- فقال: {... لقد أسجل القضاة ببغداد بنفهم عن هذا النسب، وشهد بذلك عندهم من أعلام الناس جماعة منهم الشريف الرضي وأخوه المرتضى وابن البطحاوي، ومن العلماء أبو حامد الأسفراييني، والقُدوري، والصيمري، و ابن الأكفاني، والأبيوردي، وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة، وغيرهم من أعلام الأمة ببغداد، في يوم مشهود وذلك سنة ستين وأربعمائة في أيام القادر،^(٨) وكانت شهادتهم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد، وغالبها شيعة بني العباس الطاعنون في هذا النسب، فنقله الإخباريون كما سمعوه ورووه حسبما وعوه...^(٩). ويرى أنصار هذا الرأي أن أسرة الفاطميين انتحلت النسب الشريف لكسب المحبين، وجمع الأنصار، وهذا لمكانة أهل البيت في قلوب المؤمنين (ومن أنصار هذا الرأي الكثير من المؤرخين الأقدمين والمحدثين)، أما أصلهم الحقيقي فهو أنهم أسرة عراقية يرجع نسبها إلى "ميمون القداح"^(١٠).

أما "ابن كثير" (من أتباع ابن تيمية الذي اشتهر بعداوته للشيعة) فيصرح أن: الفاطميين قد انتحلوا النسب الشريف، وهم كاذبون أدعياء، وأن نسهم غير صحيح، ثم ذكر مجموعة من العلماء الذين أنكروا نسب الفاطميين إلى آل البيت ومنهم "الإسفرائيني"، و"الباقلائي"، و"القُدوري"، إلخ.^(١١) ويضيف "ابن كثير" أن "عبيد الله المهدي" هو مؤسس الدولة العبيدية، وأول حاكم فيها، من أصل يهودي؛ كان صباغاً في مدينة "سلمية"، ويُعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح، الذي كان كحالاً يقدح العيون.^(١٢) أما "ابن عذاري" فيقول: {وأما نسب عبيد الله الذي تسى بالمهدي، فإن اسمه سعيد وإنما تسى بعبيد الله ليخفي أمره}.^(١٣) وبالتالي فذاك الرجل لا تربطه أي

ذلك، كما حاولت تبسيط مفهوم الملك لديهم، وعرفت أيضاً ببعض أئمتهم وخاصة الأربعة الأوائل الذين حكموا ببلاد المغرب قبل فتح مصر والانتقال إليها.

محور ثان تحليلي: تعرضت فيه للتعريف بسكَّتهم وتاريخها ومراحل تطورها، وتأثير مذهبهم الديني في نصوصها وشعاراتها، وكيف استغلوها للترويج لبعض مبادئهم المذهبية والسياسية والفكرية.

أولاً: موجز تاريخ الدولة الفاطمية

١- مَنْ هم الفاطميون؟

الفاطميون أسرة مشرقية، كان أفرادها وزعمائها يعيشون في القرن الثالث الهجري في بلاد الشام في قرية هناك تُدعى "سلمية" (منطقة حماه بسورية)، ادعت تلك الأسرة انتسابها لآل البيت الكريم، ومارست السياسة ووقفت في الصف المعارض للحكم العباسي مما جعلها عرضة للمطاردة والقمع، حيث أنها: عارضت المذهب الديني للعباسيين، فكانت شيعة مقابل مذهبهم السني. وعارضت نظام حكمهم السياسي، فكانت ترى أن الإمامة حق لآل بيت النبي-صلى الله عليه وآله وسلم- (من نسل علي وفاطمة الزهراء-ع-)، بينما النظرية السنية تقول أن الخلافة يجب أن تكون في أي بطن من بطون قريش. ونظراً للخطر الكبير الذي أصبح يهدد الأسرة الفاطمية فقد اختارت المعارضة السرية وبثت دعائها وأتباعها في أوساط الأمة المختلفة، وأرسلت بعضهم إلى أصقاع بعيدة، منهم الداعية المشهور "أبو عبد الله الشيعي" الذي استطاع أن يستميل إلى أفكاره أفراداً من البربر في إحدى سنوات الحج، ثم رحل معهم إلى بلاد المغرب حيث وجد المناخ مناسباً لنشر المذهب الشيعي، والدعوة إلى الرضا من أهل بيت النبي (ﷺ)، ولم تمض مدة قصيرة حتى استطاع أن يكون قوة كبيرة ساهمت في تأسيس "أول خلافة شيعية في التاريخ الإسلامي" هي الدولة الفاطمية الشيعية.^(١)

١/١ - إشكالية النسب:^(٢)

انقسم المؤرخون في تأكيد وتكذيب انتساب الفاطميين إلى آل البيت إلى فريقين:

الفريق الأول:

يثبت ذلك النسب، ويؤكد أن أصلهم يرجع إلى سلالة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهم من أهل البيت (ومن أنصار هذا الرأي "العلامة ابن الأثير"^(٣) و"العلامة ابن خلدون"^(٤)): فهم حسب هذا الفريق من سلالة آل بيت النبي (ﷺ) ينتسبون إلى الإمام السابع "للشيعة الإمامية" وهو إسماعيل^(٥) بن جعفر الصادق (ت. ١٤٨هـ) بن محمد الباقر (ت. ١١٤هـ) بن علي زين العابدين (ت. ٩٥هـ) بن الإمام الحسين الشهيد (ت. ٦١هـ) بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب- عليه السلام- (ت. ٤٠هـ) من زوجته الطاهرة السيدة فاطمة الزهراء البتول-عليها السلام-. ويرى "ابن خلدون" أن الطعن في نسبه جاء بإيعاز من أعدائهم العباسيين فيقول في مقدمته: {... ومن

علاقة نسب بالدوحة النبوية الشريفة، وأن نسبه منحول لاشك في ذلك-حسب أنصار هذا الرأي-، وليس الفاطميون إلا قرامطة متسلطون من أصحاب العقائد المستترة.^(١٣)

٢/١- إشكالية التسمية:

تبعاً لاختلاف العلماء وكثرة جدلهم في تأكيد أو تفنيد انتساب الفاطميين لآل البيت، فقد اختلفت تسميتهم أيضاً: فأما الفريق الذي يثبت ذلك النسب الشريف فيسميهم بـ "الفاطميين" لأنهم ينتسبون إلى السيدة فاطمة الزهراء-عليها السلام-^(١٤) أما الفريق الذي ينفي ذلك النسب فيسميهم بـ "العبيديين" نسبة لمؤسس دولتهم "عبيد الله بن محمد المهدي"، ويطلق السيوطي على دولتهم اسم "الدولة العبيدية الخبيثة".^(١٥) وسماههم البعض الباطنية لأنهم قالوا بتأويل القرآن، واعتقدوا أن للقرآن معنى ظاهري يفهمه العامة ومعنى باطن لا يفهمه إلا الخاصة وهم الأئمة، فتلك هي الحكمة التي تلقن للمستجيبين للدعوة.^(١٦)

٢- مَنْ هم الشيعة الإسماعيلية؟

الفاطميون هم إحدى فرق الشيعة، من طائفة تسمى "الإسماعيلية" أكثر الطوائف الشيعية إثارة للجدل:^(١٧) والشيعة هي الجماعة التي تشيعت لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في صراعه ضد "معاوية"^(١٨)، وبدأت الشيعة كفرقة سياسية أو حزب سياسي، وتطورت إلى أن صارت مذهباً دينياً ومدرسة فلسفية، واجهت الاتجاه السني الذي اعتقد به جمهور عريض من الأمة.^(١٩) اعتقد الشيعة أن الإمامة شأن أعظم وأجل من أن يترك للأمة كي تبت فيه، فهي أصل من أصول الدين، فلا يجوز بنظرهم أن يترك النبي الأمة قبل أن يعين لها إماماً يسوسها، وراعياً يقودها، فالراعي إذا ترك غنمه لوحدها أوشكت الذئاب أن تفترسها وتنهش لحومها، والنتيجة أن الله أمر النبي (ﷺ) بتبليغ الناس بولاية علي، ثم تنتقل الإمامة والخلافة في عقبه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.^(٢٠)

تعرض الشيعة لاضطهاد كبير من طرف السلطات المركزية (الأمويين والعباسيين)، ولذا فقد ناضلوا غالباً في سرية تامة. ثم تفرقت الشيعة إلى طوائف وفرق متعددة أهمها "الاثنا عشرية"،^(٢١) و"الزيدية"،^(٢٢) و"الإسماعيلية"، ومنها "الفاطميون". و"الإسماعيلية" هي نسبة إلى الإمام "إسماعيل بن جعفر الصادق"،^(٢٣) الذي لا يعترف بإمامته "الاثنا عشرية"،^(٢٤) ويقول "الإسماعيليون" أن الأئمة منهم الظاهرون حتى "إسماعيل الإمام"، ثم يليهم الأئمة المستترون حتى انتصار دعوة "عبيد الله المهدي الإمام".^(٢٥)

٣- تأسيس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب

١/٣- مرحلة التأسيس:

بدأت هذه المرحلة بقدوم "أبي عبد الله الشيعي" إلى بلاد المغرب، وبدء دعوته في أوساط البربر من كتامة لولاية أهل البيت، والواقع أن الظروف السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية كلها كانت مهيأة لانتشار الدعوة الفاطمية.^(٢٦) ويذكر "ابن عذاري" أن: {...الشيعة منذ مات علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) تدعو إلى

إمام معصوم، يقوم بالحق، على زعمهم؛ فترسل دعاة إلى سائر النواحي، فلا ينجح لهم سعي. ثم تفاوضوا وتراسلوا على أن يرسلوا داعياً إلى المغرب، يدعو الناس إلى التدين بحب آل البيت، وتكاتبوا من سائر الآفاق، فاخترأوا منهم رجلاً ذا فهم، وفصاحة وجدال، ومعرفة، يسمى أبا عبد الله الصنعاني، وجمعوا له مالا يتقوى به على سفره، فسار أبو عبد الله هذا إلى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من أهل المغرب، ويدوق أخلاقهم، ويطلع على مذاهبهم، ويتحيل على سبيل الملك بضعيف الحيل...^(٢٧)

وفي أحد مواسم الحج تمكن من استمالة مجموعة من رجال "كتامة" فعرضوا عليه أن يرافقهم في سفرتهم عائدتين إلى بلادهم والإقامة معهم، و"كتامة" كما يذكر ذلك ابن خلدون من أعظم قبائل البربر: {...بالمغرب وأشدهم بأساً وقوة، وأطولهم باعاً بالملك، عند نسبة البربر من ولد كتام بن برنس...} ونسابة العرب يقولون إنهم من حمير^(٢٨)، ويضيف ابن خلدون أن موطن "كتامة" كان: {...بأرياف قسنطينة إلى تخوم بجاية غرباً إلى جبل أوراس من ناحية القبلة}، ومن أهم مناطقهم وديارهم ومراكز ثقلهم يحدد لنا ابن خلدون: {إيكجان وسطيف وبغاية.. وبلزمة.. وميلة وقسنطينة.. والقل وجيجل...}^(٢٩)

كان الداعي "أبي عبد الله الشيعي" على علم بالكثير من التفاصيل حول قبيلة "كتامة" ومواطنها ومنعتها وكثرة جموعها في بلاد المغرب، لذا فقد وافق على طلب أعيان "كتامة" بالمسير معهم إلى بلادهم، ووصل إلى أرض "كتامة" في المغرب الأوسط واستقر في قرية "إيكجان"،^(٣٠) وسرعان ما التفت "الكتاميون" حول دعوته، وانخرطوا في مذهبه، فجيش الجيوش^(٣١)، وانطلق في مهمته، حيث قضى على الأغلبية واحتل عاصمتهم "رقادة" سنة ٢٩٦هـ، وتهيأت الظروف لاستقدام "عبيد الله المهدي" من المشرق وإعلان إمامته أمام الناس.^(٣٢) لبى "المهدي" الدعوة وقدم من المشرق متخفياً مستتراً غير أنه وقع في أيدي أمير "سجلماسة" الذي حبسه بإيعاز من العباسيين. غير أن الداعي الشيعي "أبي عبد الله" تمكن من تجنيد البربر وتخليص "المهدي" من الأسر، وأعلنه رسمياً إماماً للناس وخليفة عليهم،^(٣٣) ويذكر أبو "عبد الله الصنهاجي" أن "الداعي الشيعي": {توجه... إلى سجلماسة في سنة ٢٩٦هـ وأحاط بها وحازها وافتتحها، واستنقذ عبيد الله وابنه القاسم... وسلم عليه بالإمامة في شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٧هـ}.^(٣٤)

٢/٣- مرحلة الدولة:

استطاع "أبو عبد الله الشيعي" أن ينهي حكم الأغلبية في القيروان ثم حكم الرستميين في تاهرت، وبنو مدرار في سجلماسة، ثم سيطر على القيروان، وأخذ البيعة "لعبيد الله المهدي" سنة ٢٩٧هـ/٩١٠م، لتنتهي رسمياً مرحلة الدعوة وتبدأ مرحلة الدولة الفاطمية في فترتها المغربية.

نمط الحكم عند الفاطميين:

يرى الدارسون للتاريخ السياسي الفاطمي أن مفهوم الملك^(٣٥) لدى الفاطميين قائم على أساس "مذهبهم الشيعي الإسماعيلي"، و"الحكم" و"الإمامة" عندهم أصل من أصول الدين مسند إلى آل البيت النبوي-عليهم السلام- لا ينازعهم فيه إلا ظالم، ويترتب عن هذا أن الإمامة السياسية والدينية يحصل عليها الأئمة من أهل البيت وراثته إلى انتهاء الزمن وقيام الساعة، وبحسب هذه النظرية فقد توالى على الحكم الفاطمي "المهدي" وسلالته، وسنذكر هنا أبرزهم فقط وخاصة منهم أولئك الذين حكموا في فترة قيام الدولة في المغرب قيل أن تنتقل إلى مصر:

• الإمام عبيد الله المهدي (297هـ-322هـ): أول خلفاء الفاطميين، يقول ابن كثير عنه أنه كان شهماً، شجاعاً،^(٣٦) سيطر على القيروان، ثم بسط نفوذه على أجزاء واسعة من بلاد المغرب، غير أن المعارضة لعلماء القيروان السنة لمذهب الفاطميين قد اشعر "المهدي" بعدم الاطمئنان، خاصة وأن الناس كانوا يحترمون رأي العلماء ويتبعونهم، ولذلك رأى أن يتخذ عاصمة جديدة لا ينقل إليها إلا المخلصين له ولدعوته، فبنى "المهدية" على الساحل التونسي سنة (٣٠٨هـ/٩٢٠م) وانتقل إليها.^(٣٧) والواقع أن "المهدي" قد تخلص من أعدائه والمناوئين له، ومنهم الداعي الشيعي نفسه،^(٣٨) فيذكر "ابن عذاري" أن "المهدي" لما تمكن من الملك: {قتل أبا عبد الله الداعي وأخاه، وانتقم الله منهما، على يدي من سعي له، وقتلا الخلق بسببه، حتى أخرجاه من حبس سجنهم، وسلموا له في الملك، ولم يقيما معه إلا سنة أو نحوها}.^(٣٩) وبعد أن استتب له الأمر في بلاد المغرب سعى للاستيلاء على مصر، غير أن كل حملاته باءت بالفشل، وتوفي أخيراً بالمهدية سنة (٣٢٢هـ/٩٣٤م).^(٤٠)

• الإمام القائم بأمر الله (٣٢٢هـ-٣٣٤هـ): هو "أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي"، الخليفة الثاني للفاطميين، تولى الحكم بعد المهدي سنة ٣٢٢هـ،^(٤١) اشتهر بشجاعته وهيبته وتسلطه، اندلعت ثورة "أبويزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار الخارجي" في عهده، والذي استطاع أن يجمع الكثير من القبائل في صفه وسيطر على أرجاء واسعة من المغرب الأوسط والأدنى، وسعى للقضاء على الفاطميين إلى الأبد. ووافقت المنية "القائم بأمر الله" دون أن يتمكن من إنهاء فتنته.^(٤٢)

• الإمام المنصور بالله (٣٣٤هـ-٣٤١هـ): هو "أبو طاهر إسماعيل بن القائم بن المهدي"، ثالث أئمة الفاطميين، اشتهر بشجاعته وبطولته وفصاحته، وكرمه، وعدله بين الرعية^(٤٣)، يقول "أبو عبد الله الصنهاجي" عنه: {ولم يكن في بني عبيد مثله، وكان بطلاً شجاعاً بليغاً فصيحاً، يخترع الخطبة لوقتته}.^(٤٤) يعود له الفضل في القضاء على ثورة الخوارج بزعامه "أبي يزيد صاحب الحمار"، وبمساعدة أمراء صنهاجة (الزيريون)، الذين سيكون لهم مستقبل واعد تحت ظل الفاطميين.^(٤٥)

• الإمام المعز لدين الله (٣٤١هـ-٣٦٥هـ): هو "معد بن إسماعيل المنصور"، وكنيته أبو تميم، الإمام الفاطمي الرابع^(٤٦)، وآخرهم في فترة الدولة الفاطمية في بلاد المغرب^(٤٧). بسط "المعز لدين الله" نفوذه على المنطقة، ودعم حكمه وأقصى أعداءه، وعم الأمان في زمانه، وسعى للسيطرة على مصر، خاصة بعد وفاة حاكمها باسم العباسيين "كافور الإخشيد" سنة ٣٥٥هـ، حيث اضطرت البلاد، ولأحت الفرصة للمعز للاستيلاء عليها وضمها للملك، فحشد الجيوش المدربة، وأعد العدة، وعين "جوهر الصقلي" قائداً عاماً، وسيره إلى مصر.^(٤٨)

٤- انتقال الفاطميين إلى مصر:

تمكن "جوهر الصقلي" سنة ٣٥٨هـ من دخول مصر، وبسط سيطرته عليها وفرض الأمن في البلاد، والقضاء على أي تمرد، وأعلن تبعيتها للخلافة الفاطمية، وأسس "القاهرة"، لتكون حاضرة جديدة للدولة الفاطمية، واتخذ فيها القصور والمساجد والبيوت والحمامات والطرق... إلخ، واستعد لاستقبال الإمام "المعز لدين الله".^(٤٩) اتخذ "المعز" قراره النهائي بنقل حاضرة دولته من بلاد المغرب إلى مصر، فجيز نفسه وأسرته وقواته وأتباعه، وتوجه إلى مصر ودخلها في ٢٣ شعبان سنة (٣٦٢هـ/ماي ٩٧٣م)، ووكل بأمر إفريقية وبلاد المغرب الأمير "بلكين بن زيري الملقب أبو الفتوح الصنهاجي".^(٥٠)

استقبل "جوهر الصقلي" وأعيان مصر الخليفة في القاهرة، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت المقر الرسمي للدولة الفاطمية، التي استطاعت أن تتوسع لاحقاً إلى المشرق، فضمت بلاد الشام وأرض الحجاز، وهددت الخليفة العباسي ببغداد. وبداية من هذا التاريخ ستبدأ الفترة الثانية من الدولة الفاطمية والتي ستستمر إلى غاية سقوط الخلافة على يد "صلاح الدين الأيوبي" سنة ١١٧١م. أخيراً وبعد هذا العرض التاريخي الموجز لا يسعنا إلا أن نقول أن الدولة الفاطمية وصلت لذروة مجدها زمن المعز حتى أنها:

- نافست بكل قوة الخلافة العباسية في بغداد، وكادت في فترات معينة من تاريخها الحافل أن تقضي على العباسيين وتحكم سيطرتها على كل المجال الذي سيطرت عليه دولتهم.
- شكلت حلقة هامة في التطور الحضاري للمسلمين، وقدمت زخماً جديداً كان قد بدأ يخفت لدى العباسيين.
- السيطرة على بعض جزر البحر المتوسط الهامة ومنها "صقلية".
- إسناد حكم إفريقية والمغرب الأوسط لصنهاجة ممثلة في الدولتين "الزيرية"^(٥١) و"الحمادية"^(٥٢).
- السيطرة على بلاد الشام وأجزاء من الحجاز بما فيه المدن المقدسة (مكة المكرمة والمدينة المنورة).

لن نتطرق لتاريخ الدولة الفاطمية بعد انتقالها لمصر فما يهمنا هو تاريخها ومسيرتها في طورها المغربي، ولكن نقول للختم أنه وفي مصر، توالى على حكم الدولة في آخر عهدها مجموعة من الأئمة صفار السن (أطفال في بعض الأحيان)، كانوا ضعاف الشخصية، فأصبحوا ألعوبة بيد الوزراء المستبدين الذين تحكموا في كل دوايب الدولة ومفاصلها، ووظفوها لتحقيق مآربهم الخاصة مهملين شئون الدولة إهمالاً تاماً، بل منهم من قام بالتخطيط للمؤامرات الخبيثة لاغتيال الأئمة، والتخلص من المنافسين، والتحالف مع أعداء الأمة.^(٥٣) وهو ما سيكون له عواقب وخيمة وأثار مدمرة على مسيرة الدولة الفاطمية، التي توالى عليها وعلى حكامها ورعيها الأيام الحزينة، وازدادت فيها الأوضاع سوءاً وعم الفساد والتفسخ، وتحتم لعجلة التاريخ أن تدور دورتها المقدرة، وظهر قائد كبير هو "صلاح الدين الأيوبي"، الذي استوزره آخر الخلفاء الفاطميين "العاقد" (٥٥٥هـ/٥٦٧هـ-١١٦٠م/١١٧١م)، غير أن "صلاح الدين"^(٥٤) لم يكن يعمل بأوامره، بل كان يلتزم بأوامر الملك "نور الدين زنكي"^(٥٥)، حاكم الشام باسم العباسيين، والذي أمر "صلاح الدين الأيوبي" بقطع الخطبة للفاطميين، وإعلان الدعوة للخليفة السني في بغداد، وهو ما تحقق فعلاً سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م)، لتنتهي دولة الفاطميين إلى الأبد.^(٥٦)

ثانياً: الشعارات المذهبية على العملة الفاطمية

يقسم العلماء تطور العملة الفاطمية إلى عدة مراحل ترتبط أيضاً بتطور دولتهم من الظهور والتأسيس إلى مرحلة القوة وبسط السيطرة، وأخيراً مرحلة الأفول والنهاية.

١- النقود المضروبة وفق الطراز العباسي:

١/١- نقود "أبو عبد الله الشيعي":

يرى المختصون في علم المسكوكات أن "أبو عبد الله الشيعي" رجل الدولة الفاطمي، ولما قضى على الأغالية ودخل عاصمتهم "رقادة" وأنهى حكمهم (كإمارة مستقلة تتبع اسمياً الخلافة العباسية ببغداد)، فإنه لم يقم بتغيير طراز السكة التي ضربوها وذلك من حيث الحجم والشكل وأيضاً من حيث وزنها وقطرها، فهي عمومًا مماثلة للطراز العباسي^(٥٧) (الذي ضربه الأغالية باسم الخليفة العباسي)، غير أنه أضاف شعارات جديدة لم تكن مألوفة من قبل، وتشير إلى بروز قوة جديدة بأفكار ومبادئ جديدة:

- نموذج الدينار الأغلي^(٥٨): ضربه الأمير "إبراهيم بن أحمد الأغلي" (٢٦١-٢٨٩هـ)

الهامش	بسم الله ضرب هذا الدينار (لا ذكر لمكان الضرب) سنة.. (فترة حكمه)	الوجه
المركز	غلب	الوجه
	محمد	
	رسول	
	الله	
	إبراهيم	
الهامش	محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله	الظهر
المركز	لا إله إلا	
	الله وحده	
	لا شريك له	

- مقارنة مع النموذج الأول: للدينار الذهبي الذي ضربه "أبو عبد الله الشيعي" في القيروان سنة ٢٩٦هـ:

الهامش	بسم الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.	الوجه
المركز	لا إله إلا	الوجه
	الله وحده	
	لا شريك له	
	بسم الله ضرب هذا الدينار بالقيروان سنة ست وتسعين ومايتين	
المركز	الحمد لله	الظهر
	محمد	
	رسول	
	الله	
	رب العالمين	

سلسلة الأئمة الفاطميون		
تسلسل	الإمام	فترة حكمه
الفاطميون في بلاد المغرب	1 عبيد الله المهدي	297هـ-٣٢٢هـ
	2 القائم	322هـ-٣٣٤هـ
	3 المنصور	334هـ-٣٤١هـ
	4 المعز	341هـ-٣٦٥هـ
الفاطميون في مصر	5 العزيز	365هـ-٣٨٦هـ
	6 الحاكم	386هـ-٤١١هـ
	7 الظاهر	411هـ-٤٢٧هـ
	8 المستنصر	427هـ-٤٨٧هـ
	9 المستعلي	487هـ-٤٩٥هـ
	10 الأمر	495هـ-٥٢٤هـ
	11 الحافظ	524هـ-٥٤٤هـ
	12 الظافر	544هـ-٥٤٩هـ
	13 الفائز	549هـ-٥٥٥هـ
	14 العاضد	555هـ-٥٦٧هـ

مستول عن إيصال الأوامر والبلاغات إلى دعاة الأقاليم، ويعتبر أمين عام على الأسرار والبلاغات، وله حق مفاتيح ومناقشة المخالفين دون إذن داعي الدعوة.^(٦٢)

- أما كلمة "الحجة": فهي كلمة عربية بمعنى البرهان،^(٦٣) وهي الدليل القاطع الذي يفهم الخصم فلا يجد جواباً، وهي تطلق على مَنْ يحاول إثبات الحق وعلى مَنْ يحاول إثبات الباطل.^(٦٤)
- ويذكر "فرهاد دفتري" (المختص في تاريخ الإسماعيليين) أن "أبا عبد الله الداعي الشيعي" وبعد قضائه على الأغلبية وسيطرته على القبروان، احتفل بانتصار "أنصار الحق": {.. كما كان يطلق على الإسماعيليين من بربر كتامة، وقام على الفور بتعيين ولاية جدداً على كل مدينة وأدخل النموذج الشيعي من الأذان أو الدعوة إلى الصلاة، وأضاف إلى خطبة صلاة الجمعة أيضاً الصلاة على أهل البيت، لكنه امتنع عن ذكر اسم المهدي الذي كان لا يزال في سجن ساجسة، وأذنت النقود التي ضربها أبو عبد الله حديثاً بمقدم "حجة الله" وهو ما يعكس تقليداً شيعياً إمامياً أقدم استخدم مصطلحي "الحجة أو حجة الله" والإمام علي مترادفان لمعنى واحد.^(٦٥)
- و"الحجة" أيضاً من المصطلحات المألوفة لدى الشيعة، ويرى الإسماعيلية-منهم- أن "الحجة" من المراحل الأولى للمعرفة، ويقولون أن "الإمام" و"الحجة" و"الداعي" من أركان وركائز المذهب الإسماعيلي، وهي من مراتب العارفين، ويبلغ عددها لديهم سبع مراتب أو تسع مراتب، ولا يصل أغلب المجتهدين فيها إلى أبعد من المرتبتين الأولى والثانية من مراتب التلقين^(٦٦)، ولكل مرتبة من تلك المراتب كتاب يسمى "البلاغ" فالأول للعامة والثاني لمن فوقهم أما الثالث فلمن تمسك بالمذهب سنة، ثم يعطى "بلاغاً" كلما طال بقاؤه سنة، حتى ينال "البلاغ" السابع وحينها يحصل على الكشف الأكبر والسر الأعظم ويتعرف على نتائج المذهب^(٦٧)، ويرون أيضاً أن الأرض لا تخلو قط من "إمام" حي قائم، وهو إما ظاهر مكشوف وإما باطن مستور، فإذا كان "الإمام" ظاهراً يكون "حجته" مستوراً، وإذا كان "الإمام" مستوراً فلا بد أن يكون "حجته" ودعائه ظاهرين^(٦٨).
- ويذكر المؤرخون أن القادة المركزيين للحركة الإسماعيلية وقبل ظهور "عبيد الله المهدي" قد نالوا رتبة "حجة الإمام الغائب" محمد بن إسماعيل (أصل الإسماعيلية) ومن خلال "الحجة" تمكن الأتباع من الاتصال بالإمام المستور^(٦٩)، ويعتبر "الداعي" في الدعوة الإسماعيلية "حجة"، ويسمى أيضاً "النقيب" أو "اللاحق" أو "اليد"، وكان له مساعدون هم صلة الربط بينه وبين القيادة المركزية للدعوة بالشرق (الإمام)^(٧٠)، والظاهر أن "أبي عبد الله الداعي الشيعي" كان يعتبر نفسه "حجة لإمام زمانه" -ولعله كان فعلاً كذلك-، ولعلها رسالة للإسماعيليين تفيد أن مذهبهم قد مكن له في الأرض.

في هذا الدينار حذف "أبو عبد الله الداعي الشيعي" العبارات الدالة على الأغلبية وهي "غلب" واسم الأمير الأغلب، ودون أن يضرب اسمه ولا اسم مَنْ كان يدعو لإمامته، فقد أضاف عبارات جديدة على مركز الظهر تمثلت في "الحمد لله"، و"رب العالمين"، وهي عبارات أراد بها أن يحمده الله على الانتصارات الباهرة التي حققها في ظرف وجيز حيث تمكن من القضاء على دولة "الأغلبية" وأجبر "الرستميين" على مغادرة عاصمتهم الأولى "تاهرت"، ولا شك أن تلك العبارات هي من الذكر الديني الإسلامي ولا تشير إلى تذهب قائمها.

- النموذج الثاني: هو دينار ذهبي ضربه "أبو عبد الله الشيعي" في القبروان سنة ٢٩٧هـ:

الوجه	الهامش	محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.
المركز	بلغت	
	لا إله إلا	
	الله وحده	
	لا شريك له	
	حجة الله	
الظهر	الهامش	بسم الله ضرب هذا الدينار بالقبروان سنة سبع وتسعين ومايتين
	المركز	تفرق
		محمد
		رسول
		الله
		أعداء الله

في هذا الدينار -وعلى غرار الدينار الأول- لم يضرب "أبو عبد الله الشيعي" اسمه ولا اسم مَنْ كان يدعو لإمامته، ولكن حدث تغيير هام حيث أضيفت عبارتان جديدتان لمركز الوجه تمثلت في "بلغت" و"حجة الله":

- أما كلمة "بلغت": فيذكر الشيعة أن الآية القرآنية من سورة المائدة التي يقول فيها تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٥٩) هي "آية البلاغ" وقد نزلت على الرسول (ﷺ) يوم ١٨ من ذي الحجة في حجة الوداع "بغدير خم" ونصت على إمامة "علي بن أبي طالب" (رضي الله عنه) وتوليه أمر الأمة بعد وفاة النبي^(٦٠)، ولعل استعمالها من طرف "الداعي الشيعي" في نقوده أذان بظهور الحق وانتصار آل البيت وتسلمهم لأمر الأمة من أيدي مغتصبها.
- كما أن "البلاغ" في المذهب الإسماعيلي هو كتاب يناله المريد كلما تقدم رتبة في المذهب، فهي سبع "بلاغات" لسبع مراتب،^(٦١) كما أن "داعي البلاغ": هو رتبة في المذهب الإسماعيلي صاحبه

وتصرفاته، وهو مشرع ومنفذ، ولا يسأل عما يفعل، والخير والشر يقاس به، فما عمله فهو خير وما نهى عنه فهو شر، وهو قائد روحي وسلطته مطلقة، وكل عمل صالح لا ينفع صاحبه إذا لم يؤمن "بالإمام".^(٧٧)

- "المهدوية": هي الاعتقاد بأن واحدًا من آل البيت سيملا الأرض عدلاً بعد ما ملئت جورًا وظلمًا، وهي من الأفكار الراسخة لدى كل طوائف الشيعة، وتقول هذه الفكرة أساسًا أن إمامًا خفيًا يظهر أو يرجع للعالم ليتولى أمورهم ويصلح شأنهم، ويرى البعض أن فكرة "المهدوية" هي فكرة سياسية أصلها ديني، نتجت بسبب حالة الكبت والحرمان التي طالما عانى منها الشيعة أثناء العهدين الأموي والعباسي^(٧٨)، ولأن أئمة الشيعة ورؤسائهم رأوا مدى اليأس الذي وصل له أنصارهم فقد عملوا على بث فكرة "المهدوية" ببعدها السياسي وبغطائها الديني، "فالمهدي هو الإمام وهو المعصوم"، وبذلك بثوا الرجاء والأمل في نفوس الناس حتى يتشجعوا ويثبتوا، ومنوهم بأن الأمر لهم في النهاية.^(٧٩)
- وكان "أبو عبد الله الشيعي" و"عبيد الله المهدي" يروجان لتلك الفكرة وينشرانها بين الناس، كما أن "عبيد الله المهدي" نقش على خاتمه^(٨٠) الآية القرآنية: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.^(٨١)

ويرى الدارسون أن الظهور المرحلي للشعارات المذهبية على النقود الفاطمية هو بمثابة جس لنفض الرعية وخاصة منهم أهل السنة والهدف هو عدم إثارة شعورهم خاصة في مرحلة تأسيس الدولة الفاطمية،^(٨٢) وهو دليل أيضًا على أن ديوان الإنشاء الفاطمي كان يدرس جيدًا النصوص قيل ضربها، وهذا لكون المسكوكات المنبر الإعلامي المميز في تلك المرحلة التاريخية للترويج للأفكار والمبادئ التي تؤمن بها الدولة التي أمرت بسك تلك النقود، كما أن وضع وضرب تلك الألقاب والشعارات الدينية الرفيعة كان بلا شك يدخل ضمن مخطط سياسي ودعائي فاطمي محبك ومدروس هدفه انتزاع زعامة العالم الإسلامي الدينية من الخلافة السنية العباسية ثم القضاء عليها.^(٨٣)

٣/١- نقود "القائم بأمر الله" (٣٢٢-٣٣٤هـ):

ضربت الدنانير الذهبية "للقائم" في القيروان والمهدية، وهي أيضًا مثل سكة أبيه أي أنها تشبه الطراز العباسي،^(٨٤) ولكن ظهرت بعض التجديدات التي مست الشكل والموضوع، ومنها ظهور هامشين بظهر الدينار واستعمال الخط الكوفي المورق،^(٨٥) ومن نماذجها نذكر:

أما في ظهر هذا الدينار فقد حذف عبارات "الحمد لله" و"رب العالمين" واستبدلها بعبارات "تفرق" "أعداء الله"، وكل الوقائع التاريخية تثبت أن "أبا عبد الله الشيعي" كان في قمة زهوه وهو يرى نفسه أنه وفق أخير من التمكن لواحد من سلالة آل البيت من الوصول إلى الحكم، بعد أن هزم أعداءه وفرق جموعهم.

٢/١- نقود "عبيد الله المهدي" (٢٩٧-٣٢٢هـ):

هو أول خليفة فاطمي، ما إن تمكن من الدخول إلى "رقادة" حتى أمر بأن يطلق عليه لقب "المهدي أمير المؤمنين"، ثم ضرب سكة ذهبية أظهر فيها ذلك، وحمل ديناره ما يلي:

الوجه	الهامش	محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
المركز	عبد الله	عبد الله
		لا إله إلا
		الله وحده
		لا شريك له
		أمير المؤمنين
الظهر	الهامش	
	بسم الله ضرب هذا الدينار (القيروان/المهدية) سنة... (فترة حكم المهدي)	
	المركز	الإمام
		محمد
		رسول
		الله
		المهدي بالله

في هذا الدينار تظهر في كتابة مركز الوجه عبارات "عبد الله" "أمير المؤمنين" وثبتت شيئين:

- أن "المهدي" أصبح الحاكم الفعلي للدولة الجديدة، والعملية تثبت نهاية مرحلة الدعوة وبداية مرحلة الدولة.
- هذه العبارات ليست جديدة ولم يختص بها خلفاء الفاطميين، بل طالما حملت النقود المضروبة في العهد الأموي والعباسي تلك العبارات للإشارة إلى خلفاء تلك الدولتين.

والجديد في هذا الدينار هي عبارات تظهر بمركز الظهر وهي "الإمام المهدي بالله"، وهما عبارتان تحيلان لمفهومين خطيرين في الفكر الشيعي:^(٧١)

- "الإمامة": وهي لدى الشيعة غير الخلافة لدى السنة، إنها أصل من أصول الدين^(٧٢)، وهي محصورة في "علي بن أبي طالب" وسلالته لا ينازعهم فيها إلا معتد أو ظالم، والإمامة عندهم تشمل تولي أمر المؤمنين الديني والدنيوي^(٧٣)، فالأئمة ملمون بعلم الظاهر والباطن^(٧٤)، وهم معصومون مثل الأنبياء تمامًا^(٧٥)، وقد أمر الله بطاعتهم ونهى عن معصيتهم^(٧٦)، وبهذا "فالإمام" فوق أن يحكم عليه، وهو فوق الناس في طينته

الوجه	الهامش	محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
المركز		محمد
		أبو القسم
		لا إله إلا الله
		وحده لا شريك له
الظهر	الهامش الخارجي	المهدي بالله
		وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم
		بسم الله ضرب هذا الدينار (القيروان/المهدية) سنة (فترة حكم القائم)
		الإمام
المركز		القائم بالله
		محمد
		رسول الله
		أمير المؤمنين

ففي عهد هذا الإمام يظهر الدينار الذهبي بشكل جديد تمثل خاصة في إضافة إطار ثان للظهر حمل أية كريمة هي: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٨٦) واستخدامها "القائم" في الظروف العصيبة والهزات السياسية والعسكرية العنيفة التي تعرض لها حكمه في تلك الفترة ومنها ثورة "موسى بن أبي العافية" (٣٢٣هـ)، وثورة "أبو يزيد مغلد بن كيداد صاحب الحمار" (٣٣٢هـ) التي مات "القائم" دون أن يستطيع القضاء عليها.^(٨٧) ونلاحظ أيضًا تواصل ضرب دنانير "القائم" وفق هذا الطراز حتى وفاته، ولا يظهر فيها كما نلاحظ من الشعارات التي تشير للمذهب الشيعي سوى عبارات "الإمام" و"المهدي" وربما أيضًا "القائم"، وأفضل ذلك كالتالي:

(أ) من أهم الملاحظات أن "القائم" ضرب اسمه وكنيته على الدينار "محمد أبو القاسم": وهو كما يظهر اسم النبي وكنيته (ﷺ) ولعلها إشارة للأتباع والرعية بأنه الإمام بن الأئمة المهديين من سلالة خير النبيين، وهو ما يشهد حسب الدارسين على الأهمية المستديرة لأفكار الإسماعيليين الأوائل وتوقعاتهم بخصوص ظهور "المهدي" أو "القائم"، وهي أفكار كانت متداولة حتى بين بربر المغرب الإسماعيليين، حيث أن اسم "المهدي" أو "القائم" أو المرمم الذي يعيد الإسلام الحقيقي إلى سابق عهده، يجب أن يكون اسمه وكنيته مطابقان تمامًا لاسم وكنية النبي (ﷺ).^(٨٨) وقد ظل اسم "القائم" مقروئًا دائمًا بلقب أبيه "المهدي"، وربما كان ذلك لسببين؛ شخصي واستراتيجي:^(٨٩)

- أما السبب الشخصي: فلشدة تقديسه وتعلقه "بالمهدي" حتى يقول "ابن عذاري" أن "القائم" قام: {بسيرة أبيه، وأظهر من

الحزن عليه ما لا يعهد لمثله، وواصل الحزن لفقده، وأدامه من بعده فما ركب دابة من باب قصره منذ مات أبوه إلى أن قبض سوى مرتين.^(٩٠)

- أما السبب الاستراتيجي: فحتى لا تتزعزع عقيدة "المهدوية" لدى أتباعه ورعيته، وخاصةً في الظروف العصيبة والهزات السياسية والعسكرية التي تعرض لها حكمه في تلك الفترة.
- (ب) أن اللقبان "المهدي" و"القائم" مصطلحان متلازمان لدى الشيعة، والواقع أنهما كانا دوماً مصطلحين مترادفين بشكل أساس في استخدامهما المبكر من قبل جميع طوائف الشيعة بما فهم الإسماعيلية^(٩١)، وتواصل ذلك في عهد الدولة الفاطمية حيث ورث "القائم" أبيه "المهدي" وخلفه لإمامة الأمة، وهما بذلك شعاران شيعيان ظهرا على النقود التي ضربها القائم بأمر الله الفاطمي.

ونضيف لما سبق ذكره: أن خصائص فنية مستحدثة ظهرت في دنانير القائم وتمثلت في استخدام "الخط الكوفي المورق" لتنفيذ النصوص، وهذا الخط حسب الدارسين المختصين هو خط ابتكره قرامطة المشرق، ولهذا فهو يسمى أيضًا (الخط القرمطي)،^(٩٢) والصلة العقدية والمذهبية بين طائفة "القرامطة" و"الإسماعيلية" رغم الاختلافات والانشقاقات- شيء قائم ومعروف ومسلم به.^(٩٣) ومع هذا فيمكن القول: أن "القائم" -وعلى غرار ما فعل أبوه من قبله- أظهر واقعا الشعارات المذهبية الإسماعيلية (الشيعية) ولكن تلميحًا لا تصريحًا، بقبله المطيع (الشيعي الإسماعيلي)، ولا يرفضه المخالف (السني خصوصًا).

٤/١- نقود "المنصور بالله" (٣٣٤هـ-٣٤١هـ):

تواصل عدم الاستقرار السياسي في عهد "المنصور"، ومع اشتداد خطر ثورة "صاحب الحمار النكاري" فإنه لم يعلن عن وفاة أبيه لمدة سنة كاملة،^(٩٤) ولهذا فالدنانير التي ضربها في أول عهده ضربت باسم أبيه "القائم" فهي حسب المختصين دنانير المرحلة الأولى.^(٩٥) وبعد القضاء على ثورة "أبي يزيد" وانتهاء فتنته سنة ٣٣٦هـ ضرب "المنصور بالله" دنانيره وأظهر فيه اسمه وألقابه،^(٩٦) وبهذا ظهرت دنانير المرحلة الثانية التي استمر ضربها بالمهدية والمنصورية^(٩٧) حتى وفاته سنة ٣٤١هـ، فكان ديناره وفق الشكل التالي:^(٩٨)

- النموذج الثاني: هو دينار ذهبي ضربه "المعز" بطراز جديد، اعتبره الدارسون ثورة على طراز السكة العباسية الذي ظل أسلاف "المعز" يضربون وفقه نقودهم، وهذا يعتبر عهد "المعز" وأنا لظهور الشخصية المستقلة والمتميزة للسكة الفاطمية الشيعية من حيث الشكل والموضوع: (١٠١)

الوجه	الهامش	محمّد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون
	الخارجي	الهامش
الظهر	الإمام	وعلي أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين
	لا إله إلا الله	الهامش
	إلا الله	الداخلي
	المنصور	الهامش
الظهر	محمّد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون	الهامش
	إسماعيل	الخارجي
	محمّد	الهامش
	رسول الله	الأوسط
الظهر	أمير المؤمنين	الهامش
	الهامش	الداخلي

يرى العلماء أن "المعز لدين الله" أراد أن يرسي نظامًا نقديًا جديدًا ثابتًا ومميزًا لذا فقد بدت نقوده بذلك الطراز، وظهرت بذلك لأول مرة في السكة الإسلامية نقودا بثلاث هوامش بها كتابات دائرية متحدة المركز تتضمن عبارات التوحيد والرسالة المحمدية وتمجيد آل البيت النبوي، وتظهر بوضوح تام الانتماء لهم وتعلن بجرأة صريحة أحقية علي وسلالته بالإمامة وزعامة الأمة الدينية والسياسية. (١٠٢) من هذه العبارات نذكر:

- "وعلي أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين": فجميع الشيعة الإمامية يعتقدون بأن لكل نبي وصي، فالوصاية تتلو النبوة وحسب مراجع الشيعة فقد نص النبي (ﷺ) على وصاية علي عندما قال: {إن هذا أخي ووصي وخليفتي من بعدي فاسمعوا له وأطيعوا}، كما أن النبي (ﷺ) قد نص على وزارة علي ونيابته له عندما قال: {أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي}. (١٠٣)
- أما الإسماعيلية فيعتقدون أن التاريخ الديني للبشرية مر بسبعة أدوار نبوية بأجال متنوعة، وكل واحد من تلك الأدوار افتتحه "نبي" وهو "ناطق" برسالة إلهية تضمنت في جانبها الظاهري شريعة للناس، وهؤلاء "النطقاء" هم "آدم" و"نوح" و"إبراهيم" و"موسى" و"عيسى" و"محمد" - صلوات الله عليهم أجمعين - فقاموا بإبلاغ الجوانب الظاهرة لكل تنزيل (طقوس أوامر نواهي) دون شروح للباطن والذي كلف بها "وصي" يدعى "الصامت" أو "الأساس"، ومهمته كشف الحقائق الباطنية للتنزيل ولكن

الوجه	الهامش	بسم الله ضرب هذا الدينار (المهدية/المنصورية) سنة.. (فترة حكم المنصور)
	المركز	الإمام
الظهر	محمّد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون	لا إله إلا الله
	إسماعيل	إلا الله
	محمّد	المنصور
	رسول الله	الهامش
الظهر	أمير المؤمنين	الهامش
	الهامش	الداخلي

لم تظهر في دنائير المنصور من العبارات والألقاب ذات الصلة بالمذهب الشيعي سوى لقب "الإمام" الذي يجب على الأمة الالتفاف حوله وتوليّه، والبراءة من أعدائه، وهو الشعار الديني والروحي الذي لا يكتسبه سوى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وسلالته وصولاً إلى السلالة الفاطمية.

٢- ظهور السكة الفاطمية المميزة:

١/٢ - نقود "المعز لدين الله" (٣٤١هـ-٣٦٥هـ):

لن نتحدث عن سكة "المعز" إلا في طورها المغربي أي قبل فتح مصر وتأسيس القاهرة وانتقاله إليها سنة ٣٦٢هـ حيث سيبدأ الطور الثاني للدولة الفاطمية. ويصنف المختصون دنائير "المعز" ضمن صنفين أو نموذجين، (٩٩) نفهمهما كما يلي:

- النموذج الأول: هو دينار ذهبي يشبه إلى حد كبير النموذج الذي ضربه "المهدي" في بداية الدولة، (١٠٠) ولا يظهر فيها من العبارات ذات الارتباط بالفكر الشيعي سوى كلمة "الإمام" وقد فصلنا فيها الحديث من قبل، وحمل دينار "المعز" العبارات والجمل التالية:

الوجه	الهامش	محمّد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
	المركز	معد
الظهر	لا إله إلا الله	الهامش
	الله وحده	الخارجي
	لا شريك له	الهامش
	أمير المؤمنين	الأوسط
الظهر	بسم الله ضرب هذا الدينار (لا ذكر لمكان الضرب) سنة.. (فترة حكم المعز)	الهامش
	الإمام	الخارجي
	محمّد	الهامش
	رسول الله	الأوسط
الظهر	المعز لدين الله	الهامش
	الله	الداخلي

الألسن^(١٠٨). وقد نافست الدولة الفاطمية الدولتين السنيتين العباسية في بغداد والأموية في قرطبة، واعتبر البعض أن ذلك العصر هو عصر الخلافت الإسلامية الثلاث، حيث ازدهرت العلوم والفنون والآداب والعمارة،^(١٠٩) وسي ذلك العصر عصر النهضة في الإسلام.

النتائج

- تميزت الخلافة الفاطمية بمذهبها الشيعي الإسماعيلي، الذي حاولت نشره وتعميمه-وربما فرضه-على المناطق التي سيطرت عليها، واستغلت كل الوسائل المتاحة ومن ضمنها السكة النقدية، باعتبارها شارة من شارات الملك ووسيلة إعلامية غاية في الخطورة في تلك الحقبة التاريخية.
- وقد ضرب الفاطميون سكته منذ فترة الثورة، وقد حرصوا على إظهار شعاراتهم المذهبية المميزة، ولكن مرحلياً، وهذا خوفاً من ردة فعل رعايا الدولة الذين كانوا يلتزمون في أغلبهم بمذاهب أهل السنة أو المذاهب الخارجية المتعددة.
- وقد سارت السكة الفاطمية ببلاد المغرب من حيث الشكل والمضمون ولاسيما في عهد الأئمة الثلاثة الأوائل (المهدي والقائم والمنصور) على طراز السكة العباسية، ولم يظهر طراز السكة الفاطمي المتميز إلا في عهد "المعز لدين الله" الذي أرسى دعائم الدولة الفاطمية بالمغرب ثم سيطر على مصر وانتقل إليها.
- ظهرت الشعارات والعبارات الشيعية على نقود الفاطميين منذ بدء ضربها أي منذ بداية ظهور "أبي عبد الله الشيعي"، ومن ضمن العبارات التي ظهرت في هذه المرحلة عبارة "البلاغ" و"الحجة".
- وبتولي "المهدي" (وابنه القائم وحفيده المنصور) الأمر ظهرت ألقاب وعبارات من صميم المذهب الإسماعيلي الشيعي من قبيل "الإمام" و"المهدي" و"القائم"، بل وتتعلق بمسائل جوهرية لدى الأمامية مثل مسألة الولاية ومعرفة إمام الزمان وتولييه ومعاداة أعدائه... إلخ، وهي كما هو واضح عبارات لا يمكن فهمها إلا بالرجوع لمصادر المذهب الإسماعيلي وأساسه العقائدية والفكرية والفلسفية والفقهية.
- تعتبر فترة حكم "المعز لدين الله" من أعظم وأزهى فترات الدولة الفاطمية على الإطلاق، حيث أحكمت سيطرتها السياسية والعسكرية على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي، وبالنتيجة فقد تقوت الدولة اقتصادياً وتجاريًا، وازدهرت ثقافيًا وفكريًا، وأن الأوان لأن تظهر الدولة مرجعيتها الشيعية الإسماعيلية، وتعمل على نشرها والترويج لها بين الناس، واستغلت النقود كأحد الوسائط الهامة في ذلك، وبهذا ظهرت الشعارات والعبارات المتعلقة بالمذهب الشيعي الإسماعيلي والألقاب ذات الأصول الشيعية صريحة ومدوية لعقود من الزمن: ومن ضمنها: "وعلي أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين"، و"علي بن أبي طالب وصي الرسول، نايب الفضول، وزوج الزهراء البتول"، و"دعا الإمام معد لتوحيد الإله الصمد"، وأيضاً "معي سنة محمد سيد المرسلين ووارث مجد الأئمة المهديين"... إلخ.

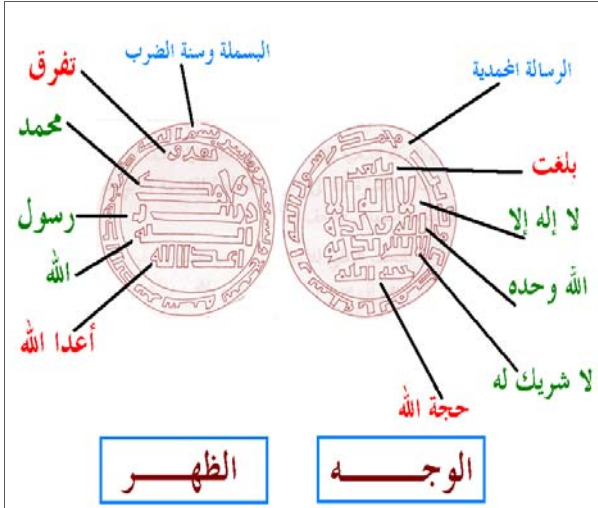
للخاصة فقط، وبالنتيجة فالأوصياء سنة أيضاً وهم "شيث"، و"سام"، و"إسماعيل"، و"هارون"، وشمعون"، و"علي"، وكل "وصي" بدوره يخلفه سبعة أئمة يسمون "الأئمة"، مهمتهم حفظ الأمانة والمعنى الحقيقي للرسالة السماوية، وإمام الدور السابع لكل دور يصبح ناطقاً فيعلن شريعة جديدة ويتوقف هذا النموذج فقط في الدور السابع^(١٠٤).

إن ظهور هذا الشعار في عملة "المعز لدين الله" هو إعلان بتلك العقيدة المتجذرة لدى الإسماعيليين، وقد تمكن "المعز" من المجاهرة بها وإعلانها على الملأ دون خوف أو تردد^(١٠٥)، وهذا بعد ما بسط سيطرته السياسية والعسكرية على المنطقة، وكان هدفه التالي فرض مذهب الإسماعيليين وفكرهم بين الناس والرعية، ويجب أن نذكر هنا أن هذا ربما يكون ضمن استراتيجية شاملة فكر فيها "المعز" ومنها ضرب النقود بشعارات شيعية إسماعيلية، ونشر الفقه الإسماعيلي بتشجيع الدعاة والقضاة ومنهم "القاضي النعمان" الذي وضع فقها إسماعيلياً مكتوباً على غرار ما فعلت المذاهب الأخرى، وأقام "مجالس الحكمة" لتدريس أصول المذهب وفقهه بين المغاربة ثم بمصر بعد الانتقال إليها وخاصة بالمسجد الأزهر^(١٠٦).

- "دعا الإمام معد لتوحيد الإله الصمد" هو شعار جديد ضربه "المعز" على نقوده لم يسبقه إليه أحد من أسلافه، وهو أيضاً نابع من الأفكار الإسماعيلية التي تؤكد أن "الإمامة" تدخل في مبحث "الولاية"، والذي يتناول ضرورة معرفة الكلفين لإمام الزمان الحق، بما يوفر المبررات الشرعية لدولة علوية تحكمها أسرة البيت النبوي^(١٠٧)، وبالتالي فسلطة الإمام العلوي المعصوم وتعاليمه وأوامره واجبة الطاعة، وأعظمها مبدأ التوحيد الذي ظهر في هذا الشعار.
- كان ذلك نموذجاً للشعارات المذهبية الإسماعيلية الواضحة التي ظهرت على سكة "المعز"، وقد ظهرت شعارات أخرى تدخل ضمن هذا النطاق نذكرها منها ولكن دون أن نفصل ما يلي:
- "وعلي بن أبي طالب وصي الرسول، نايب الفضول، وزوج الزهراء البتول".
- "معي سنة محمد سيد المرسلين ووارث مجد الأئمة المهديين".

خاتمة

يعتبر بعض المؤرخين أن قيام دولة الفاطميين هو أهم الحوادث السياسية في القرن الرابع الهجري، ولم يكد يمض قرن واحد على ظهور المهدي حتى امتد سلطانهم على رقعة واسعة من العالم الإسلامي شملت معظم بلاد المغرب الإسلامي ومصر وأجزاء من الشام وشبه الجزيرة العربية، وكان لهم دعاة منبثون في كل جهة، حتى وصل الأمر "بالمعز" أن قال في رسالة لأحد أتباعه: {وما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلا ولنا حجج ودعاة يدعون إلينا، ويدلون علينا، ويأخذون بيعتنا وينتظرون رجعتنا، وينشرون علمنا، وينذرون بأسنا، ويبشرون بأيامنا، بتصاريف اللغات واختلاف



شكل رقم (١)

دينار "أبو عبد الله الشيعي"

ضرب في القيروان سنة ٢٩٧ هـ

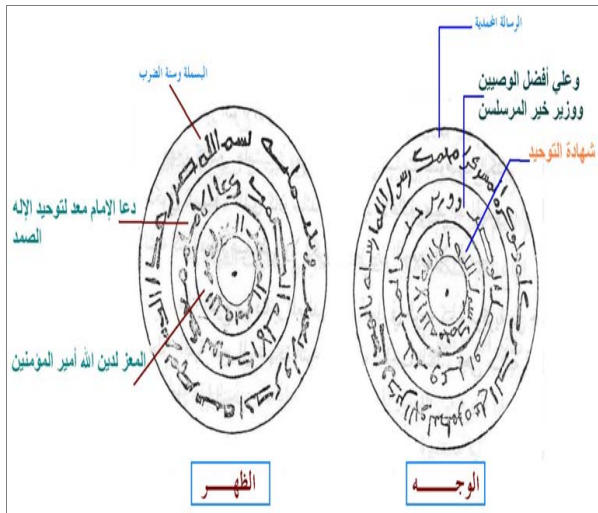
رسم تخطيطي للقطعة



صورة رقم (١)

نموذج للدينار الذي ضربه "عبيد الله المهدي"

المصدر: تاريخ الجزائر من خلال المسكوكات



شكل رقم (٢)

نموذج الدينار الذي ضربه "المعز لدين الله"

رسم تخطيطي للقطعة



صورة رقم (٢)

نموذج للدينار الذي ضربه "القائم"

المصدر: معهد الدراسات الإسلامية



صورة رقم (٣)

نموذج للدينار الذي ضربه "المعز لدين الله"

المصدر: معهد الدراسات الإسلامية

- ضد خلافة "علي بن أبي طالب" بحجة القصاص من قتلة "عثمان"، بعد اغتيال "الإمام علي" تمكن من السيطرة على الحكم ليبدأ عهد الدولة الأموية وعاصمتها "دمشق". انظر: الخضري بك (محمد): محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، مراجعة نجوى عباس، القاهرة، مؤسسة المختار للنشر، ط. ١، ٢٠٠٣، ص ٣٢٣ وما بعدها.
- (١٩) أمين (أحمد): ضحى الإسلام، ج. ٣، ص. ١٤٩ وما بعدها.
- (٢٠) ابن طاهر البغدادي (عبد القاهر): الفرق بين الفرق، ص. ٢٧ وما بعدها.
- (٢١) أكثر الشيعة في أيامنا الحاضرة ينتمون لهذه الطائفة، وينتشرون في إيران والعراق ولبنان وأجزاء من الخليج العربي.
- (٢٢) الزيدية: فرقة شيعية تنتسب لزيد بن علي زين العابدين، منهم الأدارسة في المغرب، ومنهم شيعة اليمن.
- (٢٣) ابن طاهر (عبد القاهر البغدادي التميمي): المرجع السابق، ص. ٤٧.
- (٢٤) تامر (عارف): تاريخ الإسماعيلية، لندن، رياض الريس للكتب والنشر، ط. ١، ١٩٩١، ج. ١، ص. ١٤.
- (٢٥) دفتري (فرهاد): المرجع السابق، ص. ٧٧.
- (٢٦) دفتري (فرهاد): المرجع السابق، ص. ١١٩ وما بعدها.
- (٢٧) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ص. ٧٥.
- (٢٨) ابن خلدون: كتاب العبر، ج. ٦، ص. ١٤٨.
- (٢٩) نفسه: ص. ١٤٨.
- (30) Keddache (M); *L'Algérie Medievale*, Alger, E.N.A.L, 1992, p.48.
- (٣١) دفتري (فرهاد): المرجع السابق، ص. ١٣١.
- (٣٢) طقوش (محمد سهيل): التاريخ الإسلامي الوجيز، ص. ٢٧٧.
- (33) Keddache (M); *op.cit*, p.48.
- (٣٤) ابن حماد الصنهاجي (محمد بن علي): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص. ٤١-٤٠.
- (٣٥) ولد دادة (محمد): مفهوم الملك في المغرب، من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع، دراسة في التاريخ السياسي، ص. ٥٦.
- (٣٦) ابن كثير (عماد الدين إسماعيل): البداية والنهاية، مج ١١-١٢، ص. ١٥٥.
- (٣٧) ابن حماد الصنهاجي (محمد بن علي): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص. ٤١.
- (٣٨) ولد دادة (محمد): المرجع السابق، ص. ٥٩.
- (٣٩) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ص. ١٧٧.
- (40) Mercier (Ernest); *Histoire de l'Afrique Septentrionale (Berbérine) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française (1830)*, Paris, ed-Ernest Leroux, 1888, T.II, p.332
- (٤١) ابن كثير (عماد الدين إسماعيل): البداية والنهاية، مج ١١-١٢، ص. ١٨٤.
- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ص. ٢٠٨.
- (٤٢) طقوش (محمد سهيل): المرجع السابق، ص. ٢٨١.
- (٤٣) ابن كثير (عماد الدين إسماعيل): المرجع السابق، مج ١١-١٢، ص. ١٨٤.
- (٤٤) ابن حماد الصنهاجي (محمد بن علي): المرجع السابق، ص. ٥٩.
- (٤٥) نفسه، ص. ٧٥.
- (٤٦) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ص. ٢٢١.
- (47) Mercier (Ernest); *op.cit*, T.II, p.356
- (٤٨) ابن عذاري المراكشي: المرجع السابق، ص. ٢١٨. طقوش (محمد سهيل): المرجع السابق، ص. ٢٨٣.
- (٤٩) ابن حماد الصنهاجي (محمد بن علي): المرجع السابق، ص. ٨٨.
- (٥٠) ابن عذاري المراكشي: المرجع السابق، ص. ١٤١.
- (٥١) الزبريون (٣٦٢-٥٤٢هـ)، سلالة حاكمة من قبيلة "صنهاجة" البربرية العظيمة، حكموا باسم الفاطميين، ثم استقلوا عنهم في عهد الأمير "المعز

- (١) طقوش (محمد سهيل): التاريخ الإسلامي الوجيز، بيروت، دار النفائس، ط. ٥، ٢٠١١، ص. ٢٧٧.
- (٢) ابن حماد الصنهاجي (محمد بن علي): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، القاهرة، دار الصحوة، ص. ٧ وما بعدها.
- (٣) ابن الأثير (أبي الحسن عز الدين): الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفدا عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. ٤، ٢٠٠٣، ج. ٥، ص. ١١.
- (٤) ابن خلدون (عبد الرحمن): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، منشورات مؤسسة الأعلى للطبوعات، د.ت، ج. ١، ص. ٢١.
- (٥) ومنه تسمت الطائفة الإسماعيلية، وتذكر "الإمامية الإثنا عشرية" (أخذ أهم فرق الشيعة) إمامة "إسماعيل"، وترى أنه مات قبل والده "جعفر الصادق"، وأن الإمام الفعلي هو "موسى الكاظم" (ت. ١٨٣هـ). انظر: أمين (أحمد): ضحى الإسلام، بيروت/صيدا، المكتبة العصرية، ط. ١، ٢٠٠٦، ج. ٣، ص. ١٥٢.
- (٦) ابن خلدون: كتاب العبر، ج. ١، ص. ٢١.
- (٧) ابن طاهر البغدادي (عبد القاهر): الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محي الدين عبد المجيد، بيروت، المكتبة العصرية، ٢٠٠٤، ص. ٢٠٠.
- (*) القادر: الخليفة العباسي الخامس والعشرون، حكم في الفترة ما بين (٣٨١-٤٤٢ هـ) / (٩٩١-١٠٣١ م). انظر: الخضري بك: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة العباسية، القاهرة، مؤسسة المختار للنشر، ط. ١، ٢٠٠٣، ص. ٣٧٣ وما بعدها.
- (٨) ابن خلدون: كتاب العبر، ج. ١، ص. ٢٣.
- (٩) ابن طاهر البغدادي (عبد القاهر): الفرق بين الفرق، ص. ٢٧ وما بعدها.
- (١٠) ابن كثير (عماد الدين إسماعيل): البداية والنهاية، تحقيق: أحمد بن شعبان بن أحمد ومحمد بن عيادي عبد الحليم، القاهرة، مكتبة الصفا، ط. ١، ٢٠٠٣، مج ١١-١٢، ص. ١٥٥.
- (١١) نفسه، ص. ١٥٥.
- (١٢) ابن عذاري المراكشي (أبو عبد الله محمد): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت دار الثقافة، تحقيق: س. كولان وليفي بروفنسال، ص. ١٧٦.
- (١٣) ابن حماد الصنهاجي (محمد بن علي): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص. ٢٩.
- (١٤) دفتري (فرهاد): مختصر تاريخ الإسماعيليين، تر: سيف الدين القصير، دمشق، دار الثقافة للنشر، ط. ١، ٢٠٠١، ص. ٧٨-٧٩.
- (١٥) السيوطي (جلال الدين بن أبي بكر): تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، ط. ١، ٢٠٠٥، ص. ٤٤٨.
- (١٦) دفتري (فرهاد): مختصر تاريخ الإسماعيليين، ص. ٩٩-١٠٢.
- (١٧) فصل الدكتور "فرهاد دفتري" في هذا الموضوع، وهو واحد من أهم المختصين في الدراسات الإسماعيلية، نال شهادة الدكتوراه من "جامعة باركلي" في كاليفورنيا سنة ١٩٧١م، وفي سنة ١٩٨٨م انضم إلى معهد الدراسات الإسماعيلية حيث أصبح مديرًا مساعدًا في المعهد ورئيسًا لقسم البحث فيه، كما أنه محرر استشاري بموسوعة "إيرانیکا"، وعضو اللجنة الاستشارية لدائرة المعارف الإسلامية، والمدير العام لسلسلة التراث الإسماعيلي، وهو مرجع هام في الدراسات الإسماعيلية، من أهم مؤلفاته "الإسماعيليون: تاريخهم وعقائدهم"، و"أساطير الإسماعيليين"، و"مختصر تاريخ الإسماعيليين".
- (١٨) "معاوية بن أبي سفيان الأموي": أسلم عام الفتح، عمل واليًا على دمشق في عهد الخليفين "عمر بن الخطاب"، و"عثمان بن عفان"، ثم أعلن عصيانه

- (٧٤) غربال (محمد شفيق): الموسوعة العربية الميسرة، مادة: "إمام"، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٥، ج. ١، ص. ٢١٧.
- (٧٥) الشيرستاني: الملل والنحل، ج. ١، ص. ١٤٦.
- (٧٦) أمين (أحمد): ضحى الإسلام، ج. ٣، ص. ١٥٣-١٥٧.
- (٧٧) تامر(عارف): المرجع السابق، ج. ١، ص. ٧٥.
- (٧٨) غربال (محمد شفيق): المرجع السابق، مادة: "المهدي"، ج. ٢، ص. ١٧٦٤.
- (٧٩) أمين (أحمد): ضحى الإسلام، ج. ٣، ص. ١٧٣.
- (٨٠) ولد دادة (محمد): مفهوم الملك في المغرب: ص. ٦١.
- (٨١) سورة يونس: الآية (٣٥).
- (٨٢) داوود (مايسة محمود): المرجع السابق، ص. ٢٥.
- (٨٣) داوود (مايسة محمود): المسكوكات الفاطمية بمجموعة الفن الإسلامي في القاهرة، ص. ٢٤.
- (٨٤) نفسه، ص. ٢٧.
- (٨٥) بن قرية (صالح): المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٦، ص. ٣١٥.
- (٨٦) سورة الأنعام: الآية ١١٥.
- (٨٧) طقوش (محمد سهيل): التاريخ الإسلامي الوجيز، ص. ٢٧٩-٢٨٠.
- (٨٨) دفتري (فرهاد): المرجع السابق، ص. ١٣٦-١٣٧.
- (٨٩) داوود (مايسة محمود): المرجع السابق، ص. ٢٨.
- (٩٠) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، ص. ١٢٩.
- (٩١) دفتري (فرهاد): المرجع السابق، ص. ٧٥.
- (٩٢) بن قرية (صالح): المسكوكات المغربية، ص. ٣١٨.
- (٩٣) تامر(عارف): تاريخ الإسماعيلية، ج. ١، ص. ١٥١ وما بعدها.
- (٩٤) طقوش (محمد سهيل): التاريخ الإسلامي الوجيز، ص. ٢٨١.
- (٩٥) بن قرية (صالح): المرجع السابق، ص. ٣٣٤.
- (٩٦) داوود (مايسة محمود): المرجع السابق، ص. ٣١.
- (٩٧) المنصورية: مدينة قرب القيروان بناها "المنصور بالله" سنة ٣٣٧هـ تخليدًا لانتصاره على "صاحب الحمار".
- (٩٨) بن قرية (صالح): المرجع السابق، ص. ٣٤٤-٣٤٧.
- (٩٩) نفسه، ص. ٣٥٢.
- (١٠٠) بن قرية (صالح): المرجع السابق، ص. ٣٥٢.
- (١٠١) داوود (مايسة محمود): المسكوكات الفاطمية، ص. ٣٦- بن قرية (صالح): المرجع السابق، ص. ٣٥١-٣٥٠.
- (١٠٢) داوود (مايسة محمود): المسكوكات الفاطمية، ص. ٣٧.
- (١٠٣) السماوي (محمد التيجاني): مع الصادقين، ص. ١٠١.
- (١٠٤) دفتري (فرهاد): المرجع السابق، ص. ١٠٤-١٠٥.
- (١٠٥) بن قرية (صالح): المرجع السابق، ص. ٣٦٧.
- (١٠٦) دفتري (فرهاد): المرجع السابق، ص. ١٤٢.
- (١٠٧) نفسه، ص. ١٤٣.
- (١٠٨) مئزر (آدم): الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (أو عصر النهضة في الإسلام)، ص. ٥١٣.
- (109) Marçais(G); L'art Musulman, Paris, presses universitaires de France, 2émé édition, 1981,p.11.

- بن باديس الصنهاجي، اتخذوا من "أشير" عاصمة لهم، ثم انتقلوا إلى "القيروان"، قضي على دولتهم بعد الهجمة الهمجية للقبائل الهلالية.
- (٥٢) الحماديون (٣٦٢-٥٤٢هـ)، فرع من الزيريين، حكموا باسمهم أرجاء من شرق المغرب الأوسط (الجزائر الحالية)، ثم استقلوا عنهم في عهد الأمير "حماد بن بلكين"، اتخذوا من "القلعة" (قرب المسيلة) عاصمة لهم، ثم انتقلوا إلى "الناصرية" (بجاية)، بعد الزحف الهلالي على المنطقة.
- (٥٣) أهمهم الوزير "شاوهر" وزير "العاضد" آخر الفاطميين، والذي تحالف مع الصليبيين ضد القائد "أسد الدين شيركوه"، و"صلاح الدين الأيوبي" من كبار قادة الدولة الأتابكية وملكها العادل "نور الدين زنكي". انظر: بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه فارس ومخير البعلبي، بيروت، دار العلم للملايين، ط. ١٩٨١، ص. ٣٥١-٣٥٢.
- (٥٤) "صلاح الدين الأيوبي": أحد كبار قادة "الدولة الأتابكية"، أنهى حكم الدولة الفاطمية، وبعد موت الملك "نورالدين زنكي"، استولى "صلاح الدين" على مقاليد الحكم وأسس "الدولة الأيوبية" التي حكمت في الفترة ما بين ٥٦٩-١٢٤٨هـ/١١٧٢-١٢٥٠م)، وسيطرت هذه الدولة على أجزاء واسعة من مصر والشام واليمن، وانتهى عهدها بسيطرة "المماليك".
- (٥٥) "الملك العادل نور الدين بن عماد الدين زنكي" (ت. ٥٦٩هـ)، نشأ مع والده في العراق ثم الموصل وبلاد الشام، ثم تولى أمور "الدولة الأتابكية" بعد وفاة والده، فقام بإظهار السنة وحارب البدعة وتصدى للفرق الرافضية، وشيد المدارس وأوقف الأوقاف، وأظهر العدل، فأطلق عليه لقب "الملك العادل".
- (٥٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج. ١٠، ص. ٣٣، دفتري (فرهاد): المرجع السابق، ص. ٢٠٥، تامر(عارف): تاريخ الإسماعيلية، ج. ٤، ص. ٥٦.
- (٥٧) داوود (مايسة محمود): المسكوكات الفاطمية بمجموعة الفن الإسلامي في القاهرة (دراسة أثرية وفنية)، القاهرة، دار الفكر العربي، دت، ص. ١٩.
- (58) De Candia (Ferugia); Monnaies Aghlabides du musée de Bardo, in "Revue Tunisienne", 2émé trimestre, 1936, p184.
- (٥٩) سورة المائدة: الآية (٦٧).
- (٦٠) السماوي (محمد التيجاني): مع الصادقين، بيروت، مؤسسة الفجر، ط. ١، ١٩٨٩، ص. ٤٩.
- (٦١) مئزر (آدم): الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (أو عصر النهضة في الإسلام)، تر: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج. ٢، ص. ٥١٥.
- (٦٢) تامر(عارف): تاريخ الإسماعيلية، ج. ١، ص. ١٢٥.
- (٦٣) البستاني (فؤاد إفرام): منجد الطلاب، بيروت، دار العلم المشرق، ط. ١٩٧٥، ج. ٢٣، ص. ١٠٦.
- (٦٤) دائرة المعارف الإسلامية: مادة: "حجة"، الشارقة، مركز الشارقة للإبداع الفني، ط. ١، ١٩٩٨، ج. ١١، ص. ٣٤٨٢.
- (٦٥) دفتري (فرهاد): مختصر تاريخ الإسماعيليين، ص. ١٣٣.
- (٦٦) دائرة المعارف الإسلامية: مادة "إسماعيلية"، ج. ٣، ص. ٧٦٥.
- (٦٧) مئزر (آدم): الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج. ٢، ص. ٥١٥.
- (٦٨) الشيرستاني (أبي الفتح محمد بن عبد الكريم): الملل والنحل، تحقيق محمد سيد الكيلاني، بيروت، دار صعب، ١٩٨٦، ج. ١، ص. ١٩٢.
- (٦٩) دفتري (فرهاد): المرجع السابق، ص. ٩٢.
- (٧٠) نفسه، ص. ١٨٠.
- (٧١) داوود (مايسة محمود): المسكوكات الفاطمية بمجموعة الفن الإسلامي في القاهرة، ص. ٢٥.
- (٧٢) تامر(عارف): تاريخ الإسماعيلية، ج. ١، ص. ٧٥.
- (٧٣) دفتري (فرهاد): مختصر تاريخ الإسماعيليين، ص. ١١٩.

الناعورة والسَّانية في المغرب تساؤلات وملاحظات

سمير أيت أومغار

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
رئيس جمعية مراكش للذاكرة والتاريخ
مراكش – المملكة المغربية



مُلخَص

يُعَدُّ الماء وما يتصل به من تقنيات وأعراف وقوانين وتمثيلات ذهنية ونظم اجتماعية مختلفة، نافذة جديدة من النوافذ التي بات المؤرخ يطل من خلالها على التاريخ القروي والحضري، وذلك للارتباط الوثيق للإنسان بالماء منذ بداياته الأولى سواء في الترحال أو بعد اتخاذه قرار الاستقرار. وحتى يستفيد الإنسان من الموارد المائية، ابتكر ثم طوّر فيما بعد العديد من التقنيات المائية لنقل ورفع وتجميع وتخزين وتوزيع الماء، كالسواقي والآبار والخطارات والصهاريج والبرك والمواجل والقنوات والنواعير والسواني.. وتطرح التقنيتان الأخيرتان في المغرب عدة إشكاليات ترتبط بالفصل التقني بينهما، وتاريخ بداية استعمالهما في المدن والبادي المغربية، خاصةً أن النصوص التاريخية بحكم طبيعتها لم تكن تقف مطوّلاً عند منشآت من هذا النوع، إلا إذا تعلق الأمر بمشروع مخزني يستلزم التوقف عنده لإثبات محاسنه ومزاياه كما هو حال نواعير فاس المرينية. أما البحث الأثري فيسجل غياباً كبيراً في هذا الجانب باستثناء عمل المهندس جون دولاروزييه (Delarozière)، والأستاذ هنري بريسوليت (Bressolette) حول الناعورة الكبرى والقناة المحمولة بمشور فاس الجديد.

كلمات مفتاحية:

تاريخ التقنيات، فاس الجديد، العصر المريني، السلطان أبو يوسف
يعقوب، أساليب الزراعة

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٠ يوليو ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٦ سبتمبر ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سمير أيت أومغار، "الناعورة والسَّانية في المغرب: تساؤلات وملاحظات"، دورية كان التاريخية، العدد الثلاثون، ديسمبر ٢٠١٥، ص ١٢٦-١٤١.

مُقَدِّمَةٌ

الميكانيكية العربية، الساعات المائية العربية، تراث الكيمياء العربية، الهندسة المدنية العربية، والعلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية.

ويتطلب البحث في تاريخ التقنية توسيع مفهوم الوثيقة، والاشتغال في غالب الأحيان بالزمن الطويل للماتمة لهذا الموضوع، ذلك أن التطور التقني كان بطيئاً ولم يكن متسارعاً كما هو الحال بالنسبة للحدث السياسي أو العسكري أو حتى الاقتصادي،^(١) كما يتطلب المقاربة المجالية الأفقية لتاريخ التقنية من خلال عملية المقارنة، لرصد حركات التبادل الفكري والتقني بين مختلف الفضاءات التاريخية، وهذا كفيل بالكشف عن أصول التقنيات وظروف انتقالها من منطقة لأخرى وقنوات هذا الانتقال.

أسمى البحث في تاريخ التقنيات من المواضيع الجديدة التي بات يهافت عليها المؤرخون والباحثون من كل التخصصات، فالتقنية تستدعي عدا الإحاطة بالسياق والإطار التاريخي لظهورها وانتشارها، المعرفة الدقيقة باليات عملها واشتغالها، ولهذا السبب نجد أن من برع في هذا المجال لم يكن مؤرخاً بالدرجة الأولى، بل مهندساً أو شيئاً من هذا القبيل، وكنموذج على ذلك نستشهد بالدكتور الانجليزي دونالد ر.هيل [ولد سنة 1922]، فقد حصل هذا الباحث على شهادة باكالوريا في الهندسة، ثم أتبعها بدكتوراه في الفلسفة في التاريخ العربي من جامعة لندن، فكان من أولى نتائج هذا التكوين المزدوج اهتمام خاص بتاريخ الهندسة والتكنولوجيا في العصور الوسطى، ومن مؤلفاته في هذا المجال: التقنية الإسلامية، الهندسة

العصر الوسيط والزواج المختلط بين الأندلسيين وسكان أسبانيا الشمالية، والعلاقات التجارية الدائمة بين الأندلس وبلدان الغرب الأوربي، إلى جانب الدور الذي لعبه كل من الأسرى المسيحيين واليهود في التبادل الثقافي بين العالم الإسلامي والغرب الأوربي^(١)، لكنه تحليل يقصّر مع ذلك عن الكشف على الاختلافات الجوهرية القائمة بين مجموعة من المنشآت المائية المتشابهة في أدوارها بل وفي أشكالها وهندستها، واقصد هنا السانية والدولاب.

لاشك أن العماد في تحليل التسمية كما جرت العادة هو لسان العرب الذي جمع ما تفرق في غيره من المعاجم، ويُعرف ابن منظور الناعورة وفعل النَّعَرَ قائلاً: "نعر: النَّعْرَةُ والنُّعْرَةُ: الخيشوم، ومنها ينعر النَّاعِرُ. والنُّعْرَةُ: صوت في الخيشوم، قال الرازي: إني وربّ الكعبة المستورة، والنُّعْرَةُ: صوت في الخيشوم، قال الرازي: إني وربّ الرجل ينعرُ وينعُرُ نعيْرًا ونُعْرًا: صاح وصوّت بخيشومه، وهو من الصَّوْتِ. أما قول الليث في النُّعْرِ إنه صوت في الخيشوم وقوله النُّعْرَةُ الخيشوم، فما سمعته لأحد من الأئمة، قال: وما أرى الليث حفظه. قال شمر: النَّاعِرُ على وجهين: النَّاعِرُ المصوّت والنَّاعِرُ العِرْقُ الذي يسيل دماً. والنَّاعورة: الدَّولاب. والنَّاعورُ: جناح الرّيح. والنَّاعور: دلو يستقى بها. والنَّاعورُ: واحد النواعير التي يستقى بها يديرها الماء ولها صوت"^(٢).

نلاحظ في هذه التحديدات اللغوية، تردد الإشارة إلى فعل النَّعَرَ كصوت يحدثه الإنسان والحيوان على حد سواء، إضافة إلى دلالة أخرى مرتبطة بالسَّيلان وإن كانت مرتبطة في الأساس بالأوعية الدموية التي تنعرد دماً. كما أن ابن منظور يماثل هنا بين الدولاب والناعورة رغم وجود اختلاف بينهما، كما ورد ذلك في كتاب "الحاوي للملل السلطانية"^(٣) مؤلف مجهول، يُبين فيه أن الناعورة تفوق طاقتها السقوية طاقة الدولاب الذي يبقى أقل سرعة من الناعورة^(٤). ونجد المعاني نفسها تتردد تقريباً في ثلة من المعاجم المزدوجة التي وضعها مجموعة من المستعربين والمستشرقين خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين، أمثال القنصل الفرنسي في سوريا "بارطليسي" والمستشرق "رينهارد دوزي" و"كارنيميرسكي"، فالأول منهم يقارن بين أشكال الاسم في مختلف اللهجات السائدة في حلب ودمشق ولبنان (العربية) والقدس (العبرية)، فيقول:

في حلب ودمشق ولبنان (العربية) والقدس (العبرية)، فيقول: «I.náeat, yəneat, náet, v.tr. « piquer de la lance ; frapper du poing »)

(neīt « graincement d'une noria. » || arl. naēitu- « cris, vacarme » et naēata; syr. n(ē)eat « braire » ; hèbr. naēat « rugir (: jeune lions).)

(nāēūra, pl. nwēēir « 1° noria », appareil élévatoire en bois pour l'irrigation des champs, mù par le courant d'une rivière, dont la force est augmentée par un barrage, une chute artificielle. Hama est renommée pour le nombre de ses nāēūra. || arl. nāēūratu-, du syr. nāēūra « 1° rugiens ; 2° rota aquaria tympanum » ou nāēūr(ē)θā « tympanum, rota aquaria. » d'ou l'esp. Noria⁽⁶⁾).

يتضح من خلال ما سبق صعوبة الخوض في تاريخ التقنيات، لكنها صعوبة تليّن إذا ما توفرت الوثائق والمنهجية المناسبة. فهل كان الأمر كذلك بالنسبة للناعورة والسانية بالمغرب؟

يمكن القول منذ البداية؛ أن البحث في هذا الموضوع التقني في المغرب تعترضه العديد من الصعوبات، ومن بينها ضعف البحث الأثري الذي لم يُقدّم المُشرفون عليه الكثير في هذا المجال، كما أن الرصد التاريخي لاستخدام الناعورة والسانية بالمغرب ظل بطيئاً، بسبب غياب اهتمام بعض مُحققي النصوص التراثية بجرد المُفردات التقنية في المؤلفات المحققة، والاقتصار على فهرسة الأعلام البشرية والجغرافية، والنتيجة هي جهل قارئ الكتاب باحتوائه أو عدم احتوائه على إشارات تاريخية قد ترشد طريقه، ولعل هذا هو السبب الذي دفع محمد المغراوي إلى إعداد فهرس تقني مُفصل لكتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري في طبعته الصادرة سنة 2005، رصد فيه أعلام الرجال والنساء والأمم والشعوب والقبائل والبلدان والجزال والبحار والأنهار والأحياء والمنشآت والمؤسسات الدينية والتعليمية والأديان والفرق والمذاهب والوقائع والأيام والظواهر الطبيعية والكوارث والكتب والظواهر... بل نجد الدكتور عبد الله العروي يشتكي من المشكل ذاته، خاصة لدى اشتغاله بكتاب إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس.

لم نعدّم رغم ذلك إشارات تاريخية متناثرة هنا وهناك أفادتنا في رصد تاريخ الناعورة والسانية في المغرب خاصة خلال الفترة المرينية التي اشتهرت بإقامة النواعير بفاس الجديد، لكن منطوق النصوص التاريخية لم يكن يساعد على تبين تاريخ البدء في استعمال الناعورة والسانية بالمغرب لرفع المياه، وهوما دفعنا لتغيير طريقة قراءة الوثائق وإتباع منهجية صارمة نوعاً ما في تحليلها ونقدها بغية الوصول إلى نتائج دقيقة نسبياً، كما أغنينا متن البحث بجملة من التساؤلات التاريخية المُوجّهة للبحث بشكل مرحلي، بغية الوصول إلى إعادة وصل قطع الماضي المتكسرة والمتناثرة، ولن نزعّم هنا الإجابة عن كل الأسئلة التي طرحناها داخل البحث، فقد ظل بعضها دون إجابة، لكننا تمكنا في المقابل من الإجابة ولو نسبياً على ثلة من التساؤلات التي أثارنا كما أثارت العديد من الباحثين الذين اشتغلوا قبلنا على الموضوع نفسه.

لقد تطلب البحث في تاريخ الناعورة والسانية في المغرب نفساً طويلاً، وبحثاً عميقاً في المصادر التاريخية المباشرة وغير المباشرة، والمقارنة بين النصوص، وهوما جعلنا نُعرض في هذا البحث عن تناول الجانب التقني في الناعورة والسانية، ومع ذلك أشرنا في مواضع عدة لخصوصيات الناعورة والسانية.

١- الناعورة: (الاسم والدلالة)

يكتسي التحليل اللغوي لاسم الناعورة أهمية لا يجب إنكارها، فهو مدخل لتفسير التسمية التي وجدت سبيلاً للتسلل إلى باقي اللغات الأوربية كالفرنسية والإسبانية بحكم الجوار الإسلامي خلال

أما "كازيميرسكي" فيثبت المعنى نفسه الذي سبق وأورده ابن منظور بخصوص سيلان الدم من العرق، ويُعرّف الناعورة بكونها عجلة للري، أو عجلة مائية.^(٧) دون أن يزيد شيئاً عكس بارطليي الذي رأينا استرساله في وصف الناعورة في معجمه العربي الفرنسي. أما "رصينهارت دوزي"، فيقول:

mugir (taureau, vache), Alc. (bramar el toro), Bc ; grogner (pourceau), Alc. (gruñir el puerco) ; gronder (chien en colère), Alc. (regañar) ; aussi en parlant du cri d'autres animaux, voyez. نَغْرَة. Crier, Voc.

ناعورة (pas du dialecte de la Palestine, Gl. Georg.), roue hydraulique, écrit ناعورة dans le manuscrit A de Haiyân-Bassâm III, 4 r°, pl. نواعر. P. Bat. I, 143. – le Voc. A. ناعورة, pl. نواعر, tornum, et aujourd'hui ناعورة désigne encore au Maroc, d'après le P. Lerchundi, une tour à dévider, un grand dévidoir⁽⁸⁾.

يؤكد هذا التعريف على حضور معنى آخر للناعورة (في المغرب) مُخالف للمعنى المُتَحَوَّل عنه كآلة لرفع المياه، فالناعورة آلة يدوية يستعملها "الدرازون" للفي الخيوط على أجزاء من القصب (الجعبة)، ويوجد بفاس حي خاص بصناعتها يحمل اسم "النواعيرين" عند الخروج من منطقة عين الخيل في اتجاه العشابين.^(٩) أما في مراكش فسوق النواعيرية في طور الاختفاء، خاصة بعد وفاة آخر حرفي متخصص في صناعتها وهو السيد أحمد بانّا، ويقع هذا السوق بجوار سوق الصوافين قرب الرحبة القديمة.^(١٠)

ويؤكد "دونالد.ر. هيل" في الموسوعة الإسلامية أن اسم الناعورة غير عربي، ويرجح كونه آرامياً اعتماداً على كل من (Fraenkel) في كتابه (Die aramäischen Fremdwörter)، وريهارت دوزي في معجمه العربي المُعتمد أعلاه.^(١١) تبقى الإشارة إلى اسم آخر للناعورة استنكره جورج سان كولان هو (غسة) (r'ga) أورده الكومندان (Maitrot) في مقاله الحامل لعنوان (L'ingéniosité des Marocains) الموجود في النشرة الاجتماعية والجغرافية للجزائر سنة 1922، فلم يتعرف أي مخبر من مخبري كولان على هذا الاسم الذي يقدمه المؤلف كالاسم العربي للناعورة.^(١٢)

٢. الناعورة والسانية وأسماء أخرى

لا تتوفر إلا على نص واحد فيما يتعلق بالسانية في المغرب، سبق ونشره كل من لويس برونو ومحمد بن داود في الكتاب المسعى (L'Arabe dialectale marocain) سنة 1927. أما الناعورة فلا يوجد أي نص عربي يصف مكوناتها ويقدم أسماءها المُتعارف عليها من طرف المغاربة حسب كولان. فما هو الفرق بين هاتين التقنيتين؟ لا يُميز الأستاذ محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، بين التقنيتين، بل يجعل السانية والناعورة لقبين لآلة واحدة ويضيف إليها أسماء

أخرى كالساقية والدولاب والغزاف. ويفسر تسمية الناعورة بالساقية كذلك بكون الناعورة سبباً في سقي الأرض، فمن القريب إسناد السقي إليها على حد المجاز. وقد جاء في تاج العروس أن الساقية يُطلقونها على ما يستقى عليها بالسواني، والسواني جمع السّانية، وهو البعير ونحوه يُسقى على أن يستقى من البئر ونحوها.^(١٣)

ونجد الأمر نفسه لدى جورج سان كولان الذي يستعمل في دراسته حول "الناعورة المغربية والآلات المائية في العالم العربي" لفظ الناعورة (Noria) للدلالة على السّانية، رغم تدقيقه في التسميات الفرنسية المستعملة، فهو يسمي السّانية بـ (la noria a manège)، أما الناعورة المُقامة على الأنهار فيسميها (La roue élévatrice).^(١٤) ويعود تفاديه لاستعمال لفظ السّانية لوصف الآلة التي تديرها الدواب لرغبته كمتخصص في اللسانيات في تجنب الخلط بين الآلة وبين السّانية كبستان مسقي بفضل الناعورة.^(١٥) أما بول باسكون، فيشير في إحدى دراساته إلى أن الآلات المستخدمة في رفع المياه بواسطة الطاقة الحيوانية هي الناعورة (noria)، وأغرور (aghrour)، والسّانية (sanya)، أما تلك التي تستخدم الطاقة المائية فهي النّاور (nawra).^(١٦) (نجهل مصدر هذا الاسم الذي استعمله باسكون).

ويشير في هذا الصدد "د.ر. هيل" إلى تنوع المصطلحات المستعملة لتسمية الآلات المستخدمة في رفع الماء، ويقرر أن السبيل الوحيد للفصل والتمييز بينها هو ملاحظة وضبط سياق ومجال استعمالها، فإذا كانت الآلة تدور بفعل التيار المائي، فهي بلا شك ناعورة. ولتفادي الخلط من الأفضل إتباع المصطلح السوري، حيث تمثل الناعورة بشكل دائم آلة تُدار بفضل الماء الجاري، أما الساقية فهي آلة مُسننة تتحرك بفضل حيوان معين.^(١٧)

ويؤكد طارق مدني، هو الآخر على وجود هذا الخلط لدى بعض الباحثين بين الناعورة والسّانية، ويذكر أن هذه الأخيرة تتطابق في المستوى التقني مع عجلة صغيرة ذات صبيب ضعيف، تستعمل أساساً في الزراعة وتعتمد على الطاقة الحيوانية، وهوما لم يكن ليحدث لولم يفقد اسم السّانية دقته التي كان يحملها في الأصل حيث بات يطلق على أشياء كثيرة مختلفة في الوقت نفسه^(١٨) فهي تطلق على ما يرفع الماء، والحيوان الذي يعمل على رفع الماء من الآبار، والدلو الكبير المصنوع من الجلد المستخدم في رفع الماء من البئر، وعجلة مائية ذات ذراع مُدَوَّر تُقام على الآبار، وعجلة مائية تدور بفعل جريان الماء، ورحى مائية، وبستان يُسقى بفضل الناعورة.^(١٩)

وعلى الرغم من وجود هذا الاختلاف الجوهرى بين الناعورة والسّانية، فقد قامت الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر المُشرفة على نشر وإخراج "معلمة المغرب" بدمج التسميتين في مساهمة واحدة للأستاذ محمد حجاج الطويل المتخصص في تاريخ الفلاحة بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط (الجزء 14)، أما

على الدوران، فتملاً عندئذ الصناديق بالماء وترفعها إلى الأعلى، من دون أعمال الدفع، وبالاتتماد على جريان الماء تدور الدواليب وحدها، منفذة العمل الضروري^(٢٥).

٣- النواعري والناعوري: (القاب وحرف)

كان للمغاربة فيما مضى أسماء عائلية يُدعون بها ويعرفون، وقد اعتنى المهتمون قديماً وحديثاً بجمعها وترتيبها وشرح مدلولاتها ومعانيها، وهي إما آتية من أسماء قبائلهم وعشائرتهم الأصلية كالزموري والهواري والمهياري والحيمياني، وإما مأخوذة من أسماء الأقاليم والمدن والقرى التي نزحوا منها كالتواتي والشنكيطي والمراكشي والتطواني والطنجي، وإما منسوبة أو مضافة إلى أسماء آبائهم وأجدادهم كالمرزوقي والبلغيثي وابن سليمان وابن عبد الجليل، وإما مشتقة من أسماء ألوانهم كالأبيض والأزرق أو أوصافهم كالصنديد والزعيم أو عيوبهم كالأعرج والبكوش أو وظائفهم كالوزير والخطيب، أو حرفهم كالغرابلي والدباغ والنواعري En-Nouáary^(٢٦).

في المقابل، نجد اللقب نفسه تقريباً يتردد في الأوساط اليهودية بشمال إفريقيا، فقد قدّم "موريس أيزنيت" الربّي الأكبر بالعاصمة الجزائر، في كتابه "يهود شمال إفريقيا" جرداً للأسماء العائلية الخاصة بالأقليات اليهودية المستقرة بمختلف مناطق المجال، ومن بينها اسم Nahori الذي وقف عليه بهذا الشكل سنة 1931 بكل من مقاطعة وهران الجزائرية ومنطقة الحماية الفرنسية بالمغرب، وقدم عدة أشكال لكتابة هذا الاسم مثل Anahory وAnzhoury وNahari وكلها صيغ وُجدت بمقاطعة وهران، إلى جانب شكل آخر هو Naouri وُجد بكل من مقاطعة الجزائر العاصمة ومقاطعة قسنطينة وتونس، ويشير أيزنيت إلى أن اسم Nahori هو علمٌ لموقع هو Ben Naouri، وهو مجال يقع بقبيلة أولاد عايد، في الجماعة المختلطة "تنية الحد" دائرة Orléansville، مقاطعة الجزائر العاصمة^(٢٧).

ومن بين الأمثلة التي يقدمها أيزنيت لشخصيات حملت هذه اللقب "الربّي مناحيم الناعوري" Rabbi Menahem Anahori الذي عاش بتطوان ما بين 1690 و1740. لكننا في المقابل لا نعلم هل كان هذا اللقب خاصاً بأسرة احترَف بعض أفرادها صناعة وإصلاح النواعير المائية والحيوانية أم كان لقباً لكل من احترَف صناعة أو استعمال الناعورة المستخدمة من لدن "الدرازين" للف الخيوط على أجزاء من القصب، علماً أنه يوجد بفاس كما اشرنا إلى ذلك حي خاص بصناعتها يحمل اسم "النواعرين".

٤- محاولة في تاريخ الناعورة في المغرب

من القضايا التي تثير بال واهتمام المؤرخين مسألة التأريخ والتأصيل للتقنيات بالمغرب سواء تلك التي اختفت أو تلك التي لازالت قيد الاستعمال، فهي كفيلة بتحديد مستوى التطور التقني بالمجال المدروس إلى جانب كشفها عن قنوات التأثير الحضاري حيث ساهمت في بلورة الفكر التقني، وهي أهداف لا يتوصل إليها

إذا بحثنا عن الناعورة في المعلمة فلن نجد في الجزء (22) إلا وصفاً لقطعة قصيرة من الشعر الملحون تسمى لدى أهل هذا النوع الموسيقي بالناعورة^(٢٨).

ومع ذلك، فقد تدارك الباحث محمد حجاج الطويل الأمر، وفصل الكلام في الفرق بين الألتين، فقال: "هذا النوع من آلات استخراج المياه (الناعورة) ذاتي الحركة ولا يقام إلا على ضفاف الأنهار ويشترط لإقامتها وبنائها وجود مساقط مائية أو مجرى مائي ذي تيار سريع حتى يتمكن من إدارة العجلة العملاقة وبدورها تملأ الأكواب المثبتة على محيطها تلقائياً وبشكل يجعلها تفرغ المياه في الاتجاه المرغوب فيه. أما السانية فهي أصغر حجماً وتديرها الدواب، وقد تقام على ضفاف النهر أو على الآبار، وترفع المياه لتلقي بها في جَفنة أو صهريج مُعد لذلك ومنه تؤخذ للسقي أو لأغراض أخرى^(٢٩)".

ونجد التمييز نفسه تقريباً لدى محمد بن عبد العزيز بنعبد الله، فهو يذكر أن الدولاب آلة مائية رافعة تستعمل قوة الماء الجاري كمصدر للطاقة، أما الغراف والساقية فألات تستمد قوتها المحركة من حركة حيوان يديرها^(٣٠). لكننا نجد الباحث ياسين خضير حسن يخالف هذا الرأي ويذكر أن النواعير التي تُدار بواسطة الحيوانات يطلق عليه اسم (دولاب) ويكون أصغر حجماً من الناعور الذي يديره تيار الماء، ويقوم برفع كمية مياه أقل من تلك التي يقوم برفعها الناعور، وهو يختلف من الناحية التقنية عن الناعور^(٣١). ومما يدعم هذا الرأي وصف ابن بصال للدولاب قائلاً: "يدخل في قاع البئر لولب مكسور الأحرف أملس يكون في طرفه منخسان من حديد، وتكون المواضع التي تجري منها المناخس في لوح يكون في سعته شبر، وارتفاعه مقدار القامة، قد أنزلت في تلك المواضع خرزات من حديد ليكون جري اللولب فيها سريعاً يتحرك بأقل شيء يمسه، ويصل جوى اللولب عوارض كعوارض السلم من اللوح إلى اللوح، ويشد بالضرب حتى يتحرك بوجه ويدخل السانية من تحت اللولب، ويضم إليها ضمناً جيداً، ويستوثق منه ألا يتحرك، فإذا تحركت السانية تحرك اللولب بحركتها^(٣٢)".

وقد احتفظت لنا المكتبات بِنسخ ثمينة من مؤلفات المهندس العسكري الروماني فيتروف (Vitruvius) المعاصر ليوليوس قيصر (القرن الأول قبل الميلاد) يقدم لنا في بعضها وصفاً مشابهاً للوصف المتقدم للناعورة المُقامة على الأنهار: "حول محور يثبت الدولاب موافقاً بقياسه الارتفاع الذي يجب أن يصل إليه الماء، وحول الدولاب ضمن دائرته الخارجية تثبت صناديق مكعبة، لا يَزْرُبُ منها الماء بفعل سدها بالشمع والقطران. عندما ينتقل الدولاب إلى الحركة بطريقة الضغط عليه ترتفع الصناديق المملأة إلى الأعلى وفي طريقها العكسي تسكب محتوياتها في حوض ماء". ويصف نوعاً آخر قائلاً: "تُنصب على الأنهار أيضاً دواليب رافعة للماء تشبه تلك الموصوفة سابقاً، مع فرق واحد فقط، إذ تُثَبَّت على جهتها الخارجية شفرات إضافية يجرها جريان الماء وبحركتها تجبر الدولاب

أخرى بفاس وغيرها، قبل تلك التي تحدث عنها ابن أبي زرع وصاحب الحلل الموسوية؟
هل هناك نصوص أخرى يمكن الاستئناس بها في قضية إقامة النوايع في مدينة فاس التي استأثرت بالانتباه خلال الفترة المشار إليها أعلاه؟

توقفنا في بحثنا على إشارات تاريخية أخرى، من بينها إشارة للحسن بن محمد الوزان الفاسي تعود إلى سنة 1526 يقول فيها "وقد أقيم على النهر بظاهر المدينة [فاس] نوايع كبيرة جدا تنقل الماء منه إلى أعلى سور أعدت فيه قنوات تحمل الماء إلى القصور والبساتين والجوامع. وقد صُنعت هذه النوايع في عصرنا أي منذ نحو مائة سنة، إذ كان الماء قبل ذلك يصل إلى المدينة بواسطة قناة تنطلق من مسافة عشرة أميال... وصنع النوايع اسباني، وهي والله شيء عجيب، لا سيما تلك الخاصة المتمثلة في أنه مهما كانت قوة تيار الماء فإنها لا تدور أكثر من أربع وعشرين دورة في اليوم والليلة"^(٣١) ومن جهة أخرى وصف ابن فضل الله العمري [توفي سنة 1348] مدينة فاس انطلاقاً من معلومات استقاها من مخبر فاسي يدعى السلالحي، أشار في هذا الوصف إلى توفر فاس آنذاك على ناعورة مُقامة على وادي الجواهر بفاس^(٣٢)، فهو يقول: "وهذا النهر [نهر الجواهر] هو متوسط المقدار يكون عرضه في المكان المتسع قرب أربعين ذراعاً، وفي المضائق دون هذا، وربما تضايق إلى خمسة عشر ذراعاً وأقل من ذلك، وعمقه في الغالب يقارب قامه رجل، وعليه الناعورة المشهورة، ترفع إلى بستان السلطان المعروف بالمسارة وهو بستان جليل فيه قصر جميل، وهذا البستان خارج المدينة الجديدة، وهذه الناعورة مشهورة الذكر، يضرب بها المثل ويتحدث بها الرفاق"^(٣٣).

وكما هو مُلاحظ يبدو التعارض واضحاً بين الوزان والعمري، فالأول يربط بداية إنشاء النوايع بفاس بالقرن الخامس عشر، في حين يؤكد الثاني وجودها بالمدينة خلال القرن الرابع عشر. لا اعتقد انه بإمكاننا ترجيح قول على الآخر، خاصة أن الاسطوغرافيين خلال العصر المريني ربما يكونون قد أهملوا ذكر النوايع السابقة على الفترة، إما لصغر قطرها وضالة مردوديتها أو للرغبة في إظهار المرينيين كمُجددين في مجال الري وتزويد الحواضر بالماء.

لنتقل إلى نص آخر، يعتبره الكثيرون الفيصل في التأريخ لدولاب فاس، وهومن إنشاء المؤرخ الفقيه الكاتب ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب السَلَماني اللّوشي، يقول فيه: "محمد بن عبد الله بن الحاج، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن الحاج، كان أبوه نجاراً من مُدجني مدينة اشبيلية، من العارفين بالحيل الهندسية، بصيراً باتخاذ الآلات الحرفية الجافية والعمل بها، وانتقل إلى مدينة فاس على عهد أبي يوسف المنصور بن عبد الحق، واتخذ له الدولاب المنفسح القطر البعيد المدار المحيط ملين المركز والمحيط المتعدد الأكواب الخفي الحرفة، حسبما هو اليوم ماثل بالبلد

المراء إلا بمُناشدة جُملة من النصوص الغميسة التي يتطلب الكشف عنها جهداً من الباحث لكونها لا ترد إلا بشكل عابر وغير مقصود في حد ذاته في مؤلفات قد لا تكون لها أية صلة بالتقنيات، كما هو الحال بالنسبة لكتب الجغرافيا والرحلات والتراجم والفلاحة... إلى جانب استثمار نتائج البحث الأركيولوجي رغم قلتها في ما يخص الفترة الإسلامية كما سنبين ذلك لاحقاً.

يحق لنا في البداية قبل الخوض في مسألة تاريخ الناعورة والسانية بالمغرب، التساؤل عن مدى مشروعية هذا التساؤل، هل بإمكاننا بالفعل الاطمئنان إلى ما توفر لنا من معطيات حول هذه التقنية من خلال بعض النصوص التاريخية؟ أليست تلك الوثائق التاريخية مجرد استرجاع جزئي للماضي من طرف المؤرخ الذي لم يكن يسعى للإحاطة بكل شيء بقدر ما كان يسعى للإجابة على الأسئلة التي تشغل باله؟ هل يعني توفر نصوص حول الناعورة خلال الفترة المرينية وغيابها فيما يخص الفترات السابقة علمياً أن الناعورة لم يكن لها وجود في المغرب قبل الفترة المرينية؟ هل يمكن الاطمئنان إلى نتائج البحث الأركيولوجي التي تظل في نهاية الأمر مرتبطة بفضاءات جغرافية محددة دون تغطيتها للمجال ككل؟ لا شك أن التفكير بتمعن في هذه الأسئلة سيقدوننا لأشك إلى وصف كل الخلاصات التي سنقدمها لاحقاً بـ "النسبية" ولن تعدوا أن تكون مجرد ملاحظات قابلة للتحيين والتغيير الجزئي والكلي إن اقتضى تجديد المعرفة التاريخية ذلك.

بذكر علي ابن أبي زرع الفاسي أن الناعورة الكبرى بوادي فاس، بدئ بالعمل فيها في شهر رجب من سنة خمس وثمانين وستمئة، ودارت في شهر صفر من سنة ست وثمانين^(٣٤). ويؤكد صاحب الحلل ذلك من خلال قوله "وفي أيامه [السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق] أنشئت الناعورة الكبرى على وادي مدينة فاس"^(٣٥) دون تحديد للزمن كما فعل ابن أبي زرع، لكنه أورد في المقابل هذا الخبر بعد الحديث عن الجواز الرابع لهذا السلطان إلى مدينة شربش الأندلسية سنة أربع وثمانين وستمائة ولم يجعله في موقع آخر، وربما يكون ذلك دليلاً على تأخر إنشاء هذه الناعورة إلى أواخر أيام حكم السلطان المريني المذكور. وعند بحثنا في مصادر أخرى عن خبر تأسيس الناعورة نفسها كما هو الحال في كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، وجدنا المؤلف يقتصر على ذكر أسماء ملوك بني مرين ويعلل ذلك بقوله: "إنما اقتصرنا من أخبارهم على هذه النبذة لأنهم منعوا في ابتداء دولتهم أن تورخ لهم أو تدون أخبارهم وقتلوا محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بان الأبار وكان قد أنخ أخبارهم وأخبار غيرهم واعدوا ما وجدوه عنده وعند غيره من أوراق التاريخ المنسوبة لهم ولغيرهم فهذا هو السبب الذي منع من انتشار أخبارهم"^(٣٦). ألا يمكن أن تكون هذه الوضعية الاسطوغرافية الاستثنائية في بداية الدولة المرينية مسؤولة بشكل كبير على ضياع أخبار النوايع خاصة إذا افترضنا إنشاء نوايع

الباحثان على بناء يصل ارتفاعه على مستوى مياه واد فاس إلى 12 متر يتكون من جدارين متوازيين يصل سمكهما إلى حوالي 2.50 متر يفصل بينهما فراغ يبلغ مترين، ويصل طول البناء ككل إلى 27 متر، يشبه حفرة مستطيلة ضيقة وجد عميقة كانت تأوي الناعورة الضخمة التي بلغ قطرها 26 متر واستخدمت في رفع المياه من الواد إلى القناة الموجودة أعلى الناعورة، وقد تركت هذه الأخيرة أثرا مباشرا يدل على وجودها : يتعلق الأمر هنا بأثار عميقة بعِدّة سنتيمترات أحيانا وعرض يصل إلى 0.30 متر تركتها عجلة الناعورة التي كانت تحتك مع جدران الحفرة التي تأوي الناعورة.

كانت الناعورة تغوص داخل مياه الواد بعد تعميق المجرى في هذا الموقع بثلاثة أمتار على الأقل، ولم يكن مستوى المجرى على الشكل الذي نجده عليه اليوم، فقد كان أعلى من المستوى الحالي، لكن تم تخفيضه مرتين منذ الاحتلال الفرنسي لمدينة فاس، كانت المرة الأولى خلال العشرينات أثناء تشييد حوض تجميع لصالح وكالة الكهرباء بحديقة بوجلود، والمرة الثانية سنة 1936 بهدف تطهير الحي الصناعي.^(٣٨)

وكانت هذه الناعورة ذات أبعاد تصل إلى ثلاثة أضعاف أبعاد باقي النواعير المقامة على واد فاس، ويذكر إدmond ميشوبيلير وجورج سالمون في زيارة لهما لمدينة فاس سنة 1906 الناعورة المقامة على واد فاس قائلين : "قبل الوصول إلى مستوى المصلى، تنقسم الطريق في الموقع المسى قبيبة السّمن Qbibet Es Smen إلى فرعين، يمتد الأول فيهما مع أسوار القصر ويلج المدينة عبر باب الساكمة، أما الآخر فيمتد جهة اليسار ويمر أسفل المصلى ويحاذي أسوارا منخفضة قديمة تقع على يمينه. وتحمل هذه الأسوار التي كانت تُشكّل فيما مضى حصنا مُربعا ما يسمى لدى العموم بالشارج Ez çarij، ويقال انه كان هنا صهريج أنشأه المرينيون وأن هذه الصهاريج كانت تملأ بالماء عبر عجلة مائية مصنوعة من النحاس (En Nbras) كانت تجلب الماء من واد فاس، وتستخدم لري بساتين الخضر التي كانت موجودة بهذا المحل، وقد قام المولى إسماعيل بتدمير هذه الناعورة أما الصهاريج فتم إهمالها".^(٣٩)

ويعقب جون دولاروزير وهنري بريسوليت على هذا الخبر قائلين أن الناعورة كانت مصنوعة من الخشب لكنها كانت مكسوة بالنحاس وربما كان هو السبب وراء تسمية برج مجاور لها برج النحاس. وقد اعتمد الباحثان في التأريخ للناعورة والقناة المرتبطة بها على الرواية الشفوية التي تنسب هذه المنشآت لبني مرين، وهو ما تؤكد الدراسة والمعاينة الميدانية للموقع، فعند نقطة اتصال القناة المرتبطة بالناعورة بالبرج الغربي لباب السبع، يلاحظ تأخر بناء البرج على القناة، فقد جاء هذا الأخير ليستند على القناة الموجودة مسبقا، وإذا عدنا إلى روض القرطاس لابن أبي زرع سنجد أن السلطان أبا سعيد أمر ببناء هذا الباب المقابل لقنطرة فاس الجديد سنة 715 هـ / 1315 م إذن فالقناة والناعورة تعودان إلى فترة سابقة على سنة 1315 م. أما النصوص التاريخية المعتمدة

الجديد، دار الملك بمدينة فاس، أحد الآثار التي تحذو إلى مشاهدتها الركاب، وبناء دار الصنعة بسلا. توفي بفاس الجديد في العشر الأول من شعبان عام 714 هـ / 1314-1315 م^(٣٤). ولعل الناعورة الموصوفة هنا هي نفسها تلك التي وصفها ابن الخطيب نفسه في كتاب آخر حيث قال أثناء وصفه لفاس الجديد: "إلى الناعورة التي مثلت من الفلك الدوار مثالا، وأوحى الماء إلى كل سماء منها أمرها فأبدت امتثالاً، ومجت العذب البرود سلسالا، وألفت أكوامها الترفه والترف، فإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى".^(٣٥) والناعورة الموصوفة هنا أيضاً هي نفسها تلك التي تحدث عنها كل من ابن أبي زرع وصاحب الخلل، وتقع على مقربة من الجامع الكبير حسب الفقيه محمد المنوني الذي ذكر أن هذا الدولاب سقط متأثرا بتيار مياه الأمطار الغزيرة المتساقطة حوالي أواخر فبراير 1986، فانجرفت قطعة منه مع الماء، بينما رسب باقيه في الوادي.^(٣٦)

ويُعلق الباحث جورج سان كولان على هذا النص قائلاً: من أين أتى هذا المهندس المسلم من اسبانيا بفكرة إنشاء نواعير مماثلة بفاس؟ نعلم من خلال شهادة للإدريسي خلال القرن 12 أن مدينة طليطلة كانت تتوفر على ناعورة ضخمة، لكن لا يوجد أي دليل يؤكد تشييدها من طرف المسلمين قبل استرداد المسيحيين لهذه المدينة سنة 1085 م. من جهة أخرى، تدل تفاصيل الترجمة التي خصّها ابن الخطيب لهذا المهندس على أنه كان متشعبا لدرجة كبيرة بالثقافة الأوروبية. فعند عودته إلى غرناطة عاب عليه الناس تقديم آراء الروم على غيرها من الآراء، والتشبه بهم في طريقة الأكل والحديث والعديد من السلوكات كما هو الحال في تطعيم أحاديثه بالأمثال والحكم المسيحية، وهو أمر ناتج عن مخالطته للروم في صباه كما أشار إلى ذلك ابن الخطيب.

وليؤكد كولان الأصل الاسباني لهذه التقنية المستخدمة في المغرب، استعان بشهادة ليون الإفريقي الذي قال بدوره أن "صنع النواعير اسباني"، لكنه تساءل رغم ذلك عن أصل النواعير الاسبانية، وافترض أنها ذات أصل مشرقى، ذلك أن النماذج المستعملة من النواعير وُجدت بهذا المجال على الأودية الكبرى كالفرات^(٣٧). لم يكن جورج سان كولان الوحيد الذي انتبه لنواعير فاس، فقد اهتم كل من المهندس جون دولاروزير Jean Delarozière والأستاذ المُرّز هنري بريسوليت Henri Bressolette بناعورة فاس وقناتها في المشور القديم بفاس الجديد سنة 1939، وخصّاهما بمقال متميز تناول فيه وصف الناعورة والقناة وتاريخ إنشاء الناعورة من خلال التقاليد الشفوية والمعاينة الميدانية والنصوص التاريخية، إلى جانب الحديث عن وظائف هذه المنشأة المائية، إلى جانب الاستعمالات الأخرى للقناة عدى نقل مياه الناعورة.

تقع هذه الناعورة بالمشور القديم الذي يتقدم باب الدقايق شمال فاس الجديد، ويحده غربا جدار عالٍ كانت تمتد خلفه دار سلاح [الماكينة] مولاي الحسن الأول، ويمكن اعتبار هذا الجدار بمثابة سور يصل بين برج باب الساكمة وباب السبع. وقد وقف

على أكبر ناعورة على واد فاس وهي الناعورة المرينية التي سبق وفصلنا الحديث عنها، كما أن صيغة الحديث عن النواعير في هذه الإشارة لا تسمح بالكشف عن عملها أو توقفها عن أداء مهمتها في رفع الماء.

هل كانت الناعورة المرينية موجهة لتلبية الطلب العام على الماء بفاس الجديد، أم كانت تسقي مجاًلاً بعينه؟

يزعم البعض حسب جون دولاروزير وهنري بريسوليت أن هذه العجلة كانت موجهة لتغذية البرج الشمالي بالماء، وهي الرواية نفسها التي أوردها بروسير ريكارد Prosper Ricard في الدليل الأزرق للمغرب. لكن الحقائق التاريخية تدحض هذا الاعتقاد، فإذا كانت الناعورة قد أقيمت نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، فهذا دليل أنها لم تنشأ لتغذية البرج الشمالي الذي لم يكن موجوداً ولن يقوم إلا بعد ثلاثة قرون على يد أحمد المنصور السعدي، وفي المقابل قادت الأبحاث الباحثين السابقين لاقتراح ثلاثة وظائف لهذه المنشأة المائية:

● لوحظ أن القناة المنطلقة من جوار الناعورة تمتد نحو بناء ضخيم يبعد بحوالي 120 متر عن الزاوية الشمالية الشرقية لقصبة الشراة الحالية. وتدل البقايا الأثرية بالموقع على وجود حوض توزيع للماء المجلوب في القناة، وقد تم بالفعل الوقوف على آثار قناة فرعية تنطلق من هذا الحوض وتتجه صوب الجنوب، ثم تغير اتجاهها بشكل طفيف نحو الغرب لتنتهي على بعد حوالي 300 متر في مقبرة توجد غرب قصبة الشراة. إن الاتجاه العام لهذه القناة الصغيرة وارتفاعها القليل عن الأراضي المجاورة يدلان على استخدام القناة في الري. فالمجال الذي تشغله المقبرة حالياً كان في الأصل عبارة عن بستان. ومن جهة أخرى دلت الأبحاث الأثرية المنجزة بهذا الفضاء الواسع على وجود ثلاثة صهاريج مربعة كبيرة، يبلغ طول ضلع أكبرها 46 متراً وسك جدرانها أربعة أمتار، وكما أشار إلى ذلك ابن فضل الله العمري في "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" فقد كانت الناعورة الكبرى على واد فاس تزود مرافق القصر الملكي وبستان المسرة التابع له بالماء.

● لم يكن من المستبعد أن ينبثق فرع من القناة من حوض التوزيع من جهة قصبة الشراة ليتجه صوب هضبة القلة التي تنتصب بها إلى غاية اليوم قبور المرينيين. وتؤكد الرواية الشعبية وروايات المثقفين الفاسيين مثل الشيخ الكتاني قيام المرينيين بتأسيس رباط بجهة القبور الحالية شمال غرب باب الجيسة. ولم يتوفر هذا الرباط فقط على مسجد لازالت آثاره قائمة، بل كان يتوفر على حمام يحمل اسم "حمام الغولة". ولم يكن بالإمكان جلب الماء لهذا المركز إلا من واد فاس بفضل قناة تحويل. لكن لم يعثر الباحثان رغم قوة الفرضية على أية آثار لقنوات تزويد هذا الرباط بالماء، ومع ذلك فعظمة الأشغال المائية تؤكد هذه الفرضية.

● تدل بقية القواديس المنطلقة من جوار الناعورة رغم عدم التثبت من مسارها، على أن مياه الناعورة كانت تتجه نحو تغذية

من لدن الباحثين للتحقق من تاريخ بناء الناعورة فهي نص ابن أبي زرع المشار إليه في الصفحات السابقة، ونص مماثل ورد في كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للمؤرخ الناصري، إضافة إلى مقطع من كتاب الإحاطة لابن الخطيب الذي سبق وأوردناه بنصه في هذا العرض.

وقد لاحظ الباحثان تناقضا في نص لسان الدين ابن الخطيب، فهو يشير إلى إقامة الناعورة لصالح أبي يوسف المنصور بن عبد الحق. لكن هذا الأمير توفي يوم 20 مارس 1286 بجزيرة الأندلس، ولم تبدأ أشغال البناء إلا خلال شهري غشت - شتنبر 1286 وتمت خلال شهري مارس - أبريل 1287. من هنا يجب القول أن السلطان المريني أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق أعطى الأوامر لإقامة الناعورة، لكن ابنه أبو يعقوب يوسف هو الذي قام على تحقيق مشروع والده بعد وفاته سنة 1286. على أي حال؛ يمكننا إذن أن نستنتج من خلال دراسة الموقع والمقاربة بين النصوص أن هذه الناعورة الضخمة ذات القطر البالغ 26 متر والبالغ عرضها مترين، والتي تركت آثارها في الصخروفي الذاكرة الشعبية هي نفسها ناعورة 685هـ، وإذا لم تكن من أعمال مؤسس فاس الجديد، فهي من منجزات ابنه.

ويؤكد الباحثان هنا على الأصل الأندلسي الإسباني لهذه التقنية كما سبق وفعل جورج كولان، ويُرجعان معرفة السلطان أبي يوسف يعقوب لها من خلال جوازاته المتعددة لبلاد الأندلس. ويعتبران حدث إنشائها مرتبطاً بإنشاء فاس الجديد فلولا ذلك لما استعملت الناعورة ببلاد فاس^(٤٠)، "فلما سكن غرب الثوار، وتمهد أهل المغرب، ورأى أمير المسلمين أبو يوسف أن أمره قد استفحل، ومملكه قد استوثق، واتسع نطاق دولته، وعظمت غاشيته، وكثر وافده، رأى أن يخطط بلداً يتميز بسكنائه في حاشيته وأهل خدمته وأوليائه حاملين سرير مملكه، فأمر ببناء البلد الجديد لصق فاس بساحة الوادي..." كما جاء على لسان عبد الرحمان بن خلدون^(٤١) فإنشاء فاس الجديد فوق هضبة طرح مشكل رفع الماء لأحيائها ومرافقها، فكانت النتيجة المباشرة لتأسيس فاس الجديد إدخال الناعورة لمدينة فاس، إذ لم يكن يفصل بين تشييد هذه المدينة سنة 1276 وإقامة الناعورة سنة 1286-1287 سوى عشر سنوات^(٤٢). كانت ناعورة فاس حسب الباحث طارق مدني نتيجة ضرورة حضرية واختيار سياسي^(٤٣).

وقد وجدنا حديثاً عن الناعورة نفسها خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر لدى رئيس البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب جول ايركمان الذي تولى رئاستها سنة 1879 إلى أن عُزل سنة 1883. فقد أشار في كتابه "المغرب الحديث" الذي نشره بباريس سنة 1885 خلال فترة حكم السلطان الحسن الأول (1873-1894) إلى أن فاس الجديد كان يُسقى بفضل قناة وخزان تتم تغذيته بواسطة عجلات مائية^(٤٤)، ورغم حديثه بصيغة الجمع عن النواعير وعدم استعمال اللفظ العربي الشائع فالحديث يدور هنا أساساً

السقايات والمساجد والقواديس المسيرة في اتجاهها لأسوار المدينة، وقد سبق الحسن الوزان أن قال بأن نواعير كبيرة جدا أقيمت على النهر بظاهر المدينة لنقل الماء منه إلى أعلى سور أعدت فيه قنوات تحمل الماء إلى القصور والبساتين والجوامع^(٤٥) ويتحدث مارمول كاربخال بدوره عن نفس الاستخدام لمياه النواعير في تزويد القصور والحمامات وبساتين المدينة بالماء.

رغم حديث الوزان ومارمول في هذه الفترة عن عدة نواعير لرفع الماء من واد فاس، فقد كانت الناعورة المرينية الكبرى الموصوفة أعلاه كافية لتغذية عالية المدينة الواقعة تحت المصلى والمركز الحضري قرب باب الجيسة. وتحدث الرواية الشفوية عن تدمير المولى إسماعيل لهذه الناعورة بسبب صوتها المزعج خلال الليل، لكن هذا التدمير يمكن إرجاعه حسب الباحثين إلى عدة سلاطين تعاقبوا على حكم المغرب^(٤٦)، كما أننا لا حظنا في دراستنا لعدة مواضيع تاريخية تعاقب روايات التدمير والتخريب وربطها في الذاكرة الشعبية بالمولى إسماعيل دون غيره، حتى أمسى مجرد سلطان لا هم له إلا تحسين وتجميل عاصمته وتخريب غيرها من مدن المغرب، ويكفي للتأكيد على ذلك ما يتردد على ألسنة العامة وبعض الباحثين أيضا أن المولى إسماعيل قام باستكمال تخريب قصر البديع بمراكش وسلبه حليته ومواد البناء الثمينة المستعملة في تشييده كالرخام والخشب.. إلى جانب سلب الأعمدة الرومانية من موقع ويلي المجاور لمدينة مكناس الإسماعيلية، فإذا صحَّ ذلك نسبيا فلم يكن بنية الهدم بل لأسباب أخرى تتناسب مع الرغبة في الإصلاح والبناء وهو ما أثبتته بعض الدراسات الحديثة كتلك التي أنجزها الدكتور عبد الهادي التازي حول قصر البديع وردَّ فيها على هذه الروايات التي تنسب خراب القصر للسلطان المولى إسماعيل.

بالعودة للموضوع، نتساءل هل كانت هذه الناعورة هي أول ناعورة تقام في فاس وفي المغرب عامة؟ يجيب طارق مدني على هذا السؤال بقوله أن هذه الناعورة كانت ذات أبعاد كبيرة، وهوما يجعلنا نظن أن الالتجاء للمهندس الأندلسي لم يكن يعني إدخال هذه التقنية لأول مرة للمغرب، لكنه يدل على رغبة في تحقيق انجاز متميز وضخم. وتزداد صعوبة الإجابة على هذا السؤال إذا علمنا أن النصوص التاريخية والبقايا الأركيولوجية لا تسمح بالتقدم في هذا المجال، كما أننا لا نتوفر على شهادات اثنوغرافية حول إعداد وصنع قطع الناعورة أو تقنيات تركيبها وفكها، لعدم وجود حنطة متخصصة في النواعير بالمغرب في الوقت الحالي.^(٤٧)

هل توقف الأمر لدى بني مرين عند إنشاء هذه الناعورة التي استأثرت باهتمام المؤرخين والجغرافيين والباحثين الأثريين؟ لقد ضاعفت مدينة فاس هذا النوع من المنشآت المائية، فكتب سُرّ ورئيس ديوان إنشاء السلطان أبي عنان المريني أبو القاسم برهان الدين إبراهيم بن عبد الله المعروف بابن الحاج النميري [وُلد سنة 713هـ وتوفي بعد سنة 774هـ] أشار في كتابه "فيض العُباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب" إلى

ناعورتين بفاس مختلفتين من حيث الحجم، تمت إقامتهما بأمر من السلطان أبي عنان المريني بعالية واد فاس قرب المدينة المرينية الجديدة. ولازالت آثار ثلاثة نواعير بهذا القسم من المدينة : أول اثر يوجد قرب قهوة الناعورة الحالية بين جنان السبيل وسور فاس الجديد، وقد حافظت هذه الناعورة الخشبية على جزء من بنيتها، فقطرها يصل إلى ثمانية أمتار وتقوم على قاعدتين مثلثتي الشكل، ولتفادي أي اضطراب في عمل الناعورة بسبب الأوساخ والصبيب الصلب المحمول من طرف الواد ولتوفير مياه نقية تم وضع شبك بين القاعدتين الحاملتين لمحور الناعورة. أما الناعورة الثانية فتوجد بين فاس الجديد وجنان السبيل، ولم يبق منها إلا الركائز المثلثة الشكل التي كانت تحملها، أما الناعورة الثالثة فتوجد بقاياها بجنان السبيل قرب الدار البيضاء Dar al-Bayda، وكانت مكونة في جل مكوناتها من الخشب باستثناء بعض القطع الحديدية المستخدمة في محورها^(٤٨).

وهذا وصف مقتضب للناعورتين لدى ابن الحاج النميري: "اللهم إلا الناعورتان اللتان أمر مولانا أيده الله بإحداثهما بعد ذلك التاريخ، فجاءتا أبداع منظرا وأطيب مكسرا وأصفى جوهرًا، وزادتا في رفعة الصيت لا في الحجم، وعدتا في ذوات المناصب المنيفة على النجم. نتيجة حكمة بديدة الأسرار، وهندسة كريمة الآثار، فلهما المجد الثابت القطب والمدار، لما نسبنا إلى بني النجار، ساميتي الفخار، وأحبنا من هاجر إليهما لكن من الماء البديع الانهمار.

توامتان جمعهما بطن واحد وهوبطن الوادي، ورضيعتا لبان لكن من اجل ما استقر في ضروع الغوادي. وصاحبتان أنبتهما الله أولا نباتا حسنا، وجمعهما على الطهارة التي شملت بقعة وبدنا. فكل واحدة منهما قد حفظت لوحها وانطلقت. وتلقت من مياهها رسائل إخوان الصفا فتحققت، وجلعت من جاء من رأس الماء على رأسها، وعضدت نصها في الكرامة له بقياسها. وتسوات حالها في الخطرات، ووافتها مختلطة الأزهار في مأها ما حدثت المختلطة عن ابن الفرات. وأسكنت الري من ضلوعها بالمنحنى، وأنزلت بالعوالي ما قرب من ركب مأها ودنا، واقتدت في خطها بذات النطاقين، وحفظت في كل كوب من أكوابها مختصر العين.. كفيلتان بالعيش الرضي، يروي الدوح من كل دولاب لهما عن الرياشي، سيدتان حظهما في الجنة ربيع، وحديث خشبهما حديث حسن صحيح. عادلتان أدخلتا على مائهما السير والتقسيم، وتسمنتا أعالي الروض فلم تنكرا من عيونهما التنسيم. فكل واحدة منهما مساوية للأخرى فيما تجوز، عالمة حين اشتركتا في ربح حمل الماء أن الشركة بالتفاضل لا تجوز، من كل خاشعة ترن وتئن، ويحرك لها حوارها فتحن. أكوابها أبداع من كؤوس الرحيق المختوم، وأحسن من غدران غب الغيث السجوم، وهي وإن لم تكن عدد النجوم فهي موازية في فلكها للنجوم، تنسق قلاندها في صدر الوادي أحسن اتساق، وينطبع الماء فيها خلخالاً فيزهى به كل ساق".^(٤٩)

وقد أشار ابن الحاج النميري [القرن 14م] خلال الفترة نفسها إلى وجود ثلاثة نوايع أخرى بالبستان المريني الشاسع المسعى المصارة^(٥٠)، وقد كان دورهما مهما، فقد كان يكفي أن يلحقهما العطب حتى يتراجع رونق البستان الملكي^(٥١)، "وكان بالمصارة ثلاث نوايع صغار، كالأفراخ، مشي ماؤها كمشي الأرخاخ، إلا أنها تنفث محدودة الظهور كالأشياخ، وتسرع حسوا في ارتقاء إذا دعاها الروض للإصراخ، وتستنسج أعمال النهر أحسن الاستنساخ، وترى أنها راوية من دواليها عن الشماخ.. فلما هي للناعورتين الجديتين موضع قرارهما، ورفع بالبناء محل استنساخهما، أقصر الماء لديهما عن الانحدار، وتعطلت حركات الثلاث بسبب الانحصار، فشكت ما يشكوه الثلاثة، والثلاثة ركب من الحوادث. وضرب الماء الأعواد، فمن العجب أن علت المثاني إذ ذاك على المثلث، ولسرعان ما عدم النبات منها إلا من غيرها النضارة، ومحاسيف النهر من أعمالها ما قال ابن دارة، ولم يملأ بطونها إلا التراب.. وانقطع أنيها، ولم يستقر ببطن كل واحدة جنيها"^(٥٢).

وفي وصف ابن الحاج المطول للزاوية المتوكلية نسبة إلى مؤسسها أبي عنان المريني الملقب بالمتوكل على الله، والواقعة على الضفة الشمالية لوادي الجواهر في مواجهة فاس الجديد، تحدث المؤلف عن إقامة أبي عنان لناعورة على وادي الجواهر المضاعفة كميات الماء التي تحتاجها الزاوية كمؤسسة احسانية بعدما لم تستطع السانية الموجودة قبلها تلبية الطلبات المتزايدة على الماء^(٥٣)، يقول النميري: "ولما رأى مولانا أيده الله أن هذه السانية قد لا تبالغ في العطية، ولا تسرع بعمل فريضة دورانها الحمارية، وأنه قد يحتاج إلى أكثر من مائها، وأعظم من نائلها وحبائها، أمر رضي الله عنه أن تعمل على نهرها ناعورة توفي بالمقصود ويحسب ماؤها المستوي على جودها بالجود.. فجاءت ناعورة جميلة الآثار، مقبولة العمل وإن صلت مستندة إلى الجدار، عزيزة عند أهل الشرع، مرجوة في كل أحيائها إلا أنها تسرق الماء من حرزه فلا يحكم عليه بالقطع.. صابرة لا يضجرها سائل، ولا يروعها ثعبان النهر وهي حامل، لا جرم أن قلما قد تقوى بشراب العود، وجسمها قد صبح ببركة الركوع والسجود.. شامخة لها الفلك الثابت العمدة، يحل الماء منه بالقوس ثم يحل بالزاوية في الأسد، جانية على كل روضة غضة، محلية لها من مائها المتلون بأساور من فضة"^(٥٤).

وتندرج هذه النوايع المقامة بفاس حسب الباحث المصري علي حامد الماحي في إطار برنامج السلطان أبي عنان لتوسيع رقعة الأرض المزروعة وتحسين نوعية الإنتاج الزراعي بإيجاد مزارع نموذجية منتشرة في مختلف أنحاء دولته، وبإنشاء وإقامة العديد من السواقي والنوايع، وفرض تنظيم ري الأراضي الزراعية بطريقة منتظمة وإمداد المزارعين بالمياه الكافية لري أراضيهم^(٥٥)، ولم يكن أبو عنان يخالف أو يتميز في ذلك عمن سبقه من ملوك الدولة المرينية الذين اهتموا خاصة خلال الدور الثاني للمعمار المريني المتميز بازدهار الفن [يمتد من سنة 710 إلى سنة 759هـ] بأعمال

الري، فقد قام أبو الحسن في فاس بجلب الماء إلى مدرسة الأندلس من عين خارج باب الجديد، وفي سلا بذل مجهودا ضخما لتزويدها بالماء من مسافة تبتدئ من المكان الذي كان يعرف بمرج الحمام، وعمل على بناء قنوات داخل مدن أخرى لإجراء الماء إلى المرافق العامة، وهذا ما يستنتج من شهادة رجال مشرقى زار المغرب في هذه الحقبة وكان هو علي بن فرحون المدني، فقد قال: "ما مررت في - بلاد المغرب - بسقاية ولا مصنع من المصانع التي يعسر فيها تناول المياه للشرب والوضوء فسألت عنها، إلا وجدتها من إنشاء السلطان أبي الحسن رحمه الله" ويذكر ابن مرزوق هذه الشهادة قائلا: "وصدق، فإن أكثر السقايات المعدة للاستسقاء وشرب الدواب بفاس وبلاد المغرب، معظمها من بنائه" ويأتي تجهيز أبي عنان لضواحي القاعدة المرينية بعدد من الدواليب المائية في بستان المصارة وغيره استكمالا لأعمال أبي الحسن في هذا المجال^(٥٦).

لكن هل أقام المرينيون منشآت مماثلة بمختلف مناطق المغرب؟ يجيب الفقيه محمد المنوني عن هذا السؤال بقوله: "لا ينبغي إغفال ظاهرة التوزيع لهذه المنشآت، حيث استأثرت المنطقة الشمالية بأكثر نسبة، بينما حصص مبان الجنوب تميل إلى الانخفاض، وقد لاحظ هذا الأمر بمدينة مراكش رخالتان في أواسط المائة الهجرية الثامنة، وأولهما هو ابن بطوطة الذي يسجل عن العاصمة الموحدية استيلاء الخراب عليها، وبعده ببضع سنوات يزورها لسان الدين بن الخطيب، ويشاهد ما صار إليه وضع العمارة"^(٥٧)، فيقول: "وخرابها موحش هائل، وبُعد الأقطار عن كثير من الأوطار بها حائل، وعدوها ينتهب في الفتن أقواتها، وجرذان المقابر تاكل أمواتها، وكانت أولى المنازل بالاغياء، لوانها اليوم معدودة في الأحياء"^(٥٨). وهكذا ظلت مراكش راکدة حسب الباحث هوزلي أحمد تجتر ماضيها طيلة ثلاثة قرون، ولم تعرف خلالها أية حركة عمرانية مهمة^(٥٩).

٥- الناعورة والسانية: (بحث عن الأصول)

يمكن للباحث المتطلع للتأريخ للناعورة أو السانية أن يحكم من خلال اطلاعه على مختلف النصوص السابقة بأن الناعورة - بشكل خاص - ظهرت خلال العصر المريني، فكل المؤلفين المشار إليهم لم يتحدثوا عن أية نوايع أخرى أقيمت قبل الفترة المرينية؟ هل كان ذلك راجعا لجهلهم بها لو افترضنا وجودها؟ أم أن الأمر كان مرتبطا بمحاولة متعمدة من المؤرخين لحجب المنجزات المائية السابقة على بني مرين، والالتفات في المقابل إلى مآثر هؤلاء؟ قد يصدق ذلك على البعض منهم، لكننا نجد المؤرخ علي بن أبي زرع لا يُبالغ في وصف الناعورة المرينية بفاس وهو المعاصر للدولة، فهو يقول: "بدئ بالعمل فيها في شهر رجب من سنة خمس وثمانين وستمئة، ودارت في شهر صفر من سنة ست وثمانين"^(٦٠)، إنها عبارة سريعة لا نكاد نلمس فيها إثارة من المؤرخ لبني مرين على غيرهم.

يبقى السؤال رغم هذه الوضعية الأسطوغرافية المميّزة قائما: هل وُجِدَت مصادر مباشرة أو غير مباشرة أشارت من قريب أو بعيد للناعورة والسانية قبل قيام دولة بني مرين؟

يروى أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزياد مناقب الشيخ أبي العباس أحمد بن جعفر الخزرجي المعروف بالسبتي فيقول في أحد المواضع: "حدثني أبو يحيى أبوبكر بن مساعد اللمطي قال: خرجت مع أبي العباس ومعنا رجل ثالث وأتينا إلى باب بَجيرة الناعورة، وكان مغلقا، فلما وصل إليه أبو العباس انفتح له الباب فدخلنا البحيرة فظننا أنه فتح له رجل كان خلف الباب فنظرنا يمينا وشمالا فلم نر أحدا فعجبنا من ذلك"،^(٦١) وقد علّق أحمد التوفيق على بَجيرة الناعورة قائلا: واحدة من البحيرات أي البساتين والغراسات المحيطة بمدينة مراكش، وكانت للمرابطين والموحدين عناية بإنشائها وتعمدها.

يستدعي هذا النص إبداء جملة من الملاحظات:

- يكتسي النص مصداقية كبيرة بحكم رواية الخبر من طرف أبي بكر بن مساعد وهو من أتباع المقربين لأبي العباس السبتي، وقد روى عنه في كتاب ابن الزياد الموسوم بـ"أخبار أبي العباس السبتي" أربعة عشر خيرا من أصل (45) خيرا.
- بما أن النص يرصد تحركات أبي العباس السبتي في المجال المحيط بمراكش، فهو يتأطر زمنيا بالفترة الممتدة من سنة (541 هـ/ 1174م) وهي السنة التي حلّ فيها أبو العباس السبتي بجبل كليز، وتنتهي بوفاته سنة (601 هـ/ 1205م).^(٦٢)
- لم يضبط النص مكان وجود بحيرة الناعورة، مع يقيننا بأنها في محيط مدينة مراكش كما شهد على ذلك محقق الكتاب. وقد أوردتها الدكتور محمد رابطة الدين في لوحة الوحدات الفلاحية بمجال مراكش زمن حكم الموحدين.^(٦٣)
- عدم تحديد الخبر لطبيعة الناعورة، أي دولاب مقام على نهر؟ أم هي مجرد سانية تدور عجلتها بواسطة الطاقة الحيوانية؟ وهوما يجعلنا عاجزين عن التقدم بأية خلاصات حول استعمال الناعورة بالمغرب خلال القرن الثاني عشر ما دام نص الخبر غير واضح، ولا توجد نصوص أخرى لعقد المقارنة.

من بين النصوص الدفينة الأخرى التي يجب التوقف عندها لرصد استعمال المغاربة للناعورة أو السانية حسب مدلول الخطاب، نص لذكرى بن محمد بن محمود القزويني 1283-1203م] يقول فيه: "زكندر: مدينة بالمغرب من بلاد بربر، بينها وبين مراكش سبّ مراحل، حدثني الفقيه علي بن عبد الله المغربي الجتاني أنها مدينة كبيرة مُسَوَّرة، كثرة الخيرات والثمرات، أهلها برابر مسلمون، بها معادن الفضة عامة، كل من أراد يعالجها. وهي غيران تحت الأرض، فيها خلق كثير يعملون أبداً. ومن عادة أهل المدينة أن من جنى جنابة أو وجب عليه حقّ فدخل شيئا من تلك

الغيران، سقط عنه الطلب حتى يخرج منها. وفيها أسواق ومساكن، فلعن الخائف يعمل فيها مدة وينفق ولا يخرج حتى يسهل الله أمره. وذكر أنهم إذا تزلوا عشرين ذراعا نزل الماء فالسلطان ينصب عليها الدواليب ويسقي ماؤها ليظهر الطين، فيخرجه الفعلة إلى ظاهر الأرض ويغسلونها. وإنما يفعل ذلك ليأخذ خمس النيل، وماؤها يسقي ثلاث دفعات، لأن من وجه الأرض إلى الماء عشرين ذراعا، فينصب دولابا في الغار على وجه الماء، فيسقي ويصبّ في حوض كبير، وينصب على ذلك الحوض دولابا آخر فيسقي ويصبّ في حوض آخر، ثم ينصب إلى ذلك الحوض دولابا ثالثا فيسقي ويجري على وجه الأرض إلى المزارع والبساتين".^(٦٤)

يقع منجم زكندر الموصوف في النص بجبل سيروا على ارتفاع 2000 إلى 2800 متر وعلى بعد خمس كيلومترات شمال قرية أسكاون، وقد تم تحديد الإطار الزمني للنشاط المنجمي والتعديني بهذا المنجم بالقرنين السادس والسابع الهجريين (12-13م) وقد شكّل المصدر الرئيسي لتمويل حركة ودولة الموحدين بالكتلة المعدنية الفضية، ويتجاوز عمق الأشغال الباطنية في زكندر 150 متر. وقد تم العثور في هذا المنجم على كيزان طينية (جرات) لا تتعدى حمولة الواحد منها اللترين وقطع من الألواح الخشبية وبقايا حبال، وهذه الأشياء كلها تدخل في تكوين الدواليب التي كانت تستخدم في تفريغ الدهاليز والآبار من المياه الجوفية، ويتعلق الأمر هنا حسب الباحث الموسوي العجلوي بالسانية لا بالناعورة التي تحدثنا عنها بفاس المرينية، وقد رجّح إمكانية استعمال وبناء دواليب مائية على ثلاث طبقات، وعلى بعد عشرة أمتار من سطح الأرض، وقد تم بالفعل اكتشاف غرف في أعماق المنجم يبلغ حجمها 120 متر^(٦٥) [10م×4م×3م] وهي أبعاد تتوافق حسب الباحث نفسه مع الأحجام التي يمكن أن تنصب عليها الدواليب المذكورة، أي غرف لا يتجاوز علوها 3 أمتار. وقد مكنت هذه الدواليب المنجميين من تفريغ الفرشة المائية بعد نزولها إلى مستويات منخفضة. ولم يقتصر الأمر هنا على منجم زكندر، فقد عثر الباحثون بمنجم عوام بالأطلس المتوسط غرب مدينة مريرت، على الطريق الرابطة بين ازرو وخنيفرة على كيزان فخارية وخشبية مربوطة بواسطة حبال ببقايا عجلة، وهوما يدل على استعمال التقنية نفسها خلال الفترة التي امتد فيها العمل المنجمي بهذا الموقع وهي من الفترة الإدريسية أي القرن الثامن الميلادي إلى أواسط القرن / 13م أي تاريخ الصراع الموحيدي المريني الذي أثر على النشاط المنجمي.^(٦٥)

إلى جانب النصين سابق الذكر والاكتشافات الأثرية التي أكدت محتوى النص الثاني، تتوفر على بقايا أثرية بمدينة مراكش تدل على استخدام السانية بشكل مبكر، فقد عثر على بعد أمتار قليلة شمال باب علي بن يوسف قرب جامع الكتبيين على سلسلة من كيزان ناعورة، تختلف من حيث شكلها ومادة صنعها، أما الصباغة الفخارية فتتراوح ما بين الأصفر المائل للوردي واللون الأسمر المائل للحمرة.^(٦٦) ويُعلق بول باسكون على هذا الاكتشاف

وطاقتها السقوية، فالنواعير حسب نفس الباحث تنسم بكمبر حجمها وإنشائها على الأودية، أما السواني أو الشواني فتعتمد على الآبار والمياه الجوفية.^(٧٠)

كما أن الباحث حسن حافظي اعتبر الناعورة المنشأة بفاس خلال العهد المريني من طرف أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أول ناعورة بالمغرب، وهو حكم متسرع في نظرنا، لأننا لا يجب أن نعتبر أول إشارة تاريخية إلى الناعورة بمثابة أول استعمال لها بالمجال، فاحتمالات استعمالها قبل ذلك كثيرة، والنصوص التاريخية التي تحدثت عن ناعورة فاس لم تقل أنها كانت أول ناعورة بل اكتفت بوصفها، فلو كانت أول ناعورة لوجدنا المؤرخين يسارعون إلى ذكر ذلك باعتباره مفخرة أخرى من مفاخر الدولة المرينية.

أما الباحث الحسين أسكان فيعود بهذه الإشارة التاريخية للوزان إلى أواخر العصر الوسيط، ويستدل على قدم الناعورة بالجنوب المغربي بل واستخدامها منذ أوائل العصر الوسيط باستخدام الطواحين المائية منذ القرن الثالث الهجري بمدينة تامدولت مثلاً، لأن تقنية الطاحونة المائية لا تختلف عن تقنية الناعورة، والصانع الذي يصنع هذه يصنع تلك.^(٧١) أعتقد أنه يجب التحفظ إزاء هذه المقارنة ما دامت بين تقنيتين لم تُستخدما لنفس الغرض، وبالتالي التحفظ على التاريخ المقترح لاستخدام الناعورة في المغرب.

يبقى البحث الأركيولوجي في هذه الحالة المادة الحاسمة في قضية النواعير بسجلماصة، وبالفعل فقد عُثر بالقرب من وادي الشرفاء شمال خراب سجلماصة على آثار برجين ترتفع بقاياهما عن مستوى سطح الأرض بحوالي مترين ونصف، وبالقرب منهما آثار نافورة كانت تأتيا المياه عبر قادوس من الوادي، وبالقرب من النافورة توجد آثار حمام مستعمل منذ القديم وقد عُثر على بقايا الرماد بمكانه. ويعتقد الباحث لحسن تاوشخت أن الأمر يتعلق هنا بالركائز التي تقوم عليها الناعورة.^(٧٢)

هل يمكن الاطمئنان من خلال ما سبق إلى فرضية أسبقية استخدام المغاربة للناعورة والسانية قبل الفترة المرينية وبالضبط قبل سنة 1286م؟ قد نجيب بالإيجاب فيما يتعلق بالسانية خاصة أن الشواهد المادية التي تم التوقف عليها تثبت ذلك، لكننا لا نستطيع المجازفة والقول أن الناعورة استعملت منذ العصر الموحي وبالضبط خلال القرن الثاني عشر، فالنصوص التاريخية يكتسبها الغموض على مستوى الألفاظ المنتقاة للإشارة إلى هذه التقنيات، وهوما تأكد لنا مرارا في مراجعتنا لها سواء تلك المتعلقة بالمغرب أو الأندلس، لكننا وفي المقابل لا نُسَلِّم بولوج الناعورة للمغرب خلال القرن الثالث عشر، لأنه لا توجد أية إشارة تؤكد أن ما شَيَّده المرينيون بفاس كان أول ناعورة بالمغرب، فالوزان يقول أن هذه النواعير "صُنعت في عصرنا أي منذ نحو مائة سنة"، وابن فضل الله العمري يشير فقط إلى أن نهر الجواهر بفاس "عليه الناعورة المشهورة" دون قوله أنها أول ناعورة أو ما شابه ذلك، كما

قائلا أن قدم السانية بمراكش يشهد عليه اكتشاف كيزان فخارية مرابطية، لكنه لا يستخدم هنا الاسم الذي أطلقه موني وتيراس على هذه التقنية وهو الناعورة، بل يستعير عنه بلفظ السانية مؤكداً أنه الاسم المحلي للناعورة، ويعرفها قائلاً: "السانية هو الاسم المحلي للناعورة، وتتكون من سلسلة مزودة بأكوام من الصفيح، تتحرك بفضل تشابك أسنان عجلتين مختلفتين يتم تحريكهما بفضل حمار. وتستخدم لجلب الماء من عمق يصل إلى 10 أمتار وأحيانا إلى ما أكثر من ذلك في بعض الحالات الاستثنائية"^(٧٣)، وهي ملاحظة تدل على وعي باسكون باستحالة إقامة ناعورة قرب الكتبيين لانعدام المجرى المائي الذي سيحركها، لذلك فالاحتمال الوحيد القائم هو السانية.

أما إذا تقدمنا أكثر نحو الجنوب، فس نجد إشارة تاريخية أخرى إلى استعمال الناعورة بمدينة سجلماصة، فالحسن الوزان يذكر أن سجلماصة كانت "مدينة متحضرة جداً، دورها جميلة، وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان، وكان فيها مساجد جميلة، ومدارس ذات سقايات عديدة يجلب ماؤها من النهر، تأخذه ناعورات من واد زيز وتغذف به في قنوات تحمله إلى المدينة"^(٧٤)، ويقدم الباحث حسن حافظي علوي في رسالته لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الإسلامي حول سجلماصة مجموعة من الملاحظات تحوم حول هذا النص هي كالتالي:

- عدم تحديد الوزان لتاريخ استخدام هذه التقنية بسجلماصة.
- تأكيد على أن الناعورة تعرف في بعض الأماكن باسم السانية، وهي مصنوعة من الخشب وتدار بواسطة الحصان أو الجمل أو الطاقة المائية في حالة بنائها على مجرى الوادي.
- إرجاع تاريخ الناعورة الموصوفة في النص إلى العهد المريني، مادامت هذه التقنية لم تدخل المغرب إلا في عهد يعقوب بن عبد الحق، وتم بناء أول ناعورة على وادي فاس سنة 1286 بإشراف أحد المهندسين الأندلسيين.^(٧٥)

يجب أن نلاحظ أولاً: أن الوزان لم يتحدث عن ناعورة واحدة بل عن نواعير، وهذا يدل على ترسخ وقدم المعرفة بهذه التقنية بل واعتمادها بشكل واسع داخل المجال السجلماصي لتوفير الماء للمدارس وسقاياتها.. كما أن الباحث حسن حافظي علوي لم ينتبه إلى قول الوزان أن النواعير مقامة فوق واد زيز، وهذا مستحيل بالنسبة للسانية التي ذكر انها قد تدار بالطاقة المائية، فالمعنى الغالب هو انها عجلة تدار بواسطة حيوان معين، وهو خلط سبق وقلنا انه لم يقتصر على بلاد المغرب بل هم الأندلس كذلك، فالأندلسيون يقولون للآلة التي تربط بها الكيزان لإخراج الماء من البئر سانية ودولابا وناعورة، ويدعو هنا الباحث سعيد بنجمادة إلى القراءة المتأنية للنصوص للوصول إلى التمييز بين هذه الأصناف، وذلك بالاعتماد على المصادر المائية التي أقيمت عليها، وما تدار به

أن لسان الدين بن الخطيب قال أن ابن الحاج اتخذ لأبي يوسف المنصور بن عبد الحق "الدولاب المنفوح القطر البعيد المدار"، وهي إشارة تفيد الأبعاد الاستثنائية للناعورة لا كونها أول ناعورة تقام في المغرب.

٦. عودة للنواعير والسواني في المغرب الحديث والمعاصر

هل اهتم السعديون والعلويون بالنواعير كما اهتم بها بنو مرين قبلهم؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال نود أن نذكر القارئ مجدداً بأننا في تعاملنا مع الماضي، لا نتعامل معه قط كما كان، لكن كما شاء المؤرخون أن يصفوه لنا وهو ما يجعل التاريخ مجرد انعكاس شاحب للماضي في كتابات المؤرخين الذين لم يلتفتوا إلى أشياء كثيرة أصبحت خلال العصر الحديث والمعاصر عادية ويومية، وبالتالي انتفاء ضرورة تسجيلها وتقييدها أخباراً.

أشار الأستاذ إبراهيم حركات في دراسته حول السياسة والمجتمع في العصر السعدي، إلى أن التقنية التي كانت مستعملة في سحب الماء وري البساتين هي ما يسمى في منطقة سلا بالسانية، وفي منطقة فاس بالناعورة، وكتلتاهما عبارة عن دولاب يسير في خط دائري ويحمل أوعية ماء يهبط بها الدولاب إلى عمق كاف من البئر فتتمتلئ ماء ثم تقذف في قناة توصل الماء إلى حوض كبير، ويحرك الدولاب حيوان يكون غالباً حمراً أو بغيلاً^(٧٣) نلاحظ في البداية الخلط الواقع هنا بين السانية والناعورة، فهو يعتبرهما شيئاً واحداً، ويقوم بوصف طريقة عملهما دون فصل بين التقنيتين، كما أنه لا يقدم نماذج مجالية واضحة تبين مدى استغلال الإنسان المغربي خلال الفترة السعدية لهذه التقنيات، إلى جانب عدم إرداف خبره هذا بأية إحالة مرجعية تؤكد صحته.

هل استخدم السعديون تقنيتي الناعورة والسانية بالفعل؟ تستوقفنا إشارة في كتاب مناهل الصفا لصاحبه الفشتالي حول قصر البديع الذي استمرت أعمال البناء متواصلة فيه ما بين 1578 و1593، ففي وصفه لهذا القصر قال: "قد بلغ الإغيا في الاحتفال فيها إلى تجنيد الفوارات المرمية اللجينية المعدة للرقص بالمياه الغزيرة التي يسمونها بها من الدولاب العظيم والفلك الكبير الداخل في جملة الآثار العظيمة التي وكل بها أمير المؤمنين أيده الله"^(٧٤) هل كان الفشتالي يقصد من وراء لفظ الدولاب الإشارة إلى ناعورة أم مجرد سانية ذات أبعاد مهمة؟ هل كانت الناعورة أو السانية مقامة داخل القصر أو خارجه؟ الثابت أن من أنشأ هذا الدولاب هو السلطان أبو العباس أحمد المنصور الملقب بالذهبي فهو في عداد الآثار العظيمة التي وُكِّلَ بها. لكننا لا نستطيع التقدم في الإجابة عن السؤالين الأولين لغياب نصوص أخرى قد تشرح ما أعرض الفشتالي عن شرحه، كما أن الأبحاث الأركيولوجية بقصر البديع لم تُزَحِ اللثام بعد بشكل واضح عن آليات تزويد القصر بالماء، كما لم يُعْثَر به على آثار أي دولاب^(٧٥).

هل تتوفر على نصوص أخرى عدا إشارة الفشتالي أو لقي أثرية تؤكد استخدام السعديين للناعورة والسانية؟ لقد استعمل

السعديون عجلات مائية ضخمة في مجموعة من مناطق المغرب الجنوبية خاصة، لكنها لم تُنشأ لرفع المياه بل لغرض آخر، ففي سوس كانت مياه العيون تحمل عبر قناة محمولة فوق أسوار ضخمة خفيفة الانحدار، كما هو مائل لحد الآن في أطلال تازمورت وأطلال ساقية المهدية بأميز وتنتهي هذه السواقي بشلال اصطناعي تتساقط منه المياه بقوة تدير عجلة مائية ضخمة تستعمل في أرحية معامل السكر في أولاد مسعود والكردن وتيديسي وأصاوص والمهادي^(٧٦) ونجد نفس العجلة بنواحي مدينة شيشاوة، فبمعصرة السكر الجنوبية [معصرة سور العبيد] هناك أقيمت عجلة في الطرف الأقصى للصور المستخدم أساساً في إدارة الناعورة والري كذلك، وقد بلغ قطر الناعورة خمسة أمتار من خلال قياس اثر احتكاكها بالجدار الذي تستند عليه والذي بدأت تميل نحوه مع مرور الوقت، أما عرض الناعورة فكانت تشغل العرض نفسه الذي كان للمخرج المائي قبل أن يلج القمع، أي ما يقارب 1.40 متر. وكانت تعلو على الأرض بحوالي ثلاثة أمتار، وقد كانت مصنوعة من الخشب والحديد، ويظهر ذلك من خلال بعض المخلفات التي وُجِدت على هوامش المعصرة^(٧٧).

لاشك أن النواعير المستخدمة من طرف السعديين في عملية صناعة السكر تشبه إلى حد ما النواعير المرينية سالف الذكر، لكنها تختلف معها في الوظيفة وموقع الإنشاء، فهذه النواعير لا تقام على الأنهار، بل يأتي إليها الماء من خلال قنوات محمولة على سور ذي انحدار تدريجي يسمح بتدفق المياه دون انقطاع صوب الناعورة. ومع ذلك فلم يجد الباحثون تسمية أفضل لهذه العجلة من الناعورة. ألا يمكن اعتبار إنشاء السعديين لهذه النواعير دليلاً على معرفتهم الدقيقة بهذه التقنية وتحويلها لخدمة أغراض اقتصادية أخرى، مع العلم أن النواعير المرينية ظلت قائمة بمدينة فاس أمام مرأى السعديين بل استمر البعض منها قائماً إلى يومنا هذا، مقدمة بذلك النموذج لكل من أراد إنشاء نواعير مماثلة؟

إذا كان الحديث في المصادر التاريخية السعدية شبه نادر عن النواعير، فالأمر مماثل بالنسبة للسواني التي لم تسترِع الاهتمام ربما لصغر حجمها وارتباطها في غالب الأحيان بالملكيات الخاصة، لكن هذا لا يعني غيابها في الواقع، فقد وُجِدت قبل وبعد الدولة السعدية، وهوما يعني أنها استخدمت من طرف المغاربة خلال هذه الفترة. إذا كانت وضعية البحث في النواعير والسواني في الدولة السعدية صعبة إلى حد ما، فمادام يُمكن أن نقول حول الموضوع نفسه لدى الدولة العلوية؟

لم يكن في استطاعتنا - لضيق الوقت - أن نقوم بالاشتغال على مصادر تاريخ الفترة العلوية لكثرتها وتشعبها واختلاف مواضيعها، وغياب الفهرسة التقنية الدقيقة للعديد منها وهوما دعانا إلى الاكتفاء في هذا المجال على بعض النماذج الدالة على اهتمام العلويين بالنواعير والسواني.

وقفنا في هذا الصدد على وصف الفقيه محمد المنوني للقصة الإسماعيلية بمكناس وقد تضمنت إشارات متعددة للناعورة، "فعلى مقربة من باب الرايس يمينا يوجد باب القصر الأول الذي يحمل اسم قصر المدرسة، وفي أواخر هذا الممر يقع باب القصر الثاني الذي يسمى قصر المحنشة.. فإذا انعطفت من هذا الممر - يمينا - فستجد الباب الثاني والأصلي لهذا القصر، الذي يقابله الباب الداخلي لقصة هدراش، كما يجاوره - من جهة اليمين - بوية صغيرة تسمى باب الناعورة، وعلى مقربة منها يقع مدخل حديقة غناء هي جنان ابن حليلة من إنشاء السلطان محمد الثالث".^(٧٨)

ويضيف قائلاً: "فإذا خرج الزائر من هذه القصة [قصة باب مراح] واتجه إلى جهة اليمين، فستقبله بناية يعلوها نوافذ مظلمة ومستطيلة، وتمتد نحو الجنوب في طول يزيد على 77 متراً، وهي أثر إسماعيلي كان يشتمل على عدة آبار عميقة عليها دواليب لنقل الماء وصبه في المجاري المؤدية إلى صهرج السواني.. والغالب أن هذه الدواليب هي منشآت تسمى الباب السابق الذكر بباب الناعورة. وجنوب هذه البناية تتصل بها أطلال هري كان مخزناً لإسماعيليا للزرع.. وقبالة هذين الأثرين - غرباً - توجد بركة الماء العظيمة، وهي تسمى صهرج السواني، بسبب أن ماءها كان يأتيها من الآبار ذات الدواليب، التي يطلق عليها - في الاستعمال المغربي - سواني، وهذا باعتبار القديم، وأما الآن فمأوها مأخوذ من شرب المدينة".^(٧٩)

ويصف عبد الرحمان ابن زيدان هذه المنشآت، فيذكر أن الآبار "في غاية العمق ذات مياه عذبة صافية، وجعل (المولى إسماعيل) لكل بئر دولا عظيمين ينقل منه الماء ويصبه في المجاري المعدة له إلى أن يصب بالصهرج".^(٨٠) إنها منشآت تتطابق مع الوصف الذي خلفه لنا جون ويندوس للسلطان مولاي إسماعيل فقد كان "مولعاً بالبناء بشكل مدتهش، ويتساءل الناس هل ولعه بالهدم أشد من ولعه بالبناء، ويقولون لو ظلت بناياته كلها قائمة لبلغت مدينة فاس".^(٨١)

أما إذا انتقلنا شيئاً ما نحو الغرب، وبالضبط نحو مدينة سلا، فسنجد عبد الله بن سعيد يتحدث عن النواوير بهذه المدينة قائلاً: "علاوة على الماء الذي كانت تجره قنوات جسر الأقواس إلى المدينة لتزويد المساجد والمدارس والنافورات العمومية والمراحيض كانت الحقول والبساتين والسواني داخل المدينة وخارجها وبعض الحرف كصناعة الحصر والدباغة والصباغة تغرف الماء من الآبار بواسطة ناعورات. ففي المكان الذي أصبح موقفا للسيارات مثلاً والكائن خلف السوق البلدي بسانية الحسنوي، كان هناك ناعور يصب الماء في حوض لغسل السمر كمادة أساسية لصناعة الحصر، علماً أن مدينة سلا كانت عاصمة هذه الصناعة التقليدية".^(٨٢) وقد أرفق الباحث هذه الفقرة بصور فوتوغرافية لكل من الباب الرئيسي للسوق المركزي الذي كانت توجد بالقرب منه سانية يستغل الماء المرفوع بواسطتها صانعو الحصر، وصورة أخرى لناعورة في ضاحية من ضواحي فاس سنة 1900.

يتضح من خلال النص السابق تسمية عبد الله بن سعيد للسانية بالناعورة، وهو ربما تقليد جرى عليه أهل سلا، لكننا نجد في التعليق على صورة ناعورة فعلية بضواحي سلا يُسمّى هي الأخرى ناعورة جامعاً بذلك التقنيتين في اسم واحد. كما أنه لم يقدم أية معطيات تاريخية حول هذه المنشآت، ويكمن السبب في طباعة الكتاب الذي أنجزه بن سعيد نفسه، فهو يقول في تمهيد: "هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم ليس بمؤلف تاريخي، بل هو دفتر لصور ورسوم [ألبوم] تيسر لي جمعها خلال عقود من مصادر مختلفة: لقد أخذت بعضها عن كتب في التاريخ وأخرى عن جرائد ومجلات محلية وأجنبية، وبعضها عن بطاقات بريدية ناولني إياها مشكورين بعض الأصدقاء والأقارب، وأخرى وجدتها في خزانات عمومية وخصوصية أو اقتنيتها في أسواق الأشياء القديمة كجوطية الرباط، أما بالنسبة للمعلومات التاريخية التي لم أعر لها على صور قديمة فقد أخذت على عاتقي تصويرها على الوجه الذي توجد عليه حالياً وهو في الواقع امتداد لما كانت عليه في الماضي"،^(٨٣) ولم نقف للأسف في كتاب "موجز تاريخ سلا" للباحث "كينيث براون" على أي ذكر لهذه المنشآت المائية، فحتى خلال العصر الذهبي للمدينة أي الفترة المرينية، نجد هؤلاء اهتموا فقط (على المستوى الاقتصادي) بتشديد دار الصناعة لإنشاء السفن وتشجيع التجارة بالمرسى السلاوي، أما ما يتصل بأمور الري فلم ترد بالكتاب أية إشارة حوله.^(٨٤)

من سلا نتجه لمنطقة دكالة، فنجد الرحالة والباحث الفرنسي إدمون دوتي [1876-1926] في طريقه من الدار البيضاء نحو مراكش مطلع القرن العشرين يتوقف بمنطقة دكالة عند أطلال سانية بومهيدي بين الوليدية والجديدة، فيقول: "وكلمة سانية التي تدل في العادة على العجلة المائية الرافعة ذات القواديس وهي الناعورة، كثيراً ما تطلق في هذه البلاد يراد بها البستان. ثم إننا نرى النواوير حيثما ولينا وأوجهننا من هذه الناحية، فهي فيها كثرة كثيرة. وليس من باب المبالغة أن نقول إن النواوير تملأ حقيقة لا مجازاً الوادي الذي نسلكه الآن، حتى لا يكاد يخلو منها موضع فيه. وليس ببعيد أن هذا الموضع كان من قبل بستاناً مترامياً الأطراف.. فيكون قد مرّ زمن طويل على هذه البوادي كانت فيه تغطيها كلها الزراعات وليس ببعيد أن العناية التي كانت تتلقاها في السقي قد مكّنت فيها للأشجار. ويخيل إلينا أنه قد وجدت بساتين للخضار في الأماكن التي نراها اليوم لا تزيد عن زراعة الحبوب".^(٨٥)

عدا مكناس وسلا ودكالة، نجد ذكرى السانية وليس الناعورة تتردد في مواقع أخرى كما هو الحال بالنسبة لتطوان، فخلال القرن السابع عشر ساعد المقدم أحمد بن عيسى النقيس الأول فوجاً من الموريسكيين المطرودين من شبه الجزيرة الإيبيرية من طرف الملك الأسباني فيليب الثالث سنة 1619م وذلك من خلال تسهيل استقرارهم بالعيون وإنشاء "حومة السانية" أو رباط الأندلس.^(٨٦) أما بمراكش فنجد بحومة القصور دربا يحمل اسم

الهوامش:

- (١) يصح هذا إلى غاية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الذي بدأت وتيرة الاختراع والابتكار التقني تتزايد فهما بسرعة وانتظام بالعالم الرأسمالي خاصة.
- (٢) انظر حول قنوات التواصل بين الغرب الإسلامي وأوروبا مؤلف المستشرق الألمانية هونكه زيفريد، شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبا، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال الدسوقي، منشورات المكتب التجاري، بيروت، الطبعة الأولى، 1964، ص. 531-532.
- (٣) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1992، المجلد الخامس، ص. 220-222.
- (٤) مخطوط رقم 2462، بالمكتبة الوطنية بباريس - فرنسا.
- (٥) العجلاوي الموساوي، تقنيات استخراج المياه الباطنية في مناجم الفضة بالمغرب (٧٢هـ / 13٨٠م)، ضمن أعمال ندوة: الماء في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بعين الشق، الدار البيضاء، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 11، ص. 106.
- (6) Barthélemy. A., **Dictionnaire Arabe-Français: Dialectes de syrie: Alep, Damas, Liban, Jérusalem**, publié par H.Fleisch, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1954, Cinquième fascicule, p.835.
- (7) Noria, roue a irrigations, roue hydraulique. pl. ناعورة (7) Qui fait jaillir le sang comme jaillit l'eau de la source (veine) كتاب اللغتين العربية و Kazimirski, A. de Biberstein, **Dictionnaire Arabe-Français**, Maisonneuve et Cie), éditeurs, Paris, 1860. Tome Deuxième, p.1293.
- (8) Dozy, R., **Supplément aux Dictionnaires Arabes**, E.-J. Brill, Leiden - librairie orientale et américaine Maisonneuve frères, Paris, deuxième édition, 1927, tome second, pp.689-690.
- (٩) ملولي إدريسي عبد الرحمان، من تاريخ شبكة توزيع المياه في مدينة فاس، مجلة دعوة الحق، العدد 392، السنة الحادية والخمسون، جمادى الأولى 1430هـ/ ماي 2009م، ص. 108.
- (١٠) معلومات استقيناها من عين المكان من عدة صناع وحرفيين تجاوز دكاكينهم دكاكين النواعيرة المغلقة حالياً، يوم الثلاثاء 23 أبريل 2013.
- (11) Hill. D.R., **Nā'ūra**, in **Encyclopédie de l'Islam**, Nouvelle édition établie avec le concours des principaux orientalistes par C.E.Bosworth, E. van Donzel, W.P. Heinrichs et feu Ch.Pellat, sous le patronage de L'Union académique internationale, E.J.Brill - Leiden-New york, G.-P.Maisonneuve et Larose S.A - Paris, 1993, Tome VII, p.1039.
- (12) Colin, G.S., **La Noria Marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe**, Hespéris, Tome XVI, fasc. I, I(er) trimestre 1932, p.22, note n°1.
- (١٣) بنعبد الله محمد بن عبد العزيز، الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1996، الجزء الثالث، ص. 239.
- (14) Colin, G.S., **Op. Cit.**, p. 23.

درب السانية، أخبرنا بعض التجار المجاورين للدرب أن سبب تسميته بهذا الاسم، راجع لتوفر رياض كبير خاص بأحد الشرفاء المسعوديين على بئر وسانية كانت ساكنة الدرب تتردد عليها لأخذ الماء لعدم توفر دُورهم عليه، ويعودون بهذا الخبر إلى عشرينات القرن العشرين دون تأكدهم من ذلك، ولم نستطع التأكد من الخبر أونفيه لأن الرياض المشار إليه انقسم إلى دور صغيرة وانتقلت ساكنة جديدة للدرب غاب عنها سرتسمية الدرب.

خاتمة

توصلنا في نهاية هذا البحث الى مجموعة من الاستنتاجات، من بينها:

- ارتباط اسم الناعورة بصوت النعر الذي تحدثه أثناء دورانها، إضافة الى دلالة أخرى مرتبطة بالسيلان.
- الفرق بين الناعورة والسانية هو أن التقنية الأولى عبارة عن عجلة كبيرة تدور بفعل التيار المائي وتقام دائماً على ضفاف الأنهار، أما السانية فهي عجلة صغيرة ذات صبيب ضعيف، تستعمل أساساً في الزراعة وتعتمد على الطاقة الحيوانية.
- إجماع المصادر التاريخية ونتائج البحث الأثري على أن السلطان المريني أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق هو من أعطى الأوامر لإقامة الناعورة الضخمة ذات القطر البالغ 26 متر والبالغ عرضها مترين ، لكن أبنة أبو يعقوب يوسف هو الذي قام على تحقيق مشروع والده بعد وفاته سنة 1286م.
- كانت النتيجة المباشرة لتأسيس فاس الجديد إدخال الناعورة لمدينة فاس، إذ لم يكن يفصل بين تشييد هذه المدينة سنة 1276 وإقامة الناعورة سنة 1286-1287 سوى عشر سنوات.
- أثبتت الشواهد المادية التي توقفنا عندها استخدامها المغاربة للسانية قبل العصر المريني، لكننا لا نستطيع المجازفة والقول أن الناعورة استعملت منذ العصر الموحي وبالبضبط خلال القرن الثاني عشر. وفي المقابل لا تُسَلَّم بُولُوج الناعورة للمغرب خلال القرن الثالث عشر، لأنه لا توجد أية إشارة تؤكد أن ما شيده المرينيون بفاس كان أول ناعورة في المغرب.

- (32) Colin, G.S., « **L'origine des Norias de Fès** », Hespéris, Tome XVI, fasc. I-II, I(er) et 3(eme) trimestres 1933, p.156.
- (٣٣) العمري ابن فضل الله، وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن المريني مقتبس من مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، تحقيق محمد المنوني، قطعة منشورة ضمن: المنوني محمد، ورفقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 20، الطبعة الثانية 2000، ص-552-551.
- (٣٤) ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة من أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1973م، ص. 140-139.
- (٣٥) ابن الخطيب لسان الدين، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق الدكتور محمد كمال شبانة، طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، دت، ص. 176.
- (٣٦) المنوني محمد، ورفقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 20، الطبعة الثانية 2000، ص. 33-32.
- (37) Colin, G.S., « **L'origine des Norias de Fès** », **Op.Cit.**, p. 157.
- (38) Delarozière, J., Bressolette, H., « **La Grande Noria et l'Aqueduc du Vieux Mechouar a Fès - Djedid** », in Quatrième congrès de la Fédération des Sociétés Savantes de l'Afrique du Nord, Rabat 18-20 avril 1936, publié par les soins de la société Historique Algérienne, Alger, 1939, Tome II, 628-629-630.
- (39) Michaux-Bellaire, E., Salmon, G., « **Description de la ville de Fès** », in **Archives Marocaines**, publication de la Mission scientifique du Maroc, Volume XI, N° I, Ernest Leroux, éditeurs, Paris, 1907, p. 258.
- (40) Delarozière, J., Bressolette, H., **Op. Cit.**, pp. 633-634.
- (٤١) المنوني محمد، مرجع سابق، ص. 23.
- (42) **Ibid.**, p.635.
- (43) Madani, T., **Op. Cit.**, non numéroté.
- (44) Erckmann, Jules., **Le Maroc Moderne**, challamel aîné, éditeur, paris, 1885, p. 25.
- (٤٥) الفاسي الحسن بن محمد الوزان، مرجع سابق، الجزء الأول، ص. 284.
- (46) Delarozière, J., Bressolette, H., **Op. Cit.**, pp. 635-638.
- (47) Madani, T., **Op. Cit.**, non numéroté.
- (48) **Ibidem.**
- (٤٩) النميري ابن الحاج، فيض العباب وإفاضة قدامح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد الدكتور محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1990، ص. 178-176.
- (٥٠) استعمل هذا الاسم في الأندلس للدلالة على الفضاء الواسع في جوار المدن، حيث يكون ميدانا لألعاب الفروسية وعرض الجيوش، ومن الأندلس انتقل للمغرب واشتهر في ضاحية فاس، ثم في ناحية مدينة تازا. وعرف هذا الاسم بفاس في صدر الدولة المرينية، وضمن منجزات السلطان يوسف بن يعقوب، وحسب إشارة في روض القرطاس فإن هذه الحديقة كان موقعها
- (15) Madani, T., **L'Eau dans le monde musulman médiéval : l'exemple de Fès (Maroc) et de sa région**, Thèse pour obtenir le grade de docteur de l'université Lyon II en Histoire, 2003,(copie numérique), sans numéros de pages.
- (16) Pascon, P., « **La petite et la Moyenne Hydraulique** », in La question hydraulique : 1-petite et moyenne hydraulique au maroc, presses de Graphique S.A, Rabat, 1984, pp.13-41.
- (17) Hill. D.R., **Op. Cit.**, p. 1039.
- (18) Madani, T., **Op. Cit.**, non numéroté.
- (19) Colin, G.S., **Op. Cit.**, p. 48.
- (٢٠) بن عبد الجليل عبد العزيز، الناعورة، معلمة المغرب، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 2005، الجزء 22، ص. 7406.
- (٢١) الطويل محمد حجاج، السانية، معلمة المغرب، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، 2001، الجزء 14، ص. 4830.
- (٢٢) بن عبد الله محمد بن عبد العزيز، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص. 238-239.
- (٢٣) حسن ياسين خضير، طرائق وأساليب الزراعة والري في الأندلس من خلال كتب الفلاحة، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم التاريخ، 2007، المبحث الثالث، غير مُرقم.
- (٢٤) الطاهري أحمد، "تقنيات الفلاحة الأندلسية بين التراث العلمي المحفوظ والدراسات التاريخية"، ضمن: حسن حافظي علوي (تحت إشراف) الفلاحة والتقنيات الفلاحية في العالم الإسلامي في العصر الوسيط، مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة أورايش البحث، 2011، ص. 194.
- (٢٥) كارتسيف فلاديمير، خازانوفسكي بيوتر، آلاف السنين من الطاقة، ترجمة محمد غياث الزيات، سلسلة عالم المعرفة، عدد 187، يوليو 1994، صص. 41-40.
- (٢٦) بن منصور عبد الوهاب، كشف أسماء الأسر المغربية، المطبعة الملكية، الرباط، 1972، ص. 8-100.
- (27) Eisenbeth, Maurice., **Les juifs de l'Afrique du Nord : Démographie et Onomastique**, imprimerie du lycée, Alger, 1936, p.157.
- (٢٨) الفاسي علي ابن أبي زرع، أنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص. ٤٠٧.
- (٢٩) مجهول من أهل القرن الثامن الهجري، كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، حققه الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1979، ص. 177.
- (٣٠) النويري أحمد بن عبد الوهاب (توفي سنة 732هـ)، تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق وتعليق الدكتور مصطفى أبو ضيف احمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص. ٤٥٥.
- (٣١) الفاسي الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية د.محمد حجي ود.محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983، الجزء الأول، ص. 284-285.

(٦٩) علوي حسن حافظي، سجل ماساة وإقليمها في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الرباط، 1997، ص. 72-73.

(٧٠) بنحمدة سعيد، الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين 7 و 8 هـ / 13 و 14 م: إسهام في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 2007، ص. 60-61-62.

(٧١) أسكان الحسين، "تكنولوجيا التحكم في الماء بالجنوب المغربي خلال العصر الوسيط"، مجلة أمل، العدد 24، السنة الثامنة، 2001، ص. 21.

(٧٢) تاوشيتخ لحسن، عمران سجل ماساة: دراسة تاريخية وأثرية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الطبعة الأولى 2008، الجزء الثاني، ص. 400-401.

(٧٣) حركات إبراهيم، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1987، ص. 281.

(٧٤) الفشتالي أبو فارس عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية في المملكة المغربية، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم، دت، ص. 261.

(٧٥) استفدنا ذلك من خلال عدة زيارات ميدانية لقصر البديع بمراكش خلال سنة 2013، قامت خلالها محافظة الموقع السيدة حسناء الحداوي بتوضيح التقنيات المستخدمة في القصر للتزود بالماء.

(٧٦) الحاجي عبد الله، الدولة السعدية: آليات التطور ومظاهر التدهور، سوس بين 916-1015 هـ / 1510-1609 م، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013، ص. 172.

(٧٧) ايت بنصالح عبد العزيز، شيشاوة منذ ما قبل التاريخ إلى الآن، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى 2012، ص. 179-180.

(٧٨) المنوني محمد، دليل القصبة الإسماعيلية بمكناس، ضمن: الفقيه المنوني أبحاث مختارة، منشورات وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، 2000، ص. 74.

(٧٩) المرجع نفسه، ص. 76.

(٨٠) بلمقدم رقية، "تنظيم توزيع مياه واد بوفكران وضبط استغلالها في عهد المولى إسماعيل"، ضمن أعمال ندوة واد بوفكران: البيئة والتاريخ وأفاق التهيئة، منشورات عمادة جماعة المولى إسماعيل بمكناس -8-، 1993، ص. ٧٣.

(٨١) وندوس جون، رحلة إلى مكناس، ترجمه عن الانجليزية دزهراء إخوان، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل -3-، ١٩٩٣، ص. 82.

(٨٢) بنسعيد عبد الله، مدينة سلا: حديث الصورة، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 2008، ص. 235.

(٨٣) المرجع نفسه، ص. 23.

(٨٤) براون كينيث، موجز تاريخ سلا 1000-1800، ترجمه عن الانجليزية محمد حبيدة وأناس لعلو، منشورات أمل، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2001، ص. 41.

(٨٥) دوتي إدمون، مراكش، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات مرسوم، الرباط 2011، ص. 211-212.

(٨٦) الرامي خالد، النظام الأصيل لتوزيع الماء بمدينة تطوان 1913-1862، منشورات جمعية تطوان أسمر، تطوان 2008، ص. 202.

بالضاحية الشمالية لفاس الجديد، ويحدد البعض مركزها بأنه على مقربة من المكان المعروف بالمعبد حيث تقام ألعاب الفروسية أيام الأعياد على ضفة وادي الجواهر، وتمثل هذه الحديقة في بدايتها حديقة مغترسة ومجهزة بدولاب مائي لسقيها. انظر: المنوني محمد، مرجع سابق، ص. 62-63.

(51) Madani, T., **Op. Cit.**, non numéroté.

(٥٢) النميري ابن الحاج، مصدر سابق، ص. ١٨٠-١٧٩.

(٥٣) المنوني محمد، مرجع سابق، ص. 67-68.

Madani, T., **Op. Cit.**, non numéroté.

(٥٤) النميري ابن الحاج، مصدر سابق، ص. 211-212.

(٥٥) الماحي علي حامد، المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1986، ص. 176.

(٥٦) المنوني محمد، "حضارة بني مرين من خلال منشآتهم المعمارية"، ضمن العربي الصقلي (تحت إشراف)، مذكرات من التراث المغربي، Nord Organisation، الرباط، 1985، الجزء الثالث، ص. 24-25.

(٥٧) المنوني محمد، مرجع سابق، ص. 17.

(٥٨) ابن الخطيب لسان الدين، معيار الاختيار....، مرجع سابق، ص. 164-163.

(٥٩) هوزلي احمد، "النمو الحضري بمدينة مراكش في عهد المرينيين والسعديين"، ضمن أعمال الملتقى الثاني لمركز الدراسات والأبحاث حول مراكش تحت عنوان: مراكش خلال العصرين المريني والسعدي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، العدد 8، 1992، ص. 12.

(٦٠) الفاسي علي ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص. ٤٠٧.

(٦١) التادلي أبو يعقوب يوسف بن يحيى، أخبار أبي العباس السبتي، يوجد بذيل نص التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 22، الطبعة الثانية 1997، ص. ٤٦٩.

(٦٢) رابطة الدين محمد، أبو العباس السبتي ومجال مراكش - ملاحظات وتساولات -، ضمن الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب: دراسات تاريخية مهداة للأستاذ إبراهيم حركات، انجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 69، ص. 53-54.

(٦٣) رابطة الدين محمد، مراكش زمن حكم الموحدين: جوانب من تاريخ المجال والإنسان، المطبعة والوراقة الوطنية بمراكش، الطبعة الأولى 2008، الجزء الأول، ص. 203.

(٦٤) القزويني زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1979، ص. 199-200.

(٦٥) العجلوي الموساوي، تقنيات استخراج المياه الباطنية من مناجم الفضة في المغرب (2 هـ - 7 هـ / 8 م - 13 م)، ضمن أعمال ندوة الماء في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بعين الشق، الدار البيضاء، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 11، ص. 103-113.

(66) Meunié, J., Terrasse, H., Deverduin, G., **Recherches Archéologiques a Marrakech**, publications de l'institut des Hautes études Marocaines, Tome LIV, Arts et Métiers Graphiques, Paris, 1952. p.68.

(67) Pascon, P., **Le Haouz de Marrakech**, Editions marocaines et internationales, Tanger, 1977, Tome I, p.114.

(٦٨) الفاسي الحسن بن محمد الوزان، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 127.

الاتجاهات الحديثة في علم الآثار التجربة الفرنسية في علم الآثار الوقائي أنموذجاً وتبعاتها على الجزائر

عبد الكريم خبزاوي

باحث دكتوراه حفظ وتسيير التراث الأثري
أستاذ مساعد – جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان – الجمهورية الجزائرية



ملخص

علم الآثار من أهم وأكثر العلوم الإنسانية تطوراً، نظراً لحاجته الماسة للعديد من الدراسات المتعددة المناهج والمختلفة المشارب، التي تجمع بين مختلف الطرق والوسائل العلمية والأدوات التكنولوجية الجديدة المتطورة، للبحث والتنقيب والعرض، أو الدعم والإثبات لما جادت به عديد بطون المصادر والمراجع التاريخية المختلفة، ليس هذا فقط، بل إن العثور على تلك المخلفات البشرية في حالتها السليمة، يعد في حد ذاته كنزاً تاريخياً لا يقدر بثمن، دور كبير يؤديه هذا العلم الذي أصبح له عدة فروع علمية تدرسه، وتعمل على تطويره في كل مرة، نظراً للمعلومات والمعارف الكثيرة التي يدرها، في وقت أصبح يستغل كأداة لكتابة تاريخ ماضي البشرية، كيف لا ودول عدة تحاول جاهدة الماضي قدما بدراسة جديدة تعرف بعلم الآثار الوقائي.

كلمات مفتاحية:

التراث الثقافي، الحفريات الوقائية، البحوث الأثرية، الآثار الجزائرية

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٣ أكتوبر ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٢٦ يناير ٢٠١٥

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الكريم خبزاوي، "الاتجاهات الحديثة في علم الآثار: التجربة الفرنسية في علم الآثار الوقائي أنموذجاً وتبعاتها على الجزائر"، دورية كان التاريخية، - العدد الثلاثون، ديسمبر ٢٠١٥، ص ١٤٢ - ١٤٩.

مقدمة

المجالات، السياسية والثقافية والاجتماعية، والاقتصادية، على أن تؤدي كل دولة دورها وفق ما تمتلكه من قدرات وإمكانات مالية مادية، وتقنية علمية ثقافية.

ومن بين أبرز تلك الدول نجد فرنسا، التي عرفت وتبنت استراتيجية جديدة، خاصة بصيانة وحماية التراث الأثري ميدانياً، ومن ثم مساهمتها الفعالة في نشر تجربتها خارج الوطن الفرنسي، وحشر نفسها داخل عدة حملات دولية داعية إلى ضرورة الحد من خطر تهديد مشاريع التنمية على التراث الأثري المظهور بصفة خاصة. التجربة التي عرفت بدايتها صعوبة كبيرة في التوفيق بين جانبين جد مهمين هما الجانب الاقتصادي والجانب الأثري.

الواقع الذي سنعالجه في هذا البحث، انطلاقاً من ضبط الأسباب التي أدت إلى ظهور علم الآثار الوقائي أو مصطلح الوقاية عالمياً (نشأته وتطوره)، ومن ثم الدخول في التجربة الفرنسية في هذا المجال بدءاً بضبط مصطلحه، مع التطرق إلى أدواته وشروط تنفيذه علمياً وميدانياً، وكذا طرق تمويله، مع ذكر لأهم مؤسساته

تتخذ كل دولة في العالم بتراث ثقافي معتبر، وتعمل كل منها على إيجاد حلول وأساليب، وطرق جديدة للحد من دمار وخراب وزوال آثارها، في وقت يعرف فيه العالم ظهور مختلف المنظمات والهيئات الدولية التي تنادي من خلال بنود تشريعاتها العالم أجمع، إلى ضرورة المحافظة على هذا الإرث الثقافي الأثري الغني والمتعدد، الذي سرعان ما أصبح يعرف بتراث الإنسانية جمعاء. وانطلاقاً من حماية الهوية الثقافية بأبعادها الاجتماعية والاقتصادية، التي أنتجت دوافع أدت إلى اتحاد مجتمعات الدول الغربية، لوضع آليات ومناهج خاصة، تضع في مقدمة أولوياتها التعاون المشترك فيما بينها أولاً، ودول المتوسط المدرجة ضمن سياساتها ثانياً، إلى ضرورة التوفيق بين تجسيد المشاريع التنموية الاقتصادية الكبرى من جهة، وتحقيق حماية متكاملة للتراث الثقافي الأثري من جهة ثانية، وصولاً إلى تنمية مستدامة، وسط توافق في الآراء والأفكار في شتى

على أن التراث الأثري شيء ضروري من أجل فهم تاريخ البشرية سنة ١٩٥٣، خطوة دفعت باللجنة الثقافية والعلمية، المنبثقة عن المجلس الأوروبي سنة ١٩٦٣ في ميثاقا الذي نهت فيه إلى أن التطور الاقتصادي والتقدم التكنولوجي سيشكل خطراً كبيراً على تراث المدن وجمالها، إضافة إلى زيادة الكثافة السكانية وعدم مسايرة التشريعات* التي وضعتها معظم الدول الأوروبية في هذا المجال^(٥)، التوجه الذي دعم فيما بعد بميثاق (البندقية) الصادر في سنة ١٩٦٤.

أما في ١٩ نوفمبر من سنة ١٩٦٨ أصدرت منظمة (UNESCO) اتفاقية بشأن صون الممتلكات الثقافية التي تهددها الأشغال العامة والخاصة، التي اتخذت شكل مؤتمرات عالمية وتوصيات، للمساهمة في انقاذ عدة منشآت ذات قيمة أثرية بارزة على المستوى العالمي المهددة بالزوال، ودعم نشاط الحفاظ على التراث الحضاري، خاصة بعد ما أحدثته مشروع اقامة السد العالي على نهر النيل، من خطر اغراق وتدمير المعابد التي شيدت شمال أسوان التي تعود لأكثر من ثلاثة آلاف سنة، وكذا المواقع المجاورة لها، وألحت هذه الاتفاقية على ضرورة التوفيق بين صون الممتلكات الثقافية وبين التغييرات التي تقتضها التنمية الاجتماعية والاقتصادية، عن طريق (التشريع، التمويل، والاجراءات الإدارية)^(٦).

ومن ثم أصدر الاتحاد الأوروبي في السنة الموالية (١٩٦٩) اتفاقية ثانية لحماية التراث الأثري، التي جاء في مضمونها على أن الأولوية تكون لحماية التراث الأثري، وذلك بتطبيق الطرق العلمية الأكثر صرامة في البحوث والاكتشافات الأثرية، للحفاظ على أهميتها التاريخية كاملة، ومحاربة أعمال الحفر غير القانونية، التي تسبب خسارة كبيرة للمعلومات العلمية، وهي غير قابلة للاسترجاع، المرهونة بالقطع الأثرية، ويتم كل هذا من خلال إعطاء الحفريات الأثرية القيمة العلمية الكاملة حيثما كان ذلك ممكناً^(٧).

أما في عام ١٩٧٢ أصدرت منظمة (UNESCO) اتفاقية أخرى لحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، التي حثت من خلال بنودها التشريعية على اتخاذ سياسة عامة تهدف إلى جعل التراث يؤدي وظيفته في حياة المجتمع، من خلال المحافظة عليه وعرضه، واتخاذ تدابير (قانونية، علمية، تقنية، إدارية ومالية)، مناسبة لحماية التراث الأثري، منشئة بذلك اللجنة الدولية الحكومية لحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، مدعومة بصندوق حماية التراث الثقافي والطبيعي العالمي^(٨)، كما اعترفت في السنة نفسها بالمركز الدولي (ICCROM) كعنصر من هيئاتها الاستشارية، يساهم هو الآخر في اعداد التوصيات والأعمال والبرامج^(٩)، ليتم في سنة ١٩٨٤ عقد ندوة في مدينة فلورنسا (Florence) بغية اعداد توصية إلى حكومات الدول حول موضوع "علم الآثار والتنمية"، مشروع جسد من طرف مجلس أوربا بنيس (Nice) من ٤ إلى ٦ نوفمبر، في ندوة بعنوان "علم الآثار والأشغال الكبرى" التي أُلح فيها على ضرورة إدارة تنفيذ المشاريع التنموية الكبرى، وإيجاد الحلول

التنفيذية، وصولاً إلى تصدير تلك التجربة خارج الحدود. وهدف هذا البحث هو التعريف بهذا العلم الجديد الذي أصبح معروفاً عند الغرب الأوروبي، إبرازاً للدور الكبير والمهم للبحوث الأثرية الوقائية، في توثيق التراث الأثري المطمور والمغمور منه، الجانب المهم في مجال حماية التراث الأثري المهدد بمشاريع التنمية الاقتصادية الضخمة، وللوصول إلى ذلك أترنا هذه التساؤلات، ما هي حقيقة هذا العلم الجديد؟ وما أهم مبادئه القانونية، والعلمية التقنية، وأهم مؤسساته الميدانية؟ ومن هو البلد العربي الذي قام بتطبيق هذه التجربة الوقائية بمساعدة فرنسا في بدايتها؟

أولاً: مفاهيم عامة

١- التراث الثقافي:

عرف في اتفاقية اليونسكو سنة ١٩٧٢ على أنه يشمل:

الآثار: يقصد بها الأعمال المعمارية، وأعمال النحت والتصوير على المباني والعناصر أو التكوينات ذات الصفة الأثرية، والنقوش، والكهوف، ومجموعات المعالم التي لها جميعاً قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر التاريخ، أو الفن أو العلم.

المجموعات: وتضم مجموعات المباني المنعزلة أو المتصلة، التي لها بسبب عمارتها، أو تناسقها، أو اندماجها في منظر طبيعي، قيمة عالمية استثنائية من وجهة نظر التاريخ، أو الفن، أو العلم.

المواقع: وتشمل أعمال الإنسان، أو الأعمال المشتركة بين الإنسان والطبيعة، وكذلك المناطق بما فيها المواقع الأثرية التي لها قيمة عالمية استثنائية من وجهة النظر التاريخية أو الجمالية^(١).

٢- الحفظ:

يقصد به أنه عملية ترمي في المقام الأول إلى المد في عمر القطعة، وذلك باتباع الأساليب الوقائية لمنع تدهورها، الطبيعي أو الناتج عن حادثة ما وذلك لفترة زمنية معينة طالت أم قصرت^(٢). وتشمل أعمال الحفظ: (التدعيم، الاستقرار، التنظيف، وإزالة الترميمات السابقة)^(٣)، أما الحفاظ فهو اتخاذ اجراءات تساند وتؤازر الوضع الحالي للبناء، ومواد بنائه ووضع الإنشائي، بالإضافة إلى الموقع والوسط المحيط، بما في ذلك الصيانة الدورية^(٤) لتسجيل جميع الأضرار ومعالجتها.

ثانياً: نبذة تاريخية

(نشأة وتطور استراتيجية علم لآثار الوقائي عالمياً)

عرفت الدول الغربية نموًا اقتصاديًا معتبرًا، ما أدى إلى حدوث صدمات بين من يقوم بحماية التراث الأثري والمهنيين، حيث كان الأول يعاني نقصاً فادحاً من الناحية القانونية الداعمة لمبدئه، أما الثاني فيقابل الدعم القانوني الكبير لمشاريع التنمية الاقتصادية، ومن خلال هذه الصدمات سعى الاتحاد الأوروبي إلى إيجاد حلول ولوظرفية للتوفيق بين الجانبين الاقتصادي والثقافي (الأثري). حيث جاءت المبادرة الأولى من خلال وضع الاتفاقية الأوروبية التي أكدت

خلال تأسيسه لفكرة علم الآثار الوقائي خلال سنوات ١٩٦٠^(١٤)، الفكرة التي لم تنجح فيها.

ونجحت فرنسا في استغلال الاتفاقية الأوروبية لسنة ١٩٩٢ المنعقدة في (Valletta) التي وضعت إطاراً متماسكاً لوضع سياسات تعزيز حماية التراث الأثري، التي عرفت استجابة واسعة، هذا المشروع الأوروبي القديم الطرح الجديد المصطلح، الذي قام بعملية تقييمية لمسار علم الآثار الوقائي المطروح في سنة ٢٠٠٠ لمشروع (EPAC)، وخلص إلى أن المشروع لم ينجح خلال الاجتماع المنعقد في مدينة فيلينيوس، في الفترة الممتدة من ١٦ إلى ١٨ ديسمبر ٢٠٠٤^(١٥). إلا أن فرنسا عملت جاهدة على وضع الإطار القانوني والمؤسسي، لعلم الآثار الوقائي الذي يهدف إلى حماية التراث الأثري المغمور أو المغمور المهدد بمشاريع التنمية، سيما سنة ٢٠٠١ وهو تاريخ صدور أول قانون فرنسي في هذا المجال^(١٦). الأمر الذي دفع بفرنسا إلى الترويج لعلم الآثار الوقائي داخل وخارج البلاد، وادعائها بأن علم الآثار الوقائي من صنعها، في وقت يرجح فيه الكثير من الباحثين تاريخ ظهور هذا العلم، إلى إحدى الدول الأوروبية "رومانيا" التي نص قانونها الخاص رقم (٦٣/١٩٧٤)، الملزم على إجراء الاختبارات الأثرية على الأراضي المرشحة لتجسيد مشاريع التنمية، قبل بدايتها^(١٧)، ومنه نجد أن علم الآثار الوقائي جاء نتيجة ظروف حتمية فرضها الواقع على كل من يقوم بعمليات التنمية، من أجل حماية التراث الأثري.

ثالثاً: التجربة الفرنسية في علم الآثار الوقائي

١/٣- مفهوم مصطلح علم الآثار الوقائي:

هو علم يسعى لدراسة ماضي الإنسان، وجميع نشاطاته وعلاقته بالبيئة، من خلال الشواهد المادية المغمورة في باطن الأرض أو تحت الماء قبل القيام بأعمال التنمية^(١٨)، أو هو الرد على تهديد مشاريع التنمية على التراث الأثري المغمور في باطن الأرض^(١٩)، وقد عرف في مسودة ١٩٩٨ على أنه: انضباط علمي، يضمن وظيفة اقتصادية محددة، أو هو شرط أساسي لتقدم أعمال مشاريع التنمية، التي كانت تأخذ وقتاً كبيراً، وتزيد من ناحية التكاليف، وهو جزء لا يتجزأ من البحوث الأثرية^(٢٠). وبهذا نجد أن علم الآثار الوقائي لم يكن يهدف في بدايته إلى وقاية التراث الأثري، بل اعتبر كأداة لضبط مشاريع التنمية فقط، دون إعطاء قيمة له كعلم مثل باقي العلوم في مختلف المجالات، علماً أنه إذا تأسس علم من العلوم فإن أول شيء يتم ضبطه هي المفاهيم.

أما قانون التراث الفرنسي فعرفه على أنه: "... جزء من مهمات الخدمة العامة، وهو جزء من علم الآثار تحكمه المبادئ التي تنطبق على جميع البحوث العلمية، الغرض منه ضمان سلامة المكتشفات الأثرية المغمورة في باطن الأرض، وتحت الماء في الوقت المناسب، عن طريق الصيانة والحفاظ والدراسة العلمية لعناصر التراث الأثري المتأثرة أو التي تتأثر جراء القيام بالأشغال العامة أو الخاصة المساهمة في التنمية، ويقوم أيضاً على تفسير ونشر النتائج..."^(٢١).

التقنية والقانونية والمالية، من أجل دراسة وحماية التراث الأثري، بعد النتائج المتوصل إليها من خلال معالجة عدة دراسات لتجسيد عدة مشاريع تنمية متعلقة بالبنى التحتية والتنمية الحضرية في مختلف البلدان الأوروبية، هذه الندوة وجهة خصيصاً إلى المهنيين وعلماء الآثار، والمهندسين المعماريين والمخططين والعاملين، التي أكدت على أن الوقت هو البعد الرابع من واقع الإنسان، لذا يتطلب وضع نقاط مرجعية للحفاظ على ذاكرة الماضي^(٢٢).

ومن أبرز المشاكل التي طرحت في الندوة نذكر منها:

- غياب الحوار والتفاهم على سبيل المثال بين المخططين وواضعي السياسات والأثريين، من خلال توضيح المناهج والأهداف لكل منهما.
- نقص الموارد في كثير من الحالات، فيما يتعلق بالتراث الأثري.
- نقص في تنفيذ الاتفاقيات الدولية الموجودة بالفعل في هذا المجال.

ورأت أنه من الواجب القيام بـ:

- الجرد الأثري الوطني.
- إدراج الاعتبارات الأثرية عند القيام بالتخطيط.
- تحسين الجانب أو الإطار القانوني.
- ضمان توفير الموارد الكافية للعمل الأثري.
- اتخاذ خطوات لتثقيف الجمهور بأهمية حماية التراث الأثري^(٢٣).
- تحسين تبادل المعلومات بين الدول.
- إجراء البحوث حول حماية التراث الأثري.

إلا أن هذه الندوة أثارت عدداً من التساؤلات نورد منها:

- كيف يمكن تحسين الاتصالات على المستوى العملي (الميداني) بين المقررين والمخططين وعلماء الآثار، فيما يتعلق بالأشغال الكبرى؟
- كيف يمكن لعلماء الآثار ورجال الأعمال الاستفادة من انقاذ الآثار لعامة الناس؟
- كيف يمكن تنظيم اتصالات دائمة ما بين رجال الأعمال الأوروبيين والمهنيين وعلماء الآثار؟^(٢٤).

لتعطي هذه الأعمال ثمارها بعد ثلاث سنوات في بنود الميثاق الدولي لإدارة التراث الأثري سنة ١٩٩٠، الذي دعا إلى ضرورة حماية التراث الأثري، من خلال وضع سياسة متكاملة، تعد وفق التشريع القانوني، والقيام بـ(المسح والتحري، الصيانة والحفظ، التقييم وإعادة البناء، والتنوعية المهنية، والتعاون الدولي)^(٢٥)، الذي دعم فيما بعد بالميثاق الدولي الأوروبي المعروف باتفاقية مالطا، التي تعتبر نقطة التحول والتوجه نحو علم الآثار الوقائي، الأمر الذي دفع بفرنسا إلى إعداد مسودة تنظيم علم الآثار الوقائي في سنة ١٩٩٨، في وقت كان الاتحاد الأوروبي يسعى إلى حماية تراثه الأثري من

- القيام بوصف طبيعة المكتشفات وحالة حفظها، مع تحديد عمق دفنها^(٢٩).

ليتم بعدها اقتراح الموقع للتصنيف تحت اسم المباني التاريخية إن كانت لها أهمية تاريخية كبيرة.^(٣٠)

يحدد التشخيص من طرف الدولة، ويتم تمويله من عائدات الرسوم لعلم الآثار الوقائي، الذي يدفع في شكل ضريبة يدفعها أشخاص من القطاع العام والخاص، جراء القيام بالتشخيص الذي ينفذ قبل بداية أشغال التهيئة التي تؤثر في الطابق السفلي^(٣١)، بعد الانتهاء من جمع البيانات الأثرية في الموقع، تقدم في تقرير التشخيص. وبواسطة التشخيص يتم إصدار شروط القيام بالحفريات الوقائية ويساعد كذلك في وضع دفتر الشروط العلمي الخاص بالحفريات والموقع، وتبلغ هذه الأخيرة إلى المطور، ليصبح مسؤولاً عن الحفريات، كي يختار هو بنفسه المشغل المعتمد من طرف الدولة^(٣٢)، ويمكن تلخيص أعمال نتائج التشخيص في النقاط التالية:

- التشخيص سلمي: الدولة تسمح للمهيا بالقيام بأعماله.
- التشخيص ايجابي: وهذا يعني وجود مكتشفات أثرية في كل أو جزء من مساحة المشروع، لكن الدولة ترى أنه من الواجب الحفاظ على المكتشفات أو أنها ليست مهمة، فيسمح للمطور القيام بأعماله.
- التشخيص ايجابي: الدولة تحكم على الوضع العلمي، وتقضي بالحفاظ على المكتشفات وتقرر إجراء حفريات أثرية.
- التشخيص ايجابي: أدى إلى اكتشافات مهمة واستثنائية تتطلب الحفاظ عليها وعلى الموقع، فيتم تغيير اتساق المشروع.^(٣٣)

(٢/٣) ٢- الحفريات الوقائية:

للوصول إلى مصطلح الوقاية كان ولا بد من أن نتطرق قبل ذلك إلى بداية استعمال مصطلح الإنقاذ الذي ظهر قبله أي خلال سنوات الخمسينيات والستينيات، نتيجة القيام بأشغال بناء السد العالي في أسوان وتهديده لآثار النوبة في مصر. أما في فرنسا فظهر خلال سنوات السبعينات والثمانينات أثناء وضع خطوط الطرق السريعة (TGV)، الوقت الذي عرفت فيه حركة دؤوبة من أجل حماية تراثها الأثري من تهديد مشاريع التنمية، وهذا من خلال التدخلات التي قامت بها جمعية الحفريات الأثرية (AFAN) في تلك الفترة، ليتطور العمل أكثر في سنوات التسعينات بعد أن تم التعرف على الهدف الأساس من حماية التراث الأثري بموجب ميثاق الإيكوموس الصادر في سنة ١٩٩٠، واتفاقية مالطا سنة ١٩٩٢^(٣٤)، حيث ظهرت الحاجة بعدها إلى وضع مصطلح جديد لذلك عرف "بالحفريات الوقائية" التي تنفذ بعد القيام بعملية التشخيص، لذا فهي إجراء استباقي تمنع تعرض الآثار المطمورة أو المطموسة، والمهددة بالزوال بمشاريع تنموية ضخمة.

من خلال حرص الدولة على التوفيق بين متطلبات البحث العلمي وبين التطور الاقتصادي والاجتماعي^(٣٥). وعلم الآثار في فرنسا يتم بطريقتين، فعندما نقول "علم الآثار" فيعني -المبرمج- وهدفه البحث العلمي، أما "علم الآثار الوقائي" فهو لضمان حماية التراث الأثري المهدد بأشغال التنمية، إلا أن هدفهما واحد هو تطوير العلوم ومعرفة الماضي^(٣٦)، كما هو مبين في الملاحق/ الشكل رقم (١).

وينفذ علم الآثار الوقائي وفق المخطط المبين في الملاحق/ الشكل رقم (٢)، وهو بذلك يفرض القيام بالتشخيص وتنفيذ الحفريات قصد جمع البيانات الأثرية الموجودة في الموقع لتحليلها وتسجيلها، أو تغيير نسق المشروع كلياً أو جزئياً لتجنب حدوث أي تغيير تقني للمشروع قد يؤثر سلباً على المكتشفات الأثرية^(٣٧). أما تعريفه العام باللغة الإنجليزية فهو إجراء استباقي^(٣٨) (أي أنه يتم قبل القيام بمشاريع التهيئة) وهو بذلك يؤكد على مبدأ حماية التراث الأثري المهدد بأشغال التنمية، الذي يعني التنبؤ به وتجنب تدميره بدلاً من القيام بالحفر، سواء أكان ذلك بحفريات إنقاذية أو حفريات وقائية.

٢/٣- عمليات علم الآثار الوقائي (التجربة الفرنسية):

يعتمد علم الآثار الوقائي الفرنسي على عمليتين رئيسيتين وأخرى فرعية وهي:

(٢/٣) ١- التشخيص:

في علم الآثار الوقائي المحدد في القانون رقم (n°2001-44) يتضمن جزئياً خطوتين من العملية الأثرية، التي تعد مسألة عدم توافق في الآراء بين الأوساط العلمية الأثرية "فالتشخيص" هو جزء من التقييم، الغرض منه إمكانية تقييم جودة الموقع من ناحية (العلم، والتراث) والحاجة إلى ضرورة الحفاظ عليه، أو القيام بالحفريات^(٣٩)، من خلال القيام بالمسوحات، والدراسات الميدانية، التي تؤدي إلى التحقق من وجود مكتشفات أثرية في الموقع أو عدمها، وتقديم تلك النتائج في تقرير مفصل^(٤٠)، فالتشخيص هنا يعد عملية تقييمية للأرض قبل البدء في أعمال التطوير (كشق الطرق، وتهيئة مواقف السيارات، والقطارات عالية السرعة...)، ويختلف التشخيص بين المناطق الريفية والحضرية، ففي الحالة الأولى يتم بواسطة الآلة التي تهدف إلى تغطية مساحة موقع المشروع التنموي من (٧% إلى ١٠%) من مساحة الأرض الكلية، عن طريق حفر خنادق تمتد من (٢٠ م إلى ٥٠ م) طولاً. لا حظ الملاحق/ الشكل رقم (٣).

أما في السياق الحضري فيتم الاكتفاء فقط بوضع مجسات في مساحات محددة وهذا من أجل للحفاظ على استقرار المباني الواقعة قربها، هذه الصعوبة يتم استدراكها بالاعتماد أكثر على دراسة الوثائق التي لها علاقة بتاريخ المنطقة^(٤١). وبهذا يحقق التشخيص هدفين رئيسين هما:

- الكشف بالوسائل والتحقق من وجود مكتشفات أثرية من خلال القيام بالمجسات وأخذ العينات ودراسة الوثائق التاريخية.

رابعاً: تبعات تصدير تجربة علم الآثار الوقائي إلى الجزائر

للحديث عن تطبيق علم الآثار الوقائي على تراث الجزائر، يكفي فقط التطرق إلى العمليات التي نفذت من أجل تحقيق هذه الدراسة الجديدة، وإذا ما تمحصنا القانون الجزائري رقم (٨٩-٠٤) الصادر في سنة ١٩٩٨م، لا نجد تعريفاً أو إشارة إلى ما يعرف بعلم الآثار الوقائي ما عدى التطرق إلى المقصود بالأبحاث الأثرية، التي عرفت بأنها كل تقصي يتم القيام به بصورة علمية، وتستخدم فيه التكنولوجيات الحديثة في الميدان، بهدف التعرف على المخلفات الأثرية، بمختلف أنواعها وعصورها، وتحديد مواقعها وهويتها، بغية القيام بعملية إعادة إنشاء (بناء)، ذات طابع اقتصادي واجتماعي، وثقافي لإنماء معرفة التاريخ بمفهومه الأوسع وتطويرها وتشمل هذه الأبحاث: أعمال التنقيب والبحث في مستوى مساحة معينة، أو منطقة محددة، سواء أكانت طبيعية أو تحت مائية، تكون في شكل حفريات واستقصاءات برية أو تحت مائية، أو أبحاث أثرية على المعالم، وتحف ومجموعات متحفية، ويشمل طلب الحصول على رخصة البحث:

- المكان أو المنطقة اللذين ستجرى فيهما الأبحاث، والطبيعة القانونية للمكان.

- مدة الأشغال المزمع القيام بها، والهدف العلمي المنشود^(٣٩)

وللوقوف على عمليات تطبيق علم الآثار الوقائي ميدانياً، نذكر:

١- حفرة مركدال: تُعدّ أولى العمليات المقامة في الجزائر، تحت غطاء علم الآثار الوقائي حيث تم القيام بتشخيص الذي مس موقع مركدال بمدينة شرشال، سنة ٢٠٠٣، في مساحة تقدر بـ ٢٢٠٠٠ م^٢، لتحديد طبيعة البقايا الأثرية بالمنطقة^(٤٠)، التشخيص أقيم بمناسبة تظاهرات سنة الجزائر بفرنسا، إذ اعتبر هذا التشخيص كتمهيد لبرنامج تبادل الخبرات على المدى الطويل، هدفه تمكين الباحثين الجزائريين من التحكم في استعمال تقنيات علم الآثار الوقائي، التي تم تطويرها بفرنسا^(٤١)، عملية تمت بالتعاون بين الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والنصب التاريخية (O.G.E.B.C) حالياً، والمعهد الفرنسي للأبحاث في علم الآثار الوقائي (Inrap). جاءت هذه العملية كتدخل مسبق لوقاية آثار الموقع قبل الانطلاق في مشروع التنمية^(٤٢)، حيث تم توثيق كل المعلومات أثناء القيام بالدراسة الميدانية، ليتم حفظها في برنامج يعرف بـ (System Information Syslat)^(٤٣).

كانت الجزائر قد قامت سنة ١٩٩٦م، بعملية سبر للمنطقة من طرف فرقة بحث تابعة لمعهد الآثار (جامعة الجزائر)، مست الطبقات العلوية لحواف الموقع، إلا أنها لم تتحصل على التقرير النهائي لهذه العملية^(٤٤).

أما نظيرتها الإنقاذية فتجسد بعد حدوث اكتشافات عرضية أثناء القيام بالمشروع التنموي، وتؤدي إلى إيقافه^(٣٥) وتهدف الحفرية الوقائية إلى جمع البيانات الأثرية المقدمة خلال فترة إعداد الدراسة والأعمال الميدانية في الموقع وتحليلها، وضمان فهمها وتسجيل نتائجها في تقرير نهائي^(٣٦) يصبح بمثابة الأرشيف الوثائقي التاريخي الشاهد على ماضي الإنسان خاصة في المناطق التي عرفت تجسيد عمليات علم الآثار الوقائي في المناطق التي خصصت لإعداد مشاريع تنموية ضخمة.

(٢/٣) ٣- تغيير اتساق المشروع:

في هذه الحالة يتجنب تنفيذ المشروع التنموي كلياً أو جزئياً بعد القيام بعملية التشخيص والحفرية الوقائية، كما يعمل هذا العنصر على التغيير في طبيعة أسس وأساليب البناء أو الهدم وتقنياتها، وهذا من أجل الحد من تأثير مشاريع التنمية على ما تبقى من آثار، ويتحكم في هذه المرحلة كثرة وقلة المكتشفات الأثرية بالموقع، فكثرتها تعني إيقاف المشروع كلية ونقله إلى مكان آخر، وقلتها تعني ضرورة القيام بالدراسات اللازمة، ومن ثَمَّ نقلها إلى مكان آمن يتم فيه عرضها للجمهور، ليتم فيما بعد السماح للمطور بمواصلة أشغاله التنموية بالموقع.

٣/٣- تمويل عمليات علم الآثار الوقائي (التجربة الفرنسية):

تم إنشاء صندوق خاص لهذا الغرض يعرف بالصندوق الوطني لعلم الآثار الوقائي (FNAP)، المنصوص عليه في المادة (L.532-1) من قانون التراث الفرنسي، وتتكون عائداته من الرسم لعلم الآثار الوقائي (R.A.P) وفق المادة (L.524-2) من القانون السابق الذكر، في شكل ضريبة يدفعها المطور لا تقل عن (٠.٣٠٪)، يتم تعيينها كل سنة بموجب قرار من السلطات الإدارية^(٣٧).

٤/٣- المؤسسات التقنية والعلمية المكلفة بسير علم الآثار الوقائي الفرنسي:

- اللجنة الإقليمية للبحوث الأثرية (CIRA): هي هيئة استشارية على الصعيد الإقليمي الفرنسي.
- المجلس الوطني للبحوث الأثرية (CNRA): تعتبر من أعلى الهيئات التوجيهية في الدراسات، والبحث عن الآثار على مستوى التراب الفرنسي.
- المديرية الجهوية للشؤون الثقافية (DRAC): تأسست عام ١٩٦٩م وهي المشرف على كل ما له علاقة بالتراث الأثري ميدانياً، تجمع بين رقابة الأبحاث الأثرية، وأشغال الترميم، ومتابعة إجراءات الجرد الأثري، وتتصل بالمعهد الفرنسي للبحوث في علم الآثار الوقائي (INRAP) لإجراء التشخيص قبل منح المرقى رخصة الاستغلال أو تأخير ذلك لإجراء حفرة وقائية^(٣٨).
- المعهد الوطني للبحث في علم الآثار الوقائي (INRAP): تتمثل مهام المعهد في إجراء العمليات الميدانية المتمثلة في التشخيصات والحفريات، وتقديم الخدمات للأعمال الخاصة منها أو العامة.

بالثقافة بإنشاء مؤسسة (المركز الوطني للبحوث في علم الآثار)، ودخول القطاع الثقافي داخل اهتمامات السياحة، ضمن مخطط السياحة لمناطق التوسع والمواقع السياحية، من خلال المرسوم رقم (٨٦-٠٧) المؤرخ في ١١ مارس سنة ٢٠٠٧، ولأول مرة تصدر وزارة الثقافة الجزائرية كتابًا عنوانه:

le schéma Directeur Des Zones Archéologiques Et Historiques

خاصًا بالمتعلقات الثقافية، يتناول استراتيجية الجزائر في حماية تراثها منذ الاستقلال إلى غاية شهر أوت ٢٠٠٧ سنة صدور هذا الكتاب.

خاتمة

شوط مهم عرفته فرنسا، والقطاع الثقافي خاصة، وهو كذلك واقع كان معروفًا عند جيرانها في المتوسط، بعد أن سبقهم في ذلك، في وقت عرف اهتمامًا دوليًا منقطع النظير بهذا المجال، فهي من بين تلك الدول الغربية الأوروبية، التي تحمل مشعل تجربة رائدة في مجال حماية التراث الأثري المطور، المهدد بمشاريع تنموية ضخمة، القفزة النوعية عرفها هذا البلد الذي يعتبر فيه نفسه، السباق في العالم الحالي، فيما يعرف اليوم بـ (استراتيجية علم الآثار الوقائي).

دون نسيان ما جسده الاتحاد الأوروبي في مشروعه المعروف بـ (European Preventive Archaeology Papers)، المشروع الذي لم يصل إلى هدفه المنشود خلال مسيرته الأولى خلال سنوات (٢٠٠٠-٢٠٠٤)، الوقت الذي تفتنت فيه فرنسا بأهمية هذه الدراسة، وجعلت منه استراتيجية خاصة بها، قبل أن تقوم بتجسيده على أرض الواقع سنة (٢٠٠١)، ثم السعي إلى تصديرها نحو الخارج، إلى أين؟، نحو جيرانها في الضفة الأخرى من المتوسط، لدول شمال أفريقيا عامة، والمغرب خاصة، لذا تعد الجزائر أول مستورد ومجسد لتلك الاستراتيجية، خريف (٢٠٠٣)، التي ساهم في انجاحها، المعهد الفرنسي للبحوث في علم الآثار الوقائي.

وصحيح أن علم الآثار الوقائي تجربة رائدة، إلا أنه يحتاج إلى المزيد من الدراسة والفهم، لتجسيده على أرض الواقع، أيها أفضل، أن تقوم الجزائر والدول العربية بتحقيقه ميدانيًا، كما جسده فرنسا، وبالتالي الوقوع في نفس المشاكل والعقبات، أم أنهم يقومون بتدارك تلك الأخطاء مسبقًا، ولنا أن نسأل كذلك، كم بقيت فرنسا تعمل جاهدة من أجل تحقيق علم الآثار الوقائي؟ وللقيام بذلك يجب على الجزائر والدول العربية إعداد الخرائط الأثرية، التي تسمح بمعرفة الأخطار المحدقة بزوال وتدمير الآثار، ووضع علاقات كافية لتطوير البحوث في القطاع الثقافي، فيما بين هذا الأخير ومراكز البحث في المجال (معاهد، جامعات، مخابر...)، وللوصول إلى حماية متكاملة للتراث الأثري كاملاً، كإحداث تغيير في منح صلاحيات مؤسسات القطاع الثقافي، وتدعيمها من الجانب القانوني، وتوفير معدات وموارد آلية ومالية، تحد على الأقل من خطر مشاريع التنمية الكبرى على التراث الأثري.

وتعتبر هذه العملية الوقائية تجربة مهمة في تاريخ الجزائر، إذ ولأول مرة منذ الاستقلال، تقوم السلطات المعنية بحماية التراث، بعملية مشتركة مع دولة خارجية، سعت بعدها الجزائر وفرنسا إلى تعزيزها، من خلال ما تم تجسده خلال السنوات التي تلت هذه العملية، منها الورشة المغربية التي أعدت خصيصًا للبحث عن سبل تكييف علم الآثار الوقائي مع التراث العربي المغربي.

٢- الورشة الأوروبي-مغربية:

جسدت في إطار التعاون المشترك، بين الجزائر وفرنسا تحت رعاية منظمة (Unesco)، وانهضت هذه الورشة في الجزائر في الفترة الممتدة من ٢٦ إلى ٣٠ نوفمبر سنة ٢٠٠٤، ودامت ثلاثة أيام، تم خلالها دراسة واقع علم الآثار الوقائي والتنمية الإقليمية، بمنطقة شمال أفريقيا عامة، والمغربية العربية خاصة، بمساهمة الوكالة الوطنية لحماية الآثار سابقًا، والمعهد الفرنسي للبحوث في علم الآثار الوقائي (Inrap)،^(٤٥) عرضت من خلالها سياسات كل من دولة (الجزائر، تونس، موريتانيا، المغرب)، في مجال حماية التراث الأثري، إضافة إلى عرض خاص بالتجربة الفرنسية في مجال علم الآثار الوقائي، كما تخللت الورشة عرض مجموعة من العمليات الميدانية المجسدة في الجزائر كموقع مركدال، وكذا التطرق إلى عرض الترسانة القانونية والمؤسسية في المجال، لدول شمال أفريقيا.^(٤٦) وتبقى وحدها الحفريات الوقائية المجسدة بعاصمة الجزائر، تُعدّ من بين أول التطبيقات الميدانية التي جسدها المعهد الفرنسي في علم الآثار الوقائي، خارج حدود فرنسا.

٣- حفريات ساحة الشهداء:

قامت الجزائر بتجسيد مشروع الحفريات الوقائية، على مستوى الجزائر العاصمة، بالموقع الذي يقع أسفل قسبة الجزائر، المصنف كتراث عالمي، لدى منظمة اليونسكو سنة ١٩٩٢، وتهدف الجزائر من خلال هذه الخطوة إلى تحديد طبيعة الآثار الموجودة بهذا الموقع، والحد من تخريب ما بقي منها، والحفاظ على المستويات الأثرية التي يصل عمقها إلى نحو سبعة أمتار،^(٤٧) هذه الحفريات التي بدأت سنة ٢٠٠٨ تحت العمل المشترك لكل من المركز الوطني للبحوث في علم الآثار، والديوان الوطني لحماية واستغلال الممتلكات الثقافية المحمية، وكذا المعهد الفرنسي للبحوث في علم الآثار الوقائي، حفريات وقائية عثر خلال بدايتها على اكتشافات أولية على عمق (٤.٥م)، آثار ترجع إلى بداية الحقبة الاستعمارية، قبل العثور فيما بعد على آثار تعود للفترة العثمانية، وهي آثار في منتهى الأهمية التاريخية لتاريخ وتراث الجزائر، وكانت أول تجربة يشهد فيها للجزائر توقف مشروع تنموي ضخم، من أجل حماية تراثها الأثري.^(٤٨)

لكن ما زاد الطين بلة في هذه التجربة هو النقص الحاصل في الجانب القانوني الوقائي منه، وخبرة مؤسساتها، في ما يخص تجسيد هذه الدراسة ميدانيا، نقص دفع بالقطاع الثقافي الجزائري إلى إعادة رسكلة قطاعه سنة ٢٠٠٥، حينما قامت الوزارة المكلفة

(1) Convention Concernant La Protection Du Patrimoine Mondial, Culturel Et Naturel 1972, Paris, Le 16 Novembre 1972.

(٢) عيساوي بوعكاز، طرق حفظ وصيانة مواد بناء الموقع الأثري جميلة- كويكول- (حالة الحجارة الكلسية)، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الصيانة والترميم، جامعة الجزائر، ٢٠٠٨-٢٠٠٩، ص ١٦٢.

(٣) مداد كمال، حفظ وترميم الأسوار الدفاعية البيزنطية لمدينة تبسة، مذكرة نيل شهادة الماجستير في الآثار القديمة، جامعة الجزائر، ٢٠٠٨-٢٠٠٩، ص ٤٦.

(٤) صالح لمي مصطفى، "أسس ترميم المعالم الأثرية طبقاً للمواثيق الدولية"، مجلة شدروان، العدد الأول، آذار، ٢٠١٠، ص ٣.

*- التشريع: "هو قيام السلطة المختصة في الدولة بوضع القواعد القانونية في صورة مكتوبة، حيث تقوم بوضع قواعد ملزمة لتنظيم العلاقات في المجتمع طبقاً للإجراءات المقررة لذلك، والتشريع بهذا المعنى هو الذي يعتبر مصدراً للقانون". يُنظر: محمد حسين منصور، نظرية القانون، مفهوم وفلسفة وجوهر القانون طبيعته وخصائص القاعدة القانونية مصادر القانون وتطبيقه، جامعة الاسكندرية، دار الجامعة الجديدة للنشر، مصر، ٢٠٠٩، ص ٣٠٣.

(٥) مهندس عبد الباقي ابراهيم، التراث الحضاري في المدينة العربية المعاصرة، مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية، جامعة عين شمس، الكويت، ١٩٦٨، ص ١١٦.

(6) Recommandation Concernant La Préservation Des Biens Culturels Mis En Peril Par Les Travaux Publics Ou Privés, 19 Novembre, Unesco, 1968.

(7) Convention Européenne Pour La Protection Du Patrimoine Archéologique, Londres, 6.6.1969

(8) Convention Concernant La Protection Du Patrimoine Mondial, Culturel Et Naturel 1972.

(٩) المركز الدولي لدراسة صون وترميم الممتلكات الثقافية، نشره الايكروم، العدد ٣٥، تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٩، ص ١.

(10) Rapport Du Colloque De Nice, Patrimoine Architectural, Rapports Et Études N° 12, Archéologie Et Grands Travaux, Colloque Européen Organisé Par Le Conseil De L'Europe Et Le Ministère Français De La Culture Et De La Communication, Avec Le Concours Du Carrefour Universitaire Méditerranéen, Nice 4-6 Novembre 1987, Strasbourg 1989, pp.1-4.

(11) Ibid, p 5.

(12) Rapport Du Colloque De Nice, Patrimoine Architectural. Op.Cit, p 6.

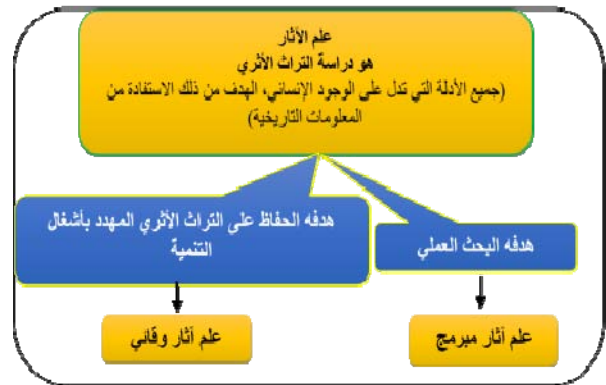
(13) Charte Internationale Pour La Gestion Du Patrimoine Archéologique, Adoptée Par L'icosmos En 1990.

(١٤) لما عالج موضوع "مستقبل ماضينا"، والذي تم في سنة (١٩٦٩) و (١٩٨٠)، وهي الفترة التي عرفت فيها الدول الأوروبية، ازدهاراً اقتصادياً كبيراً، وكذا الانتشار الواسع لأعمال البنى التحتية، في البيئات الحضرية والريفية.

(15) European Preventive Archaeology Papers, Of The EPAC Meeting, Edited By Katalin Bozoki-Ernyey, Vilnius, 2004, National Office Of Cultural Héritages / Council Of Europe, 2007, p57

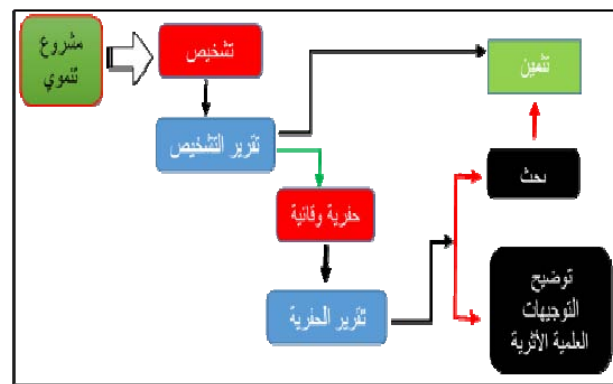
(16) Loi 2001-44 Du 17 Janvier 2001 Modifiée Relative À L'archéologie Préventive.

(١٧) الفيلاي جازية، علم الآثار الوقائي في الجزائر (دراسة تحليلية لبوادره التمهيدية)، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير تخصص علم الآثار الوقائي، جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان، ٢٠١٠-٢٠١١، ص ١٧.



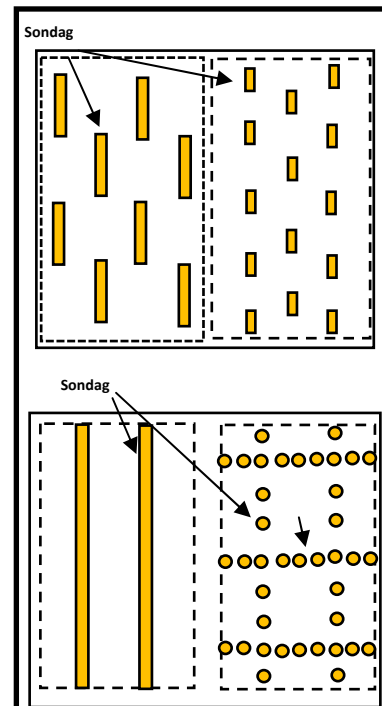
الشكل رقم (١)

يبين الفرق بين علم الآثار الكلاسيكي وعلم الآثار الوقائي



الشكل رقم (٢)

يبين طريقة سير وتنفيذ علم الآثار الوقائي



الشكل رقم (٣)

يبين طرق القيام بالتشخيص في علم الآثار الوقائي

*- "في حالة ما إذا تم تطبيق هذه الإجراءات وتكييفها مع علم الآثار الوقائي في الجزائر من خلال تدعيمها بمرسوم تنفيذي، هل يمكننا ذلك من القيام بعمليات علم الآثار الوقائي؟ وإن كانت الإجابة بنعم فهل يوجد هناك إطارات كافية للعمل في هذا المجال ميدانيا، وهل ستغامر الدولة بوضع آليات خاصة بفرض رسوم على تلك الأعمال، خاصة والجزائر تعرف حاليا مشاريع تنموية ضخمة، في حين أن المادة رقم (٧٧) من القانون رقم (٩٨-٠٤) تنص على أنه "يتعين على كل من يكتشف آثار أثناء قيامه بأشغال مرخص بها أو بطريقة الصدفة، أن يصرح بها للسلطات المحلية المختصة بذلك، كما يمكن للوزير المكلف بالثقافة إيقاف الأشغال لمدة (٦ أشهر)، قصد تصيف العقار ومتابعة عمليات البحث"، فهل تطبيق هذه المادة بحذافيرها من طرف من يقوم بمشاريع التنمية؟، وهل يتم معاقبة من يخالفها؟

- (40) Organisation Des Nation Unies Pour L'éducation, La Science Et La Culture. Atelier Euromaghrébin. Patrimoine Et Aménagement Du Territoire (L'archéologie Préventive), Palais De La Culture, 26-30 Novembre, 2004, Algérie, P 71.
- (41) L'archéologie Préventive Et Patrimoine "Saver Chercell", Document Final De Synthèse, Diagnostic Archéologique Du Terrain Marcadal, Chercell (Algérie), Mars 2004, Alger, P 116.
- (42) (٤٢) الفيلاي جازية، علم الآثار الوقائي في الجزائر، المرجع السابق، ص ٤٠.
- (43) Organisation Des Nation Unies Pour L'éducation, La Science Et La Culture, Atelier Euro_Maghrébin.Op.Cit, P 72.
- (44) L'archéologie Préventive Et Patrimoine "Saver Chercell", Document.....Op.Cit, P 116.
- (45) Organisation Des Nation Unies Pour L'éducation. La Science Et La Culture. Atelier Euromaghrébin...Op.Cit. P 101.
- (46) Ibid, P 15.
- (47) هدراس شريفة، الآثار والتنمية المستدامة في الجزائر (دراسة تلمسان نموذجًا)، مذكرة نيل شهادة الماجستير في علم الآثار الوقائي، جامعة تلمسان، الجزائر، ٢٠١٠-٢٠١١، ص ٩٦.
- (48) (www.inrap.fr)

- (18) Communiqué De Presse, Direction Des Affaires Culturelles Océan Indian Pôle Archéologie, *Première Opération D'archéologie Préventive À La Réunion*, Saint-Denis, Le 25 Janvier 2012, P 1.
- (19) L'archéologie En Questions, p 6. (www.inrap.fr)
- (20) L'organisation De L'archéologie Préventive En France, Jean-Paul Démoule. Op.Cit. p 4.
- (21) *Code Du Patrimoine*, Livre V, Archéologie
- (22) Loi 2001-44 Du 17 Janvier 2001 Modifiée Relative À L'archéologie Préventive, article 2.
- (23) Sénat, *Rapport D'information*, N°760, Au Nom De La Commission De La Culture, De L'éducation Et De La Communication (1) Sur L'archéologie Préventive Et La Valorisation Scientifique, Par MM. Pierre BORDIER et Yves DAUGE, session extraordinaire de 2010-2011, P 15.
- (24) Minister De La Culture Et De La Communication, *Report To Parliament*, Implementation Of The Appended Law Of January 17Th, 2001, Relating To Preventive Archaeology , Volume 1, February 2006, P66.

(٢٥) الفيلاي جازية، المرجع السابق، ص ١٤.

- (26) Ministère De La Culture Et De La Communication, *Report To Parliament*,.....Op.Cit, p 67.
- (27) Direction Générale Des Patrimoines Sous-Direction De L'archéologie, *L'agrément Pour La Réalisation d'Operations D'archéologie Préventive*, 2011, p2.
- (28) Droit de l'archéologie préventive (Fr). <http://fr.jurispedia.org/index.php>
- (29) *Report to Parliament*, Op.Cit, p 67.
- (30) Direction régionale des affaires culturelles Rhône-Alpes, *Définition du patrimoine archéologique ET de l'archéologie préventive*, Service régional de l'archéologie préventive, août 2011, p 1.
- (31) Direction Générale Des Patrimoines Sous-Direction De L'archéologie, *L'agrément...*, Op.Cit, p 2.
- (32) Ibid., p3.
- (33) *Droit de l'archéologie*, Op.cit.
- (34) Communiqué De Presse, *Direction.....*, Op.Cit, p9.
- (٣٥) فوزي عبد الرحمان الفخراي، الرائد في فن التنقيب عن الآثار، الطبعة الثانية، جامعة قاريوس، بنغازي، ١٩٩٣، ص ١٣٨.
- (36) Direction Générale Des Patrimoines Sous-Direction De L'archéologie, *L'agrément* Op.Cit, p2.
- (٣٧) صندوق أنشئ لتمويل عمليات البحث في علم الآثار الوقائي، تتكون عائداته من الرسوم المفروضة على المطورين، وهي حصة غير محفوظة الحقوق لا تقل عن ٣٠% و يمكن أن تصل في المناطق الريفية إلى (٥٠%) على تكلفة عملية البحث، وتحسب وفق المادة رقم ٩ من القانون رقم (N°2001-44) المعدلة من خلال القانون رقم (n°2002-276) المادة رقم (١١٣).
- انظر:

La Redevance D'archéologie Préventive, p3.

- (38) AUTORITE (L), Guide pratique de l'archéologie préventive à l'usage de l'aménageur en Alsace, pp 04-11.

(٣٩) الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية، عدد (٤٤)، المواد، ٧٠-٧٦، ص

١٥-١٤

المخطوط العربي آليات الحفظ الحديثة بين الواقع والآفاق

عمر بن عراج

ماجستير في تحقيق المخطوطات
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة جيلالي اليابس – الجمهورية الجزائرية



ملخص

اهتم العرب والمسلمون اهتمامًا فائقًا بالمخطوطات العربية لكونها السبيل الوحيد للحفاظ على ما أنتجه العقل العربي والإسلامي فجعلوا منها تحفًا فنية ثمينة، وتركوا فيها نتائجًا علميًا ضخمة. ويُعدّ الإحساس بتراثنا المخطوط هو إحساس طبيعي بالماضي وحاجة الحاضر إليه، فالماضي والحاضر يستحوذان على أعماق شعورنا فكلاهما يتفاعل في إطار الأصالة والمعاصرة للأمة العربية التي ترى دائمًا أن وجودها قائم بمخطوطاته، لذا فهي تسعى دائمًا للحفاظ على ذاكرتها مستغلة في ذلك كل التقنيات الحديثة بتكنولوجيا اليوم من رقمنة وتنسيخ بالإضافة إلى التبليغ عبر الشبكة العنكبوتية وفق ضوابط تحفظ المخطوط، فرقمنة المخطوط اليوم هي في مستوى العمل الكمي والنوعي.

كلمات مفتاحية:

المخطوطات العربية، رقمنة المخطوطات، حماية التراث، التراث العربي، التراث الثقافي

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢ نوفمبر ٢٠١٣
تاريخ قبول النشر: ١٥ يناير ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عمر بن عراج، "المخطوط العربي: آليات الحفظ الحديثة بين الواقع والآفاق"، دورية كان التاريخية، العدد الثلاثون، ديسمبر ٢٠١٥، ص ١٥٠ - ١٥٥.

مقدمة

ما وصل إلينا من ملايين المخطوطات الإسلامية والعربية قليلة للغاية وذلك ناتج عن عدة عوامل ساعدت في صناعة هذه المأساة، ولعل أهمها المآسي التي تعرضت لها هذه المخطوطات أثناء الحروب والفتن المتكررة في العالم الإسلامي منها، على يد التتار بزعماء هولاكو سنة ١٢٥٨ حيث دمرت الملايين من المخطوطات من مكتبات منها مكتبة بغداد أو ما يسمى (فاجعة بغداد)،^(١) سواء بالحرق أو بالإلقاء في نهر دجلة الذي تحولت مياهه إلى اللونين الأسود والأحمر من مداد الكتب ودماء القتلى ضف إلى ذلك سقوط غرناطة مما أدى إلى حرق أهم المخطوطات العربية الموجودة في المنطقة بالكامل.

إن غياب الوعي العام بأهمية المخطوطات وقيمتها الحضارية والعلمية، جعل الكثير منها محفوظًا في المكتبات العامة والخاصة

تراث أي أمة هو ما تملكه من تاريخ عريق، وحضارة قديمة وآثار ومنتقيات ثقافية قد تكون في صورة كتاب أو مخطوط أو تمثال منحوت أو نقش على جدار، ومن هنا كان لهذا التراث أهمية كبرى وفوائد جمة في حياة الشعوب الطموحة التي تسعى إلى معرفة الحياة بحقائقها ومظاهرها وخيالاتها، تلك المعرفة التي تأتي بربط الحاضر بالماضي والانطلاق من الحاضر إلى المستقبل.^(١)

وعلى الرغم من هذه الأهمية لهذا التراث الثقافي، فإن ما كتب عنه مازال بالقدر غير الكافي لإزاحة الستار عن الكثير من معالمه، ويرجع هذا إلى طبيعة هذه الآثار من حيث تواجدها وظروف اكتشافها، وصعوبة التعامل معها، ويمثل المخطوط العربي جانبًا هامًا من الجوانب المضيئة لهذا التراث القيم، ومما لا شك فيه أن

والقماش وأحياناً الأخشاب، وتُعدّ هذه المواد ذات خاصية هيجروسكوبية^(٧)، وعند ارتفاع الرطوبة النسبية في البيئة المحيطة فإن المادة العضوية تمتص الماء وتظهر عوارض في المخطوط منها الحموضة والبقع الصفراء على الأوراق ونمو الحشرات والفطريات والبكتيريا وغيرها فتظهر تشوهات في شكل المخطوط.

الضوء:

إن تعرض المخطوط لأشعة متنوعة من بينها: الأشعة فوق البنفسجية والموجات القصيرة من الضوء المرئي الأبيض والموجات الطويلة والأشعة تحت الحمراء لها تأثيرات حرارية على المخطوط، مما يجعل أوراقه تضمحل وتصفّر ويزال منها بعض الألوان والنقوش والأحبار الحساسة للضوء وتحلل التراكيب الجزيئية للمواد العضوية فتقصف بذلك ألياف النسيج والأوراق والجلود وغيرها.^(٨)

الحرارة:

لها أيضاً دور في تدمير المخطوط وبالأخص الموجات الحرارية في الجو الخارجي ويكون من مصادر الحرارة في حالة المكتبات والمتاحف المفتوحة في المناطق القارية، أضف إلى ذلك أشعة الشمس والمصابيح القريبة حيث يؤدي ارتفاع الحرارة إلى جفاف العجينة اللاصقة لأغلفة المخطوطات، كما تؤدي إلى انتشار الحموضة وتكوينها نتيجة للتلوث الجوي بالغازات الحمضية.

١/٢- التلف الكيميائي:

تُعدّ المخطوطات والوثائق من أشد وأسرع المواد تأثراً بالمواد الكيميائية التي يحملها الهواء مما يؤدي إلى إصابتها بالأحماض التي تشكل خطراً فاتكاً على حياتها، ومن هذه العوامل التلوث الهوائي والحموضة والأتربة والمعلقات الموجودة في الهواء وغبار المعادن والرمال عند تحريكها بالرياح.

١/٣- التلف البيولوجي:

لا ننسى العوامل البيولوجية وذلك نظراً لكون المخطوطات ومكوناتها من أصل عضوي فهي قابلة للتحليل والفساد تحت تأثير الأوضاع المناسبة من قبل الكائنات الدقيقة، هذه جميعاً تهاجم لمخطوطات وتفتك بها حين تسمح الأحوال المناخية المناسبة لانتشارها وتكاثرها في مخازن المخطوطات والوثائق. وهناك النمل الأبيض وهو حشرة صغيرة، أجزاء الفم القارضة لونها باهت يميل إلى الأصفر، واليرقات التي تتغذى على الجلود، والقوارض والفئران التي تلتهم أطراف المخطوطات والجلود وفضلاتها التي تتركها على أوراق المخطوطات مما يؤدي إلى ضياعها وإتلافها. لذلك تقوم هذه المقالة على التجربة المتبعة في صيانة المخطوطات بالطرق وتقنيات الحفاظ الحديثة التي تستلزم إلى حد كبير بالضوابط والقواعد العامة المتبعة في مراكز المخطوطات التي تعتمد في مقدمتها على تكنولوجيا^(٩) المعلومات في حفظ المخطوطات العربية.

ولكن مهمة الحفاظ لتعرضها لعوامل متلفة أدت إلى تدهورها وضياع ملامحها، فلقد عرفت المخطوطات طرقاً متنوعة في الحفاظ والصيانة والترميم منذ زمن الخلافة الإسلامية وعصر الحضارة الإسلامية المزدهرة، حيث كانت المخطوطات النادرة والنفيسة التي تمتلئ بها خزائن المكتبات العربية الإسلامية على اختلاف أنواعها خاصة الشهيرة ومنها بيت الحكمة^(١٠) في زمن الخلافة العباسية.

وتطورت بمرور الزمن طرق وأساليب ترميم وحفظ وصيانة المخطوطات والوثائق التاريخية في العصر الحديث منذ منتصف القرن التاسع عشر وتنامى الاهتمام بها في السنوات الأخيرة من القرن العشرين إلى يومنا هذا، وتم إنشاء أقسام خاصة للترميم والصيانة في المكتبات والمعاهد الخاصة التي تُعنى بأمراض الكتب وعلاجها في الكثير من دول العالم للحفاظ على جودتها ورونتها وإعادة الحياة إليها، كما وضعت البرامج الخاصة بمعالجة المخطوطات وصيانتها وحفظها وتطور المفهوم العالمي لحفظ هذا التراث الحضاري وصيانتته، بل وأصبحت له قواعد توجب على العاملين^(١١) فيه أن يراعوا في علاج الآثار والمصادر المخطوطة قضايا عديدة منها: ضرورة احتفاظه بمعالم أثرية مع تخليصه من كل عوامل التلف والتشوهات التي لحقت بالمخطوط العربي وضرورة عدم إضرار المواد المستخدمة في العلاج والترميم في مكتباتنا العربية والمؤسسات المهتمة بتجميع وتنظيم هذه الثروة القومية الحضارية، ومن هنا جاء هذا البحث لتحقيق الأهداف التالية:

- التعريف بالمخطوطات وصناعة المخطوط العربي.
- تسليط الضوء على المخاطر التي تواجه حياة المخطوطات العربية كالمخاطر الطبيعية والكيميائية والبيولوجية الذاتية.
- تبيان التدابير والطرق الخاصة بحفظ المخطوطات وصيانتها، ودور تقنيات المعلومات والآليات الحديثة في هذا الميدان.
- توضيح تجربة تقنيات الحفاظ والترميم الحديثة كنموذج في معهد المخطوطات العربية، ودار الملك عبد العزيز للمخطوطات، والمكتبة الوطنية الجزائرية.

يمكن استعراض المجالات الخاصة بحفظ وصيانة وترميم المخطوطات العربية من خلال ما يلي:

أولاً: العوامل المؤدية إلى ضياع وإتلاف المخطوطات

١/١- التلف الفيزيائي:

وهو التلف الحاصل نتيجة لاختلاف الظروف المناخية ومنها:

الرطوبة:

تُعدّ المخطوطات والكتب من الخامات ذات الأصل العضوي^(٥) أي نباتي أو حيواني مثل الورق والبردى،^(٦) أي أن محتواها مائي

٢- مكان وجود المخطوطات:

يتطلب حفظ المخطوطات والوثائق ومخازنها مواصفات خاصة تحميها من العوامل الخارجية التي تساهم في تلفها، منها أن يكون موقع البناية بعيداً عن العوامل والمنشآت الصناعية والأفران والمخابر لما تطلق من غازات كيماوية أو أدخنة، وبعيداً عن ضفاف الأنهار لارتفاع نسبة الرطوبة في الجو وأساليب حفظ تستعمل فيها خزانات حديدية ذات أبواب مقفلة ويجب أن تثقب من أعلاها بالقدر الذي يسمح بدخول الهواء إلى داخلها ووضع مادة السليكاجيل^(١٠) داخل الخزانات في علب مثقبة لامتصاص الرطوبة الجوية في حالة ارتفاع نسبتها. كما ينبغي المحافظة على انتظام درجة الحرارة والرطوبة المناسبة لمخازن المخطوطات طيلة أيام السنة لأن ارتفاع درجة الحرارة أو انخفاضها يؤثر سلبيًا على المخطوط إذ أن الدرجة المطلوبة تتراوح ما بين (٢٠- ٢٥) درجة مئوية، وتوفير إضاءة طبيعية أو صناعية مناسبة.

٣- عملية الصيانة والترميم والتعفير:

هذه عملية كلاسيكية ولكنها تحتاج إلى وسائل تكنولوجية متطورة تساعد في الحفاظ على المخطوط.

ثانيًا: دور تقنيات المعلومات والنظم الآلية في حفظ المخطوطات العربية

شهدت المجتمعات منذ القرن الواحد والعشرين تطورات متلاحقة وتحولات جذرية في شتى نواحي الحياة نتيجة للثورات المتسارعة في تقنيات المعلومات التي ارتبطت بتطوير الحاسبات الآلية وتفاعلاً مع الواقع ومستجداته، حيث كانت مكتبات ومرافق المعلومات من أكثر المؤسسات تأثراً بالتغيرات التي أحدثتها تقنيات المعلومات والاتصالات، ومن ذلك تجارب رائدة في استخدام النظم الآلية في معالجة المخطوطات العربية وإتاحتها إذ تجدر الإشارة في البداية إلى أنه نظرًا لقلّة الدراسات الميدانية في هذا الجانب وبداية الاهتمام بهذا الموضوع، كان من خلال المؤتمرات والندوات التي أثمرت عن مشروعات أو توصيات مهمة لها علاقة مباشرة باستخدام النظم الحديثة والتقنيات الرائدة في معالجة وحفظ المخطوطات.

حيث بدأ الاهتمام بتوظيف تكنولوجيا المعلومات في خدمة قضايا المخطوطات وخاصة بإنشاء قاعدة معلومات وطنية للأدبيات التراثية - جميع المخطوطات والوثائق من المواد التراثية - والهدف الأساسي من إنشاء هذه القاعدة هو غزارة الأدبيات التراثية وتنوعها، وعدم قدرة وسائل التوثيق على وضعها بشكل متكامل بين أيدي الباحثين والمؤرخين، وتوافر وسائل جديدة يمكنها من تقديم خدمات من خلال قاعدة المعلومات. وأساس هذه القاعدة هي قواعد بيانات بيبليوغرافية نصية تتمثل في مجموعة نصوص مخزنة على أجهزة ذات طاقة استيعابية عالية مرتبطة بالحاسوب قادرة على تقديم خدمات المحتويات النصية أو الرسوم أو الخزائف

أو النقل على القرص المكثف. إن الوسائل التكنولوجية الحديثة في مجال تكنولوجيا المعلومات والتوثيق الإلكتروني يسهل كثيرًا استخدام نسخ الكترونية من المخطوطات بدلاً من النسخ الأصلية وخاصة أن طبيعة المخطوط نفسه يتطلب التعامل معه بالكثير من الحذر خوفًا عليه من التلف كما تساعد عملية الرقمنة^(١١) على حفظ وصيانة المخطوطات الأصلية، وذلك بتخزينها على أقراص وبالتالي تساهم في زيادة دخل المكتبات عن طريق بيع هذه الأقراص التي تحتوي على المخطوطات ومن خلال الاشتراك مع قواعد بياناتها من خلال رقمنة المخطوطات.

تتطلب عملية رقمنة المخطوطات عدة عوامل أساسية من بينها:

(١) الموارد البشرية:

يعتبر العامل البشري مهم في معادلة رقمنة الأرصدة الوثائقية وخاصة العاملين المؤهلين في ميدان الرقمنة، وكذلك الإمكانيات المادية التي تمتلكها المكتبات لتأهيل أو انتداب عاملين لإنجاز مشاريع الرقمنة.

(٢) الموارد المالية:

تختلف تكلفة الرقمنة للمخطوطات باختلاف مشاريع الرقمنة وهي ترتبط بتمويلين لهم تجارب سابقة في هذا الميدان.^(١٢)

(٣) التجهيزات:

أ- الماسح الضوئي:

تم تطوير هذه التقنية باستخدام أجهزة التصوير الرقمي، حيث يتم بواسطة هذا الجهاز تحويل الورق على فيلم شفاف إلى صور الكترونية بهدف إخراجها في صورة منتج نهائي مطبوعاً لأغراض النشر. وهناك الماسحات أحادية اللون، والماسحات الملونة، والماسحات الأسطوانية، والماسحات اليدوية.

ب- الحواسيب:

نظام التشغيل لوضع قاعدة البيانات المرقمنة ومنها الحاسوب الخارجي لطباعة الوصفات الخاصة لكل مخطوط.

- طابعات لاستخراج المعلومات اللازمة.

- لاسترجاع البيانات المرقمنة وتسجيلها على أقراص وهو ناسخ الأقراص المميزر قابلة للتسجيل.

وهناك مرحلة أخرى متطورة من مراحل المحافظة على الوثائق والمخطوطات وهي:

- خدمة الميكروفيلم: أو الأفلام المصغرة، وهو عبارة عن فيلم شفاف يتكون من سلسلة متتابعة في الصورة الفوتوغرافية المصغرة لصفحات في كتاب أو مجلة أو جريدة أو مخطوط وكل صورة أو إطار من هذا الفيلم تمثل صفحة أو صفحتين من كتاب أو وثيقة يكون الفيلم عادة ملفوف على بكره ويبلغ طوله (١٠٠) قدم، أما عرضه فيكون (١٦ ملم) أو (٨٠ ملم) أو (١٠٥ ملم) ويستوعب الفيلم الواحد مئات الصفحات.

وبناءً على ما سبق؛ فإنه من الضروري التوجه نحو حماية المخطوطات الرقمية من خلال الانترنت بتطبيق الإجراءات التالية:

- نشر صور المخطوطات مع برامج تمنع القرصنة وسرقة أو نسخ الصور.
- لا يتم نسخ الصور بدون إدخال التوقيع الإلكتروني أو إدخال البصمة الإلكترونية، وذلك بعد الحصول على تصريح من الجهة الرسمية للموقع.
- وضع آلية متفق عليها بأن لا يتم قبول أو اقتناء أي مخطوطات من جهة غير موثوقة ومعروفة عالمياً.
- عدم قبول المخطوطات إذا كانت قيمته المعروضة للبيع قليلة، وعين الخبير الفاحصة تقدر قيمة المخطوط ومدى ملائمة القيمة المادية بالقيمة التاريخية.
- أن لا يقبل شراء مخطوطات محفوظة في إطارها لأنها تخفي الحواف والتي تكشف في أحيان كثيرة مدى أصالة المخطوط.

المميزات الفنية التقنية لرقمنة المخطوطات:

تختلف أنواع الخط العربي حيث نجد أكثر من مائة نوعاً، أما الأكثر استعمالاً هي الخط الكوفي، الثلث الإجازة، المغربي... إلخ. إن عملية الرقمنة تأخذ شكلين أساسيين وهما الرقمنة بالصورة ونظراً لخصوصية الخط العربي المكتوب بشكل خاص يستلزم الرقمنة بنمط النص وخصوصية المخطوطات العربية، بشكل عام فإنه من الصعب اعتماد الرقمنة بشكل نص وإنما الاكتفاء بالشكل الثاني وهو الرقمنة بشكل صورة لأسباب خاصة بالمخطوط نفسه ولأسباب أخرى تتعلق بتقنية الرقمنة بحد ذاتها منها المبتدات،^(١٦) ولتحديد المبتدات الخاصة بالمخطوطات وهذا بعد استشارة مجموعة من المتخصصين العرب والأجانب في مجال المخطوطات العربية يبحثون في تكوين قاعدة بيانات خاصة بالمخطوطات وتحديد الحقوق اللازم وضعها للمساعدة في استخراج المعلومات.^(١٧)

وعلى الرغم من الجهود العربية المشتركة المبذولة لإيجاد المبتدات المخطوطات، يبقى هذا الجانب التقني لم يوف حقه من الدراسة عند المتخصصين للوصول إلى عمل مشترك وموحد ليكون نواة تطويرها في مجال حفظ المخطوطات العربية على وسيط أي، كوسيلة حديثة لحفظ التراث. وبالتالي تكون قاعدة بيان خاصة بالمخطوطات يمكن تطويرها في مجال حفظ المخطوطات العربية على وسيط أي، كوسيلة حديثة لحفظ التراث وبالتالي تكوين قاعدة بيان خاصة بالمخطوطات يمكن بواسطة الفيديو (DVD) الولوج إليها عن طريق شبكة الانترنت أو استعمال الوسائل المتعددة من أقراص مكتنزة.. وغيرها.

- خدمة المايكرو فيش: أو البطاقات الشفافة المصغرة، وهي عبارة عن بطاقة مسطحة مستطيلة الشكل (١٠.٥ * ١٨.٤ ملم) من فلم شفاف وتستوعب البطاقة من (٦٠-٢٤٠) صفحة تقريباً.

- الحوائط (ميكروجكيت): يتم الحصول على هذا النوع من المصغرات بعد تقطيع الفيلم الملفوف إلى شرائح طويلة تم تعبئتها داخل جيوب بلاستيكية شفافة مرتبة بصور تسلسلية.

- البطاقات المعتمدة المصغرة (مايكروكرد): هذا النوع من البطاقات تشبه بطاقات المايكروفيش حيث أن الصور المصغرة تكون مرتبة على بطاقة مسطحة وبصورة أفقية وعمودية متساوية الأبعاد.^(١٣)

ج- الانترنت:

بدأ الاهتمام بشكل واسع برقمنة عدد من المخطوطات وأرشفتها وفهرستها وإتاحة بعضها على شبكة الانترنت من قبل التوسع في النشر المعلوماتي والأهم من ذلك حفظ الذاكرة العربية الإسلامية من الضياع والتلف في منطقة عرفت بتعرضها للحروب والاضطرابات السياسية في فترات زمنية مختلفة. ويعتبر مواقع الوراق^(١٤) نت الذي تأسس سنة ٢٠٠٠ موقعاً رائداً في مجال التوثيق الرقمي لنشر التراث العربي الإسلامي لأهميات الكتب، حيث يتيح الوصول إلى أهم الكتب التراثية في الوطن العربي مجاناً صنف إلى ذلك مختلف العلوم التي ازدهرت بها الحضارة الإسلامية والمصادر المنشورة في هذا الموقع وما شابهه من المواقع التي تبعث بنسخ المصورة عبر الموقع.

ومما لا شك فيه؛ أن وصف المخطوط وعرض صورته الرقمية وإتاحتها عبر الانترنت يعرضها لخطر النسخ والتزوير بالرغم من تفادي الأسباب التي تسبب التلف^(١٥) أو الضياع للمخطوط الأصلي، وبالتالي قد يقع تحت عين تفتقر للخبرة وتدفع قيمته المئات في حين قيمته الأصلية قد تتجاوز مئات الآلاف. ويذكر أن تزوير أي مخطوط يبدأ عادة بصورة للمخطوط، حيث يتم صب قالب من النحاس لتفاصيل المخطوط ثم طباعته، ومن ثمة يتم تلونه باليد ويعتمد من خلال الضغط على الورق يبدو حقيقياً قدر المستطاع. وتبرز هنا أهمية تطبيق بصمة إلكترونية مشفرة لمنع المخطوطات من السرقة، فالتوقيع الإلكتروني هو الذي يوثق أصالة الوثيقة بعد التحقق من صحتها وهو ما نحتاجه بالفعل أثناء رقمنة المخطوط. كما يجب أن يكون الإمضاء مشفراً في حالة المخطوطات كي لا يتمكن أي شخص من نسخه وإعادة إصداره خاصة مع إتاحة الوصف الكامل ضمن المبتدات حيث يتم التوقيع الإلكتروني بتحديد تفاصيل دقيقة للوثيقة مثل عدد الأسطر وعدد الكلمات والصور والجداول والأعمدة وكل ذلك لجعل عملية التزوير صعبة التنفيذ.

• إن إنشاء المعهد من أهم المشاريع التي حققتها جامعة الدول العربية وأكثرها نفعًا للعرب والمسلمين وكل المهتمين بالتراث العربي والحضارة.

١/٢- دار الملك عبد العزيز للمخطوطات:

بدأت الدارة الاهتمام بالترميم والحفاظ منذ إنشائها سنة ١٩٧٢ تم تطور الأمر لتصبح مركزًا متخصصًا منذ سنة ٢٠٠٥ وأصبح رائدًا في مجال تكنولوجيا المعلومات العصرية في الحفاظ على المخطوط، حيث تتم المحافظة على الوثائق والمخطوطات وهي خدمة الميكروفيلم من خلال المصغرات الفيلمية، والتصوير الرقمي حيث يعد الميكروفيلم هو من أهم وسائل حفظ المعلومات والوثائق والمخطوطات القديمة، وذلك من خلال استخدام أحدث الأجهزة اللازمة لذلك، وتصوير المخطوطات على ميكروفيلم - لمصغرات الفيلمية- ونشرها على الشبكة العنكبوتية.^(١٨)

١/٣- قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية:

المكتبة الوطنية الجزائرية من أقدم المكتبات الوطنية في العالم العربي وتحتوي على آلاف المصادر في مختلف فروع المعرفة تأسست سنة ١٨٣٥ من مهامها المحافظة على التراث الوطني للدولة وتجميع الإنتاج الفكري الذي يصدر داخل الدولة وخارجها بموجب قانون الإيداع. ويحتوي قسم المخطوطات على حوالي (٤٠٠٠) وثيقة بجانب أعمال الحفظ والإجراءات الفنية التي تشمل الفهرسة والتصنيف والتصوير الميكروفيلمي مع استخدام أجهزة الترميم الآلي فالتجربة الجزائرية تعتبر من التجارب الناجحة في الحفاظ وصيانة المخطوطات بأحدث التقنيات المواكبة للعصر بتكنولوجياتها المختلفة.

التوصيات:

- تنظيم دورات تأهيلية في مجال ترميم المخطوطات واستخدام التكنولوجيا في صيانتها على مستوى الوطن العربي والإسلامي.
- العمل على استرداد المخطوطات المتواجدة في المكتبات الأوروبية من خلال عقد اتفاقيات وكذلك العمل على حصول نسخ مصورة من المخطوطات وخاصة النادرة منها.
- تشجيع مراكز التراث أقسام المخطوطات على تأسيس أقسام خاصة بالترميم والحفظ والصيانة حسب المواصفات الحديثة للتكنولوجيا العصرية.
- العمل على إصدار تشريعات في كل دولة خاصة لحماية التراث والمخطوطات، ويمنع التزوير والتهريب والاتجار بالمخطوطات وكذلك كل الإجراءات الخاصة بالملكية والحفظ والصيانة.
- العمل على استخدام التكنولوجيا الحديثة في تصوير ونسخ المخطوطات وتدريب وإعداد المتخصصين للقيام بكل الإجراءات الفنية الخاصة بالتصوير الميكروفيلمي واستخدامات المصغرات الفيلمية.

الغاية من رقمنة المخطوطات:

إن الرقمنة مهمة جدًا للمكتبات في وقتنا الحاضر، حيث تسهل عمليات كثيرة تقوم بها المكتبات في مجال حفظ الوثائق بشكل عام والمخطوطات والكتب النادرة بشكل خاص، ومن ثمّ تساعد على عملية إيصالها إلى أكبر عدد من المستخدمين وتركز الأفق المستقبلية بالنسبة لرقمنة المخطوطات في ما يلي:

- حماية المخطوطات الوطنية، حيث تشكل جزءًا هامًا من التراث العربي بشكل عام والجزائري بشكل خاص لذلك تعتبر الرقمنة وسيلة فعالة للحفاظ على هذا التراث الوطني من الزوال.
- حماية المخطوطات من التلف والضياع، حيث تمكن تكنولوجيا الرقمنة من نقل رصيد المخطوطات على وسيط إلكتروني يساعد المستفيد الاطلاع على المخطوط دون الحاجة للرجوع إلى المخطوط الأصلي إلا في حالات خاصة، وهذا يقلل من إمكانية تعرض تلك المخطوطات النادرة للتلف أو الحرق أو الكوارث الطبيعية.
- وضع المخطوطات المرقمنة على شبكة الانترنت مما يساعد الباحثين للوصول إليها عن بعد وبالتالي الاقتصاد في الجهد والوقت والاطلاع على المخطوط الواحد في آن واحد.
- عمل قاعدة بيانات بالمخطوطات المرقمنة تتوفر على جميع الملامح المادية والفكرية للمخطوطات.
- مواكبة التطور التكنولوجي واستغلال التكنولوجيا الحديثة في معالجة هذا التراث النادر ألا وهو المخطوط.

ثالثًا: بعض التجارب العربية الرائدة في حفظ وصيانة المخطوطات

١/٣- معهد المخطوطات العربية:

بناءً على قرار مجلس جامعة الدول العربية الصادر في (١٩٤٥/٠٣/٠٤) تم إنشاء معهد المخطوطات العربية ومن أهم أهداف المعهد:

- جمع أكبر ممكن من المخطوطات من مختلف بلدان العالم وتصويرها وتقديم نسخة مصورة على ميكروفيلم للباحثين.
- العمل على تحقيق المخطوطات القيمة ونشرها.
- إنشاء مكتبة للمخطوطات وهي الآن تشمل أكثر من (٤٠٠٠٠) مخطوط.
- إصدار مجلة معهد المخطوطات العربية ونشر دورية تعنى بالبحوث المتعلقة بالتراث.
- التعاون مع الجامعات على المستوى العربي والدولي في مجال تبادل وتصوير المخطوطات والخبرات.

الهوامش:

المقترحات:

مما لا شك فيه؛ أن قضايا التراث العربي المخطوط كثيرة ويُعدّ الضبط الببليوغرافي وإتاحة أهم القضايا ويمكن أن نجملها في ما يلي:

- لابد من توظيف إمكانيات الحاسبات ونظم المعلومات في إنشاء قواعد البيانات الببليوغرافية النصية للمخطوطات العربية.
- خاصية المقابلة بين نسخ المخطوط الواحد عند عملية التحقيق.
- وضع تقنيات المشابكة ونظم الاتصال في بناء شبكة عربية لمعلومات التراث.
- الاستفادة من إمكانيات شبكة الانترنت لنشر التراث العربي المخطوط على مستوى العالم.

- (١) مصطفى السيد يوسف، صيانة المخطوطات علما وعملا، جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، الرياض عالم الكتب ٢٠٠٢ م، ص: ١٥
- (٢) د. عبد العزيز بن محمد المسفر، المخطوط العربي وشيء من قضاياها، جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٩٩ م، ص: ٩.
- (٣) راجع: عبد الباسط عبد الرزاق الالوسي، عثمان عبد العزيز صالح المحمدي، من روائع الحضارة العربية الإسلامية مكتبة بيت الحكمة أنموذجاً: دراسة تاريخية، مجلة دياي للبحوث الانسانية، السنة: ٢٠٠٩، الاصدار: (٣٤) الصفحات: ١٨٤-٢١١.
- (٤) عبد المعز شاهين، طرق صيانة وترميم الآثار والمقتنيات الفنية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٣ م ص ١٢٧
- (٥) أسامة ناصر النقشبندي، صيانة وخزن وتعفير المخطوطات، مجلة المورد، م ٥، ١٤، ١٩٨٩، ص ١٦٢
- (٦) البردي: هو مادة للتسجيل يعتبر من أهم المواد الأثرية التي يمكن أن تخرجها الحفائر.
- (٧) هيجروسكوبية: أي استرطاب يعني محتواها تتخلله الرطوبة.
- (٨) راجع: قادة لبتز، نادية بلقندوز، عوامل تلف المخطوطات وسبل المحافظة عليها، دورية كان التاريخية (القاهرة)، العدد التاسع عشر: مارس ٢٠١٣، ص ١٥٠.
- (٩) خبراء وسيارات إسعاف لإنقاذ المخطوطات التاريخية من عوامل الزمن، جريدة الشرق الأوسط مقال بتاريخ ٢٦/١٠/٢٠١١، ع. رقم ١١٧٤٧
- (١٠) السيلكاجل في تركيبها لا يوجد به سمية لأنها تتركب من سليكات الصوديوم من اتحاد ثاني أكسيد السليكون بالصوديوم وهي كرات جيلاتينية شهره لامتصاص الماء غير سامة وتستخدم لامتصاص الرطوبة في عبوات الحفظ ولكن المشكلة تكمن في كميتها ووقتها وتفاعل هذه الحبيبات.
- (١١) عامر إبراهيم قنديلجي، ربي مصطفى عليان، مصادر المعلومات من عصر المخطوطات إلى عصر الانترنت، دار الفكر ٢٠٠١، ص ٤٤.
- (12) Sara Gould Michard. Enquête sur la manuscritisation et la présentation. (en ligne) *10/08/2006. sur: www.unesco.org
- (١٣) محمود عباس حمودة، أبو الفتح حامد عوفه، الأرشيف ودوره في مجال المعلومات الإدارية، جامعة القاهرة ص ٢٩٠-٢٩١.
- (١٤) أشرف صالح محمد، تجارب عربية في التوثيق الرقمي للمصادر التراثية والثقافية، Cybrarians Journal، ع ٢٥ تاريخ: ٢٠١١، ص ٧٥.
- (١٥) منال كمال القيسي ورقة عمل مقدمة للمشاركة في ندوة المخطوطات في الوطن العربي- الاتجاهات الوقائية في رقمنة المخطوطات في الوطن العربي، وصف للرسائل المتبعة في حماية المخطوطات المرقمنة.
- (١٦) المبتدات: أو ما وراء البيانات هي معلومات مهيكلية، يعني مبنية وفق نظام معين مهمتها وصف وإيضاح وتسهيل استرجاع مصادر المعلومات واستخدامها وتنظيمها.
- (١٧) هانة، كيلة، الرقمنة كوسيلة حديثة لحفظ المخطوطات العربية في مدينة القدس ص ٤٠٢.
- (١٨) المؤتمر الأول في البلاد العربية، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ١٩٨٣، ص ١٩٢.



سبل حماية الموروث الثقافي والحضاري في الوطن العربي

عمر جسام العزاوي

مدرس مساعد علم الآثار
كلية الآثار – جامعة الموصل
جمهورية العراق



مقدمة

لكل حضارة نصيب في الثقافة العالمية بما تركته من كنوز حضارية مادية وفكرية تُعدّ ملكاً عاماً للأجيال البشريّة، واليوم أصبحت موضوعات حماية تلك الكنوز الحضارية والأثرية بأنواعها وتصنيفاتها موضوعاً جديداً من مواضع القانون المحلي أو الوطني وكذلك القانون الدولي المعاصر. وعلى هذا الأساس فإن تطور التفاصيل الواردة في المواد القانونية التابعة لقوانين الآثار منذ أول القوانين الخاصة بالآثار وإلى الوقت الحالي تتناول بشكل مباشر مسألة حماية الإرث الإنساني من خلال هدفها الرئيس من إصدار القانون الأثري وهو الحفاظ على الآثار ومواقعها والحيلولة دون المساس بها أو التلاعب بمواقعها بشكل يسيئ إلى أثرية المواقع وما تحويه من كنوز، كما ضيّقت ونظمت قوانين الآثار الصادرة تبعاً في أي بلد، والتي تلعب الظروف السياسية والإدارية الدور الأكبر في استصدارها، عملية تنقيب المواقع الأثرية ومسألة الحفاظ على كل ما يتم اكتشافه من آثار خلال مسيرة عملية التنقيب، كذلك مسائل حيازة الآثار والاتجار بها وحصر امتلاك الآثار بيد السلطة الأثرية في البلد لكون الآثار هي موروث حضاري وإنساني يخص الجماعة ولا يقتصر على الفرد الحائز لها بأية شكل من الأشكال.

بهذا تكون القوانين الخاصة بالآثار ومواقعها هي السند الحقيقي للأنشطة الأثرية في جميع أوجهها، وهي في تطور مستمر منذ أول قانون آثار حتى الآن وبشكل يواكب الأحداث التي تمر بالبلاد ويوازي التطور الذي حصل على مر السنين في جوانب الحياة كافة بشكل عام وفي الجانب الأثري بشكل خاص، وهدفها الأسمى هو الحفاظ على الآثار ومواقعها كونها تراث الأمة وموروثها الحضاري وأحد أبرز كنوز البلد، والعمل على حمايتها بأي طريقة ممكنة.

بما أن الآثار أو التراث أو الفلكلور لا يستعملون على الاستيلاء المادية الملموسة فحسب بل هي أيضاً كل النشاطات الثقافية والفكرية والعادات والتقاليد التي مارسها الإنسان قديماً وأن عملية الاهتمام بها غاية علمية ووطنية كبيرة، وبما أن أمر حماية الآثار غير مقتصر - برأينا - على القوانين الصادرة والضابطة لأية احتكاك مع الآثار في ظل الظروف السياسية والعسكرية والاجتماعية التي تمر بين الحين والآخر على المجتمع العربي والتي تؤثر على مدى استيعاب المجتمع للقوانين وتباين أفرادها في الالتزام به وتطبيق ما ورد في بنوده، لذا فإن هناك أيضاً العديد من الوسائل والسبل الأخرى العلمية الأكاديمية والعملية الفنية التي يمكن من خلال تطبيقها والعمل بها تحميم دور القوانين وتعزيزها للوصول إلى الهدف المرجو منها وهو حماية الكنوز الحضارية.

وإذا ما تخصص حديثنا عن مواطن الحضارة العربية (كمثال) وكنوزها الحضارية ففي أدها بعض الملاحظات الخاصة بقوانين الآثار وتنشيطاتها وبعض الملاحظات والأراء الفنية العلمية والعملية التي تهدف إلى حماية الإرث العربي الحضاري بكافة أشكاله المادية والفكرية والفنية والثقافية المتعددة، وهي في الوقت نفسه دعوة لكل الأثريين العرب مهما كان موقعهم من العمل الأثري سواء في السلطة الأثرية أو في دائرة الآثار والتراث أو المفتشيات التابعة لها وحتى في الجامعات والمعاهد إلى تبني كل الوسائل الدبلوماسية والقانونية والأكاديمية والثقافية والتوعوية للحفاظ على أصالة بلدهم الحضارية وتاريخه العريق وحماية كنوزه. وإذا ما كان هناك تطبيق مسبق لكل الأراء التي سنوردها أدناه متبعة في بلد عربي معين، فإن هناك الكثير من البلدان العربية باعتقادنا (وخصوصاً منها تلك التي تعاني اليوم مشاكل سياسية وعسكرية) لا تطبق فيها للأسف أية قوانين أو ضوابط لحماية التراث الثقافي والموروث الحضاري الخاص بها. لذا نعتقد بأن هذه الأراء والأفكار ستكون موجهة لهم.

كلمات مفتاحية:

قوانين الآثار، التراث والفلكلور، السياحة الأثرية، الممتلكات الثقافية، الموروث الحضاري

أولاً: التشريعات والقوانين الخاصة بالآثار

١. تفعيل دور قوانين الآثار والتشريعات النافذة ذات العلاقة من قبل السلطات التنفيذية، وبصورة كاملة وصارمة، على أن يضم موادًا وبنودًا تتماشى ومتطلبات المرحلة الراهنة.
٢. تمنح السلطة الآثارية في البلد قانونًا في حق التقاضي في أي دعوة أو قضية قانونية تخص الآثار ومواقعها.
٣. دعوة المشرع العربي إلى ضرورة العودة إلى المختصين بعلم الآثار لمشاركة آرائهم ومقترحاتهم حول أي قانون أو تشريع يخص الآثار.
٤. تضمين مصطلح (الفلكلور) في قوانين الآثار بجانب مصطلحي (الآثار) و (التراث) ويمكن التعريف به على أنه أي ثقافة أو تقاليد أو عادات تخص جماعة ما وفي أي جانب من جوانب الحياة سواء الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية أو الفكرية ويعود زمن ابتداعها إلى أكثر من (٥٠) سنة، لكونها إحدى الثقافات المادية والفكرية التي ستكون مع مر السنين من التراث أو الآثار، وضرورة تأكيد نسبة هذا الفلكلور للجماعة التي ابتدعته عن طريق التوثيق والحفظ في أرشيف وطني، لتبقى تلك الثقافات محفوظة الحقوق من أي تغيير من ناحية الأصالة أو النسب وكذلك من أي تحريف خصوصًا حين عرضها بوسائل الاعلام المتعددة، بشكل قانوني.
٥. تضمين نصًا في قانون الآثار يحظر استعمال المواقع الأثرية وحرمتها المحيط بها كمستودع للأنقاض أو النفايات أو مخلفات البناء، كذلك عدم بناء مساكن دائمية او مؤقتة وبأي شكل من الأشكال، لما له من اضرار على اصالة وقيمة الموقع آثاريا وسياحيا.
٦. تضمين نصًا قانونيًا واضحًا يلزم كل هيئات وبعثات التنقيب بضرورة الصيانة والترميم الأثرية لكل المواقع الأثرية العاملة بها ومكتشفاتها الأثرية بعد الانتهاء من التنقيبات وعدم ترك المواقع عرضة للتخريب والعبث، وتخصيص المبالغ المالية اللازمة قبل الشروع بالتنقيب لضمان ذلك.
٧. تضمين نص قانوني في قانون الآثار يضبط ويلزم الافراد المالكين لأي موقع يحتوي على آثار أو مباني تُعدّ من الآثار أو التراث بضرورة العودة إلى السلطة الآثارية وتبيان رأيها وموافقتها عند أي تجديد لبناء أو تغيير لمعالم الموقع وذلك للحيلولة دون تشويه المواقع والابنية التراثية التي اصبحت ملكًا ثقافية للحضارة الانسانية بحجة الملك الشخصي للعقار.
٨. وضع نص قانوني يدفع بكل الافراد المكتشفين للآثار عن طريق الصدفة بتسليم تلك الآثار إلى السلطة الآثارية وضمان عدم المسألة القانونية أو أي تبعات أخرى رادعة لأي عملية تسليم للآثار، مع إعطاء مكافآت نقدية مجزية لهم.

ثانيًا: التحرك نحو القوانين والتشريعات الدولية

١. دعوة الأمم المتحدة والمنظمات العالمية كمنظمة اليونسكو مثلاً لإقامة مؤتمر دولي حول الآثار المسروقة والمفقودة، ومنع عمليات المتاجرة بها، بعد تحديد عائداتها الآثارية إلى حضارتها الاصلية ومنع تداولها الغير شرعي خارج بلد اكتشافها وحماية المواقع الاثرية والتراثية داخل البلدان، لإيقاف أي عملية سرقة للآثار ومواقعها وسد الطريق عن العبث بها.
٢. وضع قانون دولي يلزم دول العالم بتطبيق قوانين الآثار النافذة داخل البلد على كافة الآثار الخارجة من نفس البلد والتي تعود بأصلها الأثرية إلى حضارة هذا البلد اين ما كانت.
٣. ضرورة وضع أو تثبيت قانون للملاحقة لصوص الآثار في كل البلدان العالمية.
٤. إقامة الدعاوي القضائية على كل من كان سببًا مباشرًا او عاملاً مساعد في سرقة المتاحف وتدمير المواقع الاثرية والتراثية.
٥. النقطتين السابقتين تدعونا للتفكير في ضرورة وجود أو تأسيس محكمة عالمية خاصة بحماية التراث الثقافي والموروث الحضاري في كل بلاد العالم وتكون مرجعًا للتقاضي واقامة الدعاوي في هذا الخصوص.

ثالثًا: الجانب الفني (الميداني)

١. انشاء مركز وطني أثاري خاص بآثار وتراث وحضارات البلاد العربية بالتنسيق والتعاون مع هيئة الآثار والتراث ووزارة السياحة والآثار ووزارة الثقافة والجامعات العربية، تكون مهمته النقاط الاتية:
 - إجراء مسح أثاري شامل لكل مناطق البلاد ووضع خارطة بالمواقع الأثرية والتراثية المكتشفة للحيلولة دون التعدي المستقبلي بها.
 - توثيق كل المواقع الأثرية والتراثية والعادات والتقاليد والممارسات التي تُعدّ من الفلكلور للحفاظ على حقوق البلد الثقافية والحضارية في ارسيف وطني يضمن لها الحماية.
 - إنشاء المتاحف الخاصة بالآثار والتراث والفلكلور أو الاهتمام بها إن كانت متوفرة، والتي تستعرض وتحفظ بالوقت نفسه الموروث الحضاري للبلد.
 - الاهتمام بالحقوق الفكرية والثقافية والاعلامية بكافة صورها واشكالها وانواعها حول أي منشور يخص آثار وتراث وفلكلور البلد .
٢. تفعيل النشاطات الآثارية كافة وأولها التنقيبات الآثارية ودعمها بكافة السبل، وهي عملية استباقية للحفاظ على الآثار والتراث ومواقعها، وحفظها في المتاحف.
٣. الاهتمام الجدي بالمتاحف بشكل عام والمتاحف الحضارية والآثارية بشكل خاص وتوفير كل السبل اللازمة لتهيئة تلك

سادساً: الإعلام الأثاري

١. يلعب الإعلام اليوم دورًا كبيرًا في كل القضايا العامة والخاصة التي تخص الإنسان في يومياته، وهو الوسيلة الأولى والمثلى للوصول السريع والمؤثر والمباشر لأي موضوع أو رأي أو خبر في أية قضية أو موضوع يخص الإنسان وحياته، لذا من الممكن أن نشغل هذه الوسيلة لأغراض أكاديمية علمية في مجال علم الآثار ومحاولة بث الثقافة الأثرية والمعلومات الحضارية الصحيحة عن حضارة وآثار العراق بكل العصور التاريخية الحضارية التي مرت به.
٢. استغلال شبكة الانترنت للغرض نفسه والغاية في النقطة أعلاه، وخصوصًا مواقع التواصل الاجتماعي مثل (Facebook, Twitter, YouTube) والمدونات الإلكترونية... وغيرها، من الوسائل والصفحات والأبواب التي تنتشر على الشبكة العنكبوتية (الانترنت).
٣. إصدار المجلات العلمية المحكمة والثقافية والجرائد والفولدرات التعريفية وبقية المنشورات التي يساهم بها طلبة وأساتذة ومختصي الآثار والدراسات الحضارية الأخرى.
- وهذا يظن أن مختص الآثار والحضارة سيلعب دورًا كبيرًا وفاعلاً في دعم دراسته وتخصصه أولاً، وسيبث هذه الدراسات والأبحاث والمعلومات القيمة إلى مجتمعه ثانيًا، لترتقي دراسة الآثار والحضارة بكل تفاصيلها وتخصصاتها الدقيقة إلى اهتمامات أرفع وأوسع، وتكون بذلك مهمة وواجب مختص الآثار والدراسات الحضارية قد تمت على كافة التوجهات وليس في الجانب الأكاديمي ولا حتى في الجانب الفني الميداني ضمن حدود عمله فقط.

مراجع للاطلاع:

- د. رؤوف الانصاري، (الحفاظ على التراث الوطني في العراق)، مجلة الموروث، العدد ٤٨، بغداد، ٢٠١٢.
- د. زاهي حواس، (الحرب ضد العراق/ آثار واسرار تراث العراق.. وإنقاذ ما يمكن إنقاذه)، جريدة الاهرام، العدد ١٢٧، القاهرة، ٢٠٠٣.
- د. يحيى ياسين سعود، (الممتلكات الثقافية العراقية ووسائل حمايتها واستردادها دوليًا)، مجلة الحقوق/الجامعة المستنصرية، العدد ٤، بغداد، ٢٠١١، ص ١٠٣.
- Andrew Lawer, (Dam Threatens Iraqi Ancient Sites), Science, Vol. 295, No. 5563, America, 2002, p. 2189.
- Michael Seymour, (Ancient Mesopotamia and Modern Iraq in the British Press 1980-2003), Current Anthropology, Vol. 45, No. 3, Chicago, 2004, p. 351.
- Zainab Bahrani, (Iraq's Cultural Heritage: Monuments, History, and Loss), Art Journal, Vol. 62, No.4, 2003, p.10.
- Catherine Phuong, (The Protection of Iraqi Cultural Property), The International and Comparative Law Quarterly, Vol. 53, No. 4, 2004, p. 985.
- McGuire Gibson, (Fate of Iraqi Archaeology), Science, Vol. 299, No. 5614, America, 2003, p. 1848.

المتاحف لاستقبال الآثار المسروقة والعائدة من متاحف مثالية كانت تعرضها، كذلك تأهيل تلك المتاحف وفتحها أمام الزائرين والمهتمين.

٤. تحديد منطقة (حرم) أو المنطقة المحيطة لأي موقع أثري أو تراثي ومنع التجاوز عليها لضمان عدم التجاوز أو العبث بالمواقع الأصلية.

رابعاً: نشر التوعية والثقافة الأثرية

١. أهمية التحرك والتشديد الاعلامي المتواصل وضرورة بث الافكار التوعوية حول أهمية الآثار وحمايتها ونشر الثقافة الأثرية وتعزيز روح الاصاله لدى المجتمع بكافة مستوياته، وخصوصًا التحرك نحو المناطق الريفية التي تكثر بقرىها مواقع الآثار، ومحاولة بث التوعية الأثرية لأهمية ما يمكن أن يعثر عليه أبناء القرى الريفية القريبة من المواقع الأثرية، بفعل نشاطاتهم الحياتية اليومية ومنها الزراعة.
٢. تشجيع ودعم نشر البحوث وإقامة المؤتمرات والندوات وورش العمل في كافة مجالات علم الآثار وهي السبيل الوحيد لإيجاد الدراسات والبحوث الخاصة وبثها للمجتمع لشد الاهتمام إلى أهمية الآثار والتراث ومواقعها.
٣. الاهتمام الجدي والفاعل بالمتاحف وقاعاتها وطرق عرضها ومقتنياتها لما لها من دور ثقافي وفكري وإعادة افتتاح المتاحف أمام العامة مع الأخذ بكافة الاحتياطات اللازمة لذلك.
٤. تضمين المناهج الدراسية (خصوصًا في المراحل الثانوية) بمعلومات عن الآثار والتراث وحضارة البلد لكافة المراحل الدراسية والتوعية بأهمية التراث الثقافي والحضاري لأي بلد وضرورة المحافظة عليه.
٥. الاهتمام الجدي والفعلي بالمناهج الدراسية التي تدرس في أقسام وكليات الآثار في الجامعات العربية، والعمل على تطوير تلك المناهج بما يلاءم التطور العلمي الحاصل في الجامعات العالمية في تخصص علم الآثار، فضلاً عن الاهتمام بطلبة الآثار وتقبل نشاطاتهم وتوجهاتهم بكل حرية والحيولة دون تحجيم تلك النشاطات الطلابية، مع مراعاة التوجيه الأكاديمي لتلك النشاطات لتكون في محلها الصحيح ولتنتهي بنتائج علمية أكاديمية صحيحة.

خامساً: السياحة الأثرية

التوجه نحو السياحة الأثرية، وإدخال الاستثمار فيها فهي إحدى السبل الكفيلة بحماية الآثار ومواقعها على أن لا يؤثر ذلك على أثرية المواقع وأصالتها ومعالمها الأصلية.



المعرض المؤقت "التحف المسترجعة"

المتحف العمومي الوطني للآثار القديمة

(١٠ مايو - ١٠ ديسمبر) ٢٠١٥

عز الدين حضري



ملحق بالحفظ
المتحف العمومي الوطني للآثار القديمة
الجمهورية الجزائرية

بيانات المعرض

ينظم "المتحف العمومي الوطني للآثار القديمة" (١) منذ ١٠ ماي ٢٠١٥ معرضاً مؤقتاً بعنوان: "التحف المسترجعة" من طرف المصالح المختصة بوزارة الثقافة وكذا التحف ذات القيمة التاريخية والأثرية التي حجزتها واسترجعتها الأجهزة الأمنية الجزائرية المختلفة (شرطة، درك وطني والجمارك الوطنية).

كلمات مفتاحية:

المقاومة المغربية، استقلال المغرب، المغرب المعاصر، الذاكرة الوطنية، الأمير الخطابي

مقدمة

المعرض المؤقت "التحف المسترجعة" الذي ينظمه المتحف الوطني للآثار القديمة، والذي يدخل في محور "حفظ وحماية التراث الثقافي الجزائري" ويبرز دور الأجهزة الأمنية المختلفة في هذا المجال. وضم المعرض مجموعة كبيرة ومتنوعة ونادرة من التحف تمثل كل الأدوار الحضارية التي عرفتها بلادنا منذ مرحلة ما قبل التاريخ، مروراً بكل الفترات التاريخية القديمة والوسيلة والحديثة والمعاصرة، بعض تلك التحف استرجعتها المصالح المعنية بالشأن الثقافي من الخارج بعد سرقتها وتهريبها، وأكثر التحف المعروضة هي تلك التي احتجزتها وصادرتها الأجهزة الأمنية في عملياتها المختلفة للتصدي لكل فعل أو شخص يضر بالمتعلقات الثقافية.

أولاً: أهداف المعرض

إن تنظيم مثل هذا المعرض يرمي لتحقيق مجموعة من الغايات منها على الخصوص إظهار المخاطر التي تهدد التراث الوطني، وكيف السبيل لحمايته وحفظه، فتلك مسؤولية الجيل الحالي، الذي تقع عليه أمانة إيصال ذاك التراث سالماً إلى الأجيال القادمة للأمة الجزائرية، التي من حقها أن تطلع عليه وتستمتع بالأعمال الفنية

التي خلفها لنا السابقون، والتي تعتبر الدلائل المادية لماضيها، لتاريخنا، ولإسهامات أسلافنا في تطور وتقدم الحضارة الإنسانية.

ثانياً: حماية التراث الوطني (التشريعات والإجراءات)

الواقع أن تراثنا الوطني يتعرض لمخاطر كبرى نتيجة لعدة أسباب أخطرها هو ما تقوم به شبكات تهريب الممتلكات الثقافية والمتاجرة غير الشرعية فيها، وهي شبكات خطيرة لا تتراجع إلى الخلف مطلقاً وهدفها هو جلب الأموال وتحقيق الأرباح على حساب تراث الأمة. كان من الواجب إذن التصدي لذلك النشاط الإجرامي المتنامي، لذا بادرت الدولة الجزائرية ولاسيما المصالح المهتمة بالتراث وحمايته وتثمينه باتخاذ التدابير اللازمة وإعداد الخطط وسن القوانين والتشريعات المناسبة لكف أيدي المتلاعبين بالتراث والمتاجرين فيه ومن تلك التدابير نذكر:

١- التشريعات والقوانين المتعلقة بحماية الممتلكات الثقافية:

سمحت تلك القوانين والتشريعات أولاً بتحديد مصطلح "التراث"، ثم تطرقت للعقوبات التي سينالها أي شخص تسول له نفسه المساس في الممتلكات الثقافية للشعب الجزائري.

١/١- نبذة موجزة عن مجمل التشريعات التي أقرتها الدولة الجزائرية لحماية التراث:

١-ألمرية رقم (٢٨١/٦٧) الصادر في ٢٠ جوان ١٩٦٧ المتعلقة "بالحفريات وحماية المواقع والآثار التاريخية والطبيعية"^(٢)، بالإضافة إلى المرسوم رقم (١٣٥/٨١) الصادر في ٢٧ جوان ١٩٨١ المتممة والمعدلة للمرسوم السابق الذكر^(٣).

-القرار الصادر في ١٧ مايو ١٩٨٠ المتعلق "بتراخيص إجراء الأبحاث الأثرية"^(٤).

-المرسوم رقم (٨٢/٦٩) الصادر في ١٣ جوان ١٩٦٩ المتعلق "بانتقال وتصدير الأشياء التي تمثل قيمة تاريخية أو فنية أو أثرية" للصالح العام للأمة^(٥).

-القرار الوزاري المشترك الصادر في ٠٥ ديسمبر ١٩٧٩ المتضمن "إنشاء لجنة وزارية مشتركة لشراء الممتلكات والتحف الفنية"^(٦).

-المرسوم رقم ٣٨٢/٨١ الصادر في ٢٦ ديسمبر ١٩٨١ الذي يحدد "صلاحيات الولاية والبلدية في الشأن الثقافي"^(٧).

٢/١- قانون "٩٨/٠٤":

يُعدّ هذا القانون من أهم وأشمل القوانين والتشريعات التي سنّها الدولة الجزائرية بغرض حماية وتثمين التراث الثقافي، وهو القانون الصادر في ١٥ جوان ١٩٨٩ والمنشور في "الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية" في ١٧ جوان من العام نفسه^(٨)، وتعرض هذا القانون لمسألة جرد الممتلكات الثقافية المحمية، كما تطرق لضرورة إنشاء بنك للمعلومات لتلك للممتلكات اللامادية، كما اشتمل القانون على المقاييس والوسائل والعتاد الواجب توفره لحماية وحفظ المحميات الثقافية والمواقع الأثرية والحظائر الطبيعية، واهتم بتحديد الممتلكات الثقافية المادية (المنقولة والغير منقولة) واللامادية:

أ. الممتلكات الثقافية العقارية: صنفت حسب أنواعها، وخضعت حمايتها لإجراءات وتدابير مناسبة (من حيث تصنيفها وتسجيلها في القائمة الإضافية للجرد، والقطاعات المحمية..الخ)^(٩).

ب. الممتلكات الثقافية المنقولة: صنفتها هذا القانون وأقر حمايتها مهما كان وضعها القانوني.^(١٠)

ج. الممتلكات الثقافية اللامادية.^(١١)

٢- إنشاء فرق أمنية مختصة (في جهازي الشرطة والدرك الوطني) لحماية التراث:

أنشأت الدولة الجزائرية منذ تسعينيات القرن ٢٠م فرقا وخلايا مختصة في الأجهزة الأمنية وكلفت بمهمة حفظ وحماية التراث وقمع شبكات المتاجرة فيه بطرق غير مشروعة.

١/٢- بادرت المديرية العامة للأمن الوطني منذ سنة ١٩٩٦م بإنشاء "فرقة مركزية لمكافحة الأعمال الضارة بالتراث الثقافي الوطني"^(١٢) وكلفت تلك الفرقة بإجراء التحقيقات العملياتية المتعلقة بمختلف الأفعال المضرة بالتراث الوطني بما فيها السرقة

والتهريب الغير الشرعي للتحف الأثرية والأعمال الفنية، كما كلفت الفرقة بمنع تدهور ونهب المواقع الأثرية وتزييف الأعمال الفنية، وكلفت الفرقة أيضا بتنسيق وتوجيه التحقيقات التي تجريها مصالح الشرطة القضائية، ووضع إستراتيجية تضمن إنهاء عمليات المس بالتراث الوطني، ووضع قاعدة بيانات يعتمد عليها لتتبع تلك الجرائم ومرتكبيها.

٢/٢- قامت القيادة العامة للدرك الوطني منذ سنة ٢٠٠٥م بإنشاء "خلايا لحماية التراث الثقافي"^(١٣)، وكلفت بمهام عدة منها: تسجيل الممتلكات الثقافية المتواجدة بإقليم اختصاص والمصنفة في قائمة الممتلكات الثقافية الوطنية، وإنشاء قاعدة بيانات للأشخاص المكلفين بتسيير الممتلكات الثقافية، ووضع "الخريطة الأثرية" لكي تستفيد منها خلايا حماية التراث في إقليم اختصاصها، وتشجيع المؤسسات العمومية والخاصة على ضرورة الإسهام في حماية الممتلكات الثقافية، والتبليغ عن أي محاولة لتخريبها وإضرار بها، بالإضافة للقيام بزيارات ميدانية للتذكير بأهمية المحافظة على الممتلكات الثقافية، وإبراز دور الدرك الوطني في عملية حمايتها، وإنشاء قاعدة بيانات لكل خلية في إقليم اختصاصها، وفتح ملف يحتوي على النصوص والتشريعات القانونية المتعلقة بحماية التراث، وكذا التوصيات والتعليمات الصادرة من القيادة العليا للدرك الوطني في الشأن نفسه، بالإضافة إلى وثائق المشاركة في التجمعات الثقافية والمعارض والأيام الدراسية^(١٤).

٣- التصديق على الاتفاقيات الدولية المتعلقة بحفظ وحماية التراث:

انضمت الجزائر وصادقت منذ سبعينيات القرن ٢٠م على مجمل الاتفاقيات والمعاهدات التي أصدرتها المنظمات الدولية المهتمة بالشأن الثقافي، والمتعلقة بحماية الممتلكات الثقافية للإنسانية، ومن أهم تلك الاتفاقيات أذكر:

١/٣- اتفاقية "اليونسكو" لحماية التراث الثقافي لسنة ١٩٧٠م والمتعلقة "بالإجراءات المتخذة لمنع استيراد وتصدير ونقل الممتلكات الثقافية بطرق غير شرعية"، صادقت الجزائر على هذه الاتفاقية سنة ١٩٧٤م.

٢/٣- في سنة ١٩٨٨م انضمت الجزائر إلى "الاتفاقية الدولية للتعاون الإداري المشترك قصد تدارك المخالفات الجمركية والبحث عنها وقمعها"^(١٥) لسنة ١٩٧٧م، وقع على هذه الاتفاقية بالعاصمة الكينية نيروبي في ٩ جوان ١٩٧٧م، وصادقت عليها الحكومة الجزائرية بموجب المرسوم رقم: ٨٨/٨٦ المؤرخ في ٠٢ رمضان عام ١٤٠٨هـ الموافق لـ ١٩ أبريل سنة ١٩٨٨م.

٣/٣- وافقت الجزائر على الانضمام إلى "اتفاقية المعهد الدولي لتوحيد القانون الخاص"^(١٦) (UNIDROIT)، والمتعلقة "بالممتلكات الثقافية المسروقة أو المنقولة بطرق غير شرعية"

الوطني للبحث في علم الآثار" (C.N.R.A)، بالإضافة لمحافظي ومفتشي التراث الثقافي على مستوى "المتاحف الوطنية"^(١٩) Les Musées Nationaux)، ومن أوجه ذلك التنسيق والتعاون :

- تبادل المعلومات بين الأجهزة الأمنية والثقافية.
- إجراء المختصين على مستوى المتاحف الكبرى أو مراكز البحث لتقارير الخبرة على التحف التي تحتجزها مصالح الأمن أو تسترجعها بعد تهريبها إلى الخارج.

رابعاً: وصف المعرض المؤقت "التحف المسترجعة"

يدخل هذا المعرض المؤقت-كما سبق ذكره- في محور" حفظ وحماية التراث الثقافي الجزائري" ويبرز دور الأجهزة الأمنية المختلفة في هذا المجال. وضم المعرض مجموعة كبيرة ومتنوعة ونادرة من التحف تمثل كل الأدوار الحضارية التي عرفتها بلادنا منذ مرحلة ما قبل التاريخ، مروراً بكل الفترات التاريخية القديمة والوسيلة والحديثة والمعاصرة، بعض تلك التحف استرجعتها المصالح المعنية بالشأن الثقافي من الخارج بعد سرقتها وتهريبها، وأكثر التحف المعروضة هي تلك التي احتجزتها وصادرتها الأجهزة الأمنية في عملياتها المختلفة للتصدي لكل فعل أو شخص يضر بالممتلكات الثقافية.

- البطاقة الفنية للمعرض:

لسنة ١٩٩٥م، وصاقت عليها الدولة الجزائرية بموجب المرسوم
الرئاسي رقم: ٢٦٧/٠٩ المؤرخ في ٣٠ أوت ٢٠٠٩م.

٤/٣- تبنت الجزائر البرتوكول الثاني "لاتفاقية لاهاي لسنة ١٩٥٤م"^(١٧) والمتعلقة "بحماية الممتلكات الثقافية في حال اندلاع النزاعات المسلحة"، حيث صادقت عليه الدولة الجزائرية بموجب المرسوم الرئاسي رقم ^(١٨) ٢٦/٠٩ المؤرخ في ٣٠ أوت ٢٠٠٩م.

٤- تنظيم حملات تحسيسية لتوعية الجمهور بأهمية حماية التراث الثقافي:

والغاية المأمولة من تلك الحملات هو تثمين وترقية التراث الثقافي، وتوعية الجماهير مهما كان مستواها العلمي والثقافي والاجتماعي بأهمية ذلك التراث، حتى يشارك هو أيضا في تلك العملية المعقدة والنبيلة في الوقت نفسه، فيجب أن تدرك الجماهير أن مسؤولية حماية الممتلكات الثقافية للأمة ليست مهمة بعض الأجهزة الثقافية والأمنية فقط بل تتعداها لتصبح مهمة الشعب كله، فإذا شعر الجمهور بتلك المسؤولية الخطيرة حينئذ يمكن ضمان انتقال تلك الممتلكات من الجيل الحالي إلى الأجيال القادمة.

ويدخل تنظيم المتحف العمومي الوطني للآثار القديمة لمعرض "التحف المسترجعة" الذي نحن الآن بصددده في صلب هذه الحملات التحسيسية الهادفة.

ثالثاً: التنسيق بين مصالح وزارة الثقافة والأجهزة الأمنية في سبيل حماية الممتلكات الثقافية

يهدف تطوير وترقية عملية حماية التراث والممتلكات الثقافية للشعب الجزائري، كان من البديهي أن يحدث التنسيق والتعاون بين الأجهزة الأمنية (شرطة، درك، جمارك....) من جهة، وبين مختلف الأجهزة الوصية على الشأن الثقافي من جهة أخرى، ومنها (المديريات المركزية للتراث بوزارة الثقافة)، وبعض الأجهزة والمراكز الأخرى ومنها "ديوان تسيير واستغلال الممتلكات الثقافية" (O.G.E.B.C)، و"المركز

	نوع المعرض	نوع المعرض
	عنوان المعرض	عنوان المعرض
	مكان العرض	مكان العرض
<p>مخطط الجناح القديم للمتحف الوطني للآثار القديمة</p>	تاريخ المعرض	تاريخ المعرض
	تاريخ اختتامه	تاريخ اختتامه
	تاريخ افتتاح	تاريخ افتتاح

والتحفة عبارة عن رأس ضخمة من الرخام^(٢٣)، تزن أكثر من ٣٠٠ كغ، يبلغ ارتفاعها من أدنى الذقن إلى أعلى الشعرا م ويبلغ قطرها ٨٠ سم، أما فتحة فمها فبلغت ٣٠ سم.

سُرقت هذه التحفة التي لا تقدر بثمن من الموقع الأثري بعناية في شهر مارس ١٩٩٦ م، وانعدم أي دليل عن الوجهة التي نقلت إليها حتى سنة ٢٠١١ م، ففي هذه السنة وعقب اندلاع الأحداث السياسية التي اندلعت بتونس وأدت إلى إسقاط الرئيس التونسي "بن علي"، وبعد الاستيلاء على قصوره وقصور أقربائه وأنسابائه، عثر على التحفة في قصر "صخر الماطري" (صهرين علي).

بعد التأكد من مكان التحفة تحركت الحكومة الجزائرية سريعا، وبالتنسيق مع التونسيين، اتخذت الإجراءات المناسبة وتم استرجاع التحفة في أبريل من سنة ٢٠١٤ م، حيث أقيمت بمناسبة استرجاعها احتفالية خاصة بالمتحف العمومي الوطني للآثار القديمة، وهي الآن تعرض "بقاعة العبادات الوثنية للمتحف".



الصورة (٣): "قناع الغورغون" (ق.م)

رقم الإيداع: ٢٠١٤.٤٢

تاريخ الدخول: ٢٠١٤

من فترة ما قبل التاريخ عرضت "رؤوس سهام" (الصورة ٤)، حُجزت تلك الرؤوس وعددها أربعة سنة ٢٠٠٨ م من طرف خلية للدرك الوطني مختصة في حماية التراث، وبعد استشارة نيابة المديرية لتأمين الممتلكات الثقافية بوزارة الثقافة أمرت هذه الأخيرة بتسليم رؤوس السهام المحجوزة للمتحف العمومي الوطني للباردو^(٢٤)، وتعود تلك الرؤوس "للحضارة العاترية"^(٢٥)، وصنعت من مادة الصوان وهي بألوان متعددة (أبيض، رمادي وبني).



الصورة (٤): "رؤوس سهام" (فترة ما قبل التاريخ)

رقم الإيداع: ٢٠٠٨.١

تاريخ الدخول: ٢٠٠٨

من التحف المعروضة تحفة مشهورة وهامة تتمثل في "رأس الإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس"^(٢٠) (الصورة ١)، سُرقت هذه الرأس الرخامية ضمن ثماني تحف أخرى من متحف سكيكدة سنة ١٩٩٦ م، وفي سنة ٢٠٠٤ م ظهرت من جديد بالولايات المتحدة حيث عرضت للبيع في أحد صالونات البيع بالمزاد العلني، وفور إبلاغها بالموضوع بادرت السلطات الجزائرية المختصة بالتنسيق مع منظمة "الأنتربول" بالاعتراض على عملية البيع وقدمت ملفا هاما جعل المدعي العام لمدينة نيويورك يأمر سنة ٢٠٠٦ م بحجز التحفة وإرجاعها إلى موطنها الأصلي، وفي سنة ٢٠٠٨ م وصلت التحفة إلى الجزائر وهي الآن معروضة "بقاعة الرخاميات" بالمتحف الوطني للآثار القديمة.



الصورة (١): رأس "ماركوس أوريليوس" (ق.م)

رقم الإيداع: ٢٠٠٨.٠٩

تاريخ الدخول: ٢٠٠٨

عرضت أيضا تحفة سلمت للمتحف الوطني للآثار القديمة سنة ٢٠١٠ م، وهي عبارة عن "رأس امرأة رومانية" (الصورة ٢)، والتحفة عبارة عن رأس امرأة مائل نوعا ما نحو اليسار، بشعر مسّح، عينيّ جاحظتين، الأنف و جزء من الرأس مكسّران.



الصورة (٢): رأس امرأة رومانية

رقم الإيداع: ٢٠١٠.٠٢

تاريخ الدخول: ٢٠١٠

ولعل أبرز وأشهر التحف المعروضة هو "قناع الغورغونا"^(٢١) (le masque de la Gorgone) من القرن الثالث للميلاد (الصورة ٣)، وكان ذلك القناع في الفترة الرومانية يزين واجهة نافورة عمومية في "فوروم" (الساحة العامة) لمدينة "هيبو ريجيوس" (عناية حاليا)^(٢٢).

من الفترة الحديثة والمعاصرة:

عرضنا قطعة نقدية واحدة للإمبراطور الفرنسي "نابوليون الثالث" (١٨٥٢-١٨٧٠م)، كما عرضنا (٢٦) ميدالية فضية للملك الفرنسي "شارل العاشر" (١٨٢٤-١٨٣٠)، وخمس عشرة (١٥) ميدالية فضية من أعمال النقاش الفرنسي "دوبري" (Dupré) (٣٣) وخمس (٥) ميدالية فضية من أعمال النقاش الفرنسي "أوديني" (Oudiné) بالإضافة لميداليتين فضيتين تعود للملكين الايطاليين "فيتوريو ايمانويل الثاني" (١٨٦١-١٨٧٨)، و"أومبرتو الأول" (١٨٧٨-١٩٠٠).

إضافة "للتحف الرخامية" ومجموعة "المسكوكات"، فقد عرض المتحف كذلك تحفا أخرى تعود لفترات تاريخية مختلفة منها "فخاريات" و"زجاجيات" و"أسلحة متنوعة" الخ منها: - "خمس أمفورات فخارية" (amphores)، من الفترة القديمة، وهي من الفخار الإفريقي، مؤرخة ما بين القرنين الثالث والسابع للميلاد)، وهي أمفورات ذات حجم كبير، من الفخار الأحمر الأجوري، بطلاء أصفر فاتح، كل أمفورة منها تشتمل على مقبضين دائريين، وعنق طويلة، إلا واحدة منها فذات فوهة عريضة (الصورة ٦).



الصورة (٦): "أمفورة فخارية" (ق.٧-٣م)
رقم الإيداع: ٢٠١٣.٣٧
تاريخ الدخول: ٢٠١٣

- "مصباح زيتي" (lampe à huile)، من القرن الثاني للميلاد/الفترة الرومانية، (الصورة ٧)، حُجزت هذه التحفة من طرف مصالح الشرطة المكلفة بحفظ التراث الوطني سنة ٢٠٠٧م، والمصباح ذو بدن دائري تقريبا، زود بمقبض وفوهة ضيقة ودائرية توضع عليها الفتيلة، زود قرص المصباح في أعلاه بفتحتين واحدة للزود بالزيت والأخرى للتهوية، وزين القرص بزخرفة بارزة تتمثل في صورة نصفية لشخص متجه نحو اليمين، أما محيط القرص فيحمل زخرفة تتمثل في أوراق.

من التحف الأخرى المعروضة أيضًا نقود ومسكوكات وتحف فخارية ومعدنية وزجاجية وخشبية تعود لفترات تاريخية متعددة نذكر منها: من الفترة القديمة:

- "ثلاث قطع نقدية إغريقية": منها قطعتان نقديتان كبيرتان من البرونز وواحدة من الفضة، حُجزت هذه القطع ستة ٢٠١٣م من طرف فرق حماية التراث التابعة للأمن الوطني. - "قطعتان نقديتان نوميديتان": حُجزتهما نفس المصالح الأمنية سنة ٢٠١٣م، وتشير تقارير الخبرة أنها تعود لفترة الملك "ماسينيسا" (٢٠٣-١٤٨ ق.م) (٢٦).

من الفترة الرومانية عرضنا قطعتان نقديتان، أما الأولى فهي قطعة برونزية تعود للإمبراطور "أنطونن التقي" (Antonin le pieux)، يحمل وجهها صورة الإمبراطور، بينما تعود القطعة الثانية للإمبراطور "ليكينوس" (Licinius)، ضرب على وجهها رأس الإمبراطور، وعلى ظهرها يظهر جندي واقف يحمل حربة بيده اليسرى وتاج بيده اليمنى، ومن الفترة نفسه عرضنا أيضا " (١٧٦) قطعة نقدية من الفترة القديمة"، حُجزتها إحدى فرق الدرك الوطني سنة ٢٠١٣م، أكدت تقارير الخبرة أنها تعود للفترة الرومانية، وتحديدًا للقرن الرابع للميلاد، وهي عبارة عن "آسات" ضربت في عهد "الإمبراطور قسطنطين الأكبر" (Constantin I) (٢٩) وخليفته "قنسطانس" (Constant) (٣٠) و"قنسطانطيوس الثاني" (٣١) (Constance II).

من الفترة الإسلامية:

عرضنا قطعة واحدة تعود لفترة دولة الموحدين (٣٣) (الصورة ٥)، وهي "درهم فضي" مربع الشكل، ضرب بمدينة غرناطة، كما هو مبين على وجه القطعة:

الوجه	س ١:	(لا إله إلا الله)	الظهر	س ١:	(الله ربنا)
	س ٢:	(الأمر كله لله)		س ٢:	(محمد نبينا)
	س ٣:	(لا قوة إلا بالله)		س ٣:	(المهدي إمامنا)



الصورة (٥): "درهم فضي موحي" رقم الإيداع: ٢٠١٣.٣٦
تاريخ الدخول: ٢٠١٣

ومن الفترة الحديثة والمعاصرة عرضنا أسلحة مختلفة منها:
- "سيف"^(٤٠) من نوع فليسة (épée de type Flissa)، حجز سنة ٢٠٠٩م، وهو سيف جزائري، صنع بمنطقة القبائل، مادة صنعه الحديد، عليه أثار التطعيم بمادة النحاس، وهو يتكون من جزئين مقبض وشفرة (نصل) مكسورة، زخرفت بأشكال نباتية (عبارة عن تفرعات نباتية ذات تأثير عثماني)، وأشكال هندسية (مثلثات وحروف تيفيناغ).

- "بندقية (مكحلة)"^(٤١) (fusil-mukahla)، (الصورة ٩)، تتكون البندقية من ماسورة حديدية مثبتة بجذع خشبي بواسطة (١٥) خاتمًا معدنيًا (غير أصلي)، ثبت تحت الجذع أنبوب معدني يحفظ به المروود الحديدي، الذي كان يستخدم لحشو البارود داخل الماسورة، وصنع الزناد من الحديد، أما أخمص البندقية فهو من مادة الخشب.



الصورة (٩): "بندقية-مكحلة" (ق. ١٩م)

رقم الإيداع: ٢٠١٠.٢٣

تاريخ الدخول: ٢٠١٠

- "مسدس مع حامله" (pistolet avec sa fonte)، من القرن ١٩م (الصورة ١٠)، حجز سنة ٢٠١٤م، أما المسدس فينكون من أخمص خشبي مصفح بالفضة، وماسورة، وزناده من الحديد، وزود حامل الماسورة بمروود خشبي، كما حلي المسدس برقائيق فضية زخرفت بأشكال نباتية وزخارف متنوعة أخرى (أسلحة، أعلام)؛ أما حامل المسدس فصنع من الجلد، ثبت عليه قطعة بنفسجية اللون من القטיפ، مزخرفة بأشكال نباتية نفذت بخيط فضي. زود أيضًا بحاملة خراطيش صغيرة حمراء اللون، من الجلد والقماش، احتوت على أربعة فراغات لوضع حبات الخرطوش.



الصورة (١٠): "مسدس مع حامله"

رقم الإيداع: ٢٠١٤.٤٤

تاريخ الدخول: ٢٠١٤



الصورة (٧): "مصباح زيتي من الفخار" (الفترة الرومانية)

رقم الإيداع: ٢٠٠٧.٥٢

تاريخ الدخول: ٢٠٠٧

- "مطرة"^(٣٦) (gourde) من الفخار، البدن كروي، العنق طويلة، والمقبضين على شكل أذنين ينطلقان من أسفل الفوهة ويرتكزان أعلى البدن، وزين هذا الأخير من الجهتين بأشكال نباتية وهندسية.
- "إبر وديابيس" (épingles et des aiguilles) من الفترة القديمة، مصنوعة من العظم أو البرونز، عددها (١٨) قطعة.
أما من الفترة الإسلامية فقد عرضنا بعض التحف الفخارية الجميلة منها:

- "جرار"^(٣٧) (Jarres)، من الفخار، عددها أربعة، ثلاثة منها ذات طينة حمراء وبطانة سوداء اللون، أما الرابعة فتتكون من فوهة واسعة وسميكة، البطن دائري والقاعدة مستوية (الصورة ٨).
- "طاجين"^(٣٨) (Tajine) من الفخار، ذو بطن كروي، ويشتمل على مقبضين، الفوهة متسعة، أسفلها تظهر أربع فتحات دائرية الشكل.
- "إبريق"^(٣٩) (aiguière)، من الفترة العثمانية، حجزته مصالحي الشرطة المكلفة بحفظ التراث الوطني سنة ٢٠١٥م، وهو إبريق فخاري ذو طينة حمراء، يتكون من بدن اسطواني، قطره حسب قطر قاعدته، يضيق في أعلاه مكونا عنق الإناء المكسور، وزود الإبريق بمقبض (مكسور) كان يربط بين البدن والعنق، من هذا الأخير تنطلق فوهة الإناء (المكسورة هي الأخرى)، وطي الإبريق بطبقة زجاجية ذات لون بني يكتنفها بعض السواد.



الصورة (٨):

"جرة فخارية" (الفترة الإسلامية)

رقم الإيداع: ٢٠١٣.٣٧

تاريخ الدخول: ٢٠١٣

الفنية مثل: اللوحات الزيتية والرسوم المنجزة كاملة باليد على أية دعامة من أية مادة كانت، والرسومات الأصلية والملصقات والصور الفوتوغرافية باعتبارها وسيلة للإبداع الأصل، والتجميعات والتراكيب الفنية الأصلية من جميع المواد مثل منتجات الفن التمثالي والنقش من جميع المواد، وتحف الفن التطبيقي في مواد مثل الزجاج والخزف والمعدن والخشب..... الخ، والمخطوطات والمطبوعات طباعة استهلاكية، والكتب والوثائق، والمنشورات ذات الأهمية الخاصة، والمسكوكات (أوسمة وقطع نقدية) أو الطوابع البريدية، وكذا وثائق الأرشيف بما في ذلك تسجيلات النصوص، والخرائط وغير ذلك من معدات رسم الخرائط، والصور الفوتوغرافية، والأفلام السينمائية، والمسجلات السمعية، والوثائق التي تقرأ عن طريق الآلة.. انظر: **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية**: العدد ٤٤ الصادرة يوم ٢٢ صفر ١٤١٩ هـ الموافق ١٧ جوان ١٩٩٨ م، ص. ١١.

(١١) تحدد المادة (٦٧) من القانون سابق الذكر الممتلكات الثقافية غير المادية بأنها: المعارف والنصيرات الاجتماعية والعادات والتقاليد والعلوم والمهارات والكفاءات والتقنيات القائمة على التقاليد في مختلف ميادين التراث الثقافي، وتمثل الدلالات الحقيقية للارتباط بالهوية الثقافية ويحوزها شخص أو مجموعة أشخاص. انظر: المرجع السابق، ص. ١٣.

(12) - DAHMANI (Nawel); **Euromed Heritage, Atelier de Beyrouth**, NOV, 2009, p.89.

(13) - Ibid. pp.86-87.

(14) - Ibid. pp.86-87.

(15) - Ibid. p.83.

(١٦) يقارن "المعهد الدولي لتوحيد القانون" بين قوانين مختلف الدول ودراسة الوسائل التي تتيح تحقيق التوافق والتنسيق فيما بين القانون الخاص لكل دولة وتجمعات الدول، ومن ثم الإعداد التدريجي لكل دولة كي تبني قواعد موحدة للقانون الخاص.

(١٧) أضيف "البروتوكول الثاني" (الملحق باتفاقية لاهاي ١٩٥٤) في ٢٦ مارس ١٩٩٩م، بعد ذلك تحسن وضع الممتلكات الثقافية في حال اندلاع النزاعات المسلحة في العالم.

(18) - DAHMANI (N); op.cit, pp.83.

(19) - DAHMANI (N); op.cit, p.89.

(٢٠) "ماركوس أوريليوس": إمبراطور روماني (من أسرة الأنطونيين). وهو أيضا فيلسوف من المدرسة الرواقية، حكم في الفترة من سنة ١٦١م إلى وفاته سنة ١٨٠م، وبوفاته انتهى عهد ما يسمى "السلام الروماني" (Pax Romana). انظر:

-GUIRAUD (P) ET LACOUR-GAYET (G); **Histoire Romaine (depuis la fondation de Rome jusqu'à l'invasion des barbares)**, Paris, FELIX ALCAN-EDITEUR, (1885), p.385-386

(٢١) في الأساطير الإغريقية القديمة تمثلت "الفورغونات" في ثلاث أخوات شريرات هن "ستينو" (Sthéno) و"أوريالي" (Euryale) و"ميدوزا" (Médusa). وهي أخطر تلك الأخوات، وتميزت تلك المخلوقات بشعاعها المتطرفة حتى أن أي أحد كان يجرؤ على النظر إليهن يتحول في حينها إلى حجر قاس.. انظر:

-BONNEFOY (Yves); **Dictionnaire des mythologies et des religions des sociétés traditionnelles et du monde antique**, Paris, ed-FLAMMARION « l'Anthropologie », N°4, Tome.96 (1981), p.712.

(22) MAREC (Erwan); **Hippone la Royale, Antique Hippo-Regius**, Alger, Presses de l'imprimerie officielle, 1954, p.68.

(١) هو متحف الفن وعلم الآثار القديمة والإسلامية. يعتبر من أقدم متاحف الجزائر وإفريقيا الشمالية، حيث تعود بداياته لسنة ١٨٣٥م. في سنة ١٨٩٦م خصصت له بناية بهية تقع في "حديقة الحرية"، وتم تدشينه بذلك الموقع في ١٩ أفريل ١٨٩٧م.

يتكون المتحف من جناحين، أقدمهما خصص للآثار القديمة، وتعرض به مقتنيات الفترة القديمة: (الفترة الليبية واليونانية، والنوميديّة، والموريطانية، الرومانية، الوندالية والبيزنطية)، والمقتنيات المعروضة جزء من مجموعات يحتفظ بها المتحف، وتشتمل على "التمائيل" و"الفسيفساء" و"الفخاريات" و"الزجاجيات" و"النقوش الليبية واللاتينية" و"المسكوكات" و"البرونزيات" و"التحف العاجية والعظمية والخشبية"، وتُعدّ هذه المجموعة الكلاسيكية بقيمتها الجمالية والوثائقية وسيلة ثمينة للتربية وتحصيل المعلومات حول ماضي العريق، أما الجناح الثاني فمخصص للفنون الإسلامية، ودشن هذا الجناح سنة ٢٠٠٣، ويتكون من عدة قاعات عرضت بها مقتنيات الفن الإسلامي، التي تعود لفترات تاريخية مختلفة (من القرن ٩ إلى ٢٠م)، وجلبت من الجزائر ومن مناطق أخرى من العالم الإسلامي؛ منها "الجصيات" والخشبيات "المطرزات" و"الملابس" و"الخزفيات" و"النحاسيات"، دون نسيان "المخطوطات" و"المنمنمات" التي تتم تلك المجموعة المنسجمة والرائعة.. انظر:

-DOUBLET (G); **Musées et collections archéologiques d'Algérie et de la Tunisie**, Paris, Ernest Leroux, 1893, p.16-18.

-WUILLEUMIER (P); **Musées et collections archéologiques d'Algérie et de la Tunisie**, Paris, Ernest Leroux, 1928, p.5-6.

-KHELIFA (Abderrahmane); **Les débuts du patrimoine en Algérie**, in: « ANNALES DU MUSEE NATIONAL DES ANTIQUITES », N°06 (1997), pp.43-48. « **Les Trésors du Musée National des Antiquités** », catalogue publié en 1997 par le Musée National des Antiquités à l'occasion du centenaire de l'inauguration du musée, p.3-6.

(2) « **Recueil législatif sur l'archéologie, la protection des sites, des musées et des monuments historiques** », Alger, Agence national d'archéologie et de protection des sites et monuments historiques, pp.13-50.

(3) - Ibid. pp. 53-54.

(4) - Ibid. pp. 57-60.

(5) - Ibid. pp. 63-64.

(6) - Ibid. pp.67-69.

(7) - Ibid. pp.73-77.

(8) « **Loi n° 98 - 04 du 20 Safar 1419**

correspondant au 15 juin 1998 relative a la protection du patrimoine culturel », JOURNAL OFFICIEL DE LA REPUBLIQUE ALGERIENNE, N° 44, paru le 22 Safar 1419 correspondant au 17 juin 1998.

(9) - Ibid. pp.4-8.

(١٠) تحدد المادة (٥٠) من قانون (٠٤/٩٨) الممتلكات الثقافية المنقولة بأنها: (ناتج الاستكشافات والأبحاث الأثرية في البروتحت الماء، والأشياء العتيقة مثل الأدوات، والمصنوعات الخزفية، والكتابات، والعملات، والاختام، والحلي والألبسة التقليدية والأسلحة، وبقايا المدافن، والعناصر الناجمة عن تجزئة المعالم التاريخية، والمعدات الانثروبولوجية والاثولوجية، والممتلكات الثقافية المتصلة بالدين وتاريخ العلوم والتقنيات، وتاريخ التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وكذا الممتلكات ذات الأهمية

مفتوحة أو مغلقة، تحتوي على واحدة أو عدة فوهات كانت توضع عليه فتيلة الإشعال.

(٣٦) "المطربة": وعاء صغير محمول من الفخار أو مواد أخرى، استعمل لحمل الماء وغيره من السوائل.

(٣٧) "الجرة": إناء فخاري، فوهته واسعة، يكون شكله كروي، بأحجام مختلفة، وكانت الجرار تستعمل لحفظ الزيت والماء... إلخ.

(٣٨) "الطاجين": هو إناء مجوف صنع من الطين، كان يعلوه عادة غطاء مخروطي، استعمل على نطاق واسع ببلاد المغرب.

(٣٩) "إبريق": إناء فخاري، بيضاوي البطن، زود بمقبض وفوهة، كان يستعمل لتخزين الماء وصبه.

(٤٠) "السيف": سلاح هجومي، منها المستقيم ومنها المقوس، وتتكون من جزأين مميزين هما: النصل والمقبض، من أهم أنواعها في الجزائر في الفترة الحديثة "سيف اليطاغان" و"سيوف فليسة" و"سيف النمشة"... انظر:- "فن الفروسية في الجزائر" (القرنان ١٨ و ١٩م)، إصدار المتحف الوطني للآثار القديمة، ٢٠١٣، ص.١١-١٣.

- DE GRAFFIGNY (H); **les armes et l'armurerie à travers les siècles**, Paris, éd-Eugene ARDANT, pp.28-30.

(٤١) يحتفظ المتحف الوطني للآثار القديمة بتشكيلات رائعة من المسدسات والبنادق المؤرخة بالقرنين ١٨ و ١٩م، والمصنعة بمناطق متعددة من الوطن وخاصة ببلاد القبائل.. انظر:- "فن الفروسية في الجزائر" (القرنان ١٨ و ١٩م)، إصدار المتحف الوطني للآثار القديمة، ٢٠١٣، ص.٢٨-٤١.

(23) DAHMANI (Said); **Hippo-Regius**, Alger, Agence nationale d'archéologie et de protection des sites et monuments historiques, p.36.

(٢٤) "المتحف العمومي الوطني للباردو": من أشهر المتاحف في الجزائر، وهو متحف مختص في الانتوغرافيا وآثار ما قبل التاريخ، أسس سنة ١٩٣٠م، وكل التحف التي تعود لتلك الفترة وتحجزها قوات الأمن تسلم لذلك المتحف.

(٢٥) "الحضارة العاترية": تنسب لمنطقة "بئر العاتر" (ولاية تبسة)، وهي من حضارات العصر الحجري الأعلى، انتشرت من المحيط الأطلسي غرباً حتى مصر شرقاً واخترقت الصحراء الكبرى لتصل حتى منطقة البحيرات الكبرى وسط أفريقيا.. انظر:

-DEBENATH (Andre); **Hommes et cultures matérielles de l'Atérien marocain**, in « l'ANTHROPOLOGIE », N°4, Tome.96 (1992), p.712.

(٢٦) "ماسينيسا" ابن "غايا" قائد وملك أمازيغي، ولد سنة ٢٣٨ ق.م، برز نجمه في الحرب البونية الثانية (٢٠٢-٢١٨ ق.م)، في سنة ٢٠٢ ق.م قام بتوحيد المملكتين النوميديتين الشرقية والغربية واختار "سيرتا" عاصمة لمملكته الكبيرة، اتبع سياسة مسالمة لروما ولكن كان دائماً ينادي بشعار "إفريقيا للأفارقة". عمر طويلاً ومات سنة ١٤٨ ق.م.. انظر: الميلي (مبارك): تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج.١، ص.١٧٩-١٨٥.

-KADRA HADJADJI (Houaria); **Massinissa le Grand Africain**, Paris, ed-KARTHALA, (2013), p.52.

(٢٧) "أنطون التقي" (١٣٨-١٦١م)، إمبراطور روماني، من سلالة "الأنطونيين"... انظر:

-GUIRAUD (P) ET LACOUR-GAYET (G); **op.cit**, pp.383-384.

(٢٨) "ليكينئوس": إمبراطور روماني، حكم في الفترة من (٣٠٨-٣٢٤م).

(٢٩) "الإمبراطور قسطنطين الأكبر" (٣٠٦-٣٣٧م)، من أشهر أباطرة الرومان في القرن الرابع للميلاد، أعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة سنة ٣١٣م، وفي سنة ٣٣٠م اختار القسطنطينية "كعاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية، وتوفي سنة ٣٣٧م.

(٣٠) "قسطنطس": (٣٣٧-٣٥٠م)، أحد أبناء "قسطنطين الأكبر" حكم الأقاليم الغربية للإمبراطورية الرومانية اغتيل سنة ٣٥٠م.

(٣١) "قسطنطسوس الثاني": (٣٣٧-٣٦١م)، ابن ثان لـ "قسطنطين الأكبر" وخليفته على القسم الشرقي للإمبراطورية.

(٣٢) "دولة الموحدين" (١١٣٠م-١٢٦٩م)، أسسها الزعيمان "المهدي بن تومرت" ثم خليفته من بعده "عبد المؤمن بن علي"، وهي أعظم دولة حكمت بلاد المغرب كلها بالإضافة للأندلس، عرفت المنطقة في عهد الموحدين ازدهار وأرقى فترات الحضارة، اشتهر الموحدون بضرب النقود المربعة (من فئة الدرهم الفضي).. انظر: الميلي (مبارك): تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج.٢، ص.٣٠٠-٣٠٥-الزركشي (أبي عبد الله محمد بن إبراهيم): تاريخ الدواوين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، تونس، المكتبة العتيقة، ط.٢، ١٩٦٦، ص.٢-٧.

(٣٣) "أغسطين دوبري": (١٧٤٨-١٨٣٣م)، نقاش فرنسي على النقود والميداليات وخاصة في عهد الجمهورية الفرنسية الأولى (١٧٩٨-١٧٩٩م).

(٣٤) كانت "ألففورات" تستعمل في العهود القديمة لنقل وتخزين السوائل (زيت، خمر) والحبوب.. إلخ.

(٣٥) "المصابيح الزيتية": هي عبارة عن أواني مصنوعة من المعدن وغالباً من الفخار، كانت الأداة الرئيسية للإضاءة منذ فترة ما قبل التاريخ، وهي أنية

المخطوطات الأدبية الإسلامية في شبه القارة الهندية خلال العصر المغولي (١٥٢٦ - ١٨٥٧م) (دراسة أثرية تاريخية)

د. تامر محي الدين محمد مندور

مفتش آثار

منطقة آثار وسط الدلتا

وزارة الآثار - جمهورية مصر العربية



ملخص

يُعَدُّ العصر المغولي في الهند (١٥٢٦ - ١٨٥٧م) من أعظم العصور التاريخية الحضارية التي مرت على الهند، وعندما أرسى أباطرة المغول الأوائل حكمهم في الهند -خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين- بدأت الورش والإستديوهات الملكية بإنتاج عدد غزير من مخطوطات الأدب الفارسي الكلاسيكي والذي انتشر في إيران وأواسط آسيا منذ القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين حتى القرن التاسع عشر الميلادي، حيث أصبح إنتاج هذا النوع من الأدب الإسلامي في الهند منافسًا لما يتم إنتاجه في إيران خلال القرون الثلاثة التي حكم فيها المغول التيموريين شبه القارة الهندية (القرون ١٦، ١٧، ١٨م)، وأيضًا يعتبر إنتاج هذا النوع من الأدب الإسلامي في الهند امتدادًا لما تم إنتاجه من مخطوطات الأدب الفارسي الكلاسيكي خلال العصر الإسلامي السابق للعصر المغولي وهو ما يسمى عصر سلطنة دلهي (١٢٠٦ - ١٥٢٦م). هذا وقد تم إنتاج هذه المخطوطات الفارسية في مراكز محلية مختلفة في شبه القارة الهندية خلال العصر المغولي وخصوصًا في الهندستان (النصف الشمالي منها). ويتناول هذا البحث موضوع تاريخ الأدب الإسلامي بوجه عام في شبه القارة الهندية في العصور الوسطى من خلال المخطوطات الشعرية والنثرية المختلفة والتي تم إنتاجها خلال العصر المغولي، وتتميز هذه المخطوطات بتصاويرها ومنمنماتها الموضحة للنصوص والجلابة للمتعة والمؤانسة والمميزة لأساليب المدرسة المغولية الهندية في التصوير الإسلامي. وينقسم الأدب الإسلامي في الهند إلى نوعين؛ أولهما الأدب الفارسي الكلاسيكي والذي ظهر في الهند خلال عصر سلطنة دلهي ثم انتشر بشكل كبير خلال العصر المغولي، وثانيهما الأدب الأردّي والذي نشأ في الهند خلال عصر سلطنة دلهي ثم سار بديلاً عن الأدب الفارسي في النصف الثاني من العصر المغولي (القرنين ١٨، ١٩م).

بيانات الدراسة:

كلمات مفتاحية:	تاريخ استلام البحث:
المخطوطات الفارسية، مخطوط ديوان حافظ، مخطوط الشاهنامه، مخطوط حمزة نامه، المخطوطات الأردية، شبه القارة الهندية	٢٤ أغسطس ٢٠١٤
	تاريخ قبول النشر: ٩ نوفمبر ٢٠١٤

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

تامر محي الدين محمد مندور، "المخطوطات الأدبية الإسلامية في شبه القارة الهندية خلال العصر المغولي (١٥٢٦ - ١٨٥٧م): دراسة أثرية تاريخية"، دورية كان التاريخية، العدد الثلاثون، ديسمبر ٢٠١٥، ص ١٦٧ - ١٨١.

مقدمة

الميلادي على يد الأتراك الغزنويين ثم الغوريين فالملاليك وغيرهم (عصر سلطنة دلهي)، حيث توالى الدول الإسلامية حتى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي عندما جاء المغول التيموريين وأصبحوا سادة الهند وأباطرتها لمدة تزيد على ثلاثة قرون (١٥٢٦ - ١٨٥٧م). وقد كان للأدب الفارسي شأنًا كبيرًا في الهند خلال العصر المغولي، علاوة على ذلك؛ التأثير الكبير بالفن

لقد كانت للثقافة الإسلامية عامة وللفارسية منها خاصة التأثير الأعماق والأكثر انتشارًا في شبه القارة الهندية (الهند وباكستان الآن) خلال العصور الوسطى، وخصوصًا في النصف الشمالي منها وهي ما يطلق عليه اسم "الهندوستان"، وهي المناطق التي حكمها المسلمون في الهند وسيطروا عليها بالكامل منذ أواخر القرن الحادي عشر

كثيراً من القصص والحكايات قد انتقلت من إيران إلى العالم العربي وحتى إلى غرب أوروبا. وكان الأدب الفارسي أكثر تنوعاً في أشكاله ومحتواه من ذلك الأدب المكتوب باللغة العربية الكلاسيكية. وعلى الرغم من أن اللغة الفارسية اتخذت الكثير من القواعد الأساسية للغة العربية (كعلم العروض وأنماط القوافي)، إلا أنه كُتبت بها أنواع جديدة من الأدب كالشعر الملحي الذي قدم من إيران والشعر الغنائي الرائع والمرن الذي وصل إلى أجود تعبيراته في اللغة الفارسية.^(٤)

إن مضمون الشعر عند المسلمين في بلاد فارس يحمل بوضوح إشارات الوطنية والقومية، في حين أن النمط الشكلي له قد أخذ بصماته من اللغة العربية. وعلى مر السنين، وبداخل إطار أوزان الشعر العربي، فإن الفرس قد طوّروا أشكال أفضل للشعر بحيث تناسب مزاجهم الأدبي. ومن هذه الأشكال ما يسمى بـ "المثنوي" بمعنى مزدوج ونسبة إلى كلمة "مثنى"؛ وهذا الشكل يستند على قافية مزدوجة أو ثنائية في البيت الشعري الواحد، وشرطه أن يكون الشطران من روي واحد لا يلتزم في بقية المنظومة، ورغم أن هذا الشكل يتكيف مع العربية إلا أنه مصبوغ في شكل فارسي متميز. وتستخدم المثنويات في الأساس للقصائد الطويلة الملمحة ذات الصبغة القصصية أو التعليمية، لأن هذا النوع من المنظومات أطوع ما يكون للشاعر وأعون على امتداد النفس واتساع الأفق، ومن هذه المنظومات "الشاهنامه" أو "كتاب الملوك" للفردوسي (ت. ١٠٢٠م)، و"المثنوي المعنوي" أو "العروش السبعة" لجلال الدين الرومي (ت. ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م)، و"بنج گنج" أو "الكنوز الخمسة" لنظامي الكنجوي (ت. ٦١٣هـ/ ١٢١٧م) (خمسة نظامي)، و"هفت اورنگ" أو "العروش السبعة" من نظم الشاعر جامي (ت. ٨٦٥هـ/ ١٤٩٠م). وأيضاً من أشكال الشعر الفارسي المبتكرة هو "غزل"، والغزليات من أحب المنظومات إلى الشعراء الفرس وأوفقها لطبيعتهم، والغزل منظومة ذات روي واحد لا تقل أبياتها عن سبعة ولا تزيد على خمسة عشر، ويستخدم الغزل عادةً للشعر الغنائي، ولا يختلف عن "القصيدة" إلا من حيث الموضوع وعدد الأبيات، والأصل في موضوعات هذا النوع من المنظومات هو الغزل إلا أنها قد تتناول أحلام الصوفية من خمر وغناء وغيره. ومما يلتزمه شاعر الغزل أن يذكر اسمه الشعري في البيت الأخير أو قبل الأخير وهو ما يعرف عند الفرس والترك بالتخلص أو المخلص، ويختار الشاعر تخلصه من اسمه كالشاعر الفارسي المتخلص بسعدي نسبة إلى الأمير سعد بن زكي واسمه مشرف الدين مصلح. ومن أهم شعراء هذا النوع من المنظومات الشاعر سعدي (المذكور أعلاه) (ت. ٦٩١هـ/ ١٢٩٢م)، والشاعر حافظ الشيرازي (ت. ٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م). وكذلك من هذه الأشكال الشعرية الفارسية المبتكرة هي "الرباعي" أو "دوبيت"، ويتألف من أربعة أشطر فقط (بيتين) فيما الأول والثاني والرابع في الروي ويختلف الثالث، وقد يكون الرباعي عبارة عن بيتين مأخوذتين من مطلع "قصيدة" أو "غزل" ويشترط فيه دائماً أن

الفارسي، وساهم في ذلك أمرين هامين: أولهما رغبة الأباطرة المغول وشغفهم بالأدب والفن الإسلامي الفارسي، وثانيهما هجرات بعض الأدباء والعلماء والفنانين من إيران وأواسط آسيا إلى الهند خلال العصر المغولي وما قبله خلال العصور الوسطى.

وعلى ذلك؛ فإن هذا البحث يوضح مسار تاريخ الأدب الإسلامي في الهند، ونشأته وانتشاره ودور الرعاية في ذلك، وأيضاً معرفة أنماطه وألوانه، وكذلك تأثيره على المجتمع الهندي من خلال دراسة المخطوطات الأدبية الإسلامية التي تم إنتاجها في الهند خلال العصر المغولي. ومن أهم أسباب اختياري لهذا البحث هو ندرة الدراسات العربية -أو على الأقل من الباحثين العرب- في موضوعات تاريخ الأدب الإسلامي والمخطوطات الإسلامية الغير عربية وتاريخها في آسيا عمومًا والهند خصوصًا. فإني أحاول في هذا البحث أن أقدم للقارئ العربي قدرًا ولو ضئيلاً عن هذا الجانب الهام من تاريخ الأدب الإسلامي في الهند من خلال المخطوطات. فقد قصدت في هذا البحث أن ألقى الضوء على موضوعات المخطوطات الإسلامية في الهند -وخصوصًا المزينة بالتصاوير والمنمنمات- وتاريخ الأدب وأنواعه، وذلك على حساب تخصصي الدقيق وهو تاريخ الفن والتصوير الإسلامي؛ فقامت بكتابة هذا البحث بدون دراسة وصفية وتحليلية للصور والمنمنمات المرفقة وانصب اهتمامي على الناحية الموضوعية في هذه المخطوطات وتاريخها؛ حتى يتثنى لي التركيز على سد هذا الفراغ الملحوظ في الدراسات العربية المتخصصة، ولكي أستطيع الالتزام بما هو متاح للنشر.

أولاً: المخطوطات الأدبية الفارسية

لقد اتخذ المغول اللغة الفارسية كلغة رسمية للحكومة والبلاط ولكتابتهم التاريخية ومراسلاتهم، فليس من المستغرب أن يعتزوا بالأدب الفارسي ويجمعوا المخطوطات الفارسية بشغف.^(١) وقد كان قبلهم سلاطين دلهي (١٢٠٢-١٥٢٦م) يراعون التعليم والأدب، وكان الكثير منهم محب للأدب العربي والفارسي، وجاء تعلم رجالهم من بلاد فارس، وحصلت اللغة الفارسية على تشجيعهم.^(٢) وكنتيجة لحب واهتمام سلاطين دلهي للكتب والأدب فأنشئوا إستوديوهات أو ورش (المرسوم الملكي) في البلاط الملكي لإنتاج الكتب والمخطوطات، حيث يُصنع الورق المصقول وتُكتب النصوص وتُوضع بالرسوم التوضيحية والمنمنمات، ثم تتم عمليات التجليد في جلود رقيقة وزخرفتها، ولم يكن هذا التقليد وهذه الصناعة لم تُأسس بشكل كامل في إيران حتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، ولكن الحكام المسلمين الجدد في الهند (سلاطين دلهي) قدموا معتقداتهم الخاصة عن الكتب وإنتاجها، فلم يتعاملوا مع أوراق النخيل (السعف) وبدأوا باستيراد الورق من إيران وغيرها قبل إنشاء مراكز الإنتاج الخاصة بهم.^(٣)

ومن الجدير بالذكر: أنه منذ سنة ٦٤١م قد دخل المسلمون إيران، وأثرت اللغة الفارسية على الذوق الأدبي وأصبحت ظاهرة في الأدب العربي من منتصف القرن الثامن الميلادي فصاعدًا. وإن

سياسية من شأنها أن تتجاوز وتتفوق على الهويات الدينية الهندية. وأصبحت اللغة الفارسية بالنسبة إليهم وسيلة لتحقيق هذه الغاية، وبالتالي فإن اللغة الفارسية قد نمت لتكون لغة الإمبراطورية ولعبت دور توحيد القوة مما أتاح للدولة المغولية لإنشاء نظام موحد للحلفاء لتجاوز كل الخلافات الثقافية.^(١١)

ورغم أن اللغة الفارسية التي قدمها المسلمون أصبحت اللغة الكلاسيكية البديلة عن السنسكريتية، إلا أنها ظلت مختصرة في الأبلطة الملكية والطبقة العليا من المسلمين والهندوس الذين تعلموها لأغراض ثقافية ومهنية، وظلَّ أغلبية الشعب -سواء من المسلمين أو الهندوس- بعيدون عن تأثير اللغة الفارسية يفقدها للجذور في التربة الهندية، وأصبحت مع مرور الزمن لغة ميتة تمامًا مثل اللغة السنسكريتية.^(١٢)

ومن أهم المخطوطات الأدبية الفارسية التي أنتجت في العصر المغولي كما يلي:

- مخطوط "الشاهنامه": هو كتاب الملوك، ويُعد قصيدة ملحمة عن الملوك القدامى في إيران، ويُعتبر أهم عمل في الأدب الفارسي، وتم إنتاج نسخ مصوّرة عديدة من الشاهنامه في المراسم الملكية (الورش) للحكام الإيرانيين في أبلطة بخارى وهراة وتبريز وأصفهان وغيرهم، خلال العصور المغولية والتميمورية والصفوية وأيضًا القاجارية في إيران، وكذلك تم إنتاج نسخ مصوّرة منها في المراسم الملكية المغولية في الهند.^(١٣)

وهي ملحمة شعرية فارسية، نظمها الشاعر الفارسي أبو القاسم الفردوسي،^(١٤) وهو أكبر شعراء القرن الخامس الهجري. وهذه الملحمة تصوّر لنا التاريخ الفارسي القديم، وتعطى رؤية تاريخية للعصر الساساني الذي سبق الفتح الإسلامي. وكان عمر الفردوسي عند نظمها يقارب الأربعين سنة، وهي أكبر ملحمة في التاريخ صاغها شاعر واحد، ويبلغ عدد أبياتها نحو (٦٠) ألف بيت، وتتناول قصص أربع أسرات فارسية وتاريخها، فهي قرآن القوم، وقد أجمع فصحاء الفرس على أنه ليس في لغتهم أفصح منها، ولا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها مثل الشاهنامه، وصوّر فيها الفردوسي وقائع البطولات والانتصارات وأعياد الفرس، كما تتضمن بعض كلمات عربية لا تتجاوز (٤٣٠) كلمة. وقد ترجمها البنداري إلى اللغة العربية في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وعبد الرحمن عزام في القرن العشرين الميلادي، وتأثر بالشاهنامه عديد من الأدباء العرب والأوروبيين.^(١٥)

وقد كُتبت هذه الملحمة الشعرية بشكل "الثنوي" مع استخدام وزن الشعر المسمى "مقارب"،^(١٦) ومخطوطات هذه القصيدة تختلف في الطول على نطاق واسع، والمحتوى الأطول يصل إلى ستين ألف بيت. وهي بوجه عام تُقسم إلى ثلاثة أقسام غير متساوية: القسم الأسطوري الأقصر، والقسم الأسطوري الأكبر، والقسم الشبه تاريخي. ويقتبس الفردوسي من كل من المصادر المكتوبة والمصادر الشفهية، بل يتضح أنه يعتمد اعتمادًا كبيرًا على

يكون على وزن من الأوزان الخاصة المستخرجة من "الهنج" كما يشترط فيه أن يكون وافيًا بالغرض الذي أنشئ من أجله. وأهم هذه الرباعيات هي رباعيات الشاعر عمر الخيام.^(١٧)

ولم تكن أبدًا الثقافة الفارسية مقيدة بإيران نفسها وما حولها من بلدان، فإن شمال غرب الهند (باكستان الآن) أصبحت مركزًا من مراكز الأدب الفارسي الإسلامي منذ بدايات القرن الحادي عشر الميلادي بجانب دلهي وأجرا. وهذه المناطق بقيت معقل الحياة الثقافية الإسلامية والتي امتدت بعد ذلك إلى البنغال في الشرق وإلى الدكن في الجنوب، وبقيت الفارسية اللغة الرسمية للهند الإسلامية حتى عام ١٨٣٥م عندما أُستبدلت باللغة الإنجليزية. وقد كُتبت بالفارسية أرفع الأعمال الشعرية والنثرية والتاريخية.^(١٨) وهناك أدباء وشعراء فارسيون عظماء أمثال حافظ وسعدي وجلال الدين الرومي وعمر الخيام والفردوسي ونظامي وجامي وغيرهم قد ألهموا الكتاب في جميع أنحاء الهند -خاصة في الشمال- بموضوعات الأدب الفارسي، وكذلك الأمر صحيح بالنسبة لأشكال النثر والشعر الفارسي كالغزل والمثنوي والرباعيات.^(١٩)

ولقد كان هناك منذ عهد الإمبراطور بابر (١٥٢٦ / ١٥٣٠م) وصولاً إلى الإمبراطور أورنجزيب (١٦٥٩ / ١٧٠٧م) طابور رائع من الشعراء الذين نزحوا إلى الهند من بلاد فارس (إيران) وبخارى وسمرقند وهراة وتركستان، وقد إنجذبوا إلى الهند بواسطة سخاء وكرم المغول وأبلطة الدكن في الجنوب. ومع هؤلاء تحول مركز الشعر والأدب الفارسي إلى الهند. وقد تم جمع أعمالهم الأدبية مع الأعمال الأخرى لما سبقهم من الكتاب الأصليين في مجال النثر والشعر الفارسي، وفي مراحل معينة تفوقوا على الكتاب الفارسيين أنفسهم، ولهذا العصر المغولي في الهند وقفة واضحة في تاريخ الأدب الفارسي. وتقريبًا جميع الشعراء والكتاب المبدعين في اللغة الفارسية منذ عهد السلف العظيم لباير "تيمورلنك" كانوا يأتون أو يفكرون في المجيء إلى الهند والتواصل مع حكامها. حتى "جامي" الشاعر والأديب الرئيسي في عصر بابر والذي نُصِب كرئيس لفرقة الشعر مثل سلفه حافظ الشيرازي -الذي ازدهر في عصر تيمور- كان يطمح في زيارة الهند، فقد كان جامي بالمثل كحافظ على اتصال مع الأبلطة الهندية، ويوجد نموذج وحيد للدلالة على ذلك وهو إرساله قصيدة غنائية من تأليفه لأحد النبلاء في الدكن وكان ينتظر تقديره ورعايته.^(٢٠)

وفيما بين معاصرو بابر من كتاب وشعراء الأدب الفارسي هناك العديد منهم قد جاءوا إلى الهند وكتبوا أعمالهم تحت الرعاية الهندية، ولا يوجد شبهة لهذه الفترة التي هاجر فيها عدد كبير من كتاب وشعراء الأدب الفارسي مما أكسب اللغة الفارسية في الهند أهمية خاصة،^(٢١) والتي أصبحت واسعة الانتشار في الإمبراطورية المغولية منذ عهد الإمبراطور أكبر.^(٢٢) وإن الأدب الفارسي تحت الحكم المغولي قد تطور كثيرًا، وقد سعى المغول لتعزيز سلطة إمبراطوريتهم بالتفوق اللساني واللغوي والأهم من ذلك لخلق ثقافة

أحد في وجوده وأنه ناظم هذه الملحمة الرائعة، على حين يكثر خلاف المؤرخين في الإلياذة وناظمها، وعلى حين أن المهاجراتا والرميانا (الراماينة) الملحمتين الهنديتين من نظم شعراء عديدين بعضهم مجهول، فالشاهنامه سجل تاريخ أمة وأساطيرها منذ أقدم عصورها، وهذا لا يُعرف في منظومة أخرى.^(٢٠)

وقد أتم الفردوسي ملحمة الشاهنامه في صورتها الأولى بعد خمس وعشرين سنة من الكدح المتواصل، ثم سافر إلى غزنة في سنة (٩٩٩م) راجيًا أن يهديها إلى السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي. ويؤكد لنا أحد شعراء الفرس الأقدمين أنه كان في غزنة أربعمائة شاعر لا يفارقون مجالس السلطان محمود، ولو صح هذا لكان وجود هؤلاء الشعراء عقبة في سبيل الفردوسي، لكنه مع هذا أفلح في استرعاء اهتمام الوزير فجاء بالمخطوط الضخم إلى السلطان. وتقول إحدى الروايات إن محمودًا هيا للشاعر مسكنًا مريحًا في قصره، وأمهه بقدر ضخمة من المادة التاريخية، وأمره أن يضمها إلى ملحمة. وتجمع كل الروايات التي وصلتنا من هذه القصة على اختلاف صورها أن محمودًا وعده أن يعطيه دينارًا ذهبيًا نظير كل بيت من القصيدة في صورتها الجديدة، وظلَّ الفردوسي يكدح زمنيًا لا نعرف طوله؛ بلغت بعده القصيدة حوالي سنة (١٠١٠م) صورتها النهائية، وحيء بها إلى السلطان. وأوشك محمود أن يبعث إلى الفردوسي المبلغ الموعود، ولكن بعض بطانته استكثروا العطاء، وأضافوا إلى هذا قولهم إن الفردوسي زنديق شيعي ومعتزل، فاستمع لهم محمود وبعث للشاعر بستين ألف درهم فضي، فغضب الشاعر وأراد أن يظهر غضبه واحتقاره فقسم المبلغ بين خادم حمام وبائع شراب ثم فر إلى هراة، حيث اختفى ستة أشهر في حانوت بائع كتب، حتى يئس من العثور عليه عمال محمود الذين أمرهم بالقبض عليه. ثم لجأ الفردوسي إلى شهربار أمير شيرزاد في طبرستان، ونظم قصيدة يهجو فيها محمودًا هجاءً لاذعًا، وخشي شهربار غضب السلطان فابتاع القصيدة بمائة ألف درهم وأتلفها.

وإذا جاز لنا أن نصدق هذه الأرقام، ونعتقد بصحة تقديرنا إياها بنقود هذه الأيام، حكمنا من فورنا أن الشعراء كان من أكثر الأعمال إدرارًا للربح في فارس في العصور الوسطى. وانتقل الفردوسي بعدئذٍ إلى بغداد وكتب فيها قصة شعرية طويلة هي قصة "يوسف وزليخا"، ثم عاد إلى طوس وكان وقتئذٍ شيخًا في السادسة والسبعين من العمر. وبعد عشرين سنة من عودته سمع محمودًا بيتًا من الشعر فأعجب بقوة معناه وجزالة لفظه فسأل عن قائله، ولما علم أنه من شعر الفردوسي ندم على أنه لم يكافئه بما وعده به، وأرسل إليه قافلة من الإبل تحمل ما قيمته ستين ألف دينار، ومعها رسالة اعتذار منه، ولما دخلت القافلة مدينة طوس التقت فيها بجنائز الفردوسي.^(٢١)

ومع شاهنامه الفردوسي قد تأسست المثل العليا لجميع الأشعار الملحمة اللاحقة، فبعده بقليل جاء جورجاني (ت).

المصادر المكتوبة في القسم الشبه تاريخي، ولكن يعتمد على المصادر الشفهية والتي تتناقلها ألسنة الناس في القسمين الآخرين. وعلى النقيض من الكتاب المعاصرين للفردوسي فهو اهتم بماضي إيران قبل الإسلام، وحاول أن يدمج بين أساطير الخلق الفارسية أو المواد الأسطورية الفارسية مع الروايات القرآنية في التاريخ المبكر للعالم.^(١٧)

وقد قصد الفردوسي متعمدًا- كما تدلنا على ذلك المقارنة بين الشاهنامه وبين الشعر المعاصر لها- أن يصوغها في أقدم العبارات والأساليب، ولا يستطيع أحد أن يدعي أنها خالية من الألفاظ العربية كما يظن ذلك بعض الناس ممن لا قدرة لهم على التحقيق والتمحيص.^(١٨)

وقد قال بعض المؤلفين إن الشاهنامه هي إلياذة الشرق، وذلك التشبيه غير صحيح من بعض الوجوه، فإن الشاهنامه جديدة أن يكون لها بين أمم الشرق مكانة أرفع من مكانة الإلياذة بين أمم الغرب، ذلك بأن الإلياذة قصة حروب وقعت في معترك ضيق من آسيا الصغرى بين اليونان والطوراديين، وهي زهاء ثمانية آلاف بيت، تستمر حوادثها ستة وخمسين يومًا. والشاهنامه تقص أحداث ميدانها ما بين الهند والصين إلى البحر المتوسط، وتشمل كل الروايات من تاريخ الأمة الإيرانية وأساطيرها من أقدم عصورها إلى العهد الإسلامي، ويشترك في وقائعها التورانيون (الترك) والعرب والروم والهند، ولا تُحرم الصين من نصيب فيها، فكل أمم آسيا العظيمة وبعض أمم أوربا يتناولها موضوع هذا الكتاب العظيم. فقد أوعى الكتاب من التاريخ والأساطير ما هو جدير بعناية المؤرخ الناقد، مؤرخ السياسة أو مؤرخ الأدب والاجتماع.^(١٩) وأيضًا مؤرخ الفن لما في نسخها من تصاوير ورسوم في عهود ومدارس فنية مختلفة.

وقد وصفت الشاهنامه نشوء الحضارة الإيرانية وتطورها، وقصّت تاريخ الإيرانيين بملوكهم وأبطالهم وكبرائهم في القرون المتطاولة، وأظهرت عما كان بينهم وبين الأمم المجاورة من عداة ومودة وحرب وسلم. فهي المنظومة العجيبة التي تتناول حوادث قرون وأمم كثيرة، لا ينبغي أن تُشبه بالإلياذة الضيقة الحدود؛ وينبغي أن تكون عناية الشرقيين بها أعظم من عناية الغربيين بالإلياذة ولا ريب أن في الشاهنامه أساطير كثيرة، ولكن الأساطير في الأدب أروع من الحقائق. ولا تُنكر دلالة الأساطير على تطور الأمم وعلى كثير من عاداتها وأخلاقها، فإن الأساطير وليدة خيال الأمة وأمانها، لا يحدها الواقع ولا تضيقها الحقيقة، وكم في أساطير الشاهنامه في العهدين الأول والثاني - عهدي البيشداديين والكيانيين - من حقائق دينية واجتماعية وتاريخية ألبست ثوب الخيال وحُرفت فيها الوقائع والأسماء. وللشاهنامه ميزة أخرى على الإلياذة، وملاحم أخرى كالمهاجراتا والراماينة، بأنها من عمل شاعر واحد، إذا استثنينا الألف بيت التي نظمها الدقيقي (ت). ٣٦٥هـ/٩٧٥م)، والفردوسي ناظمها شاعر تاريخي معروف لا يشك

٢٤٤هـ/١٠٥٠م) ليقدم لنا رائعة الرومانسية على أساس أسطورة من أصول ومصادر قبل الإسلام، ويليها نظامي (ت. ٦١٣هـ/١٢١٧م) والذي ألف مالا يقل عن أربعة ملاحم يغلب عليها الطابع الرومانسي، وبالتالي فقد وضع نموذج لعدد كبير من المؤلفات المماثلة، من بينها أعمال الشاعر أمير خسرو في دلهي (ت. ٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، وكذلك أعمال الشاعر جامي (ت. ٨٩٥هـ/١٤٩٠م) والتي حققت شهرة واسعة.^(٢٢)

وتحتفظ متاحف ومكتبات العالم بنسخ مصوّرة عديدة وأوراق مُبعثرة من الشاهنامة من عصور وأماكن مختلفة ومدارس فنية متنوعة، ومنها ما يُنسب إلى الهند خلال العصر المغولي من مراكز فنية مغولية مختلفة (لوحة ١، ٢). وتحتفظ دار الكتب المصرية بالقاهرة بست نسخ فارسية من كتاب الشاهنامة جميعها مزوّقة بالتصاوير الملونة، منها خمسة مخطوطات تكوّن مجموعة متكاملة حيث أنها تنتمي بحسب أساليبها الفنية إلى المدارس التصويرية التي ازدهرت في إيران خلال العصور الإسلامية، كما أنها تشتمل على تواريخ نسخها كما ورد بخاتمة كل مخطوطة من هذه المخطوطات الخمس لتؤكد نسبتها إلى إيران.^(٢٣) أما النسخة السادسة من هذه المخطوطات فتنسب إلى كشمير في الهند، وهي في مجلد وتحتوي على الأجزاء الأربعة لكتاب الشاهنامة، وتحتوي في متنها على (٥١) صورة كبيرة غير متقنة.^(٢٤)

- مخطوط "حمزة نامه" أو مغامرات حمزة: هي ملحمة أدبية ضخمة في مخطوط من إنتاج المرسم الملكي للإمبراطور أكبر، والنسخة الأصلية لهذا المخطوط (لوحة ٣) تضمنت (١٤٠٠) ورقة ضخمة، وزُتبت هذه الأوراق في (١٤) مجلد، وحُفظ كل مجلد في صندوق كبير، وقد أُنجز الرسم على النسيج القطني الذي شكّل الدعم الرئيسي للورقة الثقيلة الضخمة المتعددة الطبقات، فكل صورة مرسومة على القماش ومبطنة بالورق، والكتابة باللغة الفارسية بخط النستعليق، والأسلوب الأدبي المستخدم هو العامية، والقص يُروى إلى الجماهير الأمية للتشويق والإثارة. وقد استغرق العمل في المرسم لإنتاج هذا المخطوط أكثر من خمسة عشر سنة، ربما من (١٥٥٧-١٥٥٨م) إلى (١٥٧٢-١٥٧٣م)، ويذكر بعض الباحثين أن العمل بهذه المخطوطة بدأ من عام ١٥٦٢م. ولم يتبقى اليوم من أوراق هذا المخطوط غير حوالي ١٧٠ ورقة موزعة بين المجموعات الفنية حول العالم، ويعتبر هذا المخطوط أكبر عمل ضخّم من إنتاج المرسم الملكي للإمبراطور أكبر، بل يمكن اعتباره أكبر مشروع تم إنتاجه في تاريخ التصوير الهندي، وتصاويره يُفترض بها أن تمثل تنويعًا مرحلًا التطور للأسلوب المغولي الهندي المبكر في التصوير.^(٢٥)

وقد كُتب أول نص من مغامرات حمزة منذ حوالي (١٢٠٠ سنة) مضت. وهذه المغامرات غير واضحة بشكل ملحوظ في الحدود الزمنية والجغرافية والقصصية، والبذور التاريخية لقصص حمزة ربما كانت عن "حمزة بن عبد المطلب" عم النبي صلى الله عليه

وسلم الذي وُلد في مكة سنة ٥٦٧م، وكان محاربًا جسرًا اشترك في معركة وحيدة ضد المشركين ومات يقاتل من أجل الإسلام، وربما كانت هذه الحكايات عن "حمزة بن عبد الله" والذي عاش في بلاد فارس حوالي (٢٠٠ سنة) لاحقًا، وكان أيضًا أحد الزعماء العسكريين الإسلاميين، وقاد تمرد فارسي ضد الخليفة العباسي وشنّ حملات عسكرية على الهند والصين. وقد حددت هذه القصص والحكايات وطن حمزة على أنها بلاد فارس، ونُشرت على نطاق واسع باللغة الفارسية العامية (الشفهية) والمكتوبة في بلاد فارس منذ (١٠٠٠ سنة). وخلال السنوات اللاحقة انتشرت هذه الحكايات بشكل شفهي ومكتوب في اللغات والأماكن في جميع أنحاء العالم الإسلامي بما فيها السودان وتركيا والهند وماليزيا وجاوه. ولم تأخذ هذه المغامرات الشكل الديني والشرعي قط، وقد جذبت اهتمام مختلف الأشخاص عبر العالم الإسلامي فيما لا يقل عن خمسمائة سنة.^(٢٦)

وهي مغامرات رومانسية تشمل شخصيات وحوادث وموضوعات مختلفة، وتحول فيها حمزة إلى مقاتل لا يكلّ ويتجاوز الإسكندر الأكبر في نطاق جولته، فلم يسافر حمزة فقط في نطاق قلب العالم الإسلامي ولكن سافر أيضًا إلى مواقع عديدة من العالم مثل آسيا الوسطى واليونان وطنجة، وفي أغلب الأحيان يقابل النبي خضر الأسطوري بصفته مساعد ومرشد المسافرين الأتقياء الذين يخشون الله. وتدور المعارك فيها بين جيوش الإسلام والكفار، وعادةً ما تشتمل على قتال مفرد بين محاربين، والإسلام دائمًا ينتصر في النهاية، ومصير الكفار إما اعتناق الإسلام سواء كان مضطّرًا أو صادقًا وإما الموت. وفي جزء من المغامرات يسافر حمزة إلى عالم آخر ويتحالف مع بعض المخلوقات الخيالية ويقاتل آخرون. ولا تزال هذه المغامرات تذكّر قوة للتفاعل الوثيق بين البلاط الإسلامي والأدب الشعبي.^(٢٧)

وقد كان أكبر يستشهد دائمًا بهذه القصص والحكايات الخاصة بمغامرات حمزة، والتي كانت تُحكى له منذ صغره، وكانت هذه القصص بما تحويه من حيوية ورعب تثير تخيل الإمبراطور خاصة في بدايات حكمه عندما كان سنه مازال صغيرًا، وربما كان ذلك السبب الرئيسي في اختياره "حمزة نامه" ليكون أول إنتاج رسمي في المرسم الملكي. وكان أكبر شغوفًا بالقصص الأدبية الشعبية، فبخلاف "حمزة نامه" قد أُنتج في عهده عدد من المخطوطات الأدبية ذات الطابع الشعبي، ومن أهمها مخطوط "طوطي نامه" أو "حكايات الببغاء"؛ ونسخته الأصلية محفوظة الآن في متحف كييفلاند، والراوي في هذه الحكايات هو الببغاء الثرثار، الذي يتوافق مع الإمبراطور أكبر الشاب آنذاك، وقد تم إنتاج هذا المخطوط فيما بين عامي (١٥٦٠-١٥٦٥م) أو (١٥٥٦-١٥٦٠م) كما يذكر بعض الباحثين.^(٢٨)

- مخطوط "ديوان حافظ": من تأليف الشاعر الصوفي الكبير حافظ الشيرازي (ت. ٧٩٢هـ-١٣٨٩م)،^(٢٩) الذي يُعد ألمع شخصية أدبية عرفها العصر التيموري في القرن الثامن الهجري بإيران. وهذا

١- "مخزن الأسرار"، وكُتبت في حوالي سنة (٥٦١هـ / ١١٦٥- ١١٦٦م)، فهي المثنوية الأولى من ناحية الترتيب الزمني، كما أنها الأقصر طولاً، وتمتاز عن باقي المثنويات بأنها ليست قصة روائية رومانسية ولكنها منظومة صوفية تشتمل على كثير من المواعظ والحكايات على أسلوب "حديقة الحقيقة" التي ألفها "سنائي" أو على أسلوب المثنوي الذي كتبه فيما بعد جلال الدين الرومي. وهذه المثنوية تشتمل على كثير من المقدمات في المناجاة والحمد، يعقها عشرون مقالة بحيث كل واحدة منها تتعلق بموضوع فقهي أو أخلاقي يتناوله الشاعر أولاً من الناحية النظرية والمعنوية، ثم يصوره بعد ذلك بحكاية من الحكايات.^(٣٨)

٢- "خسرو وشيرين"، وتمت كتابتها في سنة (٥٧١هـ / ١١٧٥- ١١٧٦م)، وهذه المنظومة تشتمل على ما يقرب من سبعة آلاف بيت، وفي هذه القصة يجري نظامي على نسق الفردوسي من ناحية الموضوع والصياغة، وموضوع القصة يشتمل على مخاطرات ومغامرات الملك الساساني "كسرى پرويز" أو "خسرو پرويز" وغرامه مع معشوقته الجميلة شيرين، ونهاية منافسه التعيس فرهاد. وقد اعتمد نظامي في هذه القصة على المصادر التي اعتمد عليها الفردوسي من قبل أو على مصادر أخرى شبيهة بها ولكنه تناولها بطريقة أخرى، فابتعد فيها عن الدراسة الموضوعية حيث استطاع أن يخرجها لنا قصة غرامية بعكس الفردوسي الذي أخرجها لنا قصة حماسية. وقد استعاض نظامي في صياغتها عن "البحر المتقارب" الذي خصصه الاستعمال للشعر الحماسي بالهزج المسدس.^(٣٩)

٣- "ليلي والمجنون"، وتمت كتابتها في سنة (٥٨٤هـ / ١١٨٨- ١١٨٩م)، وهي المثنوية الثالثة التي كتبها نظامي، وقد أصبحت لها مكانة كبيرة في أذهان الخاصة والعامة على السواء، وذاعت شهرتها بين قصص الحب في الشرق و طغت على ما عداها من هذه القصص، وفازت بالمكانة الأولى في إيران وكذلك في تركيا حيث أضاف الشاعر التركي "فضولي" كثيرًا من الجمال على قصة هذا العاشق الحزين وعلى محبوبته الحسناء مما ساعد على نشرها في الناحية الغربية من القارة الآسيوية. وهذه القصة في العربية عبارة عن ديوان ذائع الصيت يشتمل على كثير من الغزليات الجميلة التي ينسبونها إلى "قيس العامري" الذي إشتهر بالمجنون، وهو شخصية تكاد تكون خرافية، ويقول عنه بروكلمان أنه توفي فيما يظن في سنة (٧٠هـ / ٦٨٩م). وقصة نظامي لا تحدث وقائعها في إيران بل تقع حوادثها في بلاد العرب، وهي لا تمثل شخصية ملكية كالقصة السابقة (خسرو وشيرين)، بل تمثل شخصين عاديين من عرب الصحراء أحدهما هو البطل، والآخر هي الفتاة المعشوقة، ولكن نظامي استطاع أن يصبغها بالصبغة الفارسية، وتشتمل هذه القصة على أكثر من أربعة آلاف بيت.^(٤٠)

٤- "هفت بيكر" أي "الصور السبع" أو "بهرام نامه" أي "كتاب بهرام"، وتمت كتابتها في سنة (٥٩٥هـ / ١١٩٨- ١١٩٩م)، وهذا

الديوان عبارة عن مجموعة من المنظومات الشعرية ذات أساليب متنوعة، إذ يحتوي على غزليات ورباعيات ومثنويات وقصائد ومقطعات ومخمسات،^(٣٠) وتمثل الغزليات الجزء الأكبر والأهم من الديوان، وعليها قامت شهرت حافظ في جميع العصور، وفيها انحصرت فلسفته وآراءه ومميزات فنه، وبالرغم أن تلك الغزليات تحتوي على موضوعات مختلفة ومتنوعة ولا تجري على منوال واحد، إلا أن كل واحدة منها تشتمل على بعض الأبيات في الشراب والبعض الآخر في التصوف وبالإضافة إلى بعض الأبيات في وصف الأحبة كليلى والمجنون وخسرو وشيرين. وتعتبر أشعار حافظ الغنائية وغزلياته في هذا الديوان مصدر من أهم مصادر الإلهام عند الموسيقيين الفرس، وقد أدخلت هذه الأشعار في الحفلات الموسيقية الصوفية في الهند وتغنى بها المسلمون والهندوس على حد سواء.^(٣١) هذا ويُذكر أن حافظ قد تم استدعائه إلى أبلطة اثنين من ملوك الهند في عصره، أحدهما السلطان محمد شاه بهمني الأول (١٣٥٨ / ١٣٧٥م) سلطان الدكن، والآخر هو سلطان غياث الدين بن إسكندر (حكم ٧٦٨هـ - ١٣٦٦م / ٧٧٥هـ - ١٣٧٤م) سلطان البنغال المستقل عن سلطنة دلهي، وقد أرسل حافظ إليهما قصيدتين غنائيتين رائعتين من الغزل.^(٣٢)

ولقد تم إنتاج العديد من النسخ الفارسية المصورة لمخطوط "ديوان حافظ" في إيران خلال العصرين التيموري والصفوي في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي،^(٣٣) هذا علاوة على إنتاج عدد من النسخ المصورة لهذا المخطوط في بعض مراكز التصوير المغولي الهندي خلال العصر المغولي في الهند.^(٣٤)

وتحتفظ دار الكتب المصرية بحوالي عشرين نسخة من مخطوط "ديوان حافظ" مكتوبة باللغة الفارسية بالأقلام النستعليق والتعليق والشكست، ومنها حوالي ثلاثة نسخ تحتوي على شروح باللغة التركية، ومنها أيضًا ستة نسخ تحتوي على تصاوير ومنمنمات، وبعض هذه النسخ المصورة تنتهي تصاويرها إلى أساليب المدرسة التيمورية في إيران والبعض الآخر تنتهي تصاويرها إلى أساليب المدرسة الصفوية في إيران، وذلك باستثناء نسخة مصورة وحيدة تظهر في تصاويرها الملامح الهندية (لوحة ٤) وهذه النسخة محفوظة تحت رقم ٥٩ أدب فارسي طلعت)، وهي نسخة غير مؤرخة ولا يُعلم كتبها ولا مصورها، وعدد أوراقها (٢٧٢)، وهي ناقصة المقدمة ومحفوظة في مجلد أثري بديع، ويوجد بالورقة الأولى منها حلية ملونة ومنمودة، وباقي الأوراق مزينة بالزهور الملونة على الهامش ومجدولة بالذهب والمداد الأخضر.^(٣٥)

- مخطوط "خمسة نظامي" أو "بنج گنج" أي "الكنوز الخمسة" (لوحة ٥)؛ وهي عبارة عن خمسة روايات أو كتب، من تأليف الشاعر نظامي الكنجوي،^(٣٦) وقد تمت كتابتها على شكل "المثنوي"، وتتكون الخمسة من عمل تعليمي (موعظي) وخمسة روايات رومانسية، وأبطال هذه الروايات لهم أصل تاريخي.^(٣٧) وتلك المثنويات الخمسة كما يلي:

١٥٩٥م في المرسوم الملكي بلاهور التي كان يقيم بها في ذلك الوقت.^(٤٣)

- مخطوط "هفت اورنگ" أي "العروش السبعة"؛ وهو عبارة عن سبعة روايات شعرية نُظِّمت على شكل "مثنوي"، من تأليف الأديب والشاعر الصوفي نور الدين عبد الرحمان بن أحمد المعروف باسم "جامي"^(٤٤) فيما بين عامي (١٤٦٨-١٤٨٥م) تحت رعاية السلطان "حسين ميرزا بايقرا" أمير خراسان. وهذه الروايات (المثنويات) كما يلي:

١- سلسلة الذهب، وتم تأليفها في عام (٨٩٠هـ / ١٤٨٥م)، ويناقش فيها جامي موضوعات فلسفية ودينية وأخلاقية بالإضافة إلى بعض الحكايات التوضيحية.

٢- وسلامان وايسال، وهي قصيدة ذات طابع استعاري غريب، وتتكون من ١١٣١ بيت.

٣- تحفت الأحرار، وتم تأليفها في عام (٨٨٦هـ / ١٤٨١م)، وهي قصيدة تعليمية روحية تتضمن محتويات دينية وأخلاقية بجانب بعض كلام الرسول (ﷺ) وبعض الأدعية إلى الله، وتحتوي على ١٧١٠ بيت.

٤- سبحة الأبرار، وهي قصيدة تعليمية من العقيدة، ذات محتويات صوفية وأخلاقية، وهي متشابهة مع القصيدة السابقة، ولكنها تفتقر إلى التماسك وأقل جاذبية منها في الشكل والمضمون.

٥- يوسف وزليخه، وتم تأليفها في عام (٨٨٨هـ / ١٤٨٣م)، وهي قصيدة (رواية) رومانسية، وتعتبر الأشهر والأكثر شعبية بين السبعة روايات، وهي في متناول الأغلبية سواء النص الأصلي أو المترجم إلى لغات أخرى.

٦- ليلي والمجنون، وهي قصيدة رومانسية تم تأليفها في عام (٨٨٩هـ / ١٤٨٤م)، وتُعد نسخها نادرة.

٧- كتاب حكمة الإسكندر، وهي أقل رواية لقت اهتماماً في هذه الروايات السبع، وأيضاً تُعد نسخها نادرة.^(٤٥)

وكانت تلك الروايات السبع سبباً رئيسياً في شهرة جامي، وعلى الرغم أنه كتبها على غرار أعمال الشعر الرومانسي كالروايات الخمسة للشاعر نظامي (بنج گنج) في القرن الثالث عشر الميلادي، إلا أن روايات جامي تحمل بوضوح علامات أصالة وقوة الفكر. وقد أثبت جامي موهبته الشعرية في ابتكار الصور والتشبيهات الرائعة من خلال هذه الروايات السبعة، وبالرغم أن هذه الروايات وكذلك الأعمال الأخرى لجامي تزخر بالأبيات الشعرية المنمقة بشكل مسرف، إلا أن أسلوبه في المجمل يفتقر إلى الجمال المثالي، فليس كالقصائد الغنائية لحافظ الشيرازي إذ يميل جامي بالفعل نحو أسلوب أثقل وأكثر غموضاً. وكانت لأعمال جامي تأثيراً قوياً على أعمال الشعراء المتأخرين وبالأخص في تركيا والهند،^(٤٦) وقد ظهرت نسخ مصوّرة من الروايات السبع لجامي في الهند خلال العصر المغولي لعل أشهرها رواية يوسف وزليخه (لوحة ٦).

الكتاب في الحقيقة هو آخر المثنويات التي أنشدها نظامي، ولكنه في طبعة طهران يأتي بعد ليلي والمجنون، ويحتل الصفحات من (٢٨٠ إلى ٣٩٤)، ويشتمل على أكثر من خمسة آلاف بيت من الشعر. وموضوع هذه المثنوية مشابه لموضوع "خسرو و شيرين" في كونه متعلقاً بقصة تختص بأحد الملوك الساسانيين وهو "بهرام گور"، وأكثر الحكايات التي رويت عن هذا الملك الذي اشتهر بفروسيته و مهارته في الصيد و الطراد مبنية على أساس تاريخي، أو متعارف عليها من قديم الزمان، فهي مروية في تاريخ الطبري. وربما كانت تسمية هذه المثنوية باسم "بهرام نامه" أظهر في الدلالة على موضوعها من تسميتها باسم "هفت بيكر"؛ لأن الصور السبع التي ذُكرت فيها ليست إلا موضوعاً واحداً من موضوعات القصة، وربما سُميت به لأنه أهم موضوع فيها. والصور السبع التي تشير إليها هذه المثنوية هي الصور التي اكتشفها بهرام گور في غرفة سرية في قصره المعروف بالخورنق، و قد تبين له أنها صور سبع أميرات يمتزج بالجمال والحسن؛ أولهن ابنة ملك الهند، والثانية ابنة خاقان الصين، والثالثة ابنة شاه خوارزم، والرابعة ابنة ملك الصقالبة، والخامسة ابنة شاه إيران، والسادسة ابنة امبراطور بيزنطة، والسابعة ابنة ملك المغرب.^(٤٧)

٥- "سكندر نامه" أي "كتاب الإسكندر"، وتمت كتابتها في سنة (٥٨٧هـ / ١١٩١م)، وإن قصة الإسكندر الأكبر في الأدب الإسلامي مغيرة تماماً للحقائق التاريخية، فالشاعر الفردوسي يرى في الشاهنامه أن الإسكندر هو ابن ملك إيران "داروس الثاني"، بينما الشاعر نظامي في منظومته من خلال هذه الرواية يرى أن الإسكندر هو ابن "فيليب المقدوني"، ويصف الإسكندر على أنه حاكم روما أو بيزنطة، ويؤكد نظامي أيضاً أن الإسكندر تعلم على يد الحكيم أرسطو، وحكم بالعدل ومن ثم وصلت شهرته إلى أنحاء العالم، وقد نشر نور العلم سواء باللغة اليونانية أو الفارسية. وهذه هي المثنوية الخامسة من مثنويات نظامي، وهي مكتوبة في وزن "المتقارب" وهو الوزن الذي كُتب فيه أكثر الشعر القصصي. وقسم نظامي هذه القصة إلى جزئين؛ الأول وهو "شرف نامه" أي "كتاب الشرف"، والثاني وهو "إقبال نامه" أي "كتاب الإقبال" ويسمى أيضاً "خرد نامه" أي "كتاب العقل". ولا يقل عدد الأبيات الشعرية التي يشتمل عليها هذان الجزءان عن عشرة آلاف بيت، ثلثاهما في الجزء الأول والثلث الباقي في الجزء الثاني.^(٤٨)

وتعتبر نسخ مخطوط "خمس" لنظامي من أهم المخطوطات الأدبية المصوّرة التي تم إنتاجها في الهند في العصر المغولي. والنسخة التي ترجع إلى عهد الإمبراطور أكبر تعتبر من أروع المخطوطات التي أنتجت في القرن السادس عشر الميلادي. فقد كان أكبر في صدر شبابه مهتماً بالمغامرات والقصص الكوميدية وبعدها اهتم بالتاريخ. وبعد ذلك بدأ أكبر بإصدار أوامره لإنتاج بعض الروائع الكلاسيكية من الأدب الفارسي ومن بينها "خمس نظامي" التي تم إنتاجها سنة

المحدثين، وبنفس القدر من الأهمية مساهمته في إنشاء الأدب الفارسي الهندي (الهندوفارسي) المستقل، والذي اندلع من التقاليد الإيرانية بدون فقد روابطه مع آثار الأدب الأقدم في الهند. وبجانب أعمال الفردوسي ونظامي فإن "خمسه خسرو دهلوي" جاءت أيضًا لإمتاع حظوة هائلة.^(٥٣)

ومن الجدير بالذكر: أن تأثير أمير خسرو وأعماله إنتقلت إلى خارج الهند فأنتجت عدة نسخ من خمسيته في أبلطة فارسية في إيران منذ القرن الخامس عشر الميلادي.^(٥٤)

ثانيًا: المخطوطات الأدبية الأردية

لقد طوّرت الحاجة العامة للمسلمين والهندوس في العصور الوسطى في شبه القارة الهندية اللغة العامية المبتكرة المعروفة باسم اللغة الأردية، والتي كانت وسطًا بين اللغة الفارسية والهندية، ويمكن وصفها بأنها الصفة الفارسية للهندية الغربية، فإن جميع مفرداتها تقريبًا فارسية وقواعدها هندية.^(٥٥)

ومصطلح "أردو" من أصل تركي ومألوف في اللغة الفارسية لدى المؤرخين الإلخانيين، وقد اعتمدت في الهند منذ عصر سلاطين دلهي من قِبَل الأمير خضر خان (٨١٧-٨٢٤ هـ / ١٤١٤-١٤٢١ م) ابن السلطان علاء الدين خلجي، حيث تم استخدامها في الجيش والبلاط. وأثناء عصر المغول العظام في الهند جاء مصطلح "أردو" ليُطلق عمومًا على المعسكر الإمبراطوري، وفي أواخر القرن (١١ هـ / ١٧ م) أُطلقت على لغة المعسكر. وإن هذه اللغة نفسها وكذلك آدابها المحلية المبكرة أقدم بكثير من اسمها الحالي "أردو"، فمن القرن الثالث عشر الميلادي إلى الثامن عشر الميلادي كان يُشار إلى اللغة الأردية باسم "هندية"^(٥٦) أو منحت أسماء لهجات معينة مثل "الدكنية" و"الجوجراتية"، وهذا قد يكون مربكًا حيث أن نمو فهمها وآدابها بقيت تختلف تمامًا عن اللغات المعروفة اليوم كالهندية والجوجراتية. وإن أصول اللغة الأردية تعود إلى فترة حكم الغزنويين في البنجاب في القرن (٦ هـ / ١٢ م). وكتبها المسلمون بالحروف الفارسية، في حين أن كثير من تراكيبها النحوية وأفعالها الأساسية وكذلك الصفات والأحوال وأيضًا استعاراتها غير مقيدة بالفارسية، ومن خلال اللغات الفارسية والعربية وإلى حدٍ ما التركية قد أعطتها بوضوح الطابع الأدبي واللغوي الإسلامي.^(٥٧)

وعندما تحول مركز الثقل في الأدب والثقافة إلى دلهي في القرن (٧ هـ / ١٣ م) مع تأسيس السلطنة وتحت حكم الخلجيين حُمِلت اللغة الأردية بواسطة الجيوش الإسلامية إلى الدكن في الجنوب والجوجرات في الغرب، بحيث أنها طورت الأسلوب الأدبي أكثر مما كان عليه في الشمال، ومن المحتمل أن التجربة الأدبية الأولى لهذه اللغة كانت في البنجاب في عهد الغزنويين عندما استخدمت كلغة جديدة لأول مرة. وفي دلهي من القرن (٧ هـ / ١٣ م) إلى القرن (١٠ هـ / ١٦ م) فإن استخدام الأدب الأردو يبدو غريب الأطوار ونصف جدي. وكان التقدم نحو تطوير الأردية بالنسبة للأغراض الأدبية قد صُنعت خلال هذه القرون بعيدًا عن أبلطة الشمال، في تكايا

ويعتبر "جامي" (كما سبق ذكره) الشاعر والأديب الرئيسي في عصر الإمبراطور بابر والذي نُصِب كرئيس لفرقة الشعر مثل سلفه حافظ الشيرازي -الذي ازدهر في عصر تيمور، وكان يطمح في زيارة الهند، فقد كان جامي بالمثل كحافظ على اتصال مع الأبلطة الهندية، ويوجد نموذج وحيد للدلالة على ذلك وهو إرساله قصيدة غنائية من تأليفه لأحد النبلاء في الدكن وكان ينتظر تقديره ورعايته.^(٥٨)

- مخطوط "خمسة مثنوي" لأمر خسرو دهلوي؛^(٥٨) وهي عبارة عن خمسة مثنويات (روايات شعرية) من تأليف الشاعر الصوفي أمير خسرو دهلوي، وهو الشاعر المُفضَّل لدي الأباطرة المغول في الهند، الذين اهتموا بإنتاج مخطوطات مصوّرة من أعماله الرائعة.^(٥٩)

ولقد كان خسرو مؤلفًا غزيرًا للغاية سواء في الشعر أو النثر، واستعمل شكلين رئيسيين من الشعر هما الغزل والمثنوي، وأخذ بعض نمازجه من الشاعر سعدي وكذلك الشاعر نظامي، وكتب خمسته الأدبية كاملة فيما بين سنتي (١٢٩٩-١٣٠٢ م) بمحاكات خمسة الشاعر نظامي، وقدمها لرابعه السلطان علاء الدين خلجي (حكم ١٢٩٦ / ١٣١٦ م) أحد سلاطين دلهي، وتتكون هذه المثنويات (الروايات الشعرية) الخمسة (لوحه ٧) من:

- ١- "مطلع الأنوار". ٢- "خسرو وشيرين". ٣- "ليلي ومجنون". ٤- "عائني اسكندر" أي "مرأت الإسكندر". ٥- "هشت بهشت" أي "الثمانية جنان".^(٥٩)

وبالإضافة إلى ذلك؛ فقد كتب أمير خسرو "خمسه مثنوي" أخرى في موضوعات هندية وتاريخية، فضلًا عن واحدة من الوقائع التاريخية في النثر، وتتكون هذه المثنويات التاريخية من: ١- "قران السعدين"، وتمت كتابته في عام ١٢٨٩ م، ويتكون من ثلاثة آلاف بيت. ٢- "مفتاح الفتوح"، وهو أقصر وأقل طموحًا من المثنوي الأول، وتمت كتابته في عام ١٣١٦ م، ويصف أمير خسرو فيه أربع انتصارات للسلطان جلال الدين فيروز خلجي. ٣- "دوال راني خضر خان"، وتمت كتابته في سنة ١٣١٦ م، والأمير خضر خان هو ابن السلطان علاء الدين خلجي، وموضوع هذا المثنوي رومانسي رائع، حيث يصف قصة الحب المأسوية بين الأمير خضر خان والأميرة الهندوسية ديوالدي-التي غير خسرو اسمها إلى دوال راني- ابنة راجه كاران في الجوجرات، ويعتبر هذا المثنوي على غرار قصة ليلي والمجنون لنظامي. ٤- "نه سهر" أي "التسع كرات"، وينقسم إلى تسعة أقسام غير متساوية الطول ومختلفة في الأوزان الشعرية، ويتكون من أربعة آلاف بيت. ٥- "تغلق نامه"، وكتبه خسرو في نهاية حياته في عام ١٣٢٠ م، وهذا المثنوي يُعد قصة درامية مثيرة، ويتكون من ثلاثة آلاف بيت شعري.^(٥٩)

وجميع هذه الأعمال السابقة غالبًا ما تُنتج بسرعة وتُعرض على الراعي -الذي دائمًا ليست له سلطة مستقرة. وقد كان أمير خسرو شاهدًا على الأحداث في عهده مما منحه أهمية خاصة عند العلماء

نواب أوده الشيعة الذين دعموا ببراعة البلاط المتحطم، وهنا في أوده تأسست مدرسة لكنو في الأدب الأردّي.^(٦١)
ومن أهم المخطوطات الأدبية الأردنية التي أُنتجت في العصر المغولي:

- مخطوط "كليات سودا": هو عبارة عن مجموعة من الموضوعات الأدبية المتنوعة باللغة الأردية، وتضم أنواع وأساليب أدبية شعرية مختلفة، فمنها القصائد والمثنويات والغزليات والرباعيات والمرثيات.^(٦٢) بالإضافة إلى بعض القطع النثرية الفارسية، من تأليف الشاعر ميرزا محمد رفيع سودا (١٧١٣. ١٧٨١م).

ومن أهم نسخ هذا المخطوط، هي النسخة المحفوظة في مكتبة فرستون بجامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية، تحت رقم (Princeton Islamic MSS., no. 83G). وتتكون هذه النسخة من مجموعة أشعار بأنواع وأساليب أدبية مختلفة، يتم ترتيبها في خمسة أجزاء، وهي مثنويات وغزليات ومرثيات وقصائد وبعض القطع الفارسية. (لوحه ٨ ، ٩).

ويرجع تاريخ نسخ وتصوير هذه النسخة المخطوطة إلى النصف الأول من القرن (١٩م) في الهند، في عهد بهادر شاه الثاني سلطان دلهي (١٢٥٣/١٢٧٥ هـ - ١٨٣٧/١٨٥٧م)، والدليل على ذلك أنه يوجد بهذه النسخة سبعة أختام مستطيلة الشكل أحدهم في الورقة رقم (١١) والسته الباقين في نهايات الأجزاء الخمسة التي يتكون منها المخطوط، وتشتمل هذه الأختام على نص به ألقاب لهادر شاه الثاني وتاريخ الانتهاء من النسخ (١٢٦٩هـ). وهذا التاريخ يقابله بالميلادية (١٨٥٢م).

وهذه النسخة المخطوطة من "كليات سودا" كانت مُقدّمة للإمبراطور المغولي بهادر شاه الثاني (١٢٥٣-١٢٧٥ هـ/ ١٨٣٧-١٨٥٧م) وبالطبع تم نسخها في عهده؛ فإني أعتقد أن هذه النسخة منقولة من نسخة قديمة أصلية كانت مقدمة إلى أصف الدولة نواب (حاكم) أوده، والدليل على ذلك أنه يوجد بهذه المخطوطة (نسخة) بهادر شاه) صورتين إحداها لشجاع الدولة نواب أودة (حكم ١٧٥٣/ ١٧٧٥م) (لوحه ٩) والأخرى لنجله أصف الدولة نواب أودة (حكم ١٧٧٥/ ١٧٩٧م) (لوحه ٨) بالرغم أن المخطوطة مقدمة للإمبراطور المغولي بهادر شاه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الشاعر ميرزا محمد رفيع سودا (١٧١٣/ ١٧٨١م) مؤلف المخطوطة كان معاصرًا لفترة حكم شجاع الدولة ونجله أصف الدولة لأوده، بل هاجر من دلهي إلى أودة وعمل تحت رعاية نوابها الشيعة، وساهم في تأسيس مدرسة لكنو في الأدب الأردّي (كما سبق ذكره). ولذلك فيمكننا القول: أن النسخة الأصلية من "كليات سودا" قد ألفها محمد رفيع سودا وتم إعدادها وتوضيحها بالتصاوير وقُدمت لأصف الدولة نواب أودة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي. وبالتالي فقد تكون صور نسخة بهادر شاه الثاني التي لدينا مُقلدة من الصور الأصلية التي رُسمت بأوده.

الصوفية بالأقاليم والمقاطعات البعيدة، وكان "الغزل" في الشعر الأردّي هو النموذج الأكثر شعبية ويُمارس على نطاق واسع. وقد انشغل مشايخ الصوفية في المهمة المزدوجة لتحويل غير المسلمين من حولهم إلى الإسلام وتطوير تقنية التواصل الديني مع مريدتهم من زوي التعليم الرديء، فاستخدموا شكل مبكر من اللغة الأردية في كتاباتهم الشعبية مع وإرجاء استخدام الفارسية أكثر وأكثر في اللهجات العامية. وقد تطور الأدب الدنيوي باللهجة الدكنية وهي لهجة الجنوب في أبلطة غولجاندة وبيجابور في الدكن.^(٥٨)

وقد انتهت عملية التبادل الثقافي بين أبلطة الشمال والجنوب في الهند في نهاية القرن (١١هـ/ ١٧م) وبداية القرن (١٢هـ/ ١٨م) وتبلورت في مدينة أورنك آباد، وهي العاصمة الثانية للإمبراطور أورنجزيب في الدكن. وكان الشاعر والأديب والي (١٦٦٨. ١٧٤٤م) هو الممثل الرئيسي لهذه المدرسة الجديدة في الثقافة الشعرية والأدب الأردّي، وكان له أسلوبين أحدهما جنوبي مبكر والآخر شمالي متأخر، وقد زار دلهي مرتين، إحداها في عام ١٧٠٠م والأخرى في عام ١٧٢٢م، وفي ذلك الوقت قد فقدت تقاليد الشعر الهندوفارسية معظم نشاطها الإبداعي، كما أنه توقف وصول مواهب جديدة من بلاد فارس بعد الاضطرابات في العلاقة المغولية الصفوية أثناء عهد أورنجزيب، وفي هذا الفراغ الإلهامي فإن نموذج "والي" حوّل تقريبًا بين عشية وضحاها رغبة الشماليين في التعبير الشعري من الفارسية إلى الأردية.^(٥٩)

وخلاصة القول؛ أنه لم تنضج اللغة الأردية كوسيلة متطورة تمامًا في التعبير الأدبي إلا في بدايات القرن (١٨م)، وحلت محل اللغة الفارسية كلغة مشتركة يتحدث بها أصحاب اللغات المختلفة في الهند وبخاصة المسلمين، وقد جاء هذا التطور في دلهي بعدما قام الإمبراطور أورنجزيب بضم السلطنات الدكنية إلى الإمبراطورية المغولية، فأصبحت دلهي مركز الأدب الأردّي. وقد فضّل شعراء الأردية في هذه الفترة التعبير المباشر الصريح الذي كان مبنياً على نموذج من اللغة الشفهية، وكان العديد من هؤلاء الشعراء المبكرين في الأدب الأردّي على علاقة وثيقة بالصوفية.^(٦٠)

وأعظم الشعراء في الأدب الأردّي الكلاسيكي في دلهي خلال القرن الثامن عشر الميلادي: الشاعران خواجه مير دارد (١٧٢١- ١٧٨٥م) وميرزا مظهر جاني جانان، وكنا صوفيين مبجلين قد شربا الشعر الأردّي بتسامي الحب المؤلم والاستسلام، والشاعر مير تقي مير (١٧٢٢- ١٨١٠م) والذي تأثر بالتفكك الاجتماعي في دلهي وانحلال الشخصية الإنسانية حيث ساهم ذلك في تشكيل الإحساس المرهف والعبقريّة الشعرية المكثفة له، وأيضًا معاصره الشاعر ميرزا محمد رفيع سودا (١٧١٣- ١٧٨١م) الذي رد على الفوضى المحيطة به والانحطاط العام للأخلاق بدم عنيف في هجاءه، وكان قد اشتهر بقصائده ومثنوياته الساخرة والهجائية أكثر من غزلياته. وهذين الشعارين (محمد رفيع سودا ومير تقي مير) وغيرهم من الشعراء والأدباء قد هاجروا من دلهي المضطربة والغير آمنة إلى لكنو حيث

خاتمة

لقد أوجد أباطرة المغول في الهند مناخًا ثقافيًا مدهشًا وتقدم حضاري كبير مازال تأثيره واضحًا في شبه القارة الهندية إلى الآن، فكانوا رعاةً بحق للفنون والآداب والعلوم، وخصوصًا الأباطرة المغول الأوائل خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين. ومنذ بدايات هذا العصر أصبحت اللغة الفارسية هي لغة البلاط والمثقفين والعلماء بشكل وحجم غير مسبوق، وكان الأدب الفارسي هو الحقل الأساسي للأدباء والشعراء المسلمين وكذلك للمثقفين بشكل عام في الهند آنذاك، وهذا علاوة على شغف الأباطرة المغول بالأدب والفن الفارسي، ويتضح ذلك جليًا في الإنتاج الكبير والمتنوع للمخطوطات الأدبية الفارسية الإسلامية وتزينها بالتصاوير والمنمنمات -المميزة لأساليب المدرسة المغولية الهندية- على غرار المخطوطات الفارسية الإيرانية (التيمورية والصفوية)، وذلك أدي إلى انتشار الأدب الفارسي في الهند على وجه غير مسبوق، مما ساهم بشكل كبير في انتشار الثقافة الإسلامية وتغلغلها في طبقات المجتمع الهندي، وهذا بجانب الدور الكبير الذي لعبه التصوف الإسلامي وطرقه في الهند خلال العصور الوسطى. وكنتيجة لهذا التمازج الثقافي بين المسلمين حكامًا ومهاجرين وبين الهنود أنفسهم؛ تولدت اللغة الأردية وأصبحت رويدًا رويدًا هي لغة الأدب والشعر، لتحل محل اللغة الفارسية على ألسنة المثقفين والأدباء وفي أعمالهم خلال النصف الثاني من العصر المغولي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين.

الملاحق



لوحة رقم (١)

صورة من مخطوط الشاهنامه، الهند - كشمير، أواخر القرن ١٩ م
محفوظة في متحف المتروبوليتان للفن بنيويورك تحت رقم (٦٨.٢١٥.٢٩)



لوحة رقم (٢)

صورة من مخطوط الشاهنامه (شمال الهند، سنة ١٦٢٥ م)
توضح منظر لاجتماع المحاربين
محفوظة في متحف لاكمبا للفن بلوس أنجلوس تحت رقم (m.90.160.1)

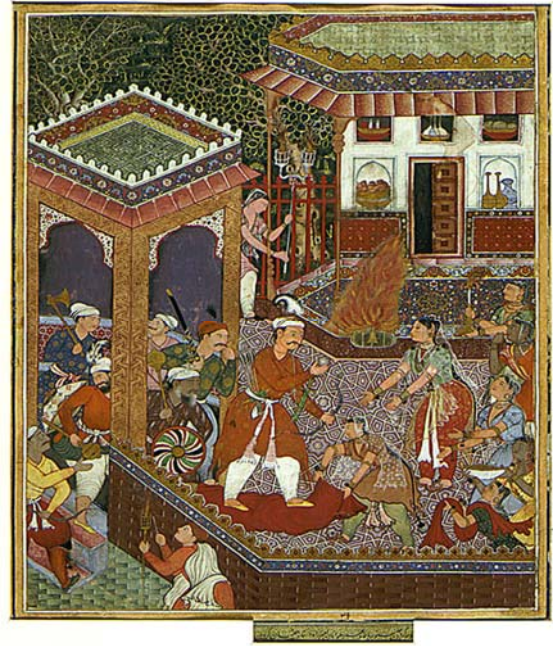


لوحة رقم (٥)

صورة من مخطوط خمسة لنظامي توضح بهرام جور والأمراء الهنود،

(الهند - أحمد آباد، سنة ١٦١٨م)

Losty, Jeremiah P., The Art of the Book in India (1982), pl. 45

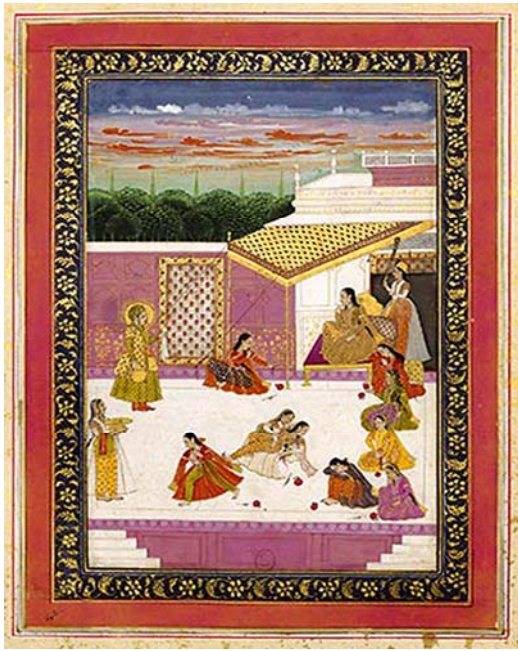


لوحة رقم (٣)

صورة من مخطوط حمزة نامه (شمال الهند، سنة ١٥٧٠)

توضح صنوبر بانو وهي تستقبل أبطال إيران وتوران

محفوظة في متحف لاكما للفن بلوس أنجلوس تحت رقم (M.78.9.1)



لوحة رقم (٦)

صورة من مخطوط العروش السبعة لجامي (شمال الهند، سنة

١٧٥٠م)، توضح منظر وصول يوسف إلى زليخة

محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم

(od 44 fol., 32. Don du colonel Gentil, 1785. Cat. RH n. 144)



لوحة رقم (٤)

صورة من مخطوط ديوان حافظ (شمال الهند، حوالي القرن ١٩م)

المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٩ أدب فارسي

الهوامش:

- (1) Gregory Minissale, Images of Thought: Visuality in Islamic India (1550- 1750), Cambridge Scholars Press, 2006, p. xxii
- (2) Muthumari M and Zafar Ahmed V, History : Higher Secondary, First Year, Government of Tamilnadu Distribution of free Textbook Programme, 2007, p. 196
- (3) Losty, Jeremiah P, The Art of the Book in India, British Library, London, 1982, p. 37
- (4) Kathleen Kuiper, The Islamic World: Islamic Arts, literature and Culture, Britannica Educational publishing, New York, 2010, p. 46
- (5) P. M. Holt and Others, The Cambridge History of Islam, Cambridge University Press, vol. 2B, New York, 2008, p. 673.

حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، الدار الثقافية للنشر، ط١، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٢٢، ٢٣. وأنظر: إدوارد براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي، (ترجمة إبراهيم أمين الشواربي)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ٢٨، ٣٧، ٣٨، ٤٨

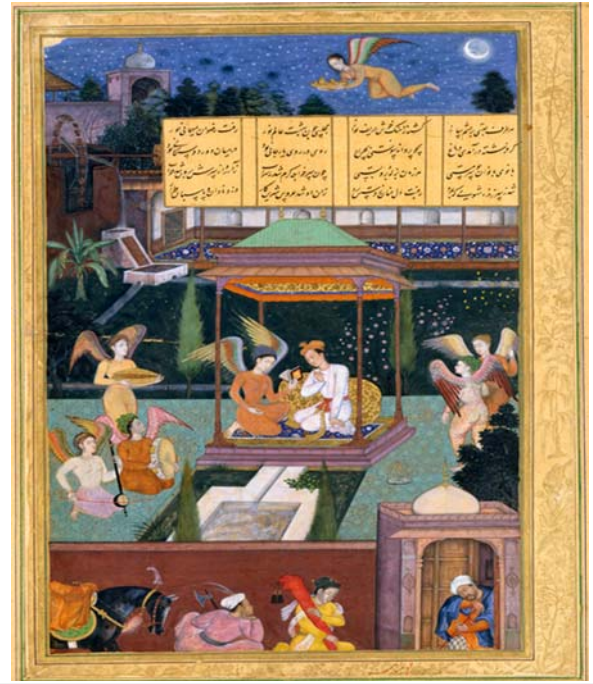
- (6) Kathleen Kuiper, The Islamic World (2010), p. 47
- (٧) غوش، ج س، "الأدب الشعبي الهندي"، (ترجمة جلال سعيد الحفناوي)،

مجلة ثقافة الهند، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية، المجلد ٥٨، العدد ٣-٢، ٢٠٠٧م، ص ١١٤

- (8) Mohammad Abdul Ghani, A History of Persian Language and Literature At The Mughal Court, The Indian Press, LTD, vol. 1, Allahabad, 1929, p. 138, 142
- (9) Mohammad Abdul Ghani, A History of Persian Language and Literature At The Mughal Court (vol. 1, 1929), p. 143
- (10) Muthumari M and Zafar Ahmed V, History : Higher Secondary (2007), p. 245
- (11) Alam, Muzaffar, Languages of Political Islam, University of Chicago Press, Delhi, 2004, p. 75
- (١٢) غوش، ج س، "الأدب الشعبي الهندي"، مجلة ثقافة الهند، المجلد ٥٨، ص ١٠٨

- (13) Losty, Jeremiah P., The Art of the Book in India (1982), p. 57, 58

(١٤) وهو أبو القاسم منصور (أو الحسن) الشاعر الفارسي المعروف، وُلد في مدينة طوس (قرب مشهد) حوالي عام (٣٢٩هـ/٩٣٤م)، وكان والده يشغل منصباً إدارياً في بلاط السامانيين، وخلف لولده بيتاً ريفياً في بزاعة بالقرب من طوس. وكان أبو القاسم يقضي وقت فراغه في البحث عن الآثار القديمة. واسترعى كتاب الخديزامة انتباهه فاعتزم أن يحول هذه القصص النثرية إلى ملحمة قومية وسماها الشاهنامه أي كتاب الملوك، واتخذ له حسب عادة تلك الأيام اسماً مستعاراً هو الفردوسي، ولعله اشتق ذلك الاسم من غياض ضيعته. واتصل بالسلطان محمود الغزنوي، وعندما تقدم الفردوسي برأئعه الشاهنامه إلى السلطان محمود لم يعطه ما كان ينتظره من مكافأة؛ فهجاه الفردوسي وترك غزنه، وتنقل في البلاد، وزار بغداد، ثم رجع إلى مسقط رأسه؛ حيث توفى سنة (٤١١هـ)، وقيل سنة (٤١٦هـ). وتشتمل مؤلفات الفردوسي على الشاهنامه، والمنظومة الروائية خسرو وشيرين، وعدد غير قليل من الغزليات حفظها لنا كتب التراجم والمختارات. ومن أهم شعراء عصر الفردوسي: "عنصري" شاعر السلطان محمود الغزنوي، و"أسدي" صاحب الفردوسي ومن أهل بلده ومخترع شعر المناظرة، و"عسجدي" و"فرخي" و"منوچهر"، وجماعة آخرين من الشعراء لا يرقون إلى منزلة هؤلاء. عن: إدوارد براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي (٢٠٠٤م)، ص ١٣٤، ١٦٧، ١٦٨، ول



لوحة رقم (٧)

صورة من مخطوط (خمس) لأمير خسرو الدهلوي، (الهند - لاهور - سنة ١٥٩٧م)، توضح الحورية وهي تستقبل شاب غريب بالحديقة محفوظة في متحف المتروبوليتان للفن بنيويورك تحت رقم (١٣-٢٢٨-٣٣)



لوحة رقم (٨)

صورة من مخطوط كليات سودا توضح أصف الدولة نواب أوده، (الهند - دلهي، النصف الأول من القرن ١٩م) المخطوط محفوظ في مكتبة فرستون بجامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية، تحت رقم (Princeton Islamic MSS., no. 83G)

مضطرباً أشد الاضطراب حيث وقعت شيراز في أيدي جملة من الحكام تطاحنوا وتنازعوا فيما بينهم، ورغم ذلك فقد استطاع حافظ بحكمته ورجاحة عقله وموهبته الفذة أن يكون صديقاً لجميع الحكام والأمراء الذين حكموا أو سكنوا بلدته شيراز، فاتصل في شبابه بجماعة من أسرة اينجو أشهرهم "جلال الدين مسعود شاه اينجو" و"شاه غياث الدين كيخسرو اينجو" و"شاه شيخ جمال الدين أبو إسحق اينجو"، وكان على ما يظهر شديد الاتصال بالآخر منهم حتى إذا زالت دولته على يد أسرة آل مظفر "أو المظفريون"، ولم ير حافظ بأساً أو بدأ من أن يستقبل الحاكم الجديد وأن يرضى به، فهو إن لم يكن خيراً من سابقه فلن يكون شراً منه، فقد عاش حافظ في ظل هذه الدولة الجديدة تحت رعاية السلطان "مبارز الدين محمد بن المظفر" (٧٥٤-٧٥٩ هـ/١٣٥٣-١٣٥٨ م) والذي اتخذ من شيراز عاصمة للملكة، وكذلك تحت رعاية ابنه "جلال الدين أبو الفوارس شاه شجاع" (٧٥٩-٧٨٦ هـ/١٣٥٨-١٣٨٤ م)، حتى إذا دارة الدائرة ودبت الصراعات بين أفراد الأسرة المظفرية، ثم ظهر الغازي الكبير "تيمورلنك" واستولى على شيراز في عام (٧٩٦ هـ/١٣٩٤ م) وترك ابنه "عمر شيخ" على فارس في مدينة شيراز عاصمة هذا الإقليم. ولقد وردت في أشعار حافظ إشارات كثيرة لأغلب "آل مظفر"، والذي أمضى أيام رجولته وكهولته بينهم. ولقد كان = حافظ يتغنى بالشباب إلى الشباب فيذكرهم بالربيع الناضر والبلبل الولهان والنسيم الرطيب والخمر الصافية والشراب المذاب والمطرب الجميل، وكان يتغنى أيضاً للشبيب وعن الرضا والقناعة والهدوء والطاعة وآلام الحياة وغير ذلك من المعاني. والظاهر أن أشعار حافظ راجت رواجاً لا نظيره واستحسنتها الناس استحساناً قلما قابلوا به أقوال وأشعار غيره من الشعراء فأخذوا في ترديدها وترتيلها، وراقبهم تلك المعاني الجميلة التي احتوتها أبياته وتضمنتها عباراته ووجدوها معجزة تقصر الألسنة عن أداء مثلاً وتعجز الأفئدة عن سيكها وقولها، فلقيوه بلسان الغيب وترجمان الأسرار. وتوفي حافظ بمدينة شيراز، ودفن في روضة المصلى وأصبح قبره بعد ذلك يعرف باسم "الحافظة" أو "بارگاه حافظ"، وقد أمر بتجديد بنائه "أبو القاسم باير بهادر" أحد أحفاد تيمورلنك -حينما تيسر له فتح شيراز في سنة (٨٥٦ هـ/١٤٥٢ م).

عن: محمد بن بهاء الدين محمد (حافظ الشيرازي)، ديوان حافظ الشيرازي، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، مهراندیش للنشر، ط١، طهران ١٩٩٩ م، ص ٣ : ١٠، أبو الحمد فرغلي، التصوير الإسلامي (نشأته وموقف الإسلام منه وأصوله ومدارسه)، الدار المصرية اللبنانية، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٠ م، ص ١٩٥، ١٩٦.

Edward Balfour, The Cyclopedia of India And of Eastern And Southern Asia, Morrison And Gibb, Edinburgh, Printers to Her Majesty's Stationery Office, Third Edition, Vol. II, London, 1885, p. 3.

(٣٠) الخمسمات: من المنظومات المركبة، والتي يكون أساسها في الغالب غزلاً من الغزليات، يأخذ الشاعر فيضيف إلى كل بيت منه ثلاثة مصاريع (أشطار) ليصنع به مخمساً. عن: إدوارد براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي، ص ٥٩.

(٣١) انظر: محمد بن بهاء الدين محمد (حافظ الشيرازي)، ديوان حافظ الشيرازي (١٩٩٩ م)، ص ٩: ٣١، وانظر:

Hafiz (Shirazi), Persian Lyrics from The Diwan-i-Hafiz: With Paraphrase in Verse and Prose, A Catalogue of The Gazels, By William Ouseley, Esquire, Wilson & Co. Wild-Court, Manchester, 1800, pp. 6 : 25.

(32) Edward G. Browne, A literary History of Persia (1265- 1502), Cambridge University Press, vol. III, London, 1928, p. 286, 287.

(33) H. Kevorkian, Exhibition of The Kevorkian Collection (Including Objects Excavated Under His

ديورانت، قصة الحضارة، (ترجمة زكي نجيب محفوظ)، دار الجيل، ج ١٣، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٣٤

(١٥) مجموعة باحثين، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج ١٦، ص ١٣٧. عن: موقع الوراق (<http://www.alwarraq.com>).

إحسان عباس، ملامح يونانية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت ١٩٧٧، ص ٣٦.

(١٦) "متقارب": هو واحد من اثنين فقط من أوزان الشعر الفارسي الذي لم يستمد من النماذج العربية، وربما يكون مستمد من وزن الشعر الفارسي قبل الإسلام. عن:

Josef W. Meri, Medieval Islamic Civilization, Routledge, Taylor & Francis Group, vol. 1, New York, 2006, p. 253

(17) Josef W. Meri, Medieval Islamic Civilization (vol. 1, 2006), p. 253

(١٨) إدوارد براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي، ص ١٥

(١٩) عبد الوهاب عزام، الشاهنامه (في العيد الألفي لمولد الفردوسي)، مجلة الرسالة، العدد ٦٩، القاهرة ١٩٣٤، ص ٢٦٧.

(٢٠) عبد الوهاب عزام، الشاهنامه (مجلة الرسالة، عدد ٦٩)، ص ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩

(٢١) ول ديورانت، قصة الحضارة (ج١٣)، ص ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦
(22) P. M. Holt & Others, The Cambridge History of Islam (vol. 2B, 2008), p. 679

(٢٣) أبو الحمد فرغلي، صور مخطوطات الشاهنامه المحفوظة بدار الكتب المصرية (دراسة أثرية فنية)، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٨٦ م، ص (ز)

(٢٣) مجموعة باحثين، روائع المخطوطات الفارسية المصورة بدار الكتب المصرية، مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي، دار الكتب المصرية، القاهرة ٢٠٠٨ م، ص ١٨٧.

(25) Seyller Johon, The Adventures of Hamza, Painting and Storytelling in Mughal India, Smithsonian Institution, Washington DC, 2002, pp. 35, 42, Jorrit Britschgi and John Guy, Wonder of The Age, Master Painting of India, 1100- 1900, The Metropolitan Museum of Art, New York, 2011, p. 37, Losty, Jeremiah P., The Art of the Book in India (1982), p. 63, Beach, Milo Cleveland, Early Mughal Painting, Harvard University Press, Cambridge, Mass, 1987, p.15.

(26) Hanaway, William, Persian Popular Romances before the Safavid Era, Ph.D. Dissertation, Columbia University, 1970, p. 10, Galbi, Douglas A, Sense in Communication, Washington DC, 2003, pp.20, 27, 28.

(27) Josef W. Meri, Medieval Islamic Civilization (vol. 1, 2006), p. 629, Hanaway, William, Persian Popular Romances before the Safavid Era (Ph.D, 1970), p. 8, 9.

(28) Toby Falk & Mildred Archer, Indian Miniatures In The India Office Library, Sotheby Parke Bernet, London, 1981, p. 45, Beach, Milo Cleveland, Early Mughal Painting (1987), p. 15.

(٢٩) هو شمس الدين محمد بن بهاء الدين، المعروف بـ "خواجه حافظ الشيرازي"، الملقب بلسان الغيب وترجمان الأسرار، شاعر الشعراء في القرن الثامن الهجري، وشاعر إيران الأول حتى يومنا هذا، وهو الابن الأصغر لأبيه بهاء الدين الذي عاش في شيراز وكان يشتغل بالتجارة. وقد عاصر حافظ في شيراز عدد من الحكام والأسر الحاكمة، وكان ينظر إليهم جميعاً نظرة المتفرج الذي لا يهيمه من السياسة شيء، فقد كان عصره

(٣٨) إدوارد براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي، ص ٥٠٧، ٥١١.

Brend, Barbara, The Emperor Akbar's Khamsa of Nizami (1995), pp. 9, 10, Jean-Jacques Leveque & Nicol Menant, Islamic and Indian Painting, (Translated by Robert Brain), Heron Books, London, 1970, p. 185, 186.

(٣٩) إدوارد براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي، ص ٥٠٧، ٥١٣.

Brend, Barbara, The Emperor Akbar's Khamsa of Nizami (1995), pp. 12, 14, 16, Jean-Jacques Leveque & Nicol Menant, Islamic and Indian Painting (1970), p. 186.

(٤٠) إدوارد براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي، ص ٥٠٧، ٥١٦.

Brend, Barbara, The Emperor Akbar's Khamsa of Nizami (1995), pp. 26, 27, Jean-Jacques Leveque & Nicol Menant, Islamic and Indian Painting (1970), p. 186.

(٤١) إدوارد براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي، ص ٥٠٧، ٥٢١، ٥٢٠.

Brend, Barbara, The Emperor Akbar's Khamsa of Nizami (1995), pp. 32, 33, Jean-Jacques Leveque & Nicol Menant, Islamic and Indian Painting (1970), p. 186.

(٤٢) إدوارد براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي، ص ٥٠٧، ٥٢٤.

Brend, Barbara, The Emperor Akbar's Khamsa of Nizami (1995), pp. 39 : 55, Jean-Jacques Leveque & Nicol Menant, Islamic and Indian Painting (1970), p. 186.

(43) Brend, Barbara, The Emperor Akbar's Khamsa of Nizami (1995), p. 5.

(٤٤) هو الأديب والصوفي والشاعر الفارسي مولانا نور الدين عبد الرحمان بن أحمد المعروف باسم "جامي" (١٤١٤م/٨٩٨هـ- ١٤٩٢م)، ويعتبر آخر وأعظم شاعر صوفي عظيم في إيران. وقضى جامي معظم حياته في هراه باستثناء خجتين: إحداهما إلى مشهد - المدينة المقدسة للشيعة في شمال شرق إيران - والأخرى إلى الحجاز. وقد أسفرت شهرته كأديب عن الكثير من عروض الرعاية من قِبَل العديد من الحكام المسلمين المعاصرين له، ولكنه رفض معظم هذه العروض مفضلاً الحياة البسيطة للصوفي والأديب على أن يكون شاعر البلاط. وأعماله على نحو خاص تخلو من المدائح، وعروضه النثرية عبارة عن تشكيلة من موضوعات تتراوح بين التفاسير القرآنية إلى أطروحات (أبحاث) حول الصوفية (التصوف الإسلامي) والموسيقى، وكان يتبع الطريقة النقشبندية. ومن أهم أعماله النثرية هي "بهارستان" أي "بستان الربيع" وهو يحاكي الشاعر سعدي في عمله النثري المسى "جلستان"، وكتب جامي "بهارستان" على شكل نثر يتخلله أبيات شعرية. ولعل العمل النثري الأكثر شهرة لجامي هو أطروحته الصوفية المسماة "أشعة اللمعات"، وهي توضح التفسير الدقيق للمذاهب الصوفية عن موضوع وحدة الوجود، جنباً مع التعليق على تجارب وخبرات الآخرين من المتصوفة المشهورين. وقد جاءت الشهرة الكبيرة لجامي من خلال مجموعته الشعرية المسماة "العروض السبعة" وهي في خلاصة وافية وتتكون من سبعة روايات أو أجزاء. وبالإضافة إلى قصائده المتعددة قد ألف السيرة الذاتية الكبيرة للأولياء الصوفيين بعنوان "نفحات الأئس". وقد عاصر جامي آخر السلاطين التيموريين في هراه، وهو السلطان الأديب أبو غازي حسين ميرزا بايقرا، ووزيره الأديب والفنان مير علي شيرنواي.

عن:

Supervision), Columbia University Press, New York, 1941, pls. 285, 292, 302, 313, 328.

(34) Losty, Jeremiah P., The Art of the Book in India (1982), p. 94, 95, 96, Rukhsana Iftikhar, "Cultural Contribution of Mughal Ladies", A Research Journal of South Asian Studies, vol. 25, No. 2, July-December, 2010, pp. 324, 325.

(٣٥) نصر الله مبشر الطرازي، فهرس المخطوطات الفارسية التي تفتتها دار الكتب حتى عام ١٩٦٣م، دار الكتب المصرية، ج١، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٥٦ : ١٦٠. وهذه النسخة الهندية من ديوان حافظ مفقودة من دار الكتب المصرية منذ سنة ١٩٨٦م.

(٣٦) هو إلياس وكنيته "أبو محمد"، ولقبه "نظام الدين" ومن هذا اللقب استمد الشاعر تخلصه "نظامي" الذي عرف به في أشعاره. وهو ثالث الشعراء النابيين الذين عاشوا في القرن السادس الهجري، وهو أستاذ الشعر المثنوي الرومانتيكي، الذي برز على كل الشعراء في فنه فاكتسب به شهرة عريضة خلدت ذكره في إيران وفي تركيا أيضاً. وولد سنة (٥٣٥هـ - ١١٤٠م) في مدينة "كنجه" وتعرف الآن باسم إليزاقبول، ونجد أن كُتَّاب التراجم يختلفون في تأريخ وفاته فيجعله "دولت شاه" في سنة (٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ - ١١٨١ م)، ويجعله غيره مثل "حاجي خليفة" ما بين سنتي (٥٩٦ - ٥٩٩ هـ/ ١١٩٩ - ١٢٠٣ م)، ولكن المستشرق "ولهم باخر" استطاع أن يبرهن بالدليل الكافي على صحة التاريخ الأخير من هذه التواريخ، وأن يثبت أيضاً كثيراً من الأخبار التاريخية المتصلة بحياة هذا الشاعر. وعُرف أبوه باسم "يوسف بن زكي مؤيد" وتوفي عنه وهو صغير، ثم لم تلبث أمه أيضاً أن ماتت بعده بقليل، وكانت من أسرة كردية كريمة. والشاعر يشير في بعض أشعاره إلى وفاة واحد من أخواله، ويرى "باخر" أن هذا الخال قام بتربيته بعد وفاة أبيه. وللشاعر أخ اسمه "قوامي المطرزي" نال مكانة لا بأس بها في قول الشعر، واشتهر على أنه مؤلف قصيدة من مائة بيت عن البديع الفارسي. ويؤخذ من مواضع = مختلفة من أشعار نظامي أنه تزوج ثلاث مرات، وأنه أعقب ولداً واحداً على الأقل اسمه محمد، وكانت ولادته في سنة (٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ - ١١٧٥ م) لأنه كان في الرابعة عشرة من عمره حين أتم والده كتابة مثنويته الثالثة "ليلي والمجنون". ويقول "دولت شاه" أن نظامي كان مريداً للشيخ "أخي فرخ الزنجاني" ولكن "باخر" يسمي هذا الشيخ باسم "أخي فرخ الريحاني". وعرف نظامي أغراض الشعر الحقيقية وواجبات الشاعر أكثر مما عرفها غيره من شعراء القصور الذين يمثلهم "الأثوري" فأعرض عن المدائح وتجنب ارتياد القصور، وإن كان قد تابع أهل عصره في إهداء مثنوياته إلى حكام زمانه؛ فأهدى "مخزن الأسرار" إلى "إيلدگز" حاكم أذربيجان؛ وأهدى "خسرو وشيرين" إلى ولديه اللذين أعقباه في الحكم "محمد" و "قزل أرسلان" وكذلك أهداها لآخر ملك سلجوقي في إيران وهو "طغرل بن أرسلان"، وأهدى "ليلي والمجنون" إلى "اختسان بن منوچهر" حاكم شروان الذي كان يرعى بحمايته الشاعر "خاقاني"، وأهدى "كتاب الاسكندر" أو "سكندرنامه" إلى "عز الدين مسعود" حاكم الموصل ثم إلى "نصرة الدين أبي بكر بيشكين" الذي تولى حكم أذربيجان بعد وفاة عمه "قزل أرسلان" في سنة (٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م)، كما أهدى إليه أيضاً كتاب "هفت بيكر". ويقول "دولت شاه" في كتابه "تذكرة الشعراء" أنه بالإضافة إلى هذه المثنويات التي سبق ذكرها والتي تعرف باسم "خمسة" فإن لنظامي ديوان من الغزليات والموشحات والقصائد يبلغ العشرين ألف بيت. ويذكر "باخر" بيتاً من "ليلي و مجنون" يستشهد به على أن نظامي رتب ديوانه هذا في نفس الوقت الذي كتب فيه هذه القصيدة أي في سنة (٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ - ١١٨٩ م).

عن: إدوارد براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى سعدي، ص ٥٠٦ : ٥٠٩.

(37) Brend, Barbara, The Emperor Akbar's Khamsa of Nizami, British Library, London, 1995, p. 6

- (53) Sunil Sharma, "Amir Khusraw and the Genre of Historical Narratives in Verse" (vol. XXII, Nos. 182, 2003), p. 112, 113.
- (54) Marie G. Lukens, "The Fifteenth- Century Miniatures", The Metropolitan of Art Bulletin, vol. 25, No. 9, May 1967, p. 323, pl. 7.
- (٥٥) ج. س غوش، "الأدب الشعبي الهندي"، مجلة ثقافة الهند (المجلد ٥٨، العدد ٣-٢، ٢٠٠٧م)، ص ١٠٩
- (٥٦) وأول من كتب باللغة الأردية (ما قبل الأردية) قبل تسميتها بهذا الاسم _ حيث كانت تسمى "هندية" _ الشاعر مسعود سعد سلمان (٤٣٧- ٥١٤هـ/ ١٠٤٦- ١١٢١م) في لاهور، فله ديوان بهذه اللغة لم يعد موجود الآن. عن: Group of Researchers, The New Cambridge History of Islam, Cambridge University Press, vol. 4, London, 2011, p. 435 ,
- وأيضاً استخدم الشاعر أمير خسرو الدهلوي هذه اللغة في بعض أعماله، ويُعد من أوائل الأدباء الذين استخدموا اللغة ما قبل الأردية. عن: P. M. Holt and Others, The Cambridge History of Islam, Cambridge University Press, vol. 2B, New York, 2008, p. 695.
- (57) P. M. Holt and Others, The Cambridge History of Islam (vol. 2B, 2008), p. 694, 695.
- (58) P. M. Holt and Others, The Cambridge History of Islam (vol. 2B, 2008), p. 695, 696,
- David Matthews, The Development of The Urdu Ghazal, "Paper Presented at the 59th Conference of Salg", the School of Oriental and African Studies, London, 26 June 1998, p. 11.
- (59) P. M. Holt and Others, The Cambridge History of Islam (vol. 2B, 2008), p. 696, 697.
- (60) Mikko Viitamaki, Text and Intensification of Its Impact in Chishti Sama, Master's Thesis, University of Helsinki, 2008, p. 24, 25.
- (61) P. M. Holt and Others, The Cambridge History of Islam (vol. 2B, 2008), p. 697, 698,
- David Matthews, The Development of The Urdu Ghazal (the School of Oriental and African Studies, 26 June 1998), p. 14.
- (٦٢) "المراثيات" أو "الثناء": وهي عبارة عن رثاء مكتوب لإحياء ذكرى وفاة شخص ما. وتُخصص العديد من المراثيات الأردية لثناء وفاة الحسين بن علي. عن: Frances W. Pritchett, Nets of Awareness: Urdu Poetry and Its Critics, University of California press, Ltd., London, 1994, p. 197.
- (63) Narang, G. C. "The Princeton Manuscript of Kulliyāt-e Saudā". Journal of the American Oriental Society, Vol. 93, No. 4. (Oct.-Dec., 1973), p. 539-542.

Edward G. Browne, A literary History of Persia (1265-1502), Cambridge University Press, vol. III, London, 1928, p. 435, 436, Kathleen Kuiper, The Islamic World (2010), p. 87, 88.

(45) Edward G. Browne A literary History of Persia (1265- 1502) (vol. III, 1928), p. 516: 540.

(46) Kathleen Kuiper, The Islamic World (2010), p. 88.

(47) Mohammad Abdul Ghani, A History of Persian Language and Literature At The Mughal Court (vol. 1, 1929), p. 142.

(٤٨) (أمير خسرو الدهلوي): كلمة "خسرو" فارسية مقلوبة ومركبة من كلمتين:

"خور" بمعنى "الشمس"، و"سو" بمعنى "مثل"، وهكذا فمعنى "خسرو" أي

"مثل الشمس". وفي الواقع كان أمير خسرو في كافة شئون حياته مثل

الشمس، فكان أديباً كبيراً وسياسياً محنكاً وشاعراً بارعاً وصوفياً صافياً.

وكان يقرض الشعر باللغتين الفارسية والهندية، وكان له علاقة خاصة

بالموسيقى والتصوف وفنون الحرب، فكان مغرمًا بالموسيقى وكان صوته

عذباً، وكان يغني بالأبيات الهندية والفارسية، وأضاف إلى الألحان الهندية

لحنًا اخترعه بنفسه وسماه "خيال" وأوجد آله موسيقية يعرفها

الموسيقيون باسم "ستار". وذاع صيته في الشعر والتصوف أكثر من غيرهما

من العلوم والفنون. ولقد كان خسرو من كبار الشعراء يباري الفردوسي

ونظامي، يعبر شعره عن فلسفة التصوف وتوحيد الله وجمال الفطرة

ومحبة الإنسان والأمن والسلام، ويبلغ عدد أبياته زهاء خمس مائة ألف

بيت معظمها في الهندية، فرغم أنه قضى معظم أوقات حياته في الألبطة

الملوكية، إلا أنه كان متصلاً ومرتبلاً بالفقراء والعلماء وأهل العبادة ويشعر

معهم بالسعادة، فهو كان يخالط العامة مع أنه ينتهي إلى أسرة تركية ذات

منصب وجاه، وكانت أسرته تتكلم الفارسية والتركية، فكان أبوه تركي

الأصل وأمه هندية. وقد ولد خسرو في قرية بطيالي وهو قرية صغيرة على

ضفاف نهر الكنج، ولأن بمدينة إيطلة بولاية أوترا براديش في عام ١٢٥٣م،

وسماه أهل أسرته "أبا الحسن يمين الدولة"، وذهب مع والده الذي كان

محارباً في جيش سلاطين دلي- إلى دلي وهو في الرابعة من عمره، ومضي

أكثر أوقات حياته البالغة أحد وسبعين سنة في دلي، وفقد والده وهو في

التاسعة من عمره، وأصبح صديقاً ومريداً للخواجة نظام الدين أولياء (ت

١٣٢٥)، وعاصر ثلاثة أسر (دول) ملوكية من سلاطين دلي وهم: الممالك

(٦٠٢- ٦٨٦هـ/ ١٢٠٦- ١٢٨٧م) والخلجيين (٦٨٩- ٧٢٠هـ/ ١٢٩٠- ١٣٢٠م)

والتغلقيين (٧٢٠- ٨١٥هـ/ ١٣٢٠- ١٤١٢م)، ورأى ازدهارهم وانحطاطهم

وحصل على مناصب عليا خلال هذه العهود المختلفة. وبعد موت حبيبه

ومرشدته خواجه نظام الدين أولياء بخمسة شهور توفي أمير خسرو وذلك

في عام ١٣٢٥م، وذُفن بجانبه. عن: بدر جمال الإصلاحي، "أمير خسرو"،

مجلة ثقافة الهند، المجلد ٥٨، العدد ٣-٢، المجلس الهندي للعلاقات

الثقافية، نيودلهي ٢٠٠٧م، ص ١٦٩: ١٧٦

(49) Beach, Milo Cleveland, **The imperial image: paintings for the Mughal court**, Freer Gallery of Art, Smithsonian Institution, Washington DC, 1981, p. 42, 43.

(50) Sunil Sharma, "Amir Khusraw and the Genre of Historical Narratives in Verse", Comparative Studies of South Asia, Africa and Middle East, Center for African Studies at The University of Florida, vol. XXII, Nos. 182, 2003, p. 112.

(٥١) انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق

محمد شرف الدين ياتقيا ورفعة بيلكه الكليسي، ج١، القاهرة، ١٩٤١م،

ص ٧٢٤.

(52) Sunil Sharma, "Amir Khusraw and the Genre of Historical Narratives in Verse" (vol. XXII, Nos. 182, 2003), p. 113.

Individualism and Cultural Identity In The Ancient Egyptian Literature*



Abdelbaset Riad Mohamed Riad

PhD. Student at Dept. of history
Faculty of philosophy and Letters
Oviedo University, Spain

ABSTRACT

The ancient Egyptians accustomed to use the travel and individualism as a metaphor for the journey of one's life, as an expression of his individual aspirations to his pursuit of goal, whether was this representation on land or sea. And the person, who exhibits unusual ways and deviates from the cultural path of Egyptian society, would face obstacles and serious difficulties; drowning, drifting, and fiasco, at the same time he will be tested by the gods, which unify and integrate him within the society and the Egyptian culture again, or leave him in the depths of darkness. Therefore, this paper aims to shed light the importance of individualism and how it used as an expression for the deviation. It also examines the relationship of the individualism with the culture, social identity, and the Egyptian self-representation. This paper also deals with the individualism which used as term for human ambitions, and its implications. Additionally, it sheds light on the issue of determinism, divine fates and impacts on the human orientations by one's traveling during his life, as opposed to the human will.

Keywords:

Individualism, travel, deviation, identity, culture, ancient Egypt, Egyptian literature

Article info:

Received: 13 January 2015
Accepted: 02 May 2015

Citation:

Abdelbaset Riad Mohamed Riad, "Individualism And Cultural Identity In The Ancient Egyptian Literature".- Historical kan Periodical.- Vol. (8) Issue (30); December 2015. Pp. 182 – 189.

(*) I am greatly indebted to Prof. Ahmed Amin Selim, Alexandria University, Egypt. And Prof. Dr. Narciso Santos Yanguas, Oviedo University, Spain for precious suggestions to aspects discussed in the present paper, I could not have been written this work without their advices.

Introduction

The ancient Egyptian considered his land and its environment is unique from other environment, and he considered it also as an effective factor in his daily life. The ancient Egyptian was well aware of the characteristics of nature, and also was aware of the uniqueness of each element such as seas, rivers, trees, fruits, and flowers. On the banks of the eternal river, surrounded by deserts, this rich-charming nature, where the ancient Egyptian lived, has increased and deep-rooted the idea that the individual is a part of the universe. The nature and the animals formed an independent entity hugged by vast deserts in a long strip included in these natural boundaries. So, this world was effective and has a role in the lives of the Egyptian author, or any other Egyptian, whether worldly or religiously.

Although some religious anthems in the New Kingdom period, e.g. Aton's Anthem, and Amon's Anthems, have acknowledged its universality, and that it is who gifted life to foreigners and their lands, the ancient Egyptian has considered also the foreign environments outside this exquisite and independent world. Apart from this, the Ancient Egyptian has considered these environments fearful, strange, life looting and a source of continuous worry on his boundaries and on his personal world. On mentioning it in literature, the feeling of risk adventure was aroused.

Moving from his world to external ones was governed by limitations and great cultural obstacles. For some, moving to an external world was considered risky and moving to the unknown. So, his ideas and perceptions about these worlds depended greatly on fiction. Because of this, the travelogues were a mean to get into other world-external adventures and an imaginary world that allows this, where the excitement, pleasure and being under the effect of mixed feelings, loving the idea of adventuring, fear, worry, bewilderment and the ardor to get back. At these moments, his feelings mingle generally with piety, devoutness, and resorting to gods with supplications to rescue him from his misstep, hence helping him to be back to his socio-cultural environment, (Egypt). As a result of this thought, that rely on the privacy of the world and the environment, and what surrounds the person in his daily life, unlike the perception of the external world as the land of

adventures, excitement and suspense, the Ancient Egyptian has mingled his private world and environment in a wonderful and imaginary environment in which the elements interact and melt in one entity, each has a role to play. To facilitate this mix and this interaction all were communicating through the word.

2. Determinism and Human will.

The man is always driven by his ambitions to pursuit knowledge and to discover the unknown the matter which always made the individual trying to get released from the cultural and social restrictions that urge him to abide by the plans of his ancestors. Thus, the individuality deviates person from the natural path which was set before by the god according to the concept of Maat in ancient Egypt accordingly, he becomes susceptible to horrors, and he lives the experiment of adventures and tests which the supreme god subjects him to them until he becomes on the verge of death^[1] ^[2]. Finally, he either coalesces again in his world and in the culture of his society, or thrown away in the depths of darkness or otherwise in a mighty sea the end of which is annihilation. In the story of the Shipwrecked Sailor for example, we find the sailor talks about his experiment beyond the limits of the human experiments and experiences and outside the known, remote and the unsafe areas over which the man has no control^[3]. The protagonist gets out in an individual experiment to meet the god, where the person becomes directly communicated with him^[4]. So, the snake god has appeared as a mediator between the supreme god and the man (the sailor), who searches for the mystery of his existence; the Sailor says:

[5]

$$iw=i \quad m-bAH =k \quad xm.n (=i) \quad wi$$

"I am before you without knowing myself"[6].

The snake here represents the mirror which reflects the mystery of the human existence on earth and shows the nature of his end and his destiny. This meaning lies behind the hero's non acknowledgment of the basic reason of his existence on the island ascribing this to pure human reasons^{[7] [8]}. However, in the end the snake has shown to him that the reason behind his existence and survival is the supreme god^[9] and it is who has brought him to this delusional island^{[10][11]} which basically represents a middle stage between the existence and the

nothingness^[12], or the limit between life and death^[13], thus the snake says:

 ^[14] mk

nTr rdi.n=f anx=k ini=ftw riw pn n kA

"It is god who has let you live and brought you to this island of the ka"^[15].

The story as whole and the journey of the hero reflects the questions around the beginning of the person's life, and the objective of his existence on earth^[16], or it describes a case of an individual who lived a life of hardships and obstacles, followed by success in the tests then finally, his life ended up normally the matter which allows him to get a place in his new world, or to be born again in the underworld ^[17]. The same matter which appeared clearly in the story of Sinuhe; it is one of the important fanciful texts which express the individualism and the man's continuous seeking of knowledge. His name means "son of Sycamore" and although the name they may be expressed an implicit about the close relationship which linked Sinuhe with Queen ^[18], or refers implicit to the region which the hero came from, where there is the existence of the goddess called The Lady of Sycamore in South Memphis ^[19], However, the reference name to the goddess Hathor, in fact, does not only mean the son of knowledge ^[20], And all this emotional attitudes of human directly linked to public knowledge of the hero, where the hero across the country's borders with this knowledge and thereby created a penetrate for another, where Egyptian culture penetrate the walls of foreigners cultures ^[21].

Due to unclear reason, the protagonist suffers from the feeling of guilt then, he travels voluntarily to the exile in the south west of Asia for several years. These years were as a reading to his self and they reflect the how the foreigners view the Egyptian identity^[22]. At the end, he returns back to Egypt, after being exposed to many international experiences which enable him competently to get back to his homeland. In order to reach this conclusion, he has to get rid of the restrictions of the Egyptian culture and cross to the other side, of the foreign countries, which means the deviation from the culture of his society therefore, the exposure to the horrors as he was considered a character which refused to follow the ideal form of the Egyptian individual, and the specific typical rules of the concept of Maat which were previously set. So, he has to

take an individual road to escape which is considered the first error of individuality.

Actually, Sinuhe should not have to escape or to make this journey, as his escaping was a kind of the author's self-sufficiency in order to spin his yarn ^[23]. Because the end of the story shows that the hero's escapism was unnecessary; Not only that, but his feeling of guilt because of the killing of the king the matter which makes him a sinner.

The crossing of Sinuhe to the Nile River was considered as a crossing to the opposite field, or to the negative field if compared to the positive one inside the Egyptian identity ^[24]. Sinuhe describes this crossing saying

 ^[25]

xpr.n tr n msy.t sAH.n=i r dmi ngAw
DA.n=i m wsxt nn Hmw=s [m s]wt n imnty
"At dinner time I reached "Cattle-Quay." I crossed over in a boat without a rudder, by the force of the westwind"^[26].

The reference to the dinner time and the time of sunset enhance the feeling of loneliness and isolation, besides escaping in a rudderless boat is a metaphor of drifting away aimlessly in the wrong direction ^[27]. On entering the negative field, Sinuhe starts describing the whole journey as if it was a dream^[28]. But it was, completely, unrealistic matter because he has already been plunged into the Asian society and has become an Asian man in his habits and conducts, as he has surrendered his life to another new tribal one^[29], in addition to that the queen and the royal family did not recognize him on his return^{[30][31]}. However, and during his existence in the negative field (being abroad), and after being like an Asian and was about to lose the Egyptian identity, he was always connected to Egypt^{[32][33]}. He was dominated by a state of division either loving the experience or willing to return, but the whole matter has shifted dramatically towards an overwhelming desire of getting back after his duel with the Retenu man^{[34][35]}. Sinuhe's return to the positive field was like the rebirth and the coalescence again in the Egyptian community ^{[36][37]}.

3. Individualism and Identity

The individuality and searching for knowledge and integration in a foreign society were the goals of Sinuhe and they stand behind his quest to travel abroad. So, there is no doubt that Sinuhe is still Egyptian, [38][39] but this new nature was of a completely different quality from what it was on before. The ideal Egyptian personality has been offered on him but Sinuhe refused it, as he wanted to know what can be got. It was that new individual experience which made him finally decide to return again after realizing the real value of his identity.

Considering the motive behind Sinuhe's attempt to travel abroad it was individualism besides, that the form of the text as it took the shape of the circle ABA. In addition to the hero's seceding and his re-coalescence again inside the Egyptian cultural model shows that the Egyptian model was against the penetration of the foreign culture; it was the reality of life that based on the concept of Maat which protects that the person from the troubles of life that face him^[40].

the individuality was not only refers to drift and move away from the Egyptian homeland and its culture or accession to another exotic foreign culture, but it also addresses the behaviors and ways in which the individual has followed it contravenes for his culture and Egyptian identity that have been developed according to the concept of Maat, therefore the individualism was the problem from which the elders of the first intermediate and the subsequent periods had suffered in their attempt to keep the person away from these paths as he might be faced by harm and damage either in his worldly life or his afterlife; accordingly, in case of committing any deviation from the specified path by the concept of Maat and Egyptian identity, the person would face horrors consequently, he will face the animal (the crocodile) which was always the end of these deviations and these moral crimes in the worlds of literary fiction. It was the matter which the Eloquent Peasant has clarified about the nature of the person's journey, in case of being moderate, and it implicitly shows its expression of the opposite side in case of deviating from the his path, thus the Peasant says:



ir hA=k r S n mAat sqd=k im =f m
mAaw nn kf ndbyt HtA=k m dpwt=k nn iwt
iyt m xt =k nn swA srgw=k nn sxm=k
HAaa=k hr tA nn iT tw nwt nn sp=k Dwt nt
itrw nn mA=k Hr snD

"If you descend to the Lake of Maat, you will sail thereon in the breeze. The fabric of your sail will not be torn, nor will your boat be driven ashore. There will be no damage to your mast, nor will your yards be broken. You will not founder when you come to land, nor will the waves bear you away. You will not taste the perils of the river, Nor will you gaze upon the face of fear (the crocodile)" ^[42].

4. The relationship between individualism and deviation.

The consequences of the individualism and the deviation are disastrous, as they endanger the person to severe horrors inside the fanciful world; the crocodile for example, was playing an integral role as a punisher, the matter which Khety has referred to in his teachings for his son Merikare as he says:



aAmw pw [msH] Hr mryt =f xnp=f Dt wat
n iT .n =f r dmit aSAw mH

"For the Asiatic is only a crocodile on its riverbank Which attacks who on a lonely road But does not invade[who] in the area of a crowded town" ^[44].

The crocodiles lurk in secluded paths on the river banks in narrow areas which were considered areas from which the water turns. The crocodiles represented strong actual threat for whom deciding to move lonely and deviate from the ordinary roads beaten by the group as a figurative expression of deviation from the culture. The Asiatic enemy has been metaphorically described as a crocodile because he often represented the danger or the

stereotypical enemy in the Egyptian culture [45]. Therefore, the text refers to the individualism, the deviation and the preference of walking on the beaten tracks or dying between the jaws of the crocodile the matter which Ipuwer has clarified when the disaster struck the country and when the split in the structure of the Egyptian state occurred and finally the ship drifted away from its path to be errant in the open water, Ipuwer says:



iw ms swHw(.w) dpt rsyw xbA(.w) niwwt Smaw xpr(.w) [m qA]yt Swy

"Verily, the ship of the Southerners is shattered, The cities are ravaged, and Upper Egypt has become wasteland" [47].

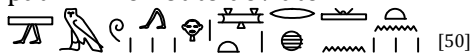
The deviation of the ship was due to the absence of the guide and the ship master:



n(n) iaS n Hat m wnwT =sn

"There is no pilot in their hour. Where is he today" [49].

Also it was the situation which led the elders to advise the people attempting to find their path in life not to deviate:



Smw Hr wAt rx.n =tn

"Go on the road you know" [51].

In another situation, he also warns from individuality and deviation, he says:

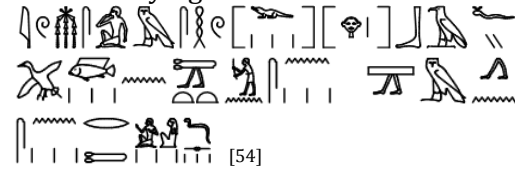


iw ms tw Dd =tw m dgs(w) aA mk <m> Snw mk xnd =tw sxt mi rmw n tnw sw snDw m-a Hrjtt jb

"One says, "Don't walk here, Look it's a net, But behold, men fall into the trap like fish, the fearful man could not distinguish it because of heart's terror" [53].

Despite these many advices, they walk aimlessly due to the severity of fear, deviating away from the right path to abyss and the destruction, as a result they became a prey for

the crocodile, the matter which Ipuwer has clarified saying:



iw ms msHw Hr bfA n iTt.n =sn Sm.n =sn rmT Ds

"O, yet the crocodiles gorge, but do not seize, people go to them of their own will" [55].

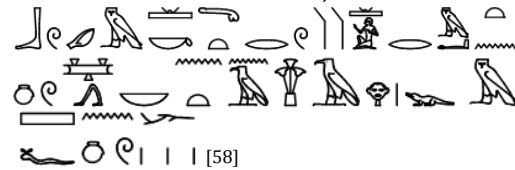
One of the texts which express the ambition and the deviation due to the human will is the advices directed to the prodigal son, as his deviation from the right path was not because of laziness, misunderstanding or other things with which his peers have gained but it was shedding light on more forms of the misconduct which the prodigal son has pursued and it has deviated by him away from his cultural environment. It was the same matter which the wise man pA iri persisted on describing it. So he says about the prodigal son's condition:



Sm =k iw nn n=k tiwt Tbw tm syrt nbt in .tw=k

"You went barefooted in another direction, but no spindle could get you back" [57].

He warns him from the crocodile, the moral penalty executor and the punisher for the individual deviations, to be cautious saying:



bw sDm =k mtrw r mTn nb nt nHA -Hr [59] m Sfnw

"You did not listen and you did not know exactly in which path the crocodiles lurk amidst the bushes" [60].

He says in a different paragraph:



wHm =i Dd n=k an i rwi=k inbt nHA-Hr.. mi nA m Tsymdwt m rA

"Stay away from the crocodile's ambush (Inbt nHA - Hr) as it has been said (literally): that in the mouth" [62].

5. Conclusions.

Individualism was one of the unpleasant and the undesirable things to the ancient Egyptian, as the individual's deviation from his socio-cultural environment voluntarily and due to an obvious reason was socially unaccepted. The texts of wisdom have viewed this matter, because they considered the individual's deviation as a deviation from the hub of his culture, and from the culture of his society which was seen as a type of ethical misconduct^[63].



The nature of the man's life has two facets during his pursuit of his goal; who lives alone, secluded, and travels along unbeaten tracks by deviating from the cultural path of the Egyptian community is destined to be drifting away in his boat, fail and never achieve his goals. Besides, being punished by disastrous negative consequences, which include a various group of consequences such as sinking, drifting away, not achieving the goals and being a prey of the crocodile. The crocodile, in the first place, was considered one of the complete destruction tools or the second death ^[64], so it was the creature which lurks at the edges of secluded roads among the jungle trees, and figuratively it represents one of the boundaries of morals, it also appeared in the story of the two brothers as a penalty for the fratricide crime^[65].

Falling in the traps of the crocodiles and the second death have been used as figurative metaphor to indicate the failure and the misconduct which resulted in sailing freely and clinging to the pleasures of worldly life and the individualism. The pleasures which penetrate the limits of morals and lead in the end to drifting to the hell, thus the person becomes not only missing, but also living alone as "the living dead" ^[66].

NOTES

- [1] Pap.Leningrad 1115, 73-76; Blackman, A. M., (1972), *Middle-Egyptian Stories*, in: Bibliotheca Aegyptiaca, Vol. 2, La Fondation Egyptologique Reine Elisabeth, Brussels, p:43 (13-14).
- [2] Pap.Berlin 3022, (225-226); Koch, R., (1990), *Die Erzählung des Sinuhe*, in:BAe. Vol. 17, Bruxelles,,p. 29 (12).
- [3] Moers, G., (2001), *Fingierte Welten in der Ägyptischen Literatur Des 2. Jahrtausends V CHR. Grenzüberschreitung, Reisemotiv und Fiktionalität*, in: PdÄ. Vol.19, Leiden; New York; Köln, p.248.
- [4] Luiselli, M.M.,(2007), "Religion und Literatur Überlegungen zur Funktion der"persönlichen Frömmigkeit" in der Literatur des Mittleren und Neuen Reiches," in: SAK. 36, p: 172.
- [5] Pap.Leningrad 1115 , 73-76; Blackman, A. M.,(1972), *Middle-Egyptian Stories*, p. 43 (13-14).
- [6] Lichtheim ,M .,(1973), *Ancient Egyptian Literature A Book of Readings*, Vol. 1, London, Berkeley: University of California Press, p: 213; Simpson, W.K.,(2003)" *the Shipwrecked Sailor*," in: Simpson, W. K.(ed), *The Literature of Ancient Egypt*, p:49.
- [7] Pap.Leningrad 1115, 101-108; Blackman, A. M., (1972), *Middle-Egyptian Stories*, p: 44 (8-11); Simpson, W.K.,(2003), "the Shipwrecked Sailor ." in:Simpson, W. K., (ed), *The Literature of Ancient Egypt*, p: 50.
- [8] Ignatov, S.,(1994), "Some Notes on the Story of the Shipwrecked Sailor," in: JEA. Vol. 80 , p: 195.
- [9] Luiselli, M.M., (2007) "persönlichen Frömmigkeit," p:170.
- [10] Loprieno, A., (1991),"The Sign of Literature in the Shipwrecked Sailor," in: U. Verhoeven - E. Graefe (eds.), *Religion und Philosophie im Alten Ägypten*, in: OLA. 39, Lovaina, pp. 29-46.
- [11] Galán, J. M.,(2000), *Cuatro Viajes en la Literatura del Antiguo Egipto*, Consejo superior de investigaciones científicas, , Madrid, pp: 42-43.
- [12] Moers,G.,(2001), *Fingierte Welten*, p.250.
- [13] Luiselli, M.M.,(2007) "persönlichen Frömmigkeit," p.170.
- [14] Pap.Leningrad 1115, 114-115; Blackman, A. M., (1972), *Middle-Egyptian Stories*, p. 44 (14-15).
- [15] Lichtheim ,M ., *Ancient Egyptian Literature*, Vol. 1, p: 213; Simpson, W.K., (2003), "the Shipwrecked Sailor," in: Simpson,W. K.,(ed.), *The Literature of Ancient Egypt*, p:50.
- [16] Moers, G., (2001), *Fingierte Welten*,pp: 247-251.
- [17] Galán, J. M.,(2000) , *Cuatro Viajes* , p: 46.
- [18] Loprieno,A.,(1969), "Defining Egyptian literature: Ancient texts and modern theories" in: Loprieno, A., (ed.); *Ancient Egyptian Literature. History and Forms*, in: PdÄ. 10, Leiden, New York and Cologne, p.44.
- [19] Galán, J. M.,(2000), *Cuatro Viajes*, p: 98.
- [20] Moers, G., (2001), *Fingierte Welten*,p.91.
- [21] Moers, G. (2001), *Fingierte Welten*,p.92.
- [22] About Egyptian Identity see: Mwanika, E.,N., (2004), *Ancient Egyptian Identity* , MA., Department of History Miami University Oxford,

- Ohio; Moers, G. , (2000), *Bei mir wird es Dir gut ergehen, denn Du wirst die Sprache Ägyptens hören! Verschieden und doch gleich: Sprache als identitätsrelevanter Faktor im pharaonischen Ägypten.* In: U-C. Sander and F. Paul(eds.) *Muster und Funktionen kultureller Selbst- und Fremdwahrnehmung: Beiträge zur internationalen Geschichte der sprachlichen und literarischen Emanzipation*, , Göttingen, pp: 45-99 .
- [23] Baines , J.,(1982) "Interpreting Sinuhe," in: JEA. Vol.68, pp: 39-42.
- [24] Moers, G.,(2001), *Fingierte Welten*, p:254.
- [25] Pap.Berlin 3022, 11-14; Gardiner, A.,(1909), *Die Geschichte des Sinuhe und die Hirtengeschichte*, (Erman.,A., *Literarische Texte des Mittleren Reiches* , II.,) Leipzig, 1909, PL.2a (36-39); Blackman, A. M.,(1972), *Middle-Egyptian Stories*, p. 10(5-9); Koch, R., (1990) *Die Erzählung des Sinuhe*, pp: 15(7)-16(8).
- [26] Lichtheim ,M ., (1973), *Ancient Egyptian Literature*, Vol.1, p: 224 ; Blumenthal, E.,(1990-1997), "Die Erzählung des Sinuhe," in: Kaiser (ed.) ; *Mythen und Epen*, in: TUAT. Vol.3., p:890 §5 -6.
- [27] Moers, G., (2001), *Fingierte Welten*, p:255.
- [28] Pap.Berlin 3022, 225-226; Blackman, A. M.,(1972), *Middle-Egyptian Stories*, p: 34(4-5) ;Koch, R.,(1990), *Die Erzählung des Sinuhe*, p. 29 (12).
- [29] Bolshakov, O. & Soushevski, G.,(1998), "Hero and Society in Ancient Egypt," in: GM. Vol. 163, p: 20.
- [30] Pap.Berlin 3022, 264-268; Blackman, A.M.,(1972), *Middle-Egyptian Stories*,p:37(15-16); Koch, R.,(1990), *Die Erzählung des Sinuhe*, p.76 (3-11).
- [31] Lichtheim ,M .,(1973), *Ancient Egyptian Literature*, Vol.1., p. 232 ; Simpson, W.K.,(2003), "the Story of Sinuhe," in:Simpson, W. K.,(ed.), *The Literature of Ancient Egypt*, p:65.
- [32] Pap.Berlin 3022, 92-97; Blackman, A. M., (1972), *Middle-Egyptian Stories*, p: 24(4-8).
- [33] Lichtheim,M.,(1973), *Ancient Egyptian Literature*, Vol. 1., p:227 ; Simpson, W.K.,(2003), *the Story of Sinuhe*, in: Simpson, W. K.,(ed.) *The Literature of Ancient Egypt*, p: 59.
- [34] Pap.Berlin 3022, 149-160; Blackman, A. M.,(1972), *Middle-Egyptian Stories*, pp: 29(8-16) – 30 (1); Koch, R.,(1990), *Die Erzählung des Sinuhe*, pp: 54(5)- 55(14).
- [35] Lichtheim ,M.,(1973), *Ancient Egyptian Literature*,Vol.1., p.228 ; Simpson, W.K.,(2003), "the Story of Sinuhe," in: Simpson, W. K.,(ed.), *The Literature of Ancient Egypt*, p:60.
- [36] Luiselli , M.M.,(2007), "persönlichen Frömmigkeit," p.169; Bolshakov, O. and Soushevski, G., *Hero and Society in Ancient Egypt*, p. 20.
- [37] Bolshakov, O., & Soushevski, G.,(1998), "Hero and Society in Ancient Egypt", p: 20.
- [38] Baines , J., (1982), "Interpreting Sinuhe," p: 43.
- [39] Luiselli , M.M.,(2007), "persönlichen Frömmigkeit," p:169.
- [40] Moers, G. ,(2001), *Fingierte Welten*,pp: 260-262.
- [41] *Die Klagen des Bauern B1* , 55-61; Sethe, K., (1928), *Ägyptische Lesestücke zum Gebrauch im akademischen Unterricht:Texte des Mittleren Reiches*,Leipzig, p:22 (5-6); deBuck, (1948), *Egyptian Reading book*, I., Leyden, p: 92 (15); Parkinson, R.B.(1991), *The tale of the Eloquent Peasant*, Oxford, pp: 17(12), 18(1).
- [42] Gardiner, A.,(1923), *The Eloquent Peasant*, JEA. Vol. 9, No. 1/2, p:9; Lichtheim, M.,(1973), *Ancient Egyptian Literature*, Vol.1., p: 172; Parkinson, R. B. ,(1991), *The tale of the Eloquent peasant*, p:17f ; Tobin, V.A.,(2003), "The tale of the Eloquent Peasant ," in: Simpson,W. K.,(ed.), *The Literature of Ancient Egypt* , p:29 ; O'Dell, E.J.,(2008), *Excavating The Emotion Landscape of Ancient Egyptian Literature*, PhD., Brown University , Rhode Island, p:114
- [43] Pap. Leningrad, 1116A, 97-98; Golénischeff,W.,(1913), *Les papyrus hiératiques 1115, 1116A et 1116B de l'Ermitage impérial à Saint Pétersbourg*: St.- Pétersbourg, Line.97-98.
- [44] Gardiner, A.,(1914), "New Literary Works from Ancient Egypt," in: JEA. Vol. 1., No.1, p. 31; Lichtheim ,M ., (1973), *Ancient Egyptian Literature*, Vol. 1., p.104; Faulkner, R. O., & Tobin, V.A., (2003), "The Teaching for King Merikare," in: Simpson,W. K.,(ed.), *The Literature of Ancient Egypt* , pp:161-162.
- [45] Moers, G. ,(2001), *Fingierte Welten*,p.210; see below: Janzen, M. D., (2013), *The iconography of humiliation the depiction and treatment of bound foreigners in new kingdom Egypt* , PhD., The University of Memphis, pp:446-199.
- [46] Pap.Leiden 344,rt.,2,10-2,11; Gardiner.,A., (1909), *The Admonitions of an Egyptian Sage , from a Hieratic Papyrus in Leiden* (Pap. Leiden 344 Recto), Leipzig p:28 (2,10-2,11).
- [47] Gardiner.,A.,(1909), *The Admonitions* , p: 28 2,10-2,11; Faulkner , R. O. , (1965), "The Admonitions of an Egyptian Sage," in: JEA. Vol. 51, p: 54; Lichtheim ,M .,(1973), *Ancient Egyptian Literature*, I., p. 151; Tobin, V.A.,(2003), "The Admonitions of an Egyptian sage," in: Simpson, W. K.,(ed.) *The Literature of Ancient Egypt*, p.192.
- [48] Pap. Leiden 344 , rt., 12,5; Gardiner.,A.,(1909), *The Admonitions* , p:78 (12,5).
- [49] Gardiner.,A.,(1909), *The Admonitions*, p. 78 (12,5); Faulkner , R. O. ,(1965), "The Admonitions of an Egyptian Sage," p: 60; Lichtheim ,M .,(1973), *Ancient Egyptian Literature*, Vol. 1., p: 160; Tobin, V.A.,(2003), "The Admonitions of an Egyptian sage," in: Simpson, W. K.,(ed.) *The Literature of Ancient Egypt*, p:205.
- [50] Pap.Leiden 344 , rt., 10,3; Gardiner,A.,(1909), *The Admonitions*, p.72 (10,3); Rasha, F.,(1999), *Dirāsah lughawyah taḥlīliah libardiat alḥaqim Ipu-wer, (A study for Ipu-wer's Papyrus)*, MA., Alexandria, p: 204.
- [51] Gardiner , *The Admonitions*,(1909), p:72 ; Faulkner , R. O.,(1965), "The Admonitions of an Egyptian Sage," p: 59; Lichtheim ,M ., *Ancient Egyptian Literature*,Vol. 1., p: 158; Tobin,

- V.A.,(2003), "The Admonitions of an Egyptian sage," in: Simpson, W. K.(ed.), *The Literature of Ancient Egypt*, p.202; Rasha, F.,(1999), *Dirāsah lughawyah tahliliyah libardiat alḥaqim Ipū-wer*, p. 204.
- [52] Pap.Leiden 344 , rt., 2,12- 2,13;Gardiner, A.,(1909), *The Admonitions*, pp: 29 – 30 (2,12-2,13).
- [53] Gardiner,A.,(1909), *The Admonitions*, pp.29-30 ; Faulkner , R. O., (1965), "The Admonitions of an Egyptian Sage," p. 54; Lichtheim ,M., (1973), *Ancient Egyptian Literature*,Vol. 1., p: 151; Tobin, V.A.,(2003), "The Admonitions of an Egyptian sage," in: Simpson, W. K.(ed.), *The Literature of Ancient Egypt*, p:192; Enmarch, R. ,(2008), "A World Upturned: Commentary on and Analysis of the Dialogue of Ipuwer and the Lord of All," British Academy, London, p:171.
- [54] Pap.Leiden 344 , rt., 2,12; Gardiner, A.,(1909), *The Admonitions*, p:29.
- [55] Gardiner, A., (1909), *The Admonitions*, pp:29-30 ; Faulkner , R. O.,(1965), "The Admonitions of an Egyptian Sage," p:54; Lichtheim, M.,(1973), *Ancient Egyptian Literature*, Vol.1., p:151; Tobin, V.A.,(2003), *The Admonitions of an Egyptian sage* , in: Simpson, W. K.(ed.), *The Literature of Ancient Egypt*, p:192; Rasha, F., (1999), *Dirāsah lughawyah tahliliyah libardiat alḥaqim Ipū-wer*, p: 81; Enmarch, R., *the Dialogue of Ipuwer and the Lord of All*, p.171.
- [56] O.Oriental Institute 12074, rt., 3; Guglielmi,W., (1983), *Eine Lehre für einen reiselustigen Sohn (Ostrakon Oriental Institute 12074)*, In: WeltOr. Vol.14, p: 148 (3).
- [57] Guglielmi,W., (1983), *Eine Lehre für einen reiselustigen Sohn*, p: 152 (II).
- [58] O.Oriental Institute 12074, rt., 2-3; Guglielmi,W.,(1983), *Eine Lehre für einen reiselustigen Sohn*, p: 148 (2-3).
- [59] The term  nHA-Hr is often used of Apopis and other evil spirits (Wb. II, 290, 15-18). The Typhonic nature of these beings in whom, suggests that the meaning of nHA here lies in the same area as that identified above and that we should render 'Wild' or 'Fierce of Face'. The name would then be conceptually similar to that of the demon *irty.fy-m-sDt* , "He whose Eyes are Flame", see below: Lloyd , A.B.,(1975), "Once More Hammamat Inscription 191," in: JEA. Vol.61, p: 64.
- [60] Guglielmi,W., (1983), "Eine Lehre für einen reiselustigen Sohn," p: 151(I).
- [61] O.Oriental Institute 12074, rt., 9-12; Guglielmi,W., (1983), "Eine Lehre für einen reiselustigen Sohn," p: 148 (9-12).
- [62]Guglielmi,W.,(1983), "Eine Lehre für einen reiselustigen Sohn," p: 152. (IV b).
- [63]Ibid.,p:221.
- [64] Zandee,Jan,(1960), *Death as an Enemy, According to Ancient Egyptian Conception*, in *Studies in History of Religions* (Supplements to Numen), Lieden, pp: 14-20 .
- [65] Pap.Orbiény, 6,5- 6,6; Gardiner,A., (1932), *Late Egyptian Stories*, (Bibliotheca Aegyptiaca I), Bruxelles, p: 15 (13-15).
- [66]  anx=f m mtt see: Pap. Prisse, 17,7; Žábá, Z.,(1956), *Les Maximes de Ptahhotep*, Prague, p.61 (581).

الفردية والهوية الثقافية في الأدب المصري القديم

عبدالباسط رياض محمد رياض

طالب دكتوراه، بقسم التاريخ، كلية الفلسفة والآداب

جامعة أوبيدو - أسبانيا، وجامعة الإسكندرية، مصر

مدرس الآثار المصرية المساعد

قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية

كلية الآداب جامعة دمنهور

ملخص

استخدم المصري القديم السفر كاستعارة للتعبير عن حياة المرء، وتطلعاته الفردية في سعيه نحو هدفه، حيث كانت قضية السفر من القضايا المهمة التي استخدمها المصري القديم للتعبير عن رحلة حياة المرء، سواء بتمثيل تلك الرحلة علي النمط البري أو البحري، فمن يسلك طرق غير معهودة وينحرف عن المسار الثقافي للمجتمع المصري، ويعيش منفردًا ومنعزلًا ، يواجه عراقيل وصعوبات جمة: كالغرق أو الانجراف أو عدم الوصول إلى الهدف، أو أن يقع تحت طائلة الاختبارات الإلهية التي قد تدمجه من جديد داخل مجتمعه وثقافته المصرية أو تلقي به في غياهب الظلمات. ويهدف هذه الدراسة إلى توضيح أهمية الفردية ومدى تعبيرها عن الانحراف، وعلاقتها بثقافة وهوية المجتمع، وكيف يُعتبر تمثيل هذه القضية عرضًا للذات المصرية، من خلال تناول قضية السفر وتعبيره عن طموحات البشر وتطلعاتهم سواء كان سفرًا في الاتجاه الإيجابي أو السلبي، والآثار المترتبة عليه. وتهدف الدراسة أيضًا إلى إلقاء الضوء على قضية الحتمية والأقدار الإلهية ومدى تأثيرها على توجهات المرء وسفره أثناء حياته، في مقابل الإرادة البشرية.

أسامة مدنان يحيى

بعبطيش عبد الحميد

بلقاسم مهاج

بوعزة بن مسعود بوعزة

بوعيرة نبيل

تامر يحيى الدين محمد هندور

تيفريين الهجيد

رضوى زكي

زياد عبد الله الملي طلائفة

زينب عبد التواب رياض

سهير أيت أوهار

الصالح بن سالم

عبد القادر محمود عبد القادر

القطان

عبد الكريم خيزاوي

مز الدين حضري

مهر بن مراح

مهر جسام المزاوي

محمود أحمد محمد حجر

محمود فارس عثمان الوردي

مشماس الغرباوي

كل التاريخ

Historical Kan Periodical

www.kanhistorique.org